الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز
سلسلة الجوائز ٦٣

رواية

ستيف بيني

رقة الذئاب

ترجمة: سها سامح

مراجعة وتقديم: د. ناجي رشوان

الكاتبة

ستيف بيني، كاتبة إسكتلندية.

- ولدت في أدنبرة عام ١٩٦٩
- حصلت على شهادة البكالريوس في الفلسفة واللاهوت من جامعة بريستول، ودرست صناعة الأفلام بكلية الفنون في بورنموث.
- تعمل كمخرجة سينمائية، وقامت بإخراج عدة أفلام قصيرة.
- "رقة الذئاب" روايتها الأولى التي استغرقت في كتابتها قرابة عامين ونصف، وحازت عنها جائزة كوستا للرواية عام ٢٠٠٦.

الجائزة

جائزة كوستا "للرواية الأولى"، "ويتبريد سابقًا".

إحدى الجوائز الأدبية الكبرى في بريطانيا وأيرلندا، وتعتبر التالية في الأهمية بعد جائزة المان بوكر من حيث التقدير والحفاوة بحائزيها، ولكنها أيضًا تتميز بأنها تُمنح للأدب الأكثر شعبية.

تأسست عام ١٩٧١ باسم ويتبريد وتغير اسمها في عام ٢٠٠٦ إلى "كوستا" تبعًا لراعيها الجديد. تُمنح سنويًا بانتظام لكُتاب يشترط أن يكونوا مقيمين في إنجلترا أو أيرلندا منذ فترة لا تقل عن ثلاث سنوات.

حققت طوال الوقت الذي تجاوز ربع القرن سمعة طيبة، وهي تُمنح في خمسة فروع... أفضل رواية، وأفضل رواية أولى، وأفضل سيرة ذاتية، وأفضل ديوان، وأفضل كتاب للأطفال.

وتعتبر جائزة كوستا أيضًا من أكبر الجوائز المالية التي تُمنح للكُتاب.

رِقَّةُ الذِّئَابِ

رئيس مجلس الإدارة	أ. د. محمد صابر عرب
رئيس التحرير	د. سهير المصادفة
مدير التحرير	السماح عبد الله
سكرتير التحرير	وردة عبد الحليم
التصميم الجرافيكي	د. مدحت متولي
الاخراج الفنى	صبرى عبد الواحد
	على أبو الخير

بينى، سيتنى.
رقة الذئاب/ تأليف: سيتنى بينى؛ ترجمة: سها سامح؛ مراجعة وتقديم: ناجى رشوان . ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.
٤٨٠ ص؛ ٢٤ سم. ـ (سلسلة جوائز)
تدمك ٣ ٥٩٠ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القصص الإنجليزية.
أ ـ سامح، سها (مترجم)
ب ـ رشوان، ناجى (مراجعة ومقدم)
د ـ العنوان .
رقم الإيداع بدار الكتب ١٥٨٩٠/ ٢٠١٠
I. S. B. N 978 - 977 - 421 - 590 - 3
ديوى ٨٢٣

رقة الذئاب

رواية

تأليف : ستيف بيني

ترجمة : سها سامح

مراجعة وتقديم : د. ناجي رشوان

الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٠

• الكتاب: رقة الذئاب
The Tenderness of Wolves

• تأليف: ستيف بينى
Stef Penney

• ترجمة: سها سامح.

• مراجعة وتقديم: د. ناجى رشوان.

• يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من المؤلفة للهيئة المصرية العامة للكتاب.

• جميع حقوق الإصدار باللغة العربية محفوظة للهيئة المصرية العامة للكتاب فى مصر والخارج.

• جميع الحقوق الأخرى محفوظة للمؤلفة.
Copyright© Stef Penney 2006

• الطبعة الأولى ٢٠١٠.

• طبع فى مطابع الهيئة المصرية للعامة للكتاب.

مقدمة

المسافة والفضاء الحكائى والخروج من الذات

ربما أول ما يلفت النظر فى هذا العمل أنه يقدم نوعًا خاصًا من الجمع بين صفات روائية عامة كثيرة يمكن لأى منها أن يقيم عملا جادًا بذاته، فهى ـ كما تقول الناقدة كات ساندرز ـ مزيج فريد سلس من البوليسية والتاريخ مشرب بكم غير قليل من المغامرة التقليدية المتماسكة(*). من جهة أولى، يقدم هذا العمل لغزًا بوليسيًا هادئًا ومتواترًا فى الوقت نفسه إلى جريمة قتل تحدث فى مجتمع يشغل فضاء جديدًا عليه (كندا) فى زمن ماض (أواخر القرن التاسع عشر) إبان النزوح الأوروبى إلى الأمريكتين هربًا من الحاجة والضيق المادى الذى كان يضرب أجزاء من أوروبا بخاصة أسكتلندا وأيرلندا فى فترة الكساد الاقتصادى العالمى الذى تلى الثورة الصناعية الأوروبية التى بدأت فى إنجلترا فى بدايات القرن الثامن عشر.

ومن جهة أخرى تقدم هذه الرواية رصدًا تحتيًا عامًا لسياسات الاحتكار الإمبريالية للشركات الإنجليزية والفرنسية (المشار إليها فى الرواية بـ «الشركة» كرمز عام) التى استغلت العمالة والمكان استغلالاً والمكان استغلال غير إنسانى لتحقيق أعلى هوامش الربح الممكنة، وعبر ذلك قدمت هذه الرواية مسحًا لطرائق التفكير الاقتصادى التى كانت ولا تزال قائمة فى الوعى الرأسمالى الغربى، والتى طرحها الشخوص

(*) Kate Saunders' Review of the Tenderness of Wolves The Times Online, February (8,2007)

المشاركون فى أحداث الرواية مترجمين على ألسنتهم الواقع الاقتصادى حينئذ بما فيه من مفردات طاحنة للفرد وطموحاته الإنسانية فى الوجود والاستمرار. شخصيتا «وايد» و «جاميه» نموذجان لهذا النوع من الانسحاق الإنسانى، فالأول: فقد سيطرته على مزرعته التى وضع فيها كل ما يملك بسبب قلة العائد الاقتصادى للزراعة بوصفها أقدم وأشرف حرف الإنسان وبسبب الوحدة الشديدة التى يعانيها فى غربة الطبيعة الشاسعة التى لا ترحم، والثانى: قُتل فى جريمة لم نعرف لها مستفيدًا سوى الشركة التى كان ينافسها ببيعه الفراء الذى كان يسلخه من جلد الذئاب، تمامًا كما كان يحدث فى الغرب الأمريكى من المهاجرين الجدد الذين لم يأبهوا بقتل الآلاف من الجاموس البرى رغبة فى سلخه وبيع جلده ـ والترميز هنا واضح، وهو شكل من أشكال اغتصاب الطبيعة بكسر حلقات التراتب الحياتى داخلها والتوازن البيئى فيها والاستخفاف بمعانى الحياة التى تمثلها وتطرحها رغبة فى الربح السريع.

عنوان الرواية نفسه يشير إلى هذا النوع من الترميز ، فـ «الرقة» أو «العطف» أو «الليونة» «Tenderness» هى فى الواقع رقة الحيوان الضحية ـ حتى ولو كان «ذئبًا» ـ إذ إنه بالمقارنة مع ما يفعله الإنسان به وبغيره من الكائنات الحية بما فيهم أخوه الإنسان يكون الذئب حنونًا وضعيفًا وهو بالفعل «ضحية» مباشرة لجشع الإنسان ورغبته فى السيطرة والتملك، وليس علينا إلا أن نقرأ المشاهد الأولى من هذه الرواية حتى نعى أهمية هذا البعد الفكرى داخلها؛ حيث نقرأ عددًا من المشاهد التى تصف جسد الذئب المصطاد على كتف مصطاديه أو فوق المحلات أو فى المعاملات التجارية بين البائع والمشترى، وهو ما يشى بمدى السخرية التحتية التى يطرحها السياق فى العلاقة بين الذئب ـ رمز الخداع (الضحية الحنونة هنا) ـ والإنسان الذى يقتل اختيارًا لا إجبارًا، ولا يرى فى ذلك غضاضة وهو ما ينسجه السياق الروائى فى عادية مُرة تشى ببعد ساخر مستتر آخر يشير إلى مدى ما وصل إليه قلب الإنسان من تحجر وغرور فى التعامل مع مفردات الحياة حيوانية كانت أو إنسانية!.

وهناك بعد ساخر آخر تطرحه الرواية فى هذا المضمار ما بين شخصية القتيل والشركة إذ إن كليهما يتنافسان على هذا العمل: الشركة بدافع الاحتكار الاقتصادى فى المنطقة و«جاميه» بدافع قلة فرص العمل. كلاهما يعانى اضطهادًا ما: القتيل فرنسى الأصل، ومعاق، وسط سكان من أصول أيرلندية وأسكتلندية، منطوٍ على ذاته ينظر إليه الجميع نظرات ريبة واستنكار، هو منافس الشركة صاحبة النفوذ والمال اللذين يرفضهما الجميع ويتشوقون لأجزاء منهما فى الوقت نفسه. فكلاهما ـ أى جاميه والشركة ـ إذا يقدمان عملا لا إنسانيًا يستبيحان فيه الواقع أو الطبيعة (الممثل فى الذئاب) بحثًا عن المال، وكلاهما يضطهد الآخر فى منافستهما غير الشريفة وراء الكسب، وكلاهما مضطهد فى حد ذاته ـ جاميه بوصفه فرنسيًا غريب الطباع والشركة بوصفها صاحبة رأس المال والنفوذ المرفوض، والنقطة هنا أن طبيعة الصراع التى يطرحها هذا النوع من الاضطهاد العنصرى المشوب بإحساس الغيرة أو الرغبة فى التماهى مع المرفوض، هو حلقة مفرغة من الصراع غير المنتهى بين أطراف كل منها مستنكر من الآخر لسبب أو لآخر ليس ضمنها اعتبارات عدالة إنسانية أو منطقية مما يشى بنوع عميق من السخرية التحتية ضد أبعاد الرأسمالية الاحتكارية الكامنة فى الوعى الغربى، التى أوجدت وغذت مثل هذه الأنواع من الصراعات ضد ما هو مستغرب أو ذو سلطة أو متوهم ضعفه.

ومن جهة ثالثة تقدم هذه الرواية أبعادًا تحتوى على قدر عالٍ جدًا من المغامرة وروح التشويق تشبه ـ إلى حد كبير قصص الغرب الأمريكى التقليدية التى تسافر فيها «الأبطال» بحثًا عن الثروة والمال أو بحثًا عن الانتقام والثأر أو جريًا وراء المحبوبة أو اقتفاء لأثر الأهل والسلالة من الأقرباء. وفى هذه الحالة تسافر أم المشتبه فيه السيدة «روز» بحثًا عن والدها المفقود، الذى تزامن غيابه مع مقتل «جاميه» الفرنسى سالخ الذئاب والمتاجر بالحياة الحيوانية منافس «الشركة» صاحب السلطة والنفوذ وذلك لإثبات براءته التى تراها غير قابلة للنقاش.

بيد أن الترحال والمغامرة اللذين تطرحهما الرواية كبعد أساسى من أبعادها الروائية لا يقتصر فقط على السفر إلى الخارج بل يتوازن ربما بشكل مستديم عبر العمل بأكمله مع الترحال إلى الداخل، إلى الذاكرة، حيث ماضى الشخوص والأحداث السابقة التى شكلت تكويناتهم التحتية. ربما أوضح الأمثلة على ذلك فى بدايات الجزء الثالث حيث تروى لنا الراوية قصة الطبيب والحالة الجنسية التى كانت بينه وبينها فى مستشفى الأمراض النفسية والتى كانت أحد نزلائه. وبغض النظر عن البعد السياسى الفلسفى الذى تطرحه الرواية عبر هذا التذكر من أفكار الاستغلال السيئ للمرأة وتشيئها وما فى ذلك من أبعاد تخص رؤية الوعى الغربى للمرأة قديمًا وحديثًا، يظهر مثل هذا الشكل من السفر عبر الزمن بوصفه إحدى المغامرات التى توازى مثيلاتها فى السفر الفعلى عبر المساحة فى حالة غاية من الرقة والروعة من التلاقى الزمنى/ المكانى بين الأحداث الداخلية عبر الزمن والخارجية عبر المسافة.

ومن جهة أخيرة تقدم هذه الرواية وصفًا رائعًا لمناخ متكامل من القوى الطبيعية والمناظر الجغرافية والخاصة بالثلوج والبرد القارس وأحوال المستوطنين الأوائل فى التعامل مع هذه البيئات القاسية المترامية الأطراف وهو الأمر الذى يجعل من هذه الرواية ـ وربما فى المقام الأول ـ رواية طقسية الطابع يقدم فيها الشخوص بوصفهم تمازجات مختلفة النسب مع الواقع المناخى المتاح بوصف المناخ نفسه أحد أهم عوامل توجيه الشخوص فى اختياراتهم النفسية والإنسانية، ربما كون المؤلفة من أسكتلندا جعل من هذا التلاحم الدقيق بين المناخ وأحواله من برد وصقيع وثلوج ومفرداته من نار وأغطية وملابس خاصة ومدفئات وغيرها أمرًا حتميًا رغم أن المؤلفة لم تسافر، ولم تر هذه الأماكن التى وصفتها بهذه الدقة، ذلك أنها تعانى من فوبيا الأماكن المفتوحة وفوبيا المواصلات العامة فهى لم تستقل فى حياتها طائرة أو حتى قطارًا تقول:

لم أذهب قط إلى كندا وحتى وقت قريب جدًا كنت أعانى من فوبيا الخلاء فلم أستطع السفر بالطائرة أو بالقطار لكنى أعيش قرب المكتبة البريطانية فى لندن فقرات كل ما أستطيع عن كندا فى هذه الفترة(*) .	I've never been to Canada! Until quite recenty i Was agoraphobic and couidn't fly (or even travel by trainn but live near the british library in London and si u read canada of the period

ذلك بالإضافة إلى ما تقدمه الرواية من مناقشات حادة وسخرية عميقة لأفكار التفرقة العنصرية والجنسية المطروحة داخل المجتمع الغربى قديمه وحديثه كما أسلفنا الذكر؛ حيث نرى كيف يعامل المواطنون الأصليون للبلاد (اليانكيون) وغيرهم ممن تراهم شخصيات الرواية بوصفهم غرباء (جاميه الفرنسى) أو ضعفاء (روز المريضة) وكيف يمارس المجتمع ضغوطًا خاصة على من يعتبرهم «غرباء» فلا يقبل منهم تعابير معينة أو إيماءات معينة أو حتى مواقف إنسانية أو شخصية معينة وذلك بالإضافة إلى التعامل المستخدم للمرأة، والذى ظهر فى شخصية الطبيب المعالج فى بداية الجزء الثانى من الرواية فى مقابل التعامل الناضج من المريضة محل العلاج.

إلا أن كل ذلك يمكن فهمه على مستوى واحد من مستويات الدلالة الروائية لهذا العمل الثرى ففى وجه واحد من أوجه التلقى يمكن أن تُرى هذه الرواية فى ضوء هذا المزيج المتزن من الأبعاد الجمالية والسردية ويمكن على مستوى أكثر عمقًا أن تُرى بوصفها تفاوضًا عميقًا فى الفضاء الحكائى (narrative space) فى تعريف المنظر والناقد الفرنسى جرارد

(*) Stef Penny interviewed by Kat tancock, Canadian Living, 2009, Net Article: http://www, canadianliving.com/lite/community/interview with author stef penney. php.

جينيت أى المساحات المكانية المتخيلة عبر النص فى مقابل للفضاء المنطقى(*) (discursive space) أى المساحات التى يحاول النص اللغوى نفسه طرحها بموضوعيته اللغوية داخل الوصف النصى.

ولنأخذ مثالا لما نعنيه بالفضاء الحكائى ومكانته فى هذه الرواية.

لم يتوقف الجليد.. ولا عويل الرياح، بإجماع الرأى غير المعلن.. لم يتم ترتيب قماش الخيمة ليمثل ستارة لتعطينى خصوصية، رقدت بين الرجلين.. ملتفة فى طبقات البطاطين.. شاعرة بحرارة الجمر تكوى وجهى لكنى لم أرد الابتعاد، فيما بعد رقد «مودى» بجانبى، وقام «باركر» أخيرًا بإخماد الرماد ورقد.. قريبًا جدًا لدرجة أنه كان بوسعى الشعور به وشم رائحة الصوبة الزجاجية التى تفوح منه. كان الظلام دامسًا.. لكنى لم أكن أعتقد أننى سأغلق عينى طوال الليل، وماذا عن صفير الرياح والهجوم الفتاك الذى تتلقاه الخيمة، حيث كانت تتموج وترتعش مثل شىء حى. كنت مرتعبة من أن ندفن فى الجليد.. أو أن تنهار الحوائط علينا وتحجزنا تحتها، تخيلت كل أنواع المصائر الفظيعة وأنا راقدة وقلبى يدق بسرعة كبيرة وعيناى مفتوحتان على وسعهما. ولكن لابد أننى نمت لأننى حلمت، رغم أننى لا أعتقد أننى حلمت منذ أسابيع.

الوصف الدقيق للمناخ فى حد ذاته ليس بالأمر المستحدث أو الغريب فى السرد المعتمد على الحالة العامة المحيطة بالشخوص فى مثل هذه الرواية، إلا أن الوصف المناخى فى هذه الحالة يتخذ أبعادًا داخلية فعلية تؤثر فى حركة الشخوص وأفعالهم تجاه العالم، المناخ أو الوصف الطقسى

(*) انظر على سبيل المثال:

Geerard Genette, Narrative Discourse: An Essay On nethod. jane E. Lewin (trans), (Ithaca: Cornell University Press, 1983).

Gerald Prince, A Dictionary of Narratology, (London: Solar Press, 1991)

Mieke Bal. Narratology: Introduction to the Theory of Narrative, (Canada: University of Toronto Press, Fouth Edition, 1994).

Suzana Onega, Joes Angle Garcia Landa (eds.) , Narratology: An Introduction ,(New-york: Longman, 1996).

هنا يتجاوز مجرد الخلفية النفسية للشخوص أو لحالة الواقع المحيط بهم التى بدورها قد تعكس أحوال تشكلاتهم الذاتية وانطباعاتهم ومعاناتهم، المناخ هنا هو الفاعل النفسى للشخوص ذاتها؛ هو المؤثر المتوحد مع حالاتهم الوجودية والإنسانية، المقطع السابق يروى حالة من الحلم تتوحد فيها مفردات الطقس الشديدة القسوة مع حالة الوجود الفعلى للشخصية فى الحدث. الفضاء الحكائى هنا هو المطروح كالمعادل الموضوعى لكيان الشخصية المروية بينما الفضاء النصى أو الفضاء الذى يرويه النص لا يشير بالمرة إلى إمكانية النوم ناهيك عن الحلم. وكأن الفضاء الحكائى فى هذه الرواية هو تعويض المؤلفة عن فوبيا الخلاء التى تعانى منها بجعله ـ أى الفضاء الحكائى ـ محل انطلاق وتبحرًا وتعمقًا تُحاك فيه خيوط التذكر والأحداث والأفعال كافة ليصير ـ فى حد ذاته ـ زمنًا خاصًا تقاس به رحابة المواقف أو ضيقها، عمق المشاعر أو سطحيتها، حتى مقادير الرفض أو القبول، والسخرية أو التفاوض، التى يطلبها المؤلف الضمنى للعمل فى القراءة.

الفضاء الحكائى من جهة أولى يطرح المسافة التى تسافرها الشخصيات داخل المواقف بعينها فيعطى أبعاد المسافات الحقيقية داخل وصف المناخ كما يبين فى المقطع السابق بحيث يصير الوصف المناخى هو البعد الحقيقى للمسافة المقطوعة وليس العكس، هو العمق الحقيقى للمغامرة والوجه المشار إليه للحالة الوجودية المطروحة، فيصير المناخ وجهين للوجود: الأول: هو الوجود الفعلى للشخوص داخل الحدث: بمعنى أن الوصف المناخى يصير هو حالة الحقيقة النفسية لدى الشخوص وليس مجرد خلفية أو انعكاس لها، والثانى: هو اكتمال للفضاء الحكائى بمعنى أن الوصف المناخى فى هذه الرواية يحدد مسافات الرؤية المكانية ووقعها فى الأحداث.

على أن ذلك كله لا ينفى أن هذه الرواية ليست عملا تجريبيًا يناقش مفردات الرواية التقليدية بشكل جذرى أو يطرح تبديات روائية تحاول

الخروج بالنص الروائى من أشكاله التقليدية المعتادة من زمن حكائى وتتابعية فى الأحداث وتشكل درامى داخلى وخارجى ومكان ما وطقوس إنسانية وموضوعية ما. فهناك من الأعمال التجريبية الكثير الذى يقف دور المناقش لعاديات الرواية التقليدية أكثر من كونه محاولا للإبداع داخلها، ونذكر - على سبيل المثال لا الحصر - روايات فلاديمير نابوكوف وميلورد بافتس وغيرهما كثيرون.

دكتور ناجى رشوان

الاختفاء

آخر مرة رأيت فيها "لوران جاميه" كانت فى متجر "سكوت" حيث كان يحمل على كتفه صيده ـ ذئبًا ميتًا ـ وأتى ليأخذ مكافأته، بينما أتيت أنا لشراء بعض الإبر. أصر سكوت أن يتسلم جميع أجزاء الذئب لأن أحد سكان أمريكا الأصليين قد خدعه ذات مرة عندما أحضر أذنى ذئب وحدهما فى يوم وطالب بمكافأته كاملة، ثم أحضر بعد ذلك أطرافه ليأخذ مقابلها دولارًا آخر، وفى النهاية جاء بذيله. كنا فى الشتاء؛ لذا بدت أجزاء الثعلب مفعمة بالحيوية إلى حد ما، لكن ما يثير اشمئزاز سكوت هو انتشار الغش كأنه أمر مسلم به. كان وجه الذئب بلسانه المتدلى خارج فمه الذى انسحب للخلف كاشفاً عن تعبير وجهه العابس هو أول ما رأيته عند دخولى، فاندفعت مبتعدةً كرد فعل تلقائى وصرخ سكوت بصوت عال لذا بالغ جاميه فى اعتذاره. كان من المستحيل أن يغضب منه أحد بسبب ما كان يتمتع به من جاذبية وسحر خاصين وبسبب العرج الذى كان يعانيه فى مشيته. وبعدها فورًا قاما بحمل الذئب الميت إلى مكان ما خلف المتجر، وبينما كنت أستعرض السلع ، كان جاميه وسكوت يتجادلان حول الفروة المتآكلة المعلقة على الباب والتى أكلتها العتة، وأعتقد أن جاميه اقترح ساخرًا على سكوت أن يستبدلها بأخرى جديدة. تحت هذه الفروة لافتة مكتوب عليها: "كانيس لوبوس (ذكر)، أو ذئب تم اصطياده فى مدينة كاولفيلد ـ ١١ فبراير ١٨٦٠ ـ تقول هذه اللافتة الكثير عن "جون سكوت"، عن ادعائه بالمعرفة وولعه بنفسه واحترامه الجبان للسلطة الذى يفوق احترامه للحقيقة. فهذا بالتأكيد لم يكن أول ذئب يتم اصطياده هنا فى المنطقة كما أنه لا يوجد ما يسمى بمدينة "كاولفيلد" إذا أردنا الدقة، لكن سكوت يرغب فى وجودها حتى يكون لها مجلس ويكون هو حاكمها.

على أى حال هى أنثى لأن طوق الرقبة لدى الذكور يكون داكنًا آكثر كما أنهم أكبر، وهذا الذئب صغير جداً.

كان جاميه يعرف جيداً عمَّ يتحدث، فقد اصطاد من فصيلة هذا الذئب أكثر من أى شخص أعرفه. ابتسم جاميه ليبين أنه لا يقصد الإساءة لكن سكوت اعتبر أن الموضوع لم يعد مناسبًا للمزاح واتخذ موقفاً عدائياً.

أعتقد أنك تتذكر أكثر منى يا سيد جاميه؟

رفع جاميه كتفيه ولم يعرف بماذا يجيب فهو لم يكن موجودًا هنا عام ١٨٦٠ وبما أنه الفرنسى الوحيد بيننا كان عليه أن يحترس فى أقواله وأفعاله.

فى هذه اللحظة تقدمت إلى طاولة البيع وقلت: "أعتقد أنها كانت أنثى يا سيد سكوت فأنا مازلت أتذكر بوضوح الرجل الذى أحضرها حين قال إن صغارها ظلوا يعوون طوال الليل."

كما أن سكوت قد علّق الذئب خارج المتجر من رجليه الخلفيتين ليحملق فيه الجميع ، ولم أكن قد شاهدت ذئبًا من قبل لكن حجمه الصغير أدهشنى. كان الذئب معلقًا وأنفه تتجه نحو الأرض وعيناه مغلقتين كما لو كان يشعر بالخجل فيقلده الرجال ويضحك الصغار متحدين بعضهم مَنْ يستطيع إدخال يده فى فم الذئب، ويتخذون أوضاعًا مختلفة بجانبه ليتسلوا.

اتجه "سكوت" بعينيه الزرقاوين الدقيقتين اللامعتين إلىّ كما لو كنت أهنته؛ إما لأننى ناصرت شخصًا أجنبيًا أو لأن ما قلته كان من الصعب أن يقوله أحد على الإطلاق.

وانظر ماذا حدث له" . دوك واد" وهو الرجل الذى حصل على المكافأة وغرق فى الربيع التالى ـ كما لو أن ذلك جعل من الحكم عليه موضع تساؤل.

"آه، حسناً..." رفع جاميه كتفيه وغمز لى ، ما هذه الجرأة!.

بطريقة ما ـ أعتقد أن "سكوت" هو من بدأ ـ انتقلنا إلى الحديث عن الفتيات المسكينات كما يحدث عادةً بين الناس حينما يُثار موضوع الذئاب. ورغم أن هناك عددًا لانهائيًا من النساء التعيسات فى العالم (الكثير منهن فى مثل تجربتى)، إلا أن "هؤلاء الفتيات المسكينات" دائماً تشير إلى اثنتين فقط ـ الأختان سيتون اللتان اختفتا منذ عدة سنوات. مرت عدة دقائق قضيناها فى تبادل ممتع للآراء دون هدف معين حتى قاطعنا فجأة صوت الجرس ودخول مدام نوكس. تظاهرنا أننا كنا منشغلين بالأزرار الموضوعة فوق طاولة البيع. أخذ لوران جاميه الدولار وانحنى لى وللسيدة نوكس ثم غادر. ظل الجرس يصدر صوتاً فى الزنبرك المعدنى لفترة طويلة بعد أن غادر "جاميه".

كان هذا كل شىء حدث فى آخر مرة رأيته فيها ولم يكن بالأمر شىء مهم.

رغم أن لوران جاميه كان أقرب جار لنا، إلا أن حياته كانت غامضة. كثيراً ما كنت أتساءل كيف يستطيع صيد الذئاب وساقه بهذا الحال، حتى علمت أنه يرمى لحم الغزال المسمم بمادة الإستركنين كطُعم للذئاب، أما المهارة فتأتى فى اقتفاء أثر الضحية. لا أعرف كثيرًا عن الصيد لكن فى رأيى هذا ليس صيداً. أعرف أن الذئاب تعلمت كيف تفلت من تصويب بندقية "ينشيستر" وهذا يدل على أنها بالتأكيد تمتلك قدرًا من الذكاء لكن يبدو أن هذا الذكاء لم يصل إلى حد يجعلها تأخذ حذرها من وجبات الطعام المجانية، ثم ما المهارة والحذاقة فى تتبع مخلوق محكوم عليه بالموت؟ وكانت هناك أيضاً أشياء أخرى غريبة: رحلات طويلة يقوم بها بعيداً عن المنزل إلى مناطق غير معروفة وزيارات تأتيه من غرباء بشرتهم داكنة وكلامهم قليل ومشاهد خاطفة لسخائه الحاتمى الغريب الذى يتضاد مع كوخه المتهدم. لقد عرفنا أنه كان كاثوليكيًا من كويبيك رغم أنه لا يذهب كثيراً للكنيسة أو للاعتراف (ربما كان غارقاً فيهما أثناء فترات غيابه الطويلة). تميّز جاميه بأدبه وابتهاجه رغم أنه لم يحظ بأصدقاء

مقربين ودائمًا ما كان يحافظ على مسافة معينة بينه وبين الآخرين. وأجرؤ أن أقول إنه كان وسيماً بعينيه وشعره المائلين للسواد وملامحه التى تعطى انطباعًا بأنه كان يبتسم لتوه أو على وشك الابتسام. معاملته مع جميع النساء كانت تمزج بين الجاذبية والاحترام لكنه فى الوقت نفسه كان ينجح فى عدم إغضابهن أو إغضاب أزواجهن. لم يكن جاميه متزوجًا، ولم يظهر ميل لذلك لديه فهناك من الرجال على ما يبدو من يسعدون بمفردهم، بخاصة إذا كان نظام حياتهم يغلب عليه الإهمال وعدم النظام.

بعض الناس يثيرون الحسد، لكنه حسد غير خبيث ولا يتسبب فى الضرر، وجاميه أحد هؤلاء الناس فهو كسول وودود حتى ليبدو وكأنه انزلق فى الحياة دون كدح أو مجهود منه كبيرين، وقد كنت أعتقد أنه محظوظ فهو لا يُظهر قلقاً من ذات الأشياء التى تجعل رءوسنا تتضبب شيبًا. لم يكن جاميه لديه شعر أشيب لكن كان له ماضٍ احتفظ به لنفسه تقريباً وربما تخيل أن له مستقبلا أيضاً، لكن ذلك لم يحدث. كان جاميه فى الأربعين من عمره تقريباً وهى السن التى سيظل عليها للأبد.

صباح يوم الخميس فى منتصف شهر نوفمبر، بعد أسبوعين تقريبًا من هذه المقابلة فى المتجر. أسير فى الطريق مبتعدةً عن منزلنا ومزاجى كئيب؛ أخطط لمحاضرتى بعناية وأتدرب عليها بصوت أعلى من العادى ـ وهى من العادات الغريبة التى يمكن اكتسابها بسهولة فى المناطق النائية. الطريق ـ هو فى الحقيقة ليس أكثر من سلسلة من الأخاديد التى أنهكتها الحوافر والعجلات ـ يوازى النهر الذى ينتهى بسلسلة من الشلالات الضحلة. وتحت أشجار البتولا تومض الطحالب كالزمرد فى ضوء الشمس. وتحت قدمى تطقطق الأوراق التى سقطت وتبلورت بفعل صقيع المساء لتهمس بالشتاء القادم. والسماء زرقاء صافية راكدة تثير الكآبة. يغمرنى الغضب، فأمشى باطراد، ورأسى لأعلى مما يعطى انطباعًا بأننى مبتهجة.

يقع كوخ جاميه على بعد مسافة ما من ضفة النهر فى وسط قطعة صغيرة تغطيها الأعشاب ويمكن تجاوزاً تسميتها بالحديقة وقد ذبلت

جدرانه الخشبية غير المسطحة بمرور الوقت وأصبح فى مظهره يبدو كشخص أشيب غامض أكثر مما هو بناء جامد. يتميز هذا الكوخ بطرازه العتيق: فالباب عبارة عن قطعة من جلد الغزال تمتد على إطار خشبى والنوافذ مصقولة بأوراق مدهونة بالزيت. لابد أنه يتجمد فى الشتاء. ليس فى هذا المكان ما يجذب سيدات "دوف ريفر" كثيراً أنا عن نفسى لم أت إلى هنا منذ عدة شهور والآن قد نفدت كل الأماكن التى يمكن النظر إليها.

لا يوجد ما يدل على وجود حياة بالداخل لكن الباب كان مواربًا، وجلد الغزال ملوثًا بفعل الأيادى المتسخة. ناديت بصوت مرتفع ثم طرقت على الجدار لكن أحداً لم يجب؛ لذا ركزت نظرى بالداخل حتى اعتادت عيناى على الظلام فرأيت جاميه بالداخل نائماً على السرير كعادته فى هذا الوقت. كنت قد ابتعدت تقريباً فلم أجد سببًا يدفعنى لإيقاظه إلا أن الإحباط يدفعنى للمثابرة فأنا لم أقطع كل هذا الطريق من أجل لا شىء.

بدأت بمناداته: "سيد جاميه؟" وأنا أبدو لنفسى مبتهجة بطريقة أثارتنى. "سيد جاميه"، آسفة لإزعاجك لكننى يجب أن أسأل...'

ينام لوران جاميه فى سلام وحول عنقه لفاع الرقبة الذى يرتديه من أجل الصيد حتى يتمكن الصيادون من تمييزه عن الدببة فلا يطلقون النار عليه. إحدى قدميه تبرز من جانب السرير حيث يرتدى جوربًا قذرًا ولفاع رقبته الأحمر على الطاولة... أمسكت جانب الباب. فجأة بعد إن كان كل شىء طبيعياً ، تغير الموقف تماماً؛ الذباب يحوم حول مأدبته الخريفية واللفاع الأحمر ليس حول رقبته ولا يمكن أن يكون فهو على الطاولة وهذا يعنى...

"لا" صوتى يصدمنى فى الكوخ الصامت 'مستحيل.'

أتشبث بالباب محاولةً ألا أهرب وبعد ثانية أصبحت أدرك أننى لا يمكن أن أتحرك حتى و إن كانت حياتى تعتمد على ذلك.

كانت الحمرة التى حول رقبته قد تسربت إلى مرتبة الفراش من جرح غائر.. جرح غائر.. أنا أشهق وكأننى كنت أركض.. كان إطار الباب هو أهم شىء فى العالم فى الوقت الحالى.. بدونه.. لم أكن أعلم ماذا أفعل.

لم يقم المنديل بعمله.. فلقد فشل فى منع موته المحقق.

أنا لا أدعى أننى شجاعة بشكل خاص، وفى الواقع فلقد تخليت عن فكرة أننى لدى أى صفات مميزة، لكنى متفاجئة بالهدوء الذى نظرت به حول الكابينة. كان أول ما طرأ على ذهنى أن "جاميه" قد دمر نفسه، ولكن يديه كانتا فارغتين وليس هناك أى أثر لسلاح قريباً منه، يد تتدلى من جانب الفراش، لم يحدث أن كنت خائفة، فأنا أعرف بكل تأكيد أن من فعل ذلك ليس فى مكان قريب ـ فالكابينة تعلن عن فضائها، حتى الجسد الذى على الفراش كان فارغًا.. لم يكن هناك أى نعوت له الآن ـ المرح والإهمال ومهارته فى التصويب، الكرم والقسوة ـ كل ذلك قد ذهب.

هناك شىء آخر لم أستطع إلا أن ألاحظه، حيث إن وجهه كان ملتفتًا قليلاً ناحيتى، لم أكن أريد أن أراه ولكنه هناك ويؤكد ما قد قبلته بالفعل رغم إرادتى ـ إنه من بين كل الأشياء فى العالم التى يمكن أن تعرف.. لم يكن قدر "لورينت جاميت" واحداً منها، لم تحدث حادثة.. ولا قتل للنفس.. لقد قُطعت رأسه.

بعد وقت طويل ـ رغم أنها كانت ثوانى قليلة على الأرجح ـ قمت بإغلاق الباب خلفى وعندما لم أعد أراه شعرت بتحسن. رغم أنه لبقية اليوم وعدة أيام تلت.. ظلت يدى اليمنى تؤلمنى من العنف الذى أمسكت به إطار الباب.. كما لو كنت أحاول أن أسحق الخشب بين أصابعى كالعجين.

***

نحن نعيش فى "دوف ريفر" على الشاطئ الشمالى لساحل "جورجيا"، هاجرت أنا وزوجى من "هاى لاندس" (منطقة الجبال) فى "اسكتلندا" منذ اثنتى عشرة سنة.. نازحين مثل كثيرين آخرين. لقد وصل مليون ونصف نسمة إلى أمريكا الشمالية فى عدة سنوات فقط، ولكن رغم الرقم المذكور.. ورغم مجيئهم محشورين فى سفن ضيقة حتى تعتقد أنه لا يمكن أن يكون هناك مكان فى العالم الجديد لكل هؤلاء الناس، فقد تفرقنا من

أرصفة الميناء فى "هاليفاكس" و"مونتريال" مثل روافد نهر واختفينا ـ كل واحد فينا ـ فى العراء.. ابتلعتنا الأرض وكانت جائعة للمزيد، ومررنا شاقين الأرض خارج الغابة.. أعطينا أماكننا أسماء جاءت من أشياء رأيناها ـ طائر.. حيوان ـ أو أسماء المدن التى نشأنا فيها؛ تذكارات معنوية لأماكن لا تحمل لنا أى معان. المسألة أنه ليس بإمكانك بالفعل أن تترك أى شىء خلفك، فأنت تجلب كل شىء معك.. سواء أردت أم لم ترد.

منذ اثنتى عشرة سنة لم يكن هناك إلا الأشجار، كانت البلاد من هنا صعودًا إلى الشمال عبارة عن أرض فقيرة من المستنقعات أو الحصى، حيث لا تستطيع حتى أشجار الصفصاف والطمراق أن تثبت، كانت التربة قرب النهر ناعمة وعميقة، والغابة من حولها خضراء داكنة لدرجة تصل إلى السواد، والصمت ذو الرائحة الحادة تشعر به عميقًا وبلا نهاية مثل السماء. كان رد فعلى الأول عندما رأيت ذلك هو أننى انفجرت فى البكاء، العربة التى أحضرتنا سارت مبتعدة، وفكرة أننى مهما صرخت بصوت عال فلن تجيبنى إلا الرياح.. لم أستطع دفعها بعيدًا عن ذهنى. فإذا كان الهدف هو أن نجد السلام والهدوء فقد نجحنا. انتظر زوجى بهدوء حتى انحسرت حالة الهيستريا التى داهمتنى ثم قال بابتسامة عريضة على وجهه:

" هنا فى العراء... ليس من هو أعظم من الإله."

بدا ذلك رهانًا آمنًا ...بافتراض الإيمان بمثل هذا الشىء أصلاً.

ومع الوقت اعتدت على الهدوء، ورقة الهواء التى تجعل كل شىء يبدو أكثر إشراقًا وحدة مما كانت عليه فى الوطن الأم، حتى أننى أحببت ذلك تدريجيًا، وأسميت المنطقة "دوف ريفر". طالما لم يكن لها أى اسم تُعرف به.

لم يكن لدى حصانة ضد التداعيات المعنوية.

جاء آخرون.. وفيما بعد قام "جون سكوت" ببناء طاحونة للدقيق قرب

فم النهر، أنفق مالاً كثيرًا عليها حيث إنها تطل على منظر جميل للشاطئ، وقرر أنه قد يعيش فيها أيضًا. وبطريقة ما أصبح العيش قرب الشاطئ موضة تتبع، وشيء غير مبرر لهؤلاء منا الذين ذهبوا لأعلى النهر بالتحديد ليهربوا من عويل العواصف.. عندما يبدو الشاطئ وكأنه يتحول إلى محيط غاضب مصر على التشبث بالأرض التى استقرت الناس عليها بكل عجرفة. ولكن "كالفيلد" (المعنويات مجددًا؛ حيث إن "سكوت" من "دمفريسيشاير") اتخذت طريقة لم تستطع "دوف ريفر" أن تماثلها ـ بسبب قلة الأرض المستوية وتناثر الغابات، ولأن "سكوت" أقام متجرًا للأقمشة جعل الحياة فى الغابة الخلفية أكثر سهولة، هناك الآن مجتمع كامل يتألف من أكثر من مائة شخص ـ مزيج غريب من الاسكتلنديين واليانكيين ومن "لورينت جاميه" ـ أقصد الذى كان ـ هنا منذ وقت طويل، وعلى الأرجح أنه لم يكن لينتقل إلى هنا على الإطلاق لو لم يأخذ قطعة الأرض التى لم يكن أحد آخر ليلمسها.

منذ أربع سنوات اشترى المزرعة التى تقع أسفل النهر من مزرعتنا، فقد كانت تقبع فارغة منذ بعض الوقت بسبب مالكها السابق؛ رجل اسكتلندى عجوز. وصل "دوك وايد" إلى "دوف ريفر" باحثًا عن أرض زهيدة الثمن؛ حيث لم يكن حوله من غال أو قريب ـ كانت أخته وزوجها ثريين فى "تورنتو"، كان الناس يدعونه اختصارًا بـ"دوك"، رغم أنه اتضح أنه ليس طبيبًا على الإطلاق.. فهو رجل ذو ثقافة لم يجد مكانًا فى العالم الجديد يقدر مواهبه المتعددة والغامضة أيضًا، ولسوء الحظ لم تكن "دوف ريفر" بالاستثناء الذى يبحث عنه. وكما وجد الكثير من الرجال أن الزراعة هى وسيلة بطيئة ومؤكدة لخسارة الثروة وتدمير الصحة وتثبيط الهمة. كان العمل شاقًا جدًا بالنسبة لرجل فى مثل سنه، ولم يكن يميل إلى هذا العمل، ففشلت محاصيله وهربت خنازيره وتوحشت فى الغابات، وأمسكت النيران بسقف كابينته. ذات مساء انزلقت قدمه على الصخرة التى تقف كرصيف ميناء طبيعى أمام كابينته، ووُجد فيما بعد فى دوامة عميقة تحت

"منحدر هورس هيد" (سمى كذلك لأنه يشبه رأس الفرس.. قلة خيال الكنديين المميزة). كان انتهاءً رحيمًا لمتاعبه.. قال البعض ، والبعض الآخر قال إنها مأساة.. مأساة من المآسى المحلية الصغيرة التى يمتلئ بها المكان. أفترض أننى تخيلتها بشكل مختلف: كان "وايد" يشرب مثل معظم الرجال.. وذات ليلة.. عندما ذهبت نقوده ونفد الشراب، عندما لم يتبق لديه أى شىء ليفعله فى هذا العالم، ذهب إلى النهر وشاهد المياه السوداء الباردة وهى تتدفق مسرعة، أتخيل أنه نظر إلى السماء، وسمع صوت الغابة الهازئ اللامبالى للمرة الأخيرة.. شعر بالسحب الشديد للنهر الفائض فألقى بنفسه داخل رحمته الأبدية.

بعد ذلك.. قالت شائعة محلية أن تلك الأرض جالبة للنحس، لكنها كانت رخيصة الثمن، ولم يكن "جاميه" من النوع الذى ينتبه لشائعات متطايرة، رغم أنه ربما كان يحب أن يأخذ. كان مسافرًا بحارًا تابعًا لشركة ما ووقع تحت قارب بينما كانت تسحبه إلى أعلى بعض الجنادل، جعلته الحادثة يعرج فى مشيته، فأعطوه تعويضًا، بدا ممتنًا للحادثة التى أصابته أكثر من أى شىء فقد أعطته نقودًا كافية ليشترى أرضه الخاصة. كان مولعًا بذكر كم كان كسولاً وبالطبع لم يكن يعمل فى المزرعة، الشىء الذى لا يمكن لمعظم الرجال تجنبه. باع معظم أراضى "وايد"، وكان يكسب قوت يومه من صيد الذئاب والقليل من التجارة. كل ربيع كان يأتى مجموعة من الرجال داكنى البشرة من مكان بعيد فى الشمال الغربى، بقواربهم وحقائبهم: فقد كانوا يجدونه شخصًا ملائمًا للعمل معهم.

بعد نصف ساعة كنت أطرق باب أكبر منزل فى "كالفيلد"، تقلصت أصابع يدى اليمنى بينما أنتظر الرد؛ يبدو أن يدى تجمدت على شكل مخلب.

كان لدى السيد "نوكس" بشرة شاحبة رمادية تجعلنى أفكر فى أملاح الكبد، كان طويلاً نحيلاً ذا جانب وجه حاد يبدو دومًا مستعدًا للإجهاز على من لا يستحق ـ صفات مفيدة بالنسبة لقاضٍ. شعرت فجأة بالفراغ كما لو كنت لم أتناول أى شىء منذ أسبوع.

"آه.. سيدة "روس".. رؤيتك أمر سعيد وغير متوقع؟.."

لأقول الحقيقة فقد بدا- أكثر من أى شىء ـ منزعجًا من رؤيتى، ربما ينظر إلى الكل بهذه الطريقة، لكنها تعطى انطباعًا أنه يعرف عنى أكثر قليلاً مما أحب، وبالتالى يعرف أننى لست الشخص الذى يريد لبناته أن يعرفن.

"سيد "نوكس".. أخشى أنه ليس بسعيد.. لقد حدثت حادثة مروعة."

وبعد أن واتتنى رائحة شهيرة من أغنى الأنواع، أتت السيدة "نوكس" بعد دقيقة، فأخبرت كليهما بما تحويه الكابينة عند النهر، قبضت السيدة "نوكس" على الصليب الذهبى الصغير عند حلقها، وتلقى "نوكس" الأخبار بهدوء، لكنه تلفت بعيدًا عند نقطة ما ثم رجع مرة أخرى بعد أن أصيب بالفزع ـ لا أستطيع منع نفسى من الشعور بأنه شكل ملامحه فى القالب المناسب ـ حازم وصارم وما إلى ذلك. جلست السيدة "نوكس" بجانبى تربت على يدى بينما أحاول أنا ألا أنزعها منها.

"وعندما أفكر أن آخر مرة رأيته فيها كان فى المتجر فى هذا الوقت.. وكان يبدو..."

طرقت برأسى موافقة، وأنا أفكر كيف أننا غرقنا فى صمت مذنب عند اقترابها. بعد العديد من استعراض التعاطف مع الصدمة والنصيحة للأعصاب المنهارة، أسرعت لتخبر ابنتيها بطريقة مناسبة (بكلمات أخرى.. بتفاصيل أكثر بكثير مما كانت ستخبرهما لو كان أبوهما حاضرًا) أرسل "نوكس" رسولاً إلى "فورت إدجار" ليستدعى بعض الصحبة من الرجال، تركنى لأبدى إعجابى بالمشهد، ثم عاد ليقول إنه قد استدعى "جون سكوت" (الذى بالإضافة إلى امتلاكه للمتجر وطاحونة الدقيق، لديه عدد من المخازن ومساحة كبيرة من الأراضى) ليذهب معه لفحص الكابينة و يُأمنها ضد "الاقتحام" حتى يصل مندوبو الشركة. هذه هى الكلمات التى استعملها، وشعرت بنقد معين.. ليس لأنه يلومنى على عثورى على الجثة

ولكنى متأكدةٌ أنه نادم على أن مجرد زوجة فلاح قد أفسدت المشهد قبل أن يحظى هو بفرصة ليمارس ملكاته الخارقة، لكنى شعرت بشىء آخر بجانب عدم رضاه: الإثارة. وكأنه رأى فرصة للتألق فى دراما عاجلة أكثر بكثير مما يحدث فى الغابات الخلفية.. فسوف تُجرى تحقيقات، وأنا أفترض أنه أخذ "سكوت" لكى يبدو الأمر رسميًا ويكون هناك شاهد على عبقريته، ولأن سن "سكوت" وثراءه يعطيانه نوعًا من المكانة.. يمكن ألا يكون لها علاقة بالذكاء.. فـ"سكوت" دليل حى على أن الثرى ليس بالضرورى أفضل أو أمهر من بقيتنا.

توجهنا إلى أعلى النهر فى عربة (ذات حصان)، وبما أن كابينة "جاميه" قريبة من منزلنا فلم يكن بإمكانهم تجنب صحبتى لهم، وبما أننا وصلنا إلى كابينته أولاً فعرضت أن أدخل معهم، عقد "نوكس" حاجبيه باهتمام أبوى.

"لابد أنك متعبة بعد صدمتك الرهيبة، أنا أصر على أن تذهبى للبيت وتستريحى."

أضاف "سكوت": "سنكون قادرين على رؤية ما سبق ورأيته." وكان هناك تلميح بأكثر من ذلك.

ابتعدت عن "سكوت" ـ ليس هناك فائدة من الجدال مع بعض الأشخاص- ونظرت له بوجه حاد، أدركت أنه محرج أن طبيعتى الأنثوية يمكن أن تتحمل فكرة مواجهة مثل هذا الرعب مجددًا، ولكن شيئًا ما بداخلى وقف بعناد ضد افتراضه أنه هو.. وهو فقط الذى سيصل إلى الاستنتاجات الصحيحة. أو ربما فقط لأننى لا أحب أن يملى علىَّ أحدهم ما أفعل، قلت إننى أستطيع إخبارهما ما إذا كان شىء قد تغير، الشىء الذى لا يستطيعان إنكاره، وعلى أى حال.. بدلا من دفعى بالقوة على الطريق وحبسى فى منزلى.. لم يكن هناك الكثير ليفعلوه.

كان جو الخريف لطيفًا، لكن كانت هناك رائحة واهية للعفن عندما فتح "نوكس" الباب.. لم ألحظ من قبل، خطى "نوكس" للأمام.. متنفسًا من

فمه ووضع أصابعه على يد "جاميه" ـ رأيته يحوم متعجبًا أين يلمسه ـ قبل أن يعلن أنه بارد تمامًا. تحدث الرجلان بصوت منخفض.. كانا يتهامسان تقريبًا، ففهمت أنه من الوقاحة أن تتحدث بصوت عالٍ. أخرج "سكوت" دفترًا وبدأ يكتب ما يقوله "نوكس" وهو يلاحظ وضع الجثة.. درجة حرارة الموقد.. ترتيب الأشياء فى الحجرة. بعد ذلك وقف "نوكس" لبرهة دون أن يفعل شيئًا لكنه استطاع أن يبدو ذا نفع ـ حادثة تشريح فنظرت باهتمام. كانت هناك آثار واضحة لأقدام على الأرض المغطاة بالغبار، ولكن لا أشياء غريبة.. ولا أسلحة من أى نوع. كان الدليل الوحيد هو هذا الجرح البشع المستدير حول رأس "جاميه". قال "نوكس" إنه لابد أن من فعل ذلك هندى هارب من العقوبة، فوافقه "سكوت" قائلا إنه ليس هناك رجل أبيض يفعل شيئًا وحشيًا مثل هذا. استحضرت صورة وجه زوجته فى الشتاء الماضى، عندما كان متورمًا ومليئًا بالتقرحات والكدمات وادعت أن قدمها زلت على كومة من الثلج، رغم أن جميع من رأوها كانوا يعرفون الحقيقة.

صعد الرجلان لأعلى حيث الحجرة الأخرى، استطعت تحديد أين كانا يتحركان من صرير أرجلهما وهى تضغط على ألواح الأرضية والغبار الذى يقع من بينها ويتلاقى مع الضوء. نزل الغبار على جثة "جاميه".. ساقطًا بنعومة على خديه مثل نتف الثلج، هبطت بعض ذرات الغبار ـ بشكل لا يحتمل ـ على عينيه المفتوحتين ولم أستطع إبعاد نظرى عنهما. انتابتنى رغبة فى أن أذهب وأزيلها وأخبرهما بحدة أن يتوقفا عن العبث بالأشياء، لكنى لم أفعل ذلك أيضًا.. فلم أستطع أن أحمل نفسى على لمسه.

"لم يصعد أحد إلى أعلى منذ أيام.. فالغبار لم يمس على الإطلاق." قال "نوكس" عندما نزلا إلى الطابق السفلى مرة أخرى.. ينفضان الغبار عن سراويلهما بمناديل الجيب، جلب "نوكس" ملاءة نظيفة من الأعلى وفردها، مثيرًا المزيد من الغبار الذى دار فى الحجرة مثل سرب من النحل الذى يلمع فى ضوء الشمس، وقام بوضع الملاءة على الجثة التى على الفراش.

"هكذا.. هذا كفيل بإبقاء الذباب بعيدًا،" قال بنبرة من يهنئ نفسه؛ رغم أن أى أحمق باستطاعته رؤية أن ذلك لن يجدى نفعًا.

تقرر أننا ـ أو بالأصح هما ـ ليس بإمكاننا فعل المزيد، وعند مغادرتنا أغلق "نوكس" الباب وأمنه بسلك وكتلة من الشمع الأحمر، الشئ الذى أدهشنى رغم أننى أكره الاعتراف بذلك.

***

عندما يصبح الجو باردًا يصبح "أندرو نوكس" على وعى مؤلم بسنه، كل خريف منذ عدة سنوات تبدأ مفاصله تؤلمه وتظل تؤلمه طوال الشتاء بغض النظر عن عدد طبقات الصوف التى يلفها عليها.. كان يجب عليه أن يمشى بحرص، ليتواءم مع الآلام المبرحة فى كل جنب، وكل خريف تبدأ الآلام أبكر قليلاً.

ولكن اليوم انتشر التعب فى روحه كلها، أخبر نفسه أن هذا شئ مفهوم .. فحادث عنيف مثل القتل كفيل بأن يهز أى شخص، لكن الأمر أكثر من ذلك فلم يقتل أحد فى تاريخ القريتين، جئنا هنا لنبتعد عن هذا كله، يعتقد أنه يفترض أننا غادرنا هذا خلفنا عندما تركنا المدن. وكذلك غرابة الأمر.. قتل بربرى وحشى قاس.. مثل هذا الشئ قد يحدث فى الولايات الجنوبية. فى السنوات القليلة الماضية مات أشخاص من جراء كبر السن ـ بالطبع ـ من الحمى أو حادثة، بغض النظر عن هاتين الفتاتين المسكينتين.. ولكن لم يُذبح أحد من قبل.. أعزل حافى القدمين.. كان متضايقًا من كون الضحية حافية القدمين.

قرأ فى ملاحظات "سكوت" بعد العشاء، وحاول ألا يفقد صبره: "الموقد بارتفاع ثلاثة أقدام وبعمق قدم وثمانى بوصات، دافئ بشكل واهٍ عند اللمس." افترض أن هذا قد يكون نافعًا، وبافتراض أن النار كانت مشتعلة بشدة عند وقت الوفاة، فيمكن أن تأخذ ستا وثلاثين ساعة لتصبح باردة، لذلك يمكن أن يكون القتل قد حدث فى اليوم الماضى، إذا لم تكن

النار بدأت تخبو بالفعل عندما لاقى "جاميه" حتفه، وفى هذه الحالة يمكن أن يكون القتل قد حدث خلال الليل. لكن ليس من الصعب تصور أنه حدث فى الليلة الماضية. فى بحثهما اليوم لم يجدا الكثير، لم تكن هناك علامات واضحة على المقاومة؛ لا وجود لدم غير الذى على الفراش.. حيث لابد أنه هُوجم. تساءلا بصوت عال عما إذا كان المكان قد تم تفتيشه، ولكن متعلقاته كانت منثورة بعشوائية كيفما اتفق، حتى أنه كان من المستحيل التيقن من أن هذه حالتهم المعتادة طبقًا لكلام للسيدة "روس". اعترض "سكوت" بصوت عال: إنه لابد أن يكون من السكان الأصليين: فليس هناك رجل أبيض يمكنه فعل شىء شديد الوحشية.. بدى "نوكس" أقل يقينًا منه. منذ بضع سنوات تم استدعاء "نوكس" لمزرعة قرب "كوبرماين" بعد حادث بعينه سيئ للغاية، كان هناك طقس منتشر فى بعض المجتمعات، حيث يهان العريس طبقًا للطقوس فى ليلة زفافه، يعرف باسم "تشاريفارى" ومعناه عرض مرح لإظهار عدم الرضا على رجل عجوز مثلا يتزوج من زوجة أصغر منه سنا بكثير. و فى هذه الحالة يتم تغطية العريس الأكبر سنًا بالقار والريش وتعليقه من قدميه فى شجرة خارج منزله، بينما الشباب المحليون يتبخترون فى أقنعتهم وهم يطرقون الأوانى وينفخون فى الصفافير.

مزاج متقلب .. روح الشباب المرحة.

نفق الرجل بطريقة ما.. عرف "نوكس" أن شابًا واحدًا على الأقل هو الذى كان متورطًا فى هذا العمل بلا شك، ولكن لا أحد ـ رغم ندمهم ـ أفصح عنه.. مقلب تم عمله خطأ؟ لم ير "سكوت" وجه الرجل المغطى.. الأسلاك التى قطعت بقسوة فى كاحليه المتورمين، شعر "أندرو" أنه غير قادر على إعفاء جنس بشرى بأكمله من الشك على أنهم غير قادرين على إبداء القسوة.

كان قد أصبح واعيًا بالأصوات التى وراء النافذة، خارج حوائطه قد يكون هناك قوى للشر، ربما نصاب يفكر فى ذبح رجل ليلقى بالشك على

جنس بشرى مختلف، رجاءً يا إلهى .. ليس رجلاً من "كالفيلد". وأى دافع يمكن أن يكون هناك وراء هذا القتل؟ بالتأكيد ليس الدافع هو سرقة ممتلكات "جاميه" القديمة والمستعملة، هل كان لديه مكان سرى ملىء بالثروات؟ هل كان لديه أعداء بين الرجال الذين كان يتعامل معهم؟ ربما لديه دين لم يؤده؟

تنهد، وهو غير راض عن أفكاره.. لقد كان متأكدا جدًا أن رؤية الكابينة ستمده ببعض المفاتيح... ما لم تكن إجابات ، لكنه غادر بتأن أقل من ذى قبل.. جرح كرامته أن يعترف أنه لم يستطع قراءة العلامات، وخصوصا أمام السيدة "روس" ـ امرأة مستفزة تجعله دائما يشعر بعدم ارتياح، نظرتها المتعالية لا تلين أبدًا.. حتى عندما كانت تصف اكتشافها المروع أو وهى تواجهه للمرة الثانية، إنها ليست ذات شعبية فى البلدة.. حيث إنها تعطى انطباعًا بأنها تنظر بازدراء للناس رغم أنها بكل المقاييس (وهو قد سمع شائعة ما يقف لها شعر الرأس) ليس لديها شىء لتغتر به وبالرغم من ذلك... بالنظر إليها واسترجاع هذه القصص الصادمة تجدها رائعة : فلديها مشية جديرة بالملكات، ووجه يجب الاعتراف بجماله.. رغم أن سلوكها الشائك لا يتفق مع جمالها الحقيقى. كان واعيًا بعينيها التى ركزت عليه عندما تقدم من الجثة ليتفحص دفئها ، استطاع بالكاد منع يده من الارتعاش ـ بدا أنه ليس هناك جلد ليس عليه دم ليلمسه، أخذ نفسًا عميقًا (الذى جعله فقط يشعر بالغثيان) ووضع أصابعه على رسغ الرجل الميت.

كانت بشرته باردة.. لكن ملمسها بشرى.. طبيعى؛ مثل بشرته هو شخصيًا، حاول أن يبقى عينيه بعيدًا عن الجرح البشع ولكن ـ مثل الذباب ـ بدا أنه غير قادر على إبعادهما. حدقت عينا "جاميه" فيه، وجاء على بال "نوكس" أنه كان يقف حيث لابد للقاتل أن يكون قد وقف. لم يكن قد أغلق عينيه بعد.. ليس فى النهاية. شعر أنه عليه أن يغلق العينين، لكنه عرف أنه لن يستطيع فعل ذلك. وبعدها بوقت قصير جلب ملاءة من

الطابق الأعلى وغطى الجثة.. كان الدم جافًا، ولن يترك بقعًا على الملاءة.. قال ذلك.. كما لو كان يهم. حاول أن يغطى ارتباكه بملاحظة عملية أخرى.. كارهًا النبرة المرحة لصوته عندما فعل ذلك، على الأقل غدًا لن تكون مسئوليته هو وحده بعد الآن.. فرجال "الشركة" سيصلون، وعلى الأرجح سيعرفون ماذا يفعلون. فقد يتضح شىء ما.. أو يكون شخص ما قد رأى شيئًا، وبحلول المساء تكون المسألة قد تم حلها.

وبهذا الأمل الزائف أعاد "نوكس" ترتيب الأوراق بعناية فى كومة وأطفأ المصباح.

كان الوقت بعد منتصف الليل، لكنى كنت جالسة بجانب المصباح ومعى كتاب غير قادرة على قراءته.. منتظرة وقع أقدام.. أو أن ينفتح الباب ويملأ الهواء البارد المطبخ، أجد نفسى أفكر مرة أخرى فى هاتين الفتاتين المسكينتين. فالكل فى "دوف ريفر" و"كالفيلد" يعرف القصة، وهى تُحكى لأى شخص يأتى هنا أو تعاد من وقت لآخر بأشكال مختلفة محبكة فى أمسيات الشتاء أمام النار، ومثل كل القصص الجيدة... فهى مأساة.

كان آل "سيتون" أسرة محترمة من "سانت بيير لاروش"، كان "تشارلز سيتون" طبيبًا وزوجته "ماريا" مهاجرة اسكتلندية حديثة، وكان لديهما ابنتان.. هما مصدر فخرهما و فرحهما (كما يقولون، حتى عندما لا يكون الأطفال كذلك قط؟) فى يوم رطب فى سبتمبر انطلقت "أيمى" التى كانت فى الخامسة عشرة و"إيف" فى الثالثة عشرة مع صديقة لهما تدعى "كاثى سلون" ليجمعن التوت ويتنزهن على شاطئ البحيرة، كن يعرفن الطريق والثلاث فتيات قد ترعرعن فى الغابات، وكن على معرفة بأخطارها ويحترمن قواعدها: لا يحيدن عن الممرات.. لا يبقين فى الخارج بعد الغسق. كانت "كاثى" جميلة بشكل استثنائى ومشهورة فى البلدة بجمالها، هذه الملحوظة تضاف دائمًا كما لو كانت تجعل ما حدث أكثر مأسوية، رغم أننى شخصيًا لا أرى أن ذلك يهم.

انطلقت الفتيات ومعهن سلة الطعام والشراب فى التاسعة صباحًا، وعند الرابعة.. الموعد الذى يجب أن يعدن فيه.. لم يكن هناك أى أثر لهن. انتظر آباؤهن ساعة إضافية ثم انطلق كلا الأبوين ليتتبعا آثار أقدام بناتهن، بعد السير فى خط متعرج حول الممرات والنداء المتواصل، وصلا إلى البحيرة وبحثا ومازالا يناديان حتى بعد حلول الظلام، لكن لم يجدا أى أثر لهن، رجعا فيما بعد على اعتقاد أن من الممكن أن تكون بناتهن قد اتخذن طريقا آخر ويكنّ قد وصلن إلى البيت، ولكن الفتيات لم يكنّ هناك.

تم تنظيم بحث ضخم والكل فى البلدة تجمعوا للمساعدة فى البحث عن الأطفال، وقعت السيدة "سيتون" فى نوبات إغماء. وفى مساء اليوم الثانى.. جاءت "كاثى سلون" عائدة إلى "سانت بيير"، كانت ضعيفة وملابسها مهترئة.. كانت قد فقدت سترتها وإحدى فردتى حذائها، لكنها كانت لا تزال ممسكة بالسلة التى كانت تحتوى على غذائهن؛ والتى كانت الآن مليئة بأوراق الشجر على ما يبدو (تفصيل مهول وليس صحيحًا على الأرجح) كثف الباحثون جهودهم لكنهم لم يجدوا شيئًا قط.. ولا فردة حذاء.. ولا قطعة قماش صغيرة من ملابسهن، ولا حتى أثر قدم.. كان الأمر كما لو كانت الأرض انشقت وابتلعتهما.

وضعوا "كاثى سلون" فى الفراش .. رغم أن كونها مريضة أم لا كان سؤالا محيرًا، قالت إن نوعًا من الجدال قد نشب بينها وبين "إيف" بعد انطلاقهن بوقت قصير، فتلكأت خلف الفتاتين حتى اختفيا من مجال الرؤية فسارت حتى البحيرة ونادتهما.. معتقدة أنهن خبيثتان لاختبائهما منها بهذا الشكل، ثم فقدت طريقها فى الغابة ولم تستطع العثور على الممر، ولم تر فتاتى "سيتون" مرة أخرى قط.

أكمل أهل البلدة البحث.. باعثين وفودًا إلى القرى الهندية القريبة، حيث إن الشك وقع عليهم بديهيًا كما يسقط المطر على الأرض، ولكنهم لم يقسموا بالكتاب المقدس أنهم أبرياء فحسب.. ولكن أيضًا لم يكن هناك ولا دليل ضئيل على الاختطاف. بحث آل "سيتون" أبعد وأبعد، عيّن "تشارلز

سيتون" رجالا ليساعدوه فى البحث.. بما فيهم متتبع أثر هندى وبعد ذلك ـ بعد أن ماتت السيدة "سيتون" بقلب مجروح على ما يبدو ـ أتى رجل من الولايات المتحدة وقد كان باحثًا محترفاً، سافر الباحث إلى القبائل الهندية فى كل أنحاء كندا العليا وأبعد من ذلك.. لكنه لم يجد شيئاً.

أصبحت الشهور سنين وعند عمر الاثنين والخمسين مات "تشارلز سيتون".. منهك القوى ومهزوزًا. وبلا ثروة، وصارت "كاثى سلون" الجميلة التى كانت من قبل مثل القط؛ كئيبة وغبية ـ أو هل كانت دوماً هكذا؟ لم يعد بوسع أى أحد أن يتذكر. انتشرت قصة هذه القضية بعيداً وعلى مدى واسع، ثم أصبحت كالأسطورة، تُحكى بواسطة أطفال المدارس بتضارب شديد فى الآراء.. تُحكى بواسطة الأمهات للسيطرة على تساؤلات أطفالهن. نشأت نظريات أكثر جموحاً بشأن ما حدث للفتاتين.. كتب ناس من عناوين بعيدة يدّعون أنهم رأوهما أو تزوجوهما أو أنهم كانوا معهما، ولكن لم تثبت أى منها صحتها قط. وفى النهاية.. لم يستطع أى تفسير أن يملأ الفراغ الذى تركه اختفاء "إيمى" و"إيف سيتون".

كل ذلك كان منذ خمسة عشر عاماً ويزيد، فالسيد والسيدة "سيتون" فى عداد الأموات الآن؛ أولاً ماتت الأم من الحزن، ثم الأب.. مات مفلسًا ومنهكًا من بحثه بلا هوادة، ولكن قصة الفتاتين عادت لنا؛ لأن أخت السيدة "سيتون" متزوجة من السيد "نوكس" ولهذا غرقنا فى صمت مذنب عندما جاءت هى إلى المتجر فى ذلك اليوم، أنا لا أعرفها بشكل جيد، لكنى أعرف أنها لا تتحدث عن الأمر قط. على الأرجح... فى أمسيات الشتاء أمام النار، تتحدث عن شىء آخر.

الناس تختفى.. أحاول ألا أفترض الأسوأ.. ولكن كل النظريات الصادمة حول اختفاء الفتاتين تسكننى الآن. ذهب زوجى إلى الفراش.. إما أنه ليس قلقاً أو أنه غير مبالٍ.. لقد مرت سنوات منذ أن كنت قادرة على معرفة فيما يفكر. أفترض أن هذه طبيعة الزواج، أو ربما الظاهر أننى لست جيدة فيه فحسب، ستميل جارتى "أن بريتى" على الأرجح للاحتمال الأخير؛ فلديها ألف طريقة للتلميح أننى غير كفء فى مهامى الزوجية.

عندما نفكر فى الأمر.. تجد أنه عمل جليل بالنسبة لامرأة ذات مستوى ثقافى منخفض. فهى ترى عدم قدرتى على إنجاب أطفال كعلامة على فشلى فى مهمتى المتعلقة بالهجرة ـ والتى هى على ما يبدو ـ إنجاب وتربية قوة عاملة.. عدد كبير يكفى لإدارة مزرعة دون استئجار مساعدة خارجية. رد فعل شائع فى مثل هذه الدولة الشاسعة ذات التعداد القليل، أعتقد فى بعض الأحيان أن المستوطنين يتناسلون بشكل جدير بالأبطال كاستجابة خائفة لحجم وفراغ الأرض، وكأنهم يستطيعون أن يأملوا فى ملئها بنسلهم، أو ربما هم خائفون أن يمكن لطفل أن ينساق بعيداً بسهولة.. فلابد لهم أن يأتوا بالمزيد دوماً، وربما كانوا على حق.

عندما عدت إلى المنزل بعد الظهيرة كان "أنجوس" قد عاد، أخبرته عن موت "جاميه"، فتفحص غليونه لفترة طويلة مثلما يفعل عندما يكون غارقاً فى التفكير، وجدت نفسى قريبة من الدموع رغم أننى لم أكن أعرف "جاميه" جيداً. كان "أنجوس" يعرفه أكثر؛ فلقد كان يذهب معه للصيد من وقت لآخر، لكنى لم أستطع قراءة المشاعر التى تتحرك تحت جلده. فيما بعد جلسنا فى المطبخ فى أماكننا المعتادة، نأكل فى صمت، بينما فى آخر المائدة كان هناك مكان آخر.. لم يشر أحد منا إلى وجوده.

منذ سنوات كثيرة.. قام زوجى برحلة عودة إلى الشرق.. كان قد ذهب منذ ثلاثة أسابيع وبعث بعدها ببرقية يقول فيها أن أتوقع عودته يوم الأحد. لم نكن قد قضينا ولا ليلة واحدة منفصلين منذ ما يبلغ من أربع سنوات، وكنت أتطلع لعودته، عندما سمعت صرير العجلات على الطريق.. هرعت لاستقباله ثم رأيت وأنا متحيرة أن هناك شخصين فى العربة، وبينما تقترب العربة رأيت أنه كان طفلاً فى حوالى الخامسة.. فتاة صغيرة. شد "أنجوس" لجام الفرس الصغير فركضت باتجاههما وقلبى يخفق بشدة فى حلقى، كانت الفتاة نائمة.. ذات رموش طويلة ترقد على وجنتيها الشاحبتين، كان شعرها أسود اللون وكذلك حاجباها.. الأوردة البنفسجية تظهر خلال جفنيها، كانت جميلة ولم أتمكن من الكلام.. فقط وقفت أحدق.

"كانوا لدى الأخوات الفرنسيات.. مات آباؤهم من الطاعون، سمعت عن الأمر فذهبت للدير.. كان هناك كل هؤلاء الأطفال، فحاولت أن أجد واحداً فى سن مناسبة ولكن.... " تلاشى صوته. كانت طفلتنا الرضيعة قد ماتت منذ عام مضى. أخذ نفسًا عميقًا وأكمل: "لكنها كانت الأجمل.. يمكننا تسميتها "أوليفيا".. لا أعرف إذا كنت تريدين ذلك.. أو.. "

ألقيت ذراعى حول عنقه.. وفجأة وجدت وجهه مبتلا بالدموع، ضمنى بشدة.. ثم فتحت الطفلة عينيها.

"اسمى "فرانسيس"." قالت بلهجة أيرلندية واضحة، كانت لديها نظرة حادة خاصة بها، وعيناها مفتوحتان.. متنبهتان.

"أهلاً.. "فرانسيس"." قلت وأنا متوترة.. ماذا لو لم تحبنا؟

سألتْ: "هل ستكونين أمى؟"

شعرت بوجهى يسخن وأنا أومئ، غرقت فى الصمت بعد ذلك، أخذناها للداخل وقمت بإعداد أجمل عشاء أستطيع صنعه؛ عبارة عن سمك أبيض وخضراوات وشاى مع كثير من السكر، رغم أنها لم تأكل كثيراً وحدقت فى السمك كما لو كانت غير متأكدة ما هذا. لم تقل كلمة أخرى. كانت عيناها الزرقاوان القاتمتان تتنقلان من إحدانا إلى الآخر. كانت منهكة فحملتها بين ذراعى وحملتها لأعلى، جعلنى الإحساس بحمل هذا الجسد الدافئ الغض أرتجف بالمشاعر، شعرت بعظامها ضعيفة تحت يدى وكانت رائحتها عطنة مثل حجرة سيئة التهوية، وحيث إنها كانت نائمة تقريباً قمت فقط بخلع ردائها وحذائها والجورب، ولففتها ببطانية جيداً، شاهدتها وهى تنتفض فى نومها.

وصل والدا "فرانسيس" إلى "بيل أبل" على متن سفينة بضائع تدعى الـ"سارة"، كانت أرخص درجة بالسفينة، محتشدة بالأيرلنديين من "كونتى مانو"، والتى كانت لا تزال تعانى بعد مجاعة البطاطس. مثل هؤلاء الأشخاص الذين يتمسكون بنزوة بعد أن تصبح غير رائجة بوقت طويل،

تفشت حمى التيفويد على السفينة.. رغم أن أسوأ الأوبئة قد انحسر. لاقى مائة تقريباً من الرجال والنساء والأطفال حتفهم على متن السفينة التى غرقت فى رحلة عودتها إلى "ليفربول"، العديد من الأطفال أصبحوا أيتامًا وتم أخذهم إلى بيت الراهبات حتى يستطيعوا إيجاد بيوت لهم.

ذهبت فى الصباح التالى إلى الحجرة الإضافية لأجد "فرانسيس" مازالت نائمة، رغم أننى عندما لمست كتفها بخفة كان لدى انطباع أنها كانت تتظاهر، أدركت أنها كانت خائفة؛ ربما قد سمعت قصصًا مخيفة عن المزارعين الكنديين واعتقدت أننا سوف نعاملها كالعبيد. ابتسمت لها وأخذتها من يدها وقدتها لأسفل حيث كنت قد حضرت حمام ماء ساخن أمام الموقد. أبقت عينيها على الأرض بينما رفعت ذراعيها لأزيل عنها رداءها الطويل.

ركضت خارج المنزل أبحث عن "أنجوس" الذى كان يقطع الأخشاب فى ركن من المنزل.

همست: "أنجوس". شاعرة بالغضب والغباء فى الوقت نفسه.

استدار حوله.. والفأس فى يده.. عابساً فى وجهى.. مرتبكاً: "هل من خطب ما؟ هل هى على ما يرام؟"

أومأت برأسى أى نعم للسؤال الأول، خطر على ذهنى أنه كان يعرف.. لكنى صرفت هذه الفكرة على الفور، معتادًا علىّ.. استدار عائداً إلى جذع الشجرة؛ نزل الفأس إلى أسفل لتنتج عنه أنصاف متساوية تدور حول جذع الشجرة.

"أنجوس" .. لقد أحضرت ولدًا."

وضع الفأس أرضًا.. لم يكن يعرف، عدنا للداخل حيث كان الطفل يلعب بكسل بالصابون فى حوض الاستحمام تاركاً الصابون يتقافز خلال أصابعه، كانت عيناه واسعتين وحذرتين، ولم يكن متفاجئًا لرؤيتنا نحدق فيه.

سألنى: "هل تريدينى أن أعود؟"

"لا ... بالطبع لا." انحنيت على ركبتى بجانبه وأخذت قطعة الصابون من يديه. كانت عظمتا كتفيه تطلان خارجاً مثل جناح.

"دعنى أفعل ذلك." أخذت الصابون وبدأت أحممه، على أمل أن تخبره يداى أكثر من كلماتى أن الأمر ليس مهماً، عاد أنجوس" إلى كومة الخشب وترك الباب لينغلق بشدة خلفه.

لم يبد "فرانسيس" مندهشًا قط أنه قد جاء إلينا مرتديًا ملابس فتاة، فكرنا بعمق لساعات حول ما دفع "القساوسة الفرنسيات" إلى فعل ذلك .. هل اعتقدن أن فتاة قد تجد بيتاً أكثر سهولة من صبى؟ فقد كان هناك صبية فى مجموعة الأيتام، هل لم يلاحظن وجودهم.. مأخوذين بجمال وجه هذا الصبى .. فألبسنه الملابس التى بدا أنها تناسبه أفضل؟ "فرانسيس" نفسه لم يعرض أى تفسير، أو حتى عبر عن أى خجل؛ كذلك لم يظهر مقاومة عندما صنعت له بعض السراويل والقمصان وقصصت له شعره الطويل.

ربما لا يزال يعتقد أننا لم نغفر له ذلك أبدًا ، ولكن الأمر ليس كذلك معى، ربما كان كذلك مع زوجى.. لست متأكدة، فكونه رجلاً من "هاى لاند" هو أمر له توابعه فهو لا يحب أن يُخدع ولا أعرف إذا ما كان قد تعافى قط من تلك الصدمة. كان كل شىء على ما يرام عندما كان "فرانسيس" طفلاً.. كان يمكنه أن يكون مرحاً جداً.. يهرج ويقلد، ولكننا كلنا أصبحنا أكبر سناً والأشياء تغيرت للأسوأ.. كما تبدو دائماً، كبر "فرانسيس" ليصبح شاباً لا يندمج إطلاقاً مع الآخرين، أراقبه وهو يحاول أن يكون جلدًا وصلبًا، لكى ينمى شجاعة حمقاء وعدم احترام متهاون الخطر، والذى هو علة شائعة فى الغابات الخلفية، لكى تكون رجلاً عليك أن تكون شجاعاً ومتحملاً، أن تستخف بالألم والشدائد.. لا تشكُ قط.. لا تتردد أو تضعف قط. رأيته يفشل، كان يجدر بنا العيش فى "تورونتو" أو "نيويورك".. ربما حينها لأصبح الأمر لا يهم، ولكن ما يُعتبر كأعمال الأبطال فى عالم

أضعف يُعد هنا مهام يومية، توقف عن محاولة أن يكون مثل الآخرين.. أصبح حاد الطباع وقليل الكلام، ولم يعد يستجيب إلى العاطفة.. لم يكن يلمسنى قط كأمه التى ربته.

كان الآن فى السابعة عشرة، وكانت لكنته الأيرلندية قد اندثرت ولكن فى بعض الأحيان يكون غريباً كما لم يكن من قبل، يبدو مثل الطفل الذى أبدلوه؛ فهم يقولون إن هناك دمًا إسبانيًا فى بعض الأيرلنديين، وبالنظر إلى "فرانسيس" ستصدق هذا ـ فهو داكن البشرة بنفس القدر الذى أنا و"أنجوس" بيض البشرة، ذات مرة قالت "آن بريتى" مزحة قاسية أنه جاء إلينا من وباء، وقد أصبح هو نفسه وباءنا الخاص، كنت غاضبة منها (ضحكت علىّ.. بالطبع)، ولكن كلماتها التصقت بى وكانت تندفع من ذاكرتى كلما اندفع "فرانسيس" خلال المنزل.. مغلقاً الأبواب بشدة مصدرًا خوارًا كما لو كان بالكاد قادراً على التحدث، أضطر أن أذكر نفسى بشبابى وأعض على لسانى، أما زوجى فكان أقل احتمالا ، فمن الممكن أن يستمرا لأيام بلا نهاية دون أن يتبادلا كلمة طيبة.

لهذا كنت خائفة من أن أخبر "أنجوس" أننى لم أر "فرانسيس" منذ أول أمس، رغم ذلك.. فأنا منزعجة منه لعدم سؤاله، قريبًا ما يحل الصباح وابننا لم يعد إلى البيت منذ ثمانى وأربعين ساعة، لقد فعل ذلك من قبل.. كان يذهب وحيدًا فى رحلات صيد تدوم ليومين أو ثلاثة أيام، ويعود عادة دون سمك وبدون أية كلمة عما فعله، أشك أنه يكره قتل أى شىء؛ فالصيد هو مجرد غطاء لرغبته فى البقاء وحيدًا.

لابد أننى سقطت نائمة على الكرسى؛ لأنى استيقظت عندما كان ضوء النهار قد أشرق تقريبًا، متصلبة وأشعر بالبرد، مجرد رحلة صيد لا يصيد فيها شيئًا ، ظلت الفكرة تعود إلىّ أن ابنى اختفى فى نفس يوم جريمة القتل الوحيدة التى عرفتها "دوف ريفر".

سقط أول شعاع ضوء على ثلاثة ركاب يشقون طريقهم من الغرب، كانوا قد انطلقوا مسافرين لساعات بالفعل، وجاء ضوء النهار كراحة لهم،

بخاصة للرجل الذى كان يركب فى الخلف "دونالد مودى" حيث رأى هذا الضوء الضعيف ضاغطًا على عينيه الضعيفتين؛ مهما ثبت نظارته فوق أنفه، هذا العالم ذو اللون الواحد ملىء بالمسافات غير المحددة والأشكال الخادعة والمتغيرة، و الجو كان متجمدا أيضًا.. كانت أطرافه خدرة وتؤلمه من وقت طويل رغم كونه ملتفًا فى طبقات من الصوف ومعطف من الجلد مبطن بالفراء من الداخل. استنشق "دونالد" الهواء الرقيق اللطيف، المختلف تماماً عن الهواء فى مسقط رأسه مدينة "جلاسكو" الاسكتلندية.. حيث الهواء مغبر ورطب فى هذا الوقت من العام. فالهواء نقى جداً هنا لدرجة أن أشعة الشمس المتكاسلة تبدو وكأنها تسافر بعيداً؛ عندما تكون الشمس قد كسرت لتوها الأفق، مثل الآن.. تكون ظلالهم قد ذهبت خلفهم إلى الأبد.

كان حصانه ـ الذى كان يزاحم الدابة التى أمامه ـ يتعثر، ويحك أنفه فى العجز الرمادى.. متلقيًا ضربة تحذيرية من الأيل.

"لعنك الله.. يا "مودى"!" قال الرجل الذى أمامه ، فدابة "دونالد" إما أن تتلكأ إلى الخلف أو تصطدم بمؤخرة دابة "ماكينلى".

" آسف سيدى." شد "دونالد" اللجام ففرد الحصان أذنيه، كان قد تم شراؤه من رجل فرنسى ويبدو أنه قد ورث بعضًا من اضطهاده للإنجليز.

شعر "ماكينلى" بالامتعاض، فدابته تتصرف بمثالية.. مثل الحصان الذى أمامه، ولكن "دونالد" يُذكر باستمرار بأنه جديد هنا.. حيث إنه قضى فى كندا أكثر من عام ومازال يرتكب أخطاء كبيرة ضد قواعد الشركة، لم يقم أحد بتحذيره مسبقًا؛ لأن تسليتهم الوحيدة تقريبًا كانت أن يشاهدوه يتخبط، يقع فى مشكلات كبيرة ويهين السكان الأصليين، ليس ذلك لأن الرجال الآخرين غير طيبين بالتحديد، ولكن من الواضح أن ذلك كان الأسلوب الذى تعودوه هنا: عضو فريق العمل الأكثر حداثة يجب أن يقضى فترة تدريبه كمثار للسخرية. معظم رجال الشركة لديهم التعليم والشجاعة وروح المغامرة، ويجدون حياتهم فى دولة كبيرة تنقصها الأحداث

كثيرًا. هناك خطر (كما يُذاع)، ولكنه خطر تقيحات السقيع أو البقاء فى البرد بالخارج أكثر من معارك بلا سلاح مع حيوانات مفترسة أو حرب مع السكان الأصليين العدائيين. فحياتهم اليومية عبارة عن سلسلة تافهة من القدرة على تحمل: البرد.. الظلام.. الملل الصارخ.. الاستهلاك الزائد للخمر الرخيص، فبعد أن انضم "دونالد" للشركة أدرك مبكراً أن الأمر مثل الإرسال إلى معسكر عمل.. فقط مع المزيد من العمل الإدارى.

الرجل الذى فى المقدمة؛ "ماكينلى" هو مدير أمن موقع " إدجار"، ويقودهم موظف من السكان الأصليين يدعى "جاكوب" وهو يصر على اصطحاب "دونالد" فى كل مكان.. حتى فى لحظات إحراجه البائنة. لم يكن "دونالد" يهتم كثيرًا بـ"ماكينلى" الذى كان ساخرًا وجارحًا المرة بعد الأخرى؛ طريقة ذات وجهتين لصد الانتقاد الذى يبدو أنه يتوقعه من كل ناحية، كان يخمن أن "ماكينلى" حساس جدًا؛ لأنه يشعر أنه أقل شأنًا اجتماعيًا من بعض الرجال الذين يعملون تحته.. ومن ضمنهم "دونالد"، وهو دوماً فى بحث عن علامات عدم احترام منهم، يعرف "دونالد" بطريقة ما أنه لو كان "ماكينلى" أقلهما بمثل هذه الأشياء لكان أكثر احترامًا، ولكن الرجل ليس من المحتمل أن يتغير الآن.. أما بالنسبة له.. فهو واعٍ أن "ماكينلى" والآخرين يعتبرونه شخصًا ضعيفًا يحصى الحبوب؛ ذا نفع كاف.. لكنه ليس مغامر غابات حقيقى بكل ما فى الكلمة من معنى.

عندما نزل من السفينة قادماً من "جلاسكو"، كان ينوى أن يكون نفسه ويدع الرجال يعرفونه كما هو، لكنه فى الحقيقة قام بمحاولات بطولية ليحسن من صورته فى عيونهم. فقد كان يطور من قدراته على احتمال المشروب الكحولى القوى المذاق الذى كان يمثل الدم الجارى فى جسد هذه القلعة لأن الجميع يشربه، رغم أنه لا يتماشى معه البتة. أول ما وصل كان ليحتسى بأدب من مشروب الروم الذى يصبوه من براميل ضخمة ذات رائحة غير حميمة، معتقداً أنه لم يتذوق أى شىء مقرف بهذا الشكل. علق الرجال الآخرون على امتناعه وتركوه منبوذًا بينما رحلوا هم إلى ممالك

السُكر.. يحكون قصصًا طويلة ومملة ويضحكون مرارًا وتكرارًا على النكت نفسها، تحمل "دونالد" هذا لأطول وقت ممكن، لكن الوحدة ثقلت عليه حتى لم يعد يحتمل هذا، أول مرة يسكر بشكل مذهل، هلل الرجال.. مرتين على ظهره عندما تقيأ على ركبتيه، وخلال الشعور بالغثيان والبلل المُر شعر "دونالد" بشيء من الدفء: بأنه ينتمي ـ أخيرًا سيقبلونه كواحد منهم. ولكن.. رغم أن شراب الروم لم يعد مذاقه سيئًا مثلما كان فى أول مرة، كان عالما بأن الآخرين يعاملونه بنوع من المضض المُسلى، إذ كان لا يزال بالنسبة لهم مجرد المحاسب الجديد.

أما الفكرة الأخرى الرائعة التى كانت لديه ليثبت نفسه هى تنظيم مباراة لكرة الرجبى، وقد كانت فى المجمل فكرة كارثية.. إلا أنها أظهرت شعاع أمل، جعله يقوى فى منصبه.

كانت قلعة "إدجار" تعد موقعًا حضاريًا مقارنة بمعظم قلاع الشركة، فهى تقع قرب شاطئ البحيرة العظمى، وهى مجموعة من المبانى الخشبية بداخل سور حديدى ـ والشيء كله محمى من المنظر الرائع للجزر والساحل خلف حزام من أشجار الصنوبر. ولكن ما يجعل قلعة "إدجار" مبنى حضاريًا هو قربها من المستوطنين، وبخاصة "كالفيلد" على نهر "دوف ريفر" وسكان "كالفيلد" سعداء لكونهم يعيشون قرب مركز للتجارة حيث إنه ملىء ببضائع إنجليزية ورجال الشركة حسنو المظهر، والتجار سعداء بدورهم لكونهم قرب "كالفيلد".. حيث إنها مليئة بالنساء البيضاوات المتحدثات بالإنجليزية اللائى يمكن إقناعهن من آن لآخر بتزيين الحفلات الراقصة للقلعة والمناسبات الاجتماعية الأخرى.. مثل مباريات "الركبى".

فى صباح المباراة.. وجد أنه متوتر، كان الرجال عصبيين ومحمرى الأعين إثر جولة سباق فى الشراب، وتزعزعت شجاعة "دونالد" لرؤية مجموعة من الزوار يصلون، وتزعزعت شجاعته أكثر عندما قابلهم؛ رجل طويل ذو نظرة حادة، والذى كان يمثل صورة الواعظ، وابنتاه اللتان كانتا متحمستين لكونهما محاطتين بالعديد من الشباب اليافع غير المرتبط.

شاهدت الأختان "نوكس" الإجراءات بأدب، غير مدركتين تمامًا لما يحدث، حاول أبوهما أن يشرح القواعد، كما يعرفها.. فى رحلتهم إلى "فورت إدجار"، ولكن كان إلمامه باللعبة رديئًا فقام بإرباكهما أكثر فحسب. تحرك اللاعبون حول الحقل فى عقدة كبيرة غير متساوية؛ والكرة (عبارة عن كتلة ثقيلة حُيكت بواسطة زوجة بحار) أصبحت عامة غير مرئية.

بينما المباراة تتقدم.. تعكر الجو العام، فبدا أن فريق "دونالد" قد توصل إلى اتفاق عام بإبقائه خارج اللعبة وتجاهلوا صيحاته لكى يمرروا الكرة له، كان يركض للأمام والخلف.. على أمل ألا تلاحظ الفتيات أنه لاعب غير ضرورى، عندما جاءته الكرة تركض تجاهه.. يخرج منها قطع صغيرة من الحشوة، التقطها وركض خلال الملعب.. مصممًا على أن يضع بصمته فقط ليجد نفسه على الأرض متقطع الأنفاس. أمسك "جاكوب" القصير ذو العرقين المختلفين بالكرة وركض.. و"دونالد" قام بمطاردته مصرًا على ألا يدع الفرصة تفلت منه، ألقى بنفسه على "جاكوب" ممسكًا بساقيه من تحته فى حركة قاسية لكنها عادلة، التقت رجل ضخم الكرة بكفه وأحرز هدفًا.

بينما هو يرقد على الأرض.. اهتز هتاف "دونالد" المنتصر فى حلقه، رفع يديه من على معدته ليرى أنهما داكنتان ودافئتان، و"جاكوب" يقف فوقه وسكين فى يده، وملامح وجهه تتحرك ببطء لتكون تعبيرًا عن الرعب.

أدرك المشاهدون أخيرًا أن هناك شيئًا ليس على ما يرام وأسرعوا إلى الملعب، تجمع اللاعبون حول "دونالد" الذى كان أول شعور يدركه هو الإحراج، رأى الحكم ينحنى عليه بتعبير اهتمام أبوى.

".. لقد جُرح بالكاد.. حادثة.. من جراء حرارة اللحظة."

كان "جاكوب" قلقًا إلى حد الجنون.. دموعه تجرى على وجهه، نظر "نوكس" إلى الجرح، وقال: " "ماريا".. مررى لى شالك."

خلعت "ماريا" ـ الابنة الأقل جمالاً ـ شالها، ولكن كان وجه "سوزانا" المقلوب هو ما ركز "دونالد" عليه بينما الشال يضغط على جرحه.

بدأ يشعر بألم غريب فى أحشائه، ويلاحظ كيف كان باردًا، لقد تم نسيان المباراة ووقف اللاعبون حوله بقلق.. يشعلون غليونهم، لكن "دونالد" قابل عينى "سوزانا" التى كانت مليئة بالاهتمام ووجد أنه لم يعد يهتم بنتيجة المباراة أو إذا كان قد عرض صفات رجولية قوية، أو حتى إذا كان دمه يتسرب خلال معطفه.. محولاً إياه إلى اللون البنى، كان قد وقع فى الحب.

كان للجرح نتائج غريبة وهى أنه جعل "جاكوب" صديقه الأبدى، جاء إلى جانب فراش "دونالد" فى اليوم بعد المباراة والدموع فى عينيه.. معبرًا عن ندمه العميق والفظيع، كان تأثير الشراب هو ما جعله يفعل ذلك؛ تملكته الروح الشريرة، وسوف يعوض عن هذا الجرح بأن يعتنى بـ"دونالد" شخصياً طوال بقائه فى البلاد، تأثر "دونالد".. وعندما ابتسم مسامحًا إياه وأمسك بيده.. ابتسم "جاكوب" أيضًا، ربما كانت هذه هى أول ابتسامة حقيقية للصداقة كان قد رآها فى هذا البلد.

ترنح "دونالد" عندما نزل من فوق حصانه وحاول أن يعيد بعض الدم إلى أطرافه، كان منبهرًا رغمًا عنه بحجم وأناقة المنزل الذى وصلوا إليه؛ خاصة بالتفكير فى "سوزانا" وكيف يجعلها غير سهلة المنال أكثر. ابتسم "نوكس" بدفء لهم عندما خرج، ثم نظر بحذر غير مخفى إلى "جاكوب". سأل: "هل هذا مرشدك ؟"

قال "دونالد": " هذا "جاكوب"." شاعرًا بالحرارة ترتفع إلى خديه، ولكن لم يبد على "جاكوب" إنه شعر بالإهانة.

"إنه صديق مقرب لـ"موودى". أضاف "ماكينلى" بحدة.

ارتبك القاضى.. حيث إنه متأكد تقريبًا أن آخر مرة رأى الرجل كان يغز سكينًا بداخل أحشاء "دونالد"، إفترض أنه مخطئ.

أخبرهم "نوكس" ما يعرفه و"دونالد" يأخذ ملاحظات، لم تستغرق كتابة الحقائق المعروفة وقتاً طويلاً، كانوا يعرفون ضمنيًا أنه ليس هناك أمل فى العثور على مرتكب الجريمة إلا إذا رأى أحدهم شيئًا ما، ولكن دائمًا شخصًا ما يرى شيئًا ما فى مجتمع مثل هذا؛ فالقيل والقال هى الدم الذى يجرى فى الأماكن الريفية الصغيرة. وضع "دونالد" ورقًا جديدًا فوق ملاحظاته وسواها بخبطة مؤثرة بينما قاموا ليزوروا مسرح الجريمة، لم يكن يتطلع إلى هذا الجزء ويأمل ألا يجلب العار لنفسه بأن يشعر بالغثيان أو ـ كان يعذب نفسه بتخيل أسوأ ما يمكن أن يحدث ـ ماذا لو انفجر فى البكاء؟ لم ير جثة من قبل قط.. ولا حتى جثة جده، رغم أن هذا غير راجح.. فهو يتخيل برعب لذيذ إلى حد ما السخرية التى سيتحملها، لن يقدر على جعل الناس تنسى ذلك وسوف يضطر للعودة إلى "جالاسكو" متخفيًا، وسيعيش على الأرجح متخذًا اسماً آخر، بهذه الأفكار... مرت الرحلة إلى الكابينة فى لمح البصر.

***

يعتقد "توماس ستاروك" أن الأخبار تسافر سريعًا هذه الأيام، حتى عندما لا يكون هناك طرق ولا سكك حديد، فالأخبار ـ أو ابنة عمتها الغامضة الشائعات ـ تسافر بسرعة البرق خلال مسافات شاسعة، إنها ظاهرة غريبة، ظاهرة قد تنتفع من انتباه عقل مثابر مثل عقله. رسالة قصيرة ربما؟ قد تهتم جريدة "جلوب" أو "ستار" بمثل هذا الموضوع.. لو كان مسليًا.

لقد سمح لنفسه أن يعتقد ـ من وقت إلى آخر على مدى السنوات القليلة الماضية ـ أنه أصبح أكثر جاذبية مع تقدمه فى السن، كان شعره فضيًا.. قد رجع إلى الخلف ليكشف عن جبهة أنيقة، فى حالة جيدة.. طويلاً ومجعدًا حول أذنيه. معطفه قديم الطراز لكن قصته جيدة وغير معتاد قليلاً، اللون الأزرق الداكن يملأ عينيه، وعيناه ليستا أضعف مما كانتا عليه منذ ثلاثين عامًا، كان بنطلونه أنيقًا، وجهه حسن التكوين ويشبه

الصقر، أصبح حادًا بشكل لطيف بسبب العيش فى العراء. كانت هناك مرآة متكسرة ومشبرة معلقة على الحائط المقابل، فذكرته أنه حتى فى هذه الظروف المتقشفة فهو رجل من نوع نادر. هذا الكِبر السرى ـ الذى كان يمنحه لنفسه نادرًا كمتعة صغيرة (والأهم من ذلك.. مجانية) ـ يجعله يبتسم لنفسه." أنت بلا شك رجل عجوز سخيف." أخبر صورته فى المرآة بصمت وهو يحتسى القهوة الباردة.

كان "توماس ستاروك" منهمكًا فى مهمته المعتادة، وهى الجلوس فى المقاهى القديمة قليلاً (هذا المقهى يدعى "الشمس المشرقة")، جاعلاً فنجانًا واحدًا من القهوة يدوم لساعة أو اثنتين. تفكيره فى الأخبار والشائعات جاء من مكان ما.. أدرك ذلك عندما وجد أنه يستمع إلى محادثة جارية خلفه، لم يكن يتنصت ـ فهو لن يتدنى إلى مثل هذا الشىء ـ ولكن شيئًا ما شد عقله المتسائل والآن يحاول أن يكتشف ما الذى شد انتباهه... "كالفيلد"، كان هذا هو الشىء.. أحدهم ذكر اسم "كالفيلد"، كان "ستاروك" ـ الذى كان عقله وطريقة ملبسه حادة كما لم تكن من قبل ـ يعرف شخصًا يعيش هناك.. رغم أنه لم يره منذ فترة.

"قالوا إنك لم تر شيئًا مثله قط، مخضب بالدماء.. على الحوائط وكل شىء... لابد أنهم كانوا مهاجمين هنودًا...."

(حسنًا لا يمكن لأحد أن يُلام على سماع محادثة مثل هذه.)

"تُرك ليتعفن فى كابينته.. وظل هناك لعدة أيام، ازدحم الذباب عليه.. بغزارة مثل بطانية.. لك أن تتخيل الرائحة." وافقه صاحبه.

"لم يكن هناك مبرر.. لم يُسرق أى شىء . قُتل فى نومه."

"يا إلهى .. سيصبح الوضع عندنا سيئًا مثلما فى الولايات المتحدة بعد ذلك.. حروب وثورات كل خمس دقائق."

"من الممكن أن يكونوا جنودًا من المتسربين من الجيش.. أليس كذلك؟"

"إن التجار يبحثون عن مشكلة.. يتعاملون مع كل الأنواع... أجنبى من الواضح، لذلك لن تعرف قط... "

"ماذا نحن.."

إلخ.. إلخ.

عند هذه النقطة، كان انتباه "ستاروك"- الذى كان مهتمًا بالفعل - قد شُحذ أكثر، بعد بضع دقائق أخرى من الحديث الذى بلا معنى، لم يعد يستطيع منع نفسه أكثر من ذلك.

"اعذرانى.. أيها السيدان..."

كانت هناك نظرات اختار أن يتجاهلها بينما يلتفت إلى الرجلين: كانا اثنين من الباعة المتجولين.. تحكم عليهما من ملبسهما الرخيص المبهرجة وسلوكهما الشعبى عامة.

"أعتذر حقًا.. أعرف أنه أمر سخيف أن يتدخل الغرباء فى حديث المرء، لكنى لدى اهتمام شخصى بما كنتما تناقشانه لتوكما، تعرفان.. لدى بعض العمل مع تاجر يعيش قرب "كالفيلد"، ولم أستطع إلا أن ألاحظ أنكما تصفان ـ بتفاصيل كثيرة ـ حادثة صادمة وحزينة للغاية. من الواضح أننى لم أستطع منع نفسى من أن أصبح مهتمًا بمثل هذه القصة، وآمل فقط ألا تكون تتضمن الشخص الذى أعرفه..."

كان البائعان المتجولان ـ قد انتفضا واقفين على أرجلهما من جراء هذه الفصاحة فكلاهما ليسا ممن يمكن أن يروا بوصفهما أذكياء.. وهذه هى لغة لا يسمعونها عادة بين جدران مقهى "الشمس المشرقة". تعافى حاكى القصة من حالة الذهول التى أصابته أولاً ونظر لأسفل على أساور "ستاروك" التى كانت تتدلى على ظهر كرسيه، تعرّف "ستاروك" على النظرة على الفور، مصحوبة بانحناءة لأسفل من الرأس، ووقفة تأملية قصيرة، ثم عودة إلى وجه "ستاروك". كان الرجل قد حسب لتوه ـ بالنظر إلى الأساور احتمالية الكسب المادى من بيع المعلومات التى لديه لهذا الرجل، رغم أن

صوته الذى يدل على أنه أمريكى من الساحل الشرقى قد يكون جيداً لشىء ما تنهد.. ولكن السرور الطبيعى النابع من توصيل أخبار سيئة فاز فى النهاية.

"بالقرب من "كالفيلد"؟"

"نعم .. أعتقد أنه يعيش فى مزرعة صغيرة أو ما إلى ذلك، المكان الذى يُسمى على اسم نهر.. شىء ما.. اسم حيوان أو طائر.. شىء شبيه بذلك."

كان "ستاروك" يتذكر الاسم جيداً.. لكنه يريد أن يسمعه منهما.

"دوف ريفر".

نظر الرجل إلى صاحبه، "هذا التاجر.. هل هو فرنسى؟"

شعر "ستاروك" ببرودة الصدمة تعتصر عموده الفقرى. قرأ الرجلان ما ظهر على وجهه، لم يعد هناك شىء يجب أن يقال.

"قُتل تاجر فرنسى فى "دوف ريفر" لا أعرف إذا ما كان هناك أكثر من واحد بهذه المواصفات هناك."

"لا أعتقد أنه هناك... هل تسنى لكما أية فرصة لسماع أى اسم ؟"

"ليس على ما أتذكر الآن.. اسم فرنسى .. هذا كل ما أتذكر."

"إن اسم الرجل الذى أعرفه هو "لورنت جاميه"."

أضاءت عينا الرجل بالرضا وقال: "حسنًا.. أنا آسف.. حقًا آسف.. لكنى أعتقد أن هذا هو الاسم الذى ذُكر."

سقط "ستاروك" فى صمت غير معتاد، كان قد اضطر للتعامل مع العديد من الصدمات فى مشواره الطويل، وعقله يعمل على تحليل العواقب لهذا الخبر، من الواضح أن الأمر مأسوى بالنسبة لـ"جاميه"، إنه قلق على الأقل عليه، حيث إن هناك عملا غير منتهى كان مهتمًا جدًا بإتمامه..

منتظرًا فقط الوسائل المادية لفعل ذلك، والآن "جاميه" قد مات.. فيجب إتمام العمل بأسرع وقت ممكن، وإلا ستفلت الفرصة من يده إلى أجل غير مسمى.

لابد أنه بدا مصدومًا جدًا حقًا، لأنه عندما نظر مرة أخرى لأسفل كان هناك كوب من القهوة وشراب الويسكى الأمريكى على المنضدة. كان البائعان المتجولان ينظران إليه باهتمام كبير وحقيقى ـ فخبر كريه وعنيف مثل هذا له تشويقه الخاص، وأن تصادف وجود شخص ما يتأثر مباشرة بالمأساة ـ ما الذى يمكن أن يكون أفضل من ذلك؟ إن ذلك يستحق وجبات عشاء عديدة. على أثر ذلك مد "ستاروك" يده المرتعشة ليصل إلى الشراب.

علق واحد منهما: "واضح أن أحدًا أخبرك بما لا تحب البتة."

فهم قصدهما"ستاروك" ، وحكى لهما بتردد قصة حزينة عن هدية وعد بها زوجته المريضة، وعن دين غير مدفوع، إنه فى الواقع ليس متزوجًا.. ولكن لم يبد على الرجلين أنهما يمانعان. عند نقطة ما كان ينحنى على المائدة.. تتبعت عيناه طبقًا من اللحم يمر من جانبه وبعد دقيقتين هبطت وجبة عشاء ساخنة أمامه. حقيقة أنه يعتقد (ليس للمرة الأولى) أنه فوت على نفسه العمل بموهبته ـ كان يجب أن يكون كاتب قصص رومانسية.. السهولة التى اخترع بها الزوجة المريضة. عندما شعر أخيرًا أنه قد أعطاهما ما يستحقان بنقودهما (لا أحد يستطيع اتهامه بأنه لم يكن كريمًا مع مخيلته)، صافح كليهما وغادر المقهى.

كان وقتًا متأخرًا من بعد الظهيرة واليوم يهرب ليفلت بعيدًا ويطير فوق الأفق الغربى، سار ببطء إلى حجرته المُستأجرة، عقله يعمل على معرفة كيف سيجد النقود لرحلة إلى "كالفيلد"، بكلمات أخرى ماذا عليه أن يفعل.. ليحافظ على حلمه حيًا.

هناك على الأرجح شخص واحد بقى فى "تورونتو" لم يقم باستنفاد صبره كلية بعد، وإذا تقرب منها بالطريقة الصحيحة فقد تكون صالحة

لإعطائه قرضًا قدره عشرون دولارًا أو ما إلى ذلك، وعلى أثر ذلك تحول بخطواته عند نهاية شارع "واتر" واتجه إلى المناطق الأكثر رقيًا على طول شاطئ البحيرة.

عندما لم أستطع التظاهر بأن الليل أطول من ذلك ـ بعد وقت طويل من شروق الشمس استسلمت للإنهاك وصعدت للطابق الأعلى للفراش. الآن لابد أنه منتصف النهار لكنى لا أستطيع النهوض، يرفض جسدى الأوامر. حدقت فى السقف.غارقة فى التفكير فى الحقيقة المؤكدة أن كل جهود البشر ـ بالأخص جهودى أنا ـ بلا جدوى. لم يأت "فرانسيس" للبيت بعد، وهذا يضيف وزنًا إلى الرأى الذى يقول إننى بلا أية موهبة أو نفع على الإطلاق. إننى قلقة عليه.. ولكن قلقى تغلب على عدم قدرتى على اتخاذ قرار لفعل أى شىء، أنا لست متفاجئة أنه هرب من أم مثلى.

نهض "أنجوس" فى الوقت نفسه الذى كنت أصعد فيه للطابق الأعلى، ولم نتبادل أية كلمة. كانت قد دارت بيننا محادثات قاسية حول "فرانسيس" من قبل، رغم أنها لم تكن تحت مثل هذه الظروف الدرامية. يميل "فرانسيس" إلى تكرار أنه فى السابعة عشرة ويمكنه الاعتناء بنفسه؛ من الطبيعى للأولاد فى سنه أن يتغيبوا لأيام بلا نهاية. لكنه ليس مثل الأولاد الطبيعيين.. أحاول ألا أقول ذلك.. ولكن فى النهاية أفعل.. فالكلام غير المُقال يضغط على فى الحجرة الصغيرة: "فرانسيس" قد ذهب؛ رجل قد قُتل.. بالطبع لا يمكن أن تكون هناك أية صلة.

يتساءل صوت فى رأسى إذا لم يكن "أنجوس" سيحزن كثيرًا لو لم يعد "فرنسيس" للبيت. أحيانًا ينظران لبعضهما البعض بهذا الكره المرير.. مثل ألد الأعداء. منذ أسبوع جاء "فرانسيس" متأخرًا ورفض أن يفعل واحدة من مهامه المنزلية، قال إنه سوف يفعلها فى الصباح، كان يخطو على أرض هشة حيث إن "أنجوس" قد أجرى مجادلة بلا ثمار مع "جيمس بريتى" حول السور الفاصل. أخذ "أنجوس" نفسًا ثم أخبره كيف أنه ولد أنانى وناكر للجميل، عندما ذكر كلمة ناكر للجميل عرفت ما كان آتيًا، انفجر

"فرانسيس": فـ"أنجوس" يتوقع منه أن يكون شاكرًا لمنحه بيت؛ فهو يعامله كعامل مستأجر؛ فهو يكرهه وطالما كرهه.. انسحب "أنجوس" في نفسه، عارضًا فقط لمحة من عدم الاحترام التي أخافتني، حينها صحت في "فرانسيس".. كان صوتي مرتعشًا.. لم أكن واثقة إلى أي حد كان يشملني في غضبه؛ كان قد مضى وقت طويل منذ أن نظر إلى في عينيّ.

كيف كان بإمكاني أن أمنع هذا من الحدوث؟ ربما "آن"على حق في سخريتها مني فأنا غير قادرة على إقامة أسرة، حتى رغم أني اعتدت أن أكره النساء اللاتي يعتقدن أن هذا فقط الذي يهم، ليس معنى هذا أنني قد جئت بأي شيء ذي أهمية.

طاردني حلم اليقظة خلال أرقي؛ كنت أمضيت وقتًا أقرأ قصة رعب قوطي تدور حول رجل صناعي.. يكره العالم لأن مظهره يبعث على الرعب والكره، وفي نهاية القصة يهرب المخلوق إلى القطب الشمالي حيث لا يستطيع أحد أن يراه. في حالة من الأحلام الليلية رأيت "فرانسيس" مُطاردًا مثل هذا الوحش.. الذي كان قاتلاً. في ضوء النهار أستطيع رؤية كيف كان هذا سخيفًا؛ فـ"فرانسيس" لا يمكنه حتى أن يقتل سمكة. في الوقت نفسه.. كان قد ذهب منذ يومين وليلتين.

خطر على ذهني شيء ما في صراعي مع الأغطية، وأخيرًا أجبرني على الذهاب إلى حجرة "فرانسيس" والتنقيب خلال الفوضى، من الصعب أن تميز ما الذي هناك وما الذي ذهب، لذلك استغرق بحثي بعض الوقت لأجد ما كنت أبحث عنه. عندما فعلت.. دخلت في حالة هياج.. أخرج الأشياء من الدولاب وأجري أصابعي تحت الفراش ثم أندفع خلال بقية أرجاء المنزل في عملية بحث مستميت، ولكن دون جدوى ـ لأني أدعو ألا تكون الأشياء هناك عندما تكون موجودة بلا شك. وجدت صنارة الصيد الخاصة به والاحتياطية التي منحها "أنجوس" له عندما كانا لا يزال بينهما حديث، وجدت صناديق وبطاطين النوم، وجدت كل الأشياء التي قد يأخذها في رحلة صيد، كانت الأشياء الوحيدة الناقصة هي مجموعة

ملابس وسكين. بدون تفكير أخذت صنارته المفضلة من الخلف وكسرتها إلى قطعتين ثم دفنت النصفين فى كومة الخشب. عندما فعلت ذلك أخذت أتنفس بصعوبة، شعرت بالذنب والحقارة.. كما لو كنت قد اتهمت "فرانسيس" بنفسى، لذلك دخلت وغليت أوعية من الماء من أجل الحمام، من حسن الحظ أننى لم أدخل إلى المغطس على الفور.. حيث إن "آن بريتى" خطت إلى داخل المطبخ دون حتى أن تطرق.

"آه.. سيدة "روس".. يا لها من حياة دعة تلك التى تعيشينها! تأخذين حماما فى منتصف النهار.. عليك أن تكونى حذرة من الحمامات الساخنة فى مثل سنك، فأخت زوجى داهمتها سكتة قلبية أثناء حمامها.. أنت تعرفين."

كنت بالفعل أعرف حيث إنها أخبرتنى بذلك عشرين مرة على الأقل، فـ"آن" تحب أن تذكرنى أنها تصغرنى بثلاث سنوات، كما لو كان ذلك جيل بأكمله. من ناحيتى كنت أمنع نفسى من الإشارة إلى أنها تبدو أكبر من سنها وأنها تبدو مثل الدب، فى حين أننى حافظت على قوامى وكنت أعد ـ فى شبابى على الأقل ـ جميلة نوعًا ما، لكنها لم تكن لتهتم على أى حال.

"هل سمعت أنهم يجرون التحقيقات؟ لقد أحضروا رجال الشركة.. مجموعة كاملة، إنهم يستجوبون الناس أعلى و أسفل النهر."

أومأت برأسى.. بدون تعليق.

"لقد جاء "هوراس" من "مالارين" وقال إنهم كانوا يتكلمون هناك مع الكل، أتوقع أنهم سيكونون هنا قريبًا." نظرت حولها بنظرة متوحشة. "قالت إن "فرانسيس" لم يظهر فى الجوار منذ صباح أمس."

لم أزعج نفسى بأن أصحح لها وأقول إنه متغيب منذ أكثر من ذلك، قلت : "سوف يتلقى صدمة عندما يعود."

"ألم يكن يذهب مع "جاميه" للصيد ؟" بدت خبيثة.. مسحت عينيها الحجرة مثل طائر جارح؛ كان وجهها وردى اللون.. كعُقاب يبتسم ابتسامة واسعة.. باحثًا عن جثة متعفنة.

"عدة مرات.. سوف يحزن عندما يعرف، لم يكونا أصدقاء مقربين على أية حال."

"يا له من عمل. ما الذى نحن بصدده ؟ إلى جانب ذلك فإنه كان أجنبيًا.. وهم.. الفرنسيون.. مندفعو العواطف.. أليس كذلك؟ عرفت عندما كنت أعيش فى الـ "سالوت" كانوا دائمًا لا يطيقون بعضهم البعض، أتوقع أن يكون واحد منهم جاء ليؤدى عملا ما."

إنها لن تقوم باتهام "فرانسيس" فى وجهى، لكنى أستطيع تخيلها تفعل ذلك فى مكان آخر.. طالما اعتبرته أجنبيًا أيضًا، بشعره الداكن وبشرته الداكنة. كانت تعتبر نفسها امرأة خبيرة بالسفر، ومن كل مكان زارته.. كانت تحضر نوعًا من الاضطهاد كتذكار. "متى سيعود إذًا؟ ألست قلقة.. وهناك قاتل يجرى حرًا فى الجوار."

"إنه يصطاد، على الأرجح لن يعود قبل الغد."

أردتها فجأة أن تغادر، فالتقطت هى التلميح وطلبت منى اقتراض بعض الشاى ـ علامة على أنها تعتقد أنه ليس هناك شىء آخر لتأخذه منى، أعطيتها الشاى برضا أكثرمن المعتاد، وأضفت بعض حبوب القهوة فى نوبة من الكرم التى تضمن أنها لن تعود قريبًا، حيث إن قواعد الغابات الخلفية تملى عليك أن تجلب شيئًا مساويًا مع كل زيارة.

"حسنًا... مع أطيب التمنيات."

وبالرغم من ذلك ظلت لا تذهب.. تنظر إلىّ بتعبير لا أعتقد أننى رأيته على وجهها من قبل، وقد أزعجنى بطريقة ما.

كان للماء الساخن تأثير ذو نفع علىّ، أخذ حمامًا ليس ضروريًا فى نوفمبر، لكننى أراه أكثر كبديل متحضر للحمامات الصادمة التى اعتادوا

أن يعطوها لنا فى المصحة العقلية. لقد اختبرت "الدوش" مرتين ـ فى الأيام الأولى ـ ورغم أنه سيئ للغاية فى الترقب والمدة، فهو يتركك تشعر بهدوء ملحوظ وذهن رائق.. وحتى متحمس. كان الجهاز بسيطًا حيث بواسطته يتم ربط المريض ـ فى هذه الحالة أنا ـ إلى كرسى خشبى وهو يرتدى رداءً فضفاضًا من القطن الرقيق بينما يُرفع دلو كبير من الماء البارد فوق رأسه، يقوم مساعد بسحب رافعة ويصب الدلو.. مغرقًا إياه بالماء البارد. كان هذا قبل أن يتولى "بول" ـ دكتور "واطسن" ـ منصب المسئول ويبدأ فى تطبيق نظام ألطف للمجانين، والذى كان يعنى (على الأقل للنساء) الحياكة وتنظيم الزهور وكل هذه الأنواع من الهراء. لقد وافقت فقط على دخول المستشفى فى المقام الأول لأبتعد عن هذا النوع من الأشياء.

التفكير فى وقتى فى المصحة العقلية يبهجنى دائمًا ـ الميزة من شبابى البائس على ما أفترض، لابد أن أتذكر أن أشارك "فرانسيس" هذه اللآلئ من الحكمة عندما يعود إلى البيت.

قدم نفسه على أنه السيد "ماكينلى"، المسئول عن " إدجار فورت". كان رجلاً نحيفًا، وشعره غزيرًا مقصوصًا قصيرًا ليبدو ـ بطريقة مناسبة ـ مثل الفراء، شىء ما بشأنى أدهشه ـ أعتقد أنها لكنتى التى كانت أكثر ثقافة من لكنته وتبدو على الأرجح لا تنتمى للمكان هنا. أصبح سلوكه يميل إلى الخضوع قليلاً عند ذلك، رغم أننى أستطيع أن أرى أنه كان يقاومه، فى المجمل لم يكن رجلاً سعيدًا، رغم أنه لم يكن حقيقيًا أنى لدى أى شىء لأصيح بشأنه.

"هل زوجك هنا؟ سأل بحدة، كامرأة لست من المفترض أن أدرك أى شىء.

"لقد خرج للعمل، وابننا فى رحلة صيد، أنا السيدة "روس" أنا التى وجدت الجثة."

"آها... فهمت."

إنه حالة مدهشة.. واحد من الرجال الأسكتلنديين الذين يكشف تعبير وجوههم عما يدور فى أذهانهم، أثناء استيعابه لكل هذه المعلومات أخذ وجهه يتغير مرة أخرى، وعلى رأس كل من المفاجأة والإجلال واللباقة وازدراء طفيف.. اهتمام حاد، أستطيع مشاهدته طوال اليوم.. لكن لديه وظيفة ليقوم بها، وأنا لدى وظيفتى.

أخرج دفتر ملاحظاته وأخبرته أن "أنجوس" سوف يعود لاحقًا، لكنه كان فى الـ"سالوت" حتى أمس بعد الظهيرة، و"فرانسيس" غادر صباح أمس. كانت هذه كذبة، لكنى قد فكرت فيما سأقول ولا أحد يعرف أى فرق ، بدا مهتمًا بـ"فرانسيس"، قلت إنه اتجه شمالاً لبحيرة "سوالو"، لكن قد يمضى قدمًا لو لم يكن السمك هناك مطيعًا.

أقول إنهم كانوا ودودين.. أخذ هو ملاحظات.

فكرت بشدة فيما أقول حول "فرانسيس" و"جاميه" وصداقتهما، خطر على ذهنى أنه ربما كان "جاميه" صديقه الوحيد، رغم أن "جاميه" كان أكبر سنًا بكثير.. وكان فرنسيًا، أقنع "جاميه" "فرانسيس" بالذهاب إلى الصيد.. الشىء الذى لم يستطع التعامل معه قط. كان هناك أيضًا هذه المرة فى وقت باكر من هذا الصيف عندما كنت أسير إلى بيت "ماكلارين" ومررت بكابينته، سمعت عزف كمان ـ صوتًا بديعًا.. مختلفًا تمامًا عن موسيقى الكمان الإسكتلندى ـ لحنًا شعبيًا فرنسيًا ما، على ما أعتقد. كان جذابًا حتى أننى انحرفت باتجاه الكابينة فى رغبة شديدة للاستماع، ثم انفتح الباب بعنف وقد امتد جسد ما... أطراف متفرقة فى الهواء، ثم انسحب عائدًا للداخل فى لعبة من نوع ما. الموسيقى التى كانت قد توقفت بدأت مرة أخرى، وواصلت سيرى، أخذ منى بضع لحظات لأدرك أن الجسد كان لـ"فرانسيس"، فأنا بالكاد تعرفت عليه.. ربما لأنه كان يضحك.

لم يكن الرجل غبيًا رغم وجهه المفضوح، لكن ربما كان كل هذا تمثيلاً ـ يلقيك خارج الموضوع، الآن ويا للغرابة كان تعبير وجهه مختلفًا

تماماً ـ نظر إلىّ بلطف تقريباً، وكأنه قد ثبت لديه أننى مخلوق ضعيف لا يشكل أى تهديد عليه، لست متأكدة ماذا فعلت لأعطيه هذه الفكرة، ولكن هذا ضايقنى.

شاهدته من خلال النافذة يمشى فى الطريق لمزرعة آل "بريتى" وفكرت فى "آن"، أتساءل ما إذا كان التعبير الذى رأيته على وجهها كان الشفقة.

***

تعلم "دونالد" بعض الحقائق عن "كالفيلد"، فمن ناحية.. عندما يطرق أحدهم على باب منزل يصيب الذعر سكانه.. حيث إن لا أحد يطرق الأبواب فى الظروف العادية. عندما يدركون أنه لا أحد من أفراد عائلتهم قد مات أو جُرح أو قُبض عليه، يجرونه للداخل ويزودونه بالشاى ويعتصرون منه المعلومات. كانت ملاحظاته عبارة عن مراجع متشابكة فى حالة من فوضى: العائلة الأولى لم يروا أى شىء لكنهم بعثوا لابن عم، الذى اتضح أنه زوج امرأة أخرى، والذى انتظره لساعة قبل أن يدرك أنه قد قابله بالفعل. يندفع الناس داخل وخارج منازلهم يتبادلون القصص والنظريات والنبوءات المشوقة المثقلة بالمصير السيئ عن حالة البلاد، مجرد محاولة فهم ذلك هو بمثابة محاولة لتجميع النهر بين ذراعيك.

كان الظلام قد حل بالوقت الذى أكمل نصيبه من الاستجواب، انتظر فى حجرة الضيوف فى منزل "نوكس" وحاول أن يصل لاستنتاجات فيما قد سمعه. كشفت ملاحظاته أن لا أحد ممن تحدث معهم رأى أى شىء غير المعتاد ـ لم يعط اهتماماً للسلوك غير النمطى للسناجب الذى رآه "جورج أدامند" هذا الصباح. أمل "دونالد" ألا يكون قد خذل الآخرين بنسيان شىء واضح، كان متعباً، وقد شرب كمية كبيرة من الشاى وفيما بعد الويسكى؛ وألقى وعوداً بإعادة زيارة بيوت عديدة، لكنه متأكد تقريباً أنه لم يقابل قاتلاً.

كان يتساءل كيف يسأل عن مكان الحمام عندما فتح الباب ونظرت منه ابنة "نوكس" الأقل جمالاً. وقف "دونالد" على الفور وأوقع بعض الأوراق، التى أعادتها "ماريا" له بابتسامة خبيثة، احمر وجه "دونالد" لكنه كان شاكراً أنها "ماريا" وليست "سوزانا" هى التى شهدت على حماقته.

"هل أقنعك والدى بالعمل كمخبر إذًا؟"

شعر "دونالد" على الفور بأنها أحست بعدم شعوره بالأمان فيما بعد الظهيرة وإنها تسخر منه.

"بالطبع على شخص ما أن يحاول العثور على الشرير."

"حسنًا.. نعم بالطبع.. لم أقصد أن..." وتلاشى صوتها، بدت متضايقة.... كانت تحاول فقط أن تجرى محادثة، أدرك ذلك متأخراً جدًا، كان يجب عليه أن يوافقها بمرح أو يرد بملاحظة ماهرة.

"هل تعلمين متى يعود والدك؟"

"لا! " نظرت له نظرة تقيمية، "ليس عندى أية فكرة عن ذلك." ثم ابتسمت بدهاء. "هل لى أن أسأل "سوزانا"؟ ربما تعرف، سوف أذهب وأجدها."

تركت "ماريا" "دونالد" ليتساءل ماذا فعل ليجلب لنفسه مثل هذه الحدة، تخيل الأختين وهما تضحكان بخبث على قلة لباقته الاجتماعية، وشعر بموجة من العاطفة لدفاتر حساباته فى الشركة، المليئة بالأرقام المنسقة التى ـ بالقليل من التلاعب ـ يستطيع أن يحلها بطريقة صحيحة دائمًا. كان فخورًا بنفسه لقدرته على تقديم سجلات للنقاط الغامضة مثل التنظيف الذى يتم بواسطة نساء محليات أو الطعام الذى يجلبه الصائدون وبذلك يتوازنون مع "كرم الضيافة" الذى تقدمه الشركة لعائلات البحَّارين. لو كان فقط من السهل التعامل مع الأشخاص بهذا الشكل.

نبهه سعال مهذب لحضور "سوزانا".. فقط قبل أن تفتح الباب.

"السيد "مودى"؟ آه.. تُركت تمامًا؛ هل لى أن أطلب لك بعض الشاى؟"

ابتسمت برشاقة، مختلفة تمامًا عن شقيقتها، لكنها مازالت لديها التأثير الذى يجعله يقفز على قدميه، لكنه تمسك بملاحظاته هذه المرة.

"لا شكرًا.. لقد كنت.. حسنًا.. نعم.. ربما.. هذا سيكون.. شكرًا." حاول ألا يفكر فى جالونات الشاى التى شربها.

عندما وصل الشاى، جلست "سوزانا" لتبقى فى صحبته.

"إن هذا لعمل فظيع آنسة "نوكس"، أتمنى لو كنا تقابلنا تحت ظروف أسعد من ذلك."

"أعرف.. إنه لأمر سيئ، ولكن آخر مرة كانت سيئة أيضًا، لقد كنت... لقد تعرضت للهجوم، هل تعافيت تمامًا؟ لقد بدا الأمر مريعًا!".

"نعم لقد تعافيت.. شكرا لكِ." ابتسم "دونالد" متحمسًا أنه قد أسعد أحدًا بأخبار جيدة، رغم أن الحقيقة أن الجرح مازال طريًا ويؤلمه أحيانًا.

"هل تلقى الرجل جزاءه؟"

لم يكن "دونالد" قد فكر فى أن يتلقى "جاكوب"عقابًا. "لا.. كان نادمًا جدًا وأصبح حارسى الدائم، أعتقد أن هذه هى الطريقة الهندية للتعويض عن الخطأ، إن هذا أكثر نفعًا من العقاب، ألا تعتقدين ذلك؟"

اتسعت عينا "سوزانا" من المفاجأة، ولاحظ "دونالد" أنهما ذات ظل بندقى اللون خاص مرصع بالذهبى.

"هل تثق فيه؟"

ضحك "دونالد": "نعم! أعتقد أنه مخلص تمامًا، إنه هنا الآن."

"يا إلهى! لقد بدا مخيفًا جدًا."

"أعتقد أن المُلام الحقيقى كان الشراب، وقد أقسم أن يقطاعه للأبد.. إنه لطيف جدًا.. لديه ابنتان صغيرتان يعشقهما، تعرفين.. أنا

أساعده فى تعلم القراءة، ولقد أخبرنى أنه يجد القراءة والكتابة مدهشين تمامًا مثل صيد غزال."

"حقا؟" ضحكت هى الأخرى ثم صمتا.

"هل تعتقد أنك ستجد هذا الذى قتل الرجل المسكين؟"

ألقى "دونالد" نظرة على ملاحظاته، التى لم تكن لتساعد بالتأكيد، ولكن "سوزانا" كان لها طريقة فى النظر له بمثل هذا الدفء والثقة حتى أنه تمنى أن يحل ليس فقط جريمة القتل هذه.. ولكن كل الأخطاء الموجودة هناك.

"أعتقد أن أحدهم لابد أن يكون قد رأى غريبًا فى مكان مثل هذا ـ يبدو أن الناس يعرفون عامة ماذا يفعل كل فرد."

"نعم.. إنهم يعرفون.." قالت ووجهها يتغير.

"شىء مروع مثل هذا.. فلن نستريح حتى يقف هذا الرجل أمام العدالة، لن يكون عليك أن تعيشى فى خوف."

"أنا لست خائفة." أومأت "سوزانا" برأسها فى رفض، مالت ناحيته قليلاً وخفضت صوتها.. "لقد عشنا فى مأساة.. أنت تعرف."

إنها جملة غير عادية حتى أن "دونالد" حدق.. كما كان ينوى أن يفعل. "أوه.. أنا لم أعرف.. أنا آسف جدًا..."

بدت "سوزانا" مسرورة، حيث إن كونها العضو الأصغر فى الأسرة فإنه من النادر أن تكون الشخص الذى يقص القصة العظيمة ـ فالكل فى كالفيلد يعرفها بالفعل، والغرباء عادة لا يُتركون تحت رحمتها، فأخذت نفسًا.. مستمتعة بلحظتها.

"كان منذ وقت طويل مضى، وكنا صغارًا جدًا عندما حدثت لذلك لا أتذكر، وكانت أخت أمى التى رأيتها هى التى..."

انفتح الباب فجأة حتى أن "دونالد" كان متأكدًا أن "ماريا" كانت تتنصت وراء الباب.

"سوزانا"!.. لا يمكنك أن تخبريه بذلك!" كان وجهها أبيض متشنجًا من المشاعر، رغم أنه من الضغط على كلماتها كان من الصعب أن تعرف ما إذا كانت غاضبة أكثر لأن "سوزانا" هى التى كانت تحكى، أو أن "دونالد" كان جمهورها. التفتت إلى "دونالد" قائلة: "من الأفضل أن تأتى؛ فوالدى قد عاد."

كان "نوكس" و"ماكينلى" فى حجرة الطعام، أكوام من الورق على المائدة، ما جعل "دونالد" يهلع أن كليهما يبدو أنه قد كتب أكثر مما كتبه هو بكثير، نظر "دونالد" حوله باحثًا عن "جاكوب".

"أين "جاكوب"؟ هل سيتناول العشاء معنا؟"

"جاكوب" على ما يرام، إنه يهتم بـ ـ إحم ـ الجثة."

"ماذا كان رأيه حول التلف؟"

حدق "ماكينلى" فيه بغضب غير حاد: "أنا متأكد أن رأيه من رأينا."

سعل "نوكس" ليجرهم مرة أخرى إلى المسألة التى هم بصددها، ولكن "دونالد" لاحظ أنه قد تراجع بطريقة ما.. بينما "ماكينلى" قد تقدم للأمام.. محتلا الصدارة فى مناقشتهم، إنه المسئول.. الشركة قد تولت الأمر.

قام كل رجل بتلخيص المعلومات التى وجدها، والذى أدى إلى استنتاج أن لا أحد رأى الكثير على الإطلاق. مر تاجر يدعى "جروس أندريه" منذ عدة أيام، وهناك بائع متجول يدعى "دانيل سوان" معروف لدى الجميع.. كان فى "كالفيلد" أول أمس، وتحرك باتجاه "سانت بيير"، بعث "نوكس"برسالة إلى الحاكم هناك، أما "ماكينلى" فوجد صبيًا صغيرًا رأى "فرانسيس روس" وهو يذهب إلى كابينة "جاميه" ذات مساء -لا يذكر أى مساء بالتحديد ـ والآن "فرانسيس" غائب.

"تقول الأم إنها لا تعلم متى يعود، تحدثت إلى بعض الجيران عنه، فهو يبدو كسمكة غريبة، يبقى نفسه لنفسه."

أضاف "نوكس": "وهذا لا يعنى أنه فعلها."

"يجب علينا أن ننظر إلى كل احتمال، نحن لا نعرف إذا ما كان كلاهما قد زار "جاميه"."

"بالطبع زاره التاجر، فهو يبدو فرنسيًا، أنت قلت من قبل إنها على الأرجح كانت مجادلة حول تجارة."

التفت "ماكينلى" بنظره إلى "دونالد": "أنا أقترح أن أتبعه، وأكتشف ماذا يحدث."

"حسنًا .. هل أتبع هذا الرجل المدعو "سوان" ؟"

هز "نوكس" رأسه: "هذا لن يكون ضروريًا، لقد أرسلت رسولاً وسوف يتم حجزه فى "سانت بيير"، يجب أن أذهب هناك بنفسى لذلك سوف أستجوبه، نحن نقترح أن تنتظر هنا مع "جاكوب" وتستجوب فتى آل"روس" عندما يعود."

خاب أمل "دونالد" لحظيًا، ثم.. بعد أن أدرك الفرص التى ستتاح له، لا يصدق حظه.

عبس "ماكينلى" وقال: "ربما سيكون من الأفضل أن يتبعوه، فلو كان قد هرب فلن تكون هناك فائدة من الانتظار حتى نفقد الأثر."

"ولكن أين سيبحثون؟ فربما لم يذهب إلى بحيرة " سوالو " من الأساس فنحن نعتمد على كلمة الأم فقط، إنه مجرد صبى، وليس لديه أى دافع،على حد علمنا. وعلى العكس تمامًا.. فيبدو أنهما كانا أصدقاء."

"يجب أن نجعل عقولنا مفتوحة لأى شىء ." حدق "ماكينلى" بغضب.

"بالطبع.. لكنى أعتقد أن السيد "مودى" سيضيع وقته مسرعًا إلى هذه البحيرة.".. التفت إلى "دونالد". "ربما يمكنك الانتظار ليوم أو اثنين، وإذا لم يعد بحلول ذلك الوقت، فيمكنك الذهاب وراءه، فيوم لن يمثل أى فرق بالنسبة لـ"جاكوب".. فالفتى ليس هنديًا وسيكون من السهل اقتفاء أثره."

كان "جاكوب" مسيحيًا، لكنه لا يزال يشعر بعدم راحة عميقة لفكرة التعامل مع جسد ميت، وجسد ذُبح بهذه الطريقة فهو يستدعى نوعًا من عدم النظافة. هو واثنان متطوعان بالأجر، وواحدة قابلة تتدرب على تكفين الموتى، تم إرسالهم لإحضار الجثة إلى "كالفيلد"، وكانت هى الوحيدة التى لم تتوقف عن عملها بسبب الرائحة، طقطقت القابلة ببساطة فى وداعة وبدأت تنظف بالإسفنجة الدم الجاف، كان الجسد قد استرخى لذلك قاموا بجعله يقف مستقيمًا وأغلقوا عينيه ووضعوا عملة معدنية فى فمه. ربطت القابلة قطعة قماش حول رأسه لتبقى فكه مغلقًا وتغطى الجروح، ثم لفوه بالملاءات حتى لم يتبق منه إلاّ الرائحة. كان طريق العودة إلى "كالفيلد" وعرًا جدًا حتى أنه اضطر أن يبقى يده على الجثة كى لا تتدحرج من على العربة.

الآن ترقد الجثة على منضدة خلف ستائر وضعت بفوضوية فى مخزن "سكوت" للأقمشة، محاطة بصناديق القماش والمسامير، وقف ثلاثتهم وساعى "سكوت" حول المائدة فى صمت، تغير متفق عليه قبل أن يبتعدوا، علق الجميع على الجو؛ وكيف أنه من حسن الحظ أنه بارد.

تتبع " دونالد" رائحة التبغ حتى وصل إلى الإسطبلات، حيث كان "جاكوب" يدخن غليونه فى عُش من البوص(*) فجلس بجانبه فى صمت. عبث "جاكوب" فى التبغ الذى فى غليونه، كان التحدث عن الرجل الميت سيجلب الشؤم، كان متأكدًا.. لكنه علم أن هذا هو ما يريد "دونالد" أن يفعله.

" أخبرنى ماذا تعتقد."

كان "جاكوب" قد اعتاد على أسئلة "دونالد" غير المعتادة، فهو دومًا يسأله ماذا يعتقد فى هذا وذاك، بالطبع إنه من الطبيعى أن يسألك أحدهم عما تعتقد بالنسبة للطقس أو أشياء عن الصيد فلنقل أو عن الوقت المناسب لرحلة، ولكن "دونالد" يفضل التحدث عن الأشياء الغامضة وغير المهمة، مثل قصة قرأها لتوه أو ملاحظة قالها شخص ما منذ يومين. يحاول "جاكوب" أن يفكر ما هذا الذى يريد "دونالد" أن يعرفه.

(*) (أعواد القمح الجافة).

"أنت تعرف أنه ذُبح، كان هذا سريعًا وبطريقة نظيفة، فرقبته قُطعت بينما كان راقدًا.. ربما نائمًا."

"أيمكن لرجل أبيض أن يكون فعلها؟ "

كشف "جاكوب" أسنانه اللامعة فى ضوء المصباح عن ابتسامة واسعة وقال: "أى رجل يمكن أن يفعل ذلك، إذا كان هذا ما يريد فعله."

" هل جاءك أى شعور عمن قد يكون فعلها، أو لماذا؟ لقد كنت هناك."

"من فعلها؟ أنا لا أعرف.. شخص لم يشعر ناحيته بأى شىء، لماذا قام بقتله؟ ربما لأنه فعل شيئًا ما منذ وقت طويل مضى، ربما أذى شخصًا ما... " توقف "جاكوب".. عيناه تتبعان مسار الدخان الصاعد إلى ألواح السقف." لا.. إذا أردت أن تفعل ذلك.. فأنت تريده أن يكون مستيقظًا واعيًا ليعرف أنك فزت عليه."

أومأ "دونالد" برأسه.. مشجعًا إياه.

"ربما قتل لما كان ينوى أن يفعل.. ليتوقف، أنا لا أعرف، لكنى أعتقد أن من فعل ذلك قد فعله من قبل على الأرجح."

أخبره "دونالد" حول انتظاره لفتى آل "روس"، وتتبعه إذا لزم الأمر.

أما "ماكينلى" فسيذهب خلف التاجر ـ من الواضح أنه أكثر المشتبه فيهم ـ بالأخذ فى الاعتبار المجد المحتمل للإمساك بقاتل بنفسه."

ابتسم "جاكوب": " ربما ما كان يجب أن يذهب بمفرده إذا كان هذا الرجل قويًا جدًا.. ربما يقوم بقتله أيضًا."

مرر أصبعه عبر رقبته، حاول "دونالد" ألا يبتسم، منذ أن صادق "جاكوب" أصبح على وعى بعدم شعبية "ماكينلى" العالمية.

"ألا تظن أنه من الغريب أن لا أحد قد أرسل أى ـ إحم ـ هنود.. فى الأيام القليلة الماضية؟ لو كان هنديًا هو الذى قتله.. أنا أقصد."

" لو أراد هندى ألا يُرى.. فلن يُرى، على الأقل هذا صحيح بالنسبة لشعبنا، بالنسبة للآخرين... " استنشق باحتقار. "تشيبيوى".. أنا لا أعرف ربما ليسوا متتبعين جيدين. " كان حريصًا على الابتسام ليعرف "دونالد" أنه يمزح.

يشعر "دونالد" أحياناً أنه مثل الطفل بجانب هذا الشاب الذى يكبره بالكاد، بعد أن تعافى من جرحه، بدأ يساعد "جاكوب" فى القراءة والكتابة، ولكن علاقتهما ليست علاقة مدرس وطالب. يشك "دونالد" أن المعرفة التى تعلمها من الكتب التى ينقلها إلى "جاكوب" هى معرفة ليست ملكه ليعطيها؛ لقد حدث فقط أنه يعرف كيف يستفيد منها، من الناحية الأخرى عندما يخبره "جاكوب" بشىء ما.. يبدو وكأنه يمتلكه كليًا، كما لو كان يأتى من داخله. لكن ربما يشعر "جاكوب" بنفس الشعور؛ فعلى كل حال العالم من حوله هو مجرد سلسلة من العلامات التى يحدث أن يفهمها، وبنفس الطريقة التى يستطيع بها "دونالد" فهم معانى الكلمات على الورق دون تفكير، سيحب "دونالد" أن يعرف ماذا يعتقد "جاكوب" فى هذا.. لكنه لا يستطيع تخيل كيف سيبدأ فى سؤاله.

***

تشاهد "ماريا نوكس" ظاهرة قد رأتها مرات كثيرة من قبل، وهى تأثير أختها على شاب ما، لقد اعتادت على ذلك، منذ أن كانت فى الرابعة عشرة وأختها فى الثانية عشرة والفتيان يلتفون حول "سوزانا"، ويغيرون من سلوكهم فى حضورها.. ويصبحون عدائيين أو خجولين أو صاخبين ومتفاخرين، وفقًا لطبيعتهم. أما "ماريا" فكانوا يتجاهلونها؛ عادية الجمال وساخرة، كانت إما رفيقًا للعب أو ـ فيما بعد ـ شخصًا تنقل الواجب المنزلى منه. ولكن "سوزانا" كانت لها شخصية مشرقة غير عادية ومع نموها أكثر أصبح واضحًا أنها كانت جميلة أيضًا. لم تكن ذات مهارة عالية فى معظم الألعاب، ولو اهتمت بشكلها (الذى كانت تفعله بالطبع) فهى كانت متواضعة، حتى حانقة على الانتباه الذى يجذبه. كأعضاء فى أسرة

(وفى مجتمع كذلك.. على الأرجح) يحفرون ـ أو يُدفعون إلى ـ قواعد لأنفسهم، ثم يصبحون سجناء هذه القواعد، لذلك أصبحت "سوزانا" حبيبة الكل: مدللة لكنها متعالية قليلاً، فى حاجة إلى حماية من حقائق الحياة القاسية مثل الخزانات المعقمة المغلقة وفرض الضرائب. فى هذه الأثناء أصبحت "ماريا" امرأة متعلمة محبة للجدال، قرأت كثيرًا خلال سنوات مراهقتها، أصبحت ذات اهتمام بمبدأ توسع الأراضى، الحرب مع الجنوب وموضوعات أخرى يعتقد العامة أنها غير مناسبة للفتيات الشابات. لديها اشتراكات فى عدة صحف كندية وأجنبية منذ ثلاث سنوات، فى العلن هى"ريفورمر" (ولكن فى السر هى تفضل الـ"كلير جريتس") معجبة بـ" تير" وتتجادل مع والدها حول حبه لـ"جورج براون". كل هذا فى مدينة صغيرة حيث قراءة جريدة بينما ترتدين فستانًا يجعل المرء يُعرف على أنه غريب الأطوار، ولكن "ماريا" على وعى أن الفرق بين القدرات العملية لدى "سوزانا" ولديها ليس كبيرًا جدًا، لو كانت "سوزانا" عادية الجمال وبالتالى تُركت مع نفسها بلا مساعدة، لكانت على الأرجح قادرة على جعل نفسها مثقفة مثلها تمامًا، وهى صادقة بشكل كاف لتعترف أنها هى نفسها لو كانت فُضلت بجمال أكبر، لأصبحت أكسل فى الجرى وراء المعرفة، إنها حقًا فروق صغيرة التى تحدد مسار الحياة.

من وقت إلى آخر تأتى على ذكر موضوع الالتحاق بالجامعة، فهى فى العشرين من عمرها وبدأت تشعر أنها إذا لم تذهب قريبًا فسوف يصبح الأمر محرجًا. ولكن أسرتها تدعى أنهم لا يمكنهم الاستغناء عنها، ويثبتون ذلك بإشراكها فى كل شىء يحدث؛ تستشيرها أمها فى كل مجال من شئون المنزل.. مدعية أنها لا تستطيع التأقلم ("إذا ماذا كنت تفعلين عندما كنت طفلة ؟" افتراضيًا). والدها كثيرًا ما يناقش قضاياه معها، أما بالنسبة لـ"سوزانا" فتلقى بذراعيها حولها وتبدأ فى النواح قائلة إنها لا تستطيع العيش بدونها. بالطبع.. ربما أنها تنقصها الشجاعة للرحيل من "كالفيلد"، (ربما.. حتى أنها لم تنجح فى المدينة؟) لقد تساءلت حول ذلك، لكن التفكير فى هذا كثيرًا ما يصيبها بالاكتئاب، لذلك حينما تأتى

الاحتمالية تلتقط صحيفة أخرى وتنحى الفكرة جانبًا. إلى جانب ذلك.. لو كانت ذهبت إلى الجامعة هذا الخريف لما كانت هنا لتدعم أسرتها خلال هذا الوقت الصعب، فأمها ترتدى وجهًا شجاعًا لكن فى أعماقها هناك رعب مُخبأ فى العراء.

ليومين سعت "ماريا" للاختلاء بأبيها لتسأله عن القضية.. الشىء الذى كان مستحيلاً حتى هذا المساء. هى واثقة أنه سيشركها فى أفكاره وأنه متحمس لمناقشة نظرياتها الخاصة، ولكن بعد أن ذهب رجال الشركة للنوم.. كان وجهه رماديًا من الإرهاق والذى لا يعد لونًا جيدًا قط.. عيناه غائرتين وأنفه بارزًا أكثر من أى وقت مضى، ذهبت ووضعت ذراعيها حوله بدلاً من ذلك.

"لا تقلق.. أبى .. سوف تحل القضية قريباً جدًا وسوف تصبح ذكرى."

"آمل فى ذلك.. يا "مامى"."

إنها ـ سرًا ـ تحب أن يدعوها بهذا.. اسم التدليل من طفولتها ولا أحد آخر مسموح له أن يستخدمه قطعًا.

"إلى متى سوف يمكثون؟"

"الوقت الذى يأخذونه ليستجوبوا كل شخص يريدون استجوابه.. على ما أعتقد، أنهم ينوون الانتظار حتى يعود "فرانسيس روس"."

"فرانسيس روس"؟ حقًا؟" كان "فرانسيس" يصغرها بثلاث سنوات وبالتالى ما زالت تفكر فيه كصبى متذمر وسيم تضحك عليه الفتيات بخبث فى المدرسة الثانوية. " حسنًا.. ليس عليهم أن يبقوا معنا.. يمكنهم الذهاب إلى بيت آل"سكوت"، أنا واثقة أن الشركة يمكنها تحمل النفقات."

" أنا واثق من ذلك، كيف حال أمك و"سوزانا" فى التأقلم مع كل هذا؟"

صمتت "ماريا" لتقول هذه الفكرة الجدية: "ستكون أمى أسعد حالاً بدون الضيوف."

"همم."

"و"سوزانا" بخير.. إنه تحول مثير فى مجرى الأشياء المعتاد، رغم أننى وجدتها اليوم على وشك إخبار السيد "مودى" عن بنات عمنا وكدت أفقد صوابى تقريبًا.. لست متأكدة لماذا.. إنه ليس من شأنه.. أليس كذلك ؟" وبعد وقفة أضافت ـ رغم خجلها القليل من ذلك" ـ أعتقد أنها كانت تحاول التأثير عليه، إنها لا تحتاج أن تحاول."

ابتسم والدها: "أتوقع أنها كانت تحاول.. فهى لا تتلقى الكثير من التبجيل من قبل أحد."

ضحكت "ماريا" قليلاً: "ماذا تقول؟ إنها تحظى بالكثير من التبجيل.. على حد علمى."

"الإعجاب شىء .. نعم، لكن لا ينظر الناس إليها مثلما ينظرون إليك يا "مامى"... بإجلال معين."

أعطاها نظرة.. ابتسمت "ماريا".. شاعرة بالاحمرار يزحف فوق خديها، إنها تحب فكرة أنها يُنظر إليها بإجلال.

"لم أقصد أن أنافقك."

"لا تقلق، أنت لم تنافقنى على الإطلاق بمقارنتى بشلالات "نياجرا" أو مرتفعات "إبراهام"."

"حسنًا.. طالما أنك لم تشعرى بالنفاق..."

تابعت "ماريا" والدها وهو يصعد السلالم بصعوبة، والذى يعنى أنه يعانى من مفاصله، إنه شىء قاس أن تشاهد والديك يهرمان وتعرف أن الآلام والضعف ستتزايد فى الجسد.. وتتراكم حتى ينهار تمامًا، كانت "ماريا" قد طورت لديها بالفعل نظرة عامة من منظور المصالح على الحياة، على الأرجح نتيجة إضافية لكونها لديها أخت جميلة، التى ألقت بسحرها المعتاد.. عديم الشعور تمامًا على السيد "مودى".

ليس الأمر أن "ماريا" مهتمة على الإطلاق به لنفسها، على الإطلاق.. لكنها ـ فقط من وقت لآخر ـ سيكون لطيفًا أن تعتقد أن لديها فرصة.

أصبح من الواضح لى أنى سوف أضطر إلى فعل شىء ما، بعد أن غادر "ماكينلى" ظللت أذرع المطبخ حتى عاد "أنجوس" ولم أكن فى حاجة لأن أخبره أن "فرانسيس" لم يعد بعد، أخبرته أن صنانير الصيد كلها هنا وأننى خبأت واحدة.. الآن هو أيضًا بدا مضطربًا.

"يجب أن تذهب وتبحث عنه."

"لقد مضى أقل من ثلاثة أيام، إنه ليس بطفل."

"يمكن أن يكون قد تعرض لحادثة، الجو بارد وهو لم يأخذ معه أية أغطية."

هكذا يعتقد "أنجوس".. ثم قال إنه سيذهب إلى بحيرة "سوالو" غدًا. شعرت بارتياح حتى أننى ذهبت واحتضنته.. فقط لأتلقى استجابة حادة وجامدة، انتظر ببساطة أن أنفصل عنه ثم ذهب بعيدًا وكأن شيئًا لم يحدث.

كان زواجنا يبدو ناجحًا طالما لم أفكر فيه، الآن.. لا أعرف.. كلما قلقت على الآخرين كلما بدا أنهم يحبون ذلك أقل. عندما لا أفكر إلا فى نفسى يكون علىَّ فقط أن أطرقع بأصبعى ليفعل الرجال ما أريد، فيما بعد حاولت أن أصبح شخصًا أفضل وأنظر إلى أين يأخذنى ذلك.. فكانت النتيجة أن زوجى يلتفت بعيدًا عنى ويرفض أن يقابل عينى، أو ربما الأمر ليس واحدًا من هذه الأشياء.. وأنه ببساطة له علاقة بتقدم السن ـ فعندما تكبر امرأة فإنها تفقد القدرة على السحر والإقناع، وليس هناك أى شىء يمكن أن تفعله حيال ذلك.

"بإمكانى الذهاب معك."

"لا تكونى سخيفة."

"لا أطيق الانتظار.. ماذا لو كان شىء ما... شىء قد حدث؟"

تنهد "أنجوس".. تكورت كتفاه مثل رجل عجوز.. "همف.." تنفس بالطريقة القديمة المعبرة عن الحب والتى سببت هزة صغيرة فى كيانى.. أنا متأكد أنه على ما يرام.. وسوف يعود قريبًا."

أومأت.. متأثرة بلمحة حبه، فى الحقيقة.. تشبثت بها مثل حزام الأمان.. رغم أنى فكرت فيما بعد.. لو كنت فعلا مازلتُ حبيبته، لماذا لم ينظر إلىّ عندما قالها؟

عندما ذهب ضوء النهار.. ذهبت فى نزهة على الأقدام وجيوب تنورتى منتفخة، هذا ما أخبرت "أنجوس" على الأقل؛ كونه يصدقنى أو لا متروك لتقدير أى شخص. فى هذا الوقت من اليوم يجلس كل فرد فى "دوف ريفر" ليتناول الطعام، يمكن التكهن بذلك وكأنهم قطيع من الماشية، لذلك لن يكون أحد بالخارج أو على أى حال يجدر بهم أن يكونوا.. ليس هناك أحد إلا أنا.

فكرت فى ذلك معظم الوقت وقررت أن هذا المساء هو أفضل وقت، كان فى استطاعتى الانتظار حتى الفجر، لكنى لا أريد أن أترك هذا الأمر أكثر من ذلك. كان النهر سريعًا وعاليًا ـ حيث كان هناك أمطار إلى الشمال. ولكن الصخرة التى غادر "دوك وايد" العالم من عندها كانت جافة.. فقط فيضان الربيع هو الذى يغطيها.

وكان عليها أيضاً أثر قدم، علامة داكنة مبتلة، حتى فى ضوء الغسق رأيتها، ربما رتب "نوكس" ليضع حارسًا وقد أصابه على كل حال الملل فذهب ليتمشى على الشاطئ. أنا لم أصدق لحظة لذلك تسللت بخفة إلى جانب الكابينة، خارج نطاق رؤية الباب الأمامى.. كل شىء فى صمت.. ربما أتخيل.. لا أستطيع أن أرى الصخرة بعد الآن.. قمت بإحضار سكين فى جيبى، والذى أمسك به الآن.. ربما بقوة أكثر من اللازم. ليس صحيحًا أننى اعتقدت للحظة أن القاتل عاد ـ لماذا لكنى تقدمت متسللة.. يدى على حائط الكابينة، حتى صار بإمكانى سماع أصوات من خلال النافذة. وقفت هناك طويلاً جدًا حتى نامت ساقاى، ولم أسمع أكثر من تنفس ذبابة.

خطوت ناحية الباب الذى كان مغلقًا بالأسلاك وأخرجت الكماشة وفككت السلك المربوط، كان بالداخل مظلمًا لكنى أغلقت الباب.. لمجرد الحذر.

بدت الكابينة تمامًا مثلما أتذكرها، إلا أن الفراش كان فارغًا الآن، مازالت هناك رائحة كريهة تأتى من المرتبة والأغطية المتكومة عند الحائط، تساءلت من الذى سيغسلها، أو هل يتم حرقها فحسب؟ من المستبعد أن تكون أمه العجوز فى حاجة إليهما.

بدأت بالدور العلوى.. لا يبدو أن "جاميه" كان يأتى هنا كثيرًا ـ هناك صناديق وصناديق خشبية مكومة أسفل الحوائط، أغطية مغبرة فى كل مكان.. تظهر أين ذهب الرجال أمس.. أرجلهم احتكت حيث توقفوا ونظروا بتمعن إلى شىء ما. وضعت المصباح أرضًا وبدأت أفتش فى أقرب صندوق، الذى كان يحتوى على أفضل ملابسه ـ معطف أسود قديم الطراز وبنطلون، الذى أود القول إنهما كانا صغيرين عليه، هل كانا يخصانه عندما كان أصغر سنًا أو يخصان والده؟ فتشت فى الصناديق الأخرى؛ المزيد من الملابس.. بعض الأوراق من شركة "هدسون باى".. ترجع عامة إلى تقاعده بعد "حادثة وقعت أثناء تأدية الخدمة."

فتحت أغراضًا عديدة، أبواب تقود إلى جوانب أخرى من حياة "جاميه"، قبل أن يأتى إلى "دوف ريفر". حاولت ألا أفكر فى بعض منها كثيرًا: قماش حريرى مزهر ـ على سبيل المثال ـ قد بهت بفعل الزمن ـ تذكار للحب من امرأة أو كان ينوى منحه لكنه لم يفعل؟ تساءلت حول النساء غير المرئيات فى حياته. وهنا شىء نادر.. صورة تظهر "جاميه" وهو رجل أصغر سنًا.. يظهر ابتسامته المعدية، هو ومعه رجال آخرون فهمت أنهم بحَّارة، كلهم يرتدون مناديل حول رقبتهم ومعاطف طويلة ويضيقون عيونهم بدرجات متفاوتة فى ضوء الشمس الساطع.. متجمعون حول جبل من الصناديق والقوارب، لكنه كان الوحيد الذى استطاع الاحتفاظ بابتسامته لكل هذا الوقت. ما المناسبة التى استدعت هذه الصورة؟ ربما كانوا قد حققوا لتوهم الرقم القياسى فى حمل القوارب على اليابسة من نهر لآخر فالبحَّارة يفخرون بمثل هذه الأشياء.

بعد أن بحثت فى الصناديق سحبتها بعيدًا عن الحائط، لم أكن واثقة ماذا أظن أننى سأجد هناك ولكن لم يكن هناك أى شىء غير الغبار ومخلفات الفئران؛ القشرة الخارجية الجافة لدبابير.

نزلت لأسفل وأنا هاوية الفؤاد، لم أكن أعرف حتى ما أبحث عنه: غير أنه شىء سوف يؤكد أن "فرانسيس" ليس له علاقة بهذا.. الشىء الذى أعرفه بالفعل. لا أستطيع تخيل ماذا يمكن أن يكون.

أصبحت واعية أننى أتنفس بصعوبة من فمى بينما أقلب فى الأطعمة، صارت رائحة المبنى بأكمله أسوأ مما كانت عندما كان هنا. ومن أجل الدقة لكى لا أتعذب فى الليل وأضطر إلى المجىء مرة أخرى.. دسست يدى فى علب الحبوب والدقيق، وعندها وجدتها؛ فى علبة الدقيق احتكت يدى بشىء ما فتراجعت للخلف مع صرخة قبل أن أستطيع منع نفسى.. مبعثرة الدقيق فى كل مكان. كانت قصاصة ورق تم قصها من قطعة ورق أكبر، مكتوب عليها أرقام وحروف: "61HBKW". ولا شىء آخر.. لا أستطيع تصور أى شىء أقل نفعًا، لماذا يخبئ قصاصة ورق فى علبة الدقيق لو كان عليها حروف ليس لها معنى، وخصوصًا لو كنت مثل "جاميه" لا يمكنك القراءة؟ وضعتها فى جيبى قبل أن يخطر على بالى أنه يمكن أن تكون وقعت فى علبة الدقيق بالخطأ، فى الواقع يمكن أن تكون وقعت فى الدقيق أو فى أى مكان، فى مخزن "سكوت" على سبيل المثال، حتى لو كان "جاميه" قد خبأها فعلاً... فلا يبدو محتملاً أنها ستعطينى هوية قاتله.

كنت قد تجنبت المنطقة حول الفراش حتى الآن.. وكنت غير راغبة ـ فلنقل على الأقل ـ أن أضع يدى عليه، كان يجب أن أحضر قفازًا ولكن هذا الشىء الوحيد الذى لم أفكر فيه. نظرت بداخل صندوق الاشتعال الفارغ بينما أفكر فى الأمر، ثم حدث الشىء الذى جعلنى قريبة من الإغماء من الصدمة: كانت هناك طرقة على الباب.

أوقفتنى الصدمة لعدة ثوان، لكن من الحماقة أن أتظاهر أننى لست هنا، وماذا عن ضوء المصباح المشع خلال النوافذ التى تسمح بدخول

الضوء. وقفت لعدة ثوانٍ أخرى بينما أحاول تلفيق مبرر جيد لوجودى هنا، لكنى مازلت لم أفكر فى واحد عندما انفتح الباب وواجهت الرجل الذى لم أره من قبل قط.

بعد وقت قصير من انقشاع ضباب الطفولة من حوله.. كان على "دونالد" أن يعرف أن لديه صعوبة فى رؤية الأشياء من على أى بعد.. أى شىء أبعد من نطاق يده الممدودة يصبح مبهمًا؛ الأشياء الصغيرة تهرب منه والناس يصبحون غير واضحين. لم يعد بإمكانه التعرف على الأصدقاء أو حتى أفراد عائلته، وتوقف عن الإشارة للناس عن بعد، حيث إنه لم يكن من حوله أية فكرة عمن يكونون فنمت لديه سمعة أنه بارد، باح بعدم ارتياحه لأمه فمدته بنظارات غير مريحة ذات إطارات معدنية. كانت هذه أول معجزة فى حياته، ألا وهى الطريقة التى أعادته بها النظارات إلى العالم.

ذات مساء بعد ذلك بوقت قريب كان فى نوفمبر.. ليلة صافية نادرة، وكان يسير وحيدًا عائدًا إلى بيته من المدرسة عندما نظر لأعلى ثم توقف فجأة من الاندهاش. كان القمر بدرًا.. منخفضًا وثقيلاً أمامه.. ملقيًا ظله على طول الطريق، ولكن ما جعل فكه يسقط هو وضوحه.. لقد كان قد افترض (بدون أن يفكر فى ذلك كثيرًا) أن القمر قرص غير واضح المعالم بالنسبة إلى كل الناس. كيف يمكن أن يكون العكس.. عندما يكون بعيدًا جدًا؟ لكن ها هو .. بشكل حاد ودقيق ـ السطح المعرج الملىء بالتجاعيد، الأجزاء المستوية المشرقة والثقوب المظلمة. وصلت رؤيته المكبرة الجديدة، ليس فقط إلى الجانب البعيد للشارع والكورال فى الكنيسة، ولكن أيضًا للتجمعات التى لا حصر لها فى الفضاء. منقطع الأنفاس.. خلع نظارته.. كان القمر أنعم وأكبر وأقرب بطريقة ما. اقتربت الأشياء المحيطة به.. يُظهر كلاهما بحميمية أكثر وتهديد أكثر. وضع نظارته مرة أخرى فعادت المسافة والوضوح.

سار للبيت هذه الليلة وهو ملىء بسرور كبير فائض، ضحك بصوت عالٍ.. وفاجأ المارين به. أراد أن يصرخ فيهم ويخبرهم باكتشافه، عرف أن

اكتشافه هذا لن يعنى شيئًا لهم.. هؤلاء الذين رأوه طوال الوقت، لكنه شعر بالأسف تجاههم.. ألا يعرفوا معنى أن تقدر نعمة مثل النظر بعد أن فقدتها ثم مُنحت لك مرة أخرى.

كم من المرات من حينها شعر بهذا السرور المثالى الذى تخطى كل شىء ؟ فى الحقيقة.. ولا مرة.

رقد "دونالد" فى السرير الضيق غير المريح يحدق فى القمر الساطع فوق "كالفيلد" نزع نظارته ثم أعادها مرة أخرى.. فعاش مرة أخرى لحظة السعادة باكتشاف الأشياء. إنه يتذكر تأكده أنه قد خُص بلمحة من شىء مهم، رغم أنه غير متأكد ماذا يعنى. الآن لا يبدو أنه يعنى الشىء الكثير، لكنه أصبح معتادًا على النظر للأشياء من مسافة.. لكنه يبقى تركيزه عليها. ربما لهذا السبب كان مشدودًا إلى الأرقام.. منجذبًا بواسطة بساطتها الصامتة، فيمكن تنظيمها وموازنتها. فلنأخذ كمثال مجتمع عائلات المواطنين الأصليين الذين يعيشون خلف أسوار "فورت إدجار"، وتتسبب فى صداع مستمر للمسئولين. فالبحَّارة يتناسلون بمعدل مزعج.. وينتج عن ذلك أفواه أكثر للشركة لتطعمها. كان هناك الكثير من عدم الرضا حول الطعام الذى يستهلكونه والرعاية الطبيَة التى يطلبونها، لذلك جلس "دونالد" ليحصر فى قائمة العمل الذى تؤديه النساء للقلعة، عدَّد فى قائمة الغسيل ورعاية محاصيل الخضراوات ومعالجة فراء الحيوانات ليتحول إلى جلود وصنع أحذية الجليد.. ونسب قيمة لكل عمل، حتى استطاع أن يثبت أن الشركة تستفيد من هذا التبادل بنفس القدر على الأقل الذى تستفيد به العائلات. كان فخورًا بهذا الإنجاز، حتى أنه أصبح أكثر فخرًا منذ أن بدأ يتعرف على زوجة "جاكوب" وأطفاله.. ابنتيه اللتين حدقتا فى الوجه الشاحب لصديق والدهما بعيون بنية واسعة. هاتان الطفلتان بنظرتهما المليئة بالثقة وأسمائهما السرية غير المفهومة قد وقفا فى مقارنة مع الفراء التى تعيش عليه الشركة ـ رغم أنه لتحرى الصدق ـ لا أحد لديه أى شك أيهما أكثر أهمية.

عندما وصل "دونالد" لأول مرة إلى "فورت إدجار"، أخذه الموظف المسئول عن المخازن ـ يُدعى "بيل" ـ فى جولة فى موقع العمل، رأى "دونالد" المكاتب ومهاجع النوم المزدحمة، مكان البيع والقرية الهندية التى تقع خلف الأسوار (من على مسافة مناسبة)، الكنيسة المبنية من الخشب وباحة القبور و أخيرًا المخازن الضخمة الباردة حيث تكوم الفراء، منتظر أن يبدأ رحلته الملحمية إلى لندن.. حيث ستتحول إلى نقود سائلة. نظر "بيل" خلسة حوله قبل أن يفتح بالة، فانزلقت الفراء اللامعة خارجة على الأرض المتسخة.

"حسنًا.. هذا كل ما فى الأمر." قال بلكنته الايدنبرجية. "هذه اللفة ستساوى العديد من الجنيهات فى لندن، دعنا نرى.." قلب فى الفراء بيده. "ها هو فراء قارض.. تستطيع أن ترى لماذا لا نريدهم أن يطلقوا الرصاص على الحيوانات، فالمصيدة لا تترك أية علامة بالكاد.. انظر!".

لوح بساق مفرودة لحيوان شبيه بابن عِرس لـ"دونالد"، كانت الرأس لا تزال متعلقة بالفراء.. وجه صغير مدبب ذو عينين أغلقا بشدة.. وكأنه لم يستطع تحمل تذكر ما قد حدث له.

وضع الحيوان أرضًا ثم دفع بيده مرة أخرى بداخل الجلود، عارضًا إياها على "دونالد" فى تتابع سريع وكأنه ساحر. "هناك الجلود الأقل قيمة.. القندس والذئب والدب.. لكنها نافعة بشكل كافٍ.. فهى غطاء جيد تلف به الفراء الأخرى.. تحسسه لترى كم هو خشن..."

تموجت الفراء اللامعة تحت يديه.. والسيقان الضامرة تحتها. أخذ "دونالد" الفراء لأن الرجل سلمها له وكان مندهشًا من ملمسها، كان قد شعر قبلاً باشمئزاز إلى حد ما من مخزن الموت الضخم هذا.. لكن بمجرد أن دفع بيده بداخل الإحساس الغنى البارد الحريرى.. شعر برغبة ملحة لأن يضع الفراء الناعم إلى شفتيه.. قاوم ذلك بالطبع.. لكنه فهم كيف يمكن لامرأة أن ترغب فى أن يتدلى مثل هذا الشىء حول رقبتها.. حيث تستطيع بحركة صغيرة من رأسها أن تمرر هذا الفراء على وجنتها.

مازال "بيل" يتكلم... تقريبًا مع نفسه. "ولكن الأكثر قيمة.. آه.. هذا هو الثعلب الفضى، إنه يساوى أكثر من وزنه ذهبًا." لمعت عيناه فى الضوء المعتم.

مد "دونالد" يدًا فانتفض "بيل" تقريبًا، كان الفراء رماديًا وأبيض وأسود.. فى مزيج معًا ليصبح لمعة فضية.. سميكة وناعمة فى تدفق ثقيل شبيه بالماء، سحب يده بينما بدا "بيل" غير قادر على إفلات يده.

"الفراء الوحيد الأكثر قيمة منه هو الثعلب الأسود.. الذى يأتى من الشمال البعيد أيضًا، لكنك ترى بالكاد واحدًا منه من نهاية العام إلى العام الآخر، وهذا يساوى مائة جنيه فى لندن."

هز "دونالد" رأسه فى عجب. بينما بدأ "بيل" فى ضغط الأفراء داخل محتوى خشبى للتخزين.. واضعًا برقة الثعلب الفضى فى المنتصف، شعر "دونالد" بعدم الراحة.. كما لو كان ـ رغم جهود "بيل" العظيمة لإخفاء الأمر ـ فى حضرة نوع من المتعة السرية.

أجبر "دونالد" عقله على الرجوع للحاضر، أراد أن يفكر فى محادثته مع "جاكوب"، ليوازن الحقائق حتى يأتى بحل عبقرى يجعل كل شىء فى مكانه الصحيح، لكن لم تكن هناك حقائق كافية. رجل قُتل لكن لا أحد يعرف لماذا.. والقاتل الذى فعل ذلك طليق. لو أمكنهم تتبع حياة "جاميه" عودة إلى نقطة نهايته، لو استطاعوا معرفة كل شىء عنه، هل سيقودهم ذلك إلى الحقيقة؟ شعر أنها فكرة غير صالحة؛ فهو ليس بإمكانه تخيل أن الشركة ستكلف الرجال وتضيع الوقت لتكتشف الأمر، ليس من أجل تاجر حر.

انجرف عقله مرة أخرى ناحية "سوزانا"، لقد جلس معها فى غرفة الضيوف لعدة دقائق دون أية لحظات صمت مربكة، وبدت أنها تجده لطيفًا؛ أرادت أن تخبره بأشياء وأن تسمع ما عليه أن يقول. كان قلقًا جدًا ليكون بإمكانه الشعور بالسرور، لكن كان هناك شىء شبيه بالسعادة هناك.. يتفتح مثل البراعم بعد شتاء كندى. طوى نظارته ووضعها ـ رغبة

منه فى وجود منضدة بجانب الفراش ـ على الأرض بجانبه... حيث آمل ألا يقف عليها عندما يستيقظ فى الصباح.

***

بعد الصدمة المبدئية.. أدركت أننى لم أكن فى خطر محقق، كان الرجل الواقف على الباب على الأقل فى الستين من عمره، له هيئة أكاديمية والأهم من ذلك أنه لم يكن مسلحًا. بدا مميزًا أكثر من أى شىء بشعره الأبيض الناعم الذى صففه بعيداً عن جبهته العالية.. لديه وجه نحيل وأنف معقوف أشبه بأنف النسر. تعابير وجهه أوحت لىّ أنه طيب.. فى الواقع.. كان جميلاً بالنسبة لرجل فى سنه (أدهشتنى الكلمة لكنها كانت صحيحة).

كنت قد كونت عادة سيئة منتشرة هنا؛ حيث لم تعد اللكنة مرشداً يعتمد عليه، وهى التحقق من قائمة أشياء فى غريب ما. حينما أقابل شخصًا ما جديدًا أنظر فى لمحة خاطفة إلى الأساور.. والحذاء.. أظافر اليد.. وهكذا، لكى أكون فكرة عن قدره الاجتماعى وحالته المالية. كان هذا الرجل يرتدى معطفًا زاهى الألوان ذات قصة جيدة لكنه رأى أيامًا مريرة، ورغم أنه مهندم الهيئة وحليق الوجه.. إلا أن حذاءه بالٍ بشكل معيب. فى اللحظة التى أخذتها لأصل إلى هذه الاستنتاجات لاحظت أنه كان يأخذ نفس نوع القائمة عنى، وعلى الأرجح قد أستنتج أننى زوجة مزارع ثرى بشكل معقول. كونه تمادى وقرر أننى كنت جميلة فى السابق وقد ذبل جمالى على الأرجح.. فى الحقيقة لا يمكننى القول.

"اعذرينى ..." كان صوته جميلاً.. ذا جرس أمريكى، أبطأ قلبى من طرقه العنيف.

"لقد أفزعتنى.." قلت بحدة.. على وعى أن هناك دقيقًا على ردائى وعلى الأرجح فى شعرى. "هل تبحث عن السيد "جاميه"؟"

"لا.. أنا سمعت بـ... " وأشار برأسه تجاه الفراش والأغطية المغطاة

بالدماء. "إنه لشىء فظيع.. خسارة كبيرة، اعذرينى سيدتى، أنا لا أعرف اسمك."

ابتسم بجدية، ووجدت نفسى أستلطفه، فأنا أقدر حقًا الأخلاق اللطيفة بخاصة عندما يكون شخص ما يستجوب حضورى فى مسرح الجريمة.

"أنا السيدة "روس"، جارته، جئت هنا لأنظم أشياءه." ابتسمت بندم.. مشيرة إلى عدم فرحى بهذا العمل. هل كنت أتخيل.. أم أنه قد انتبه عند ذكرى لأشياء "جاميه"؟

"سيدة "روس" أعتذر عن إزعاجك.. اسمى هو "توماس ستاروك" من "تورونتو".. محام."

مد يده.. فأخذتها.. فأحنى رأسه.

"أنت هنا لترى ممتلكاته؟" فالمحامون ـ طبقًا لخبرتى ـ لا يظهرون من تلقاء نفسهم.. يتجسسون باحثين فى الجوار بعد حلول الظلام.. يوسخون أيديهم، ولا حتى يكون لديهم أساور تالفة وثقوب فى أحذيتهم .

"لا..إننى لست هنا فى عمل."

صادق.. إنه ليس محاميًا نمطيًا على الإطلاق.

"إنه أمر شخصى.. أنا لست متأكدًا إلى من أتوجه فى هذا الشأن ولكن ـ أنت ترين ـ الحقيقة أن مسيو "جاميه" كان لديه غرض له أهمية ما فى أبحاثى، وكان سيرسله إلىّ."

توقف.. مقيماً رد فعلى.. والذى كان عدم الفهم والارتباك. فبعد أن بحثت فى الكابينة من القمة إلى القاع لا أستطيع التفكير فى أى شىء يمكن أن يهم أى شخص، خاصة رجل مثله. فلو كان "جاميه" لديه مثل هذا الشىء .. لكان قد باعه.

أضاف : "إنه ليس بشىء ذى قيمة، فقط له أهمية أكاديمية."

استمريت فى الصمت.

قال بابتسامة متهيبة: "أفترض أنه يجب أن أضع نفسى بين يديك، فليس لديك أية طريقة لتعرفى إذا ما كان ما أقوله صحيح، لذلك سأخبرك بكل شىء . مسيو "جاميه" كان فى حوزته قطعة من العظم أو العاج.. فى مثل هذا الحجم..." وأشار لحجمها براحة يده. "عليها علامات، وقد يكون لهذا الشىء أهمية أثرية."

"أنت قلت أنك محام..؟"

"محام بالمهنة.. وعالم آثار بالهواية."

نشر يديه أمامه.. كنت مرتبكة لكنه بدا صادقًا. "لابد أن أعترف أننى لم أكن أعرفه جيدًا تحديدًا.. لكنى آسف على موته.. أعتقد أنه كان.. مفاجئًا."

أفترض أن مفاجئًا هى طريقة واحدة لوصفه.

"لابد أننى أبدو مستغلاً إلى حد ما لآتى من أجل هذا الغرض بعد موته بوقت قصير، لكنى أعتقد فعلا أنه يمكن أن يكون مهمًا، إنه ليس بشىء ينظر إليه وستكون خسارة فادحة لو كان تم التخلص منه عن جهل به. لذلك هأنذا.. لهذا أنا هنا." كانت له طريقة فى النظر إلىَّ وجدتها موحية بالثقة والود.. فكان واضحًا وغير واثق من نفسه إلى حد ما، حتى لو كان يكذب فلا أستطيع التفكير فيما يقصده من ضرر.

بدأت قائلة: "حسناً سيد "ستاروك".. أنا لا..."

توقفت عن الكلام فجأة... لسماعى شيئاً آخر: صوت سقوط الحصى على الممر خلف الكابينة، وعلى الفور أمسكت بالمصباح من على الموقد.

"سيد "ستاروك" سوف أساعدك إذا ساعدتنى وفعلت مثلما أقول، اذهب للخارج واختبئ فى الحشائش بجانب النهر، لا تقل شيئًا، لو فعلت ذلك ولم يكتشف أمرك.. سوف أخبرك بما أعرف."

فتح فمه فى دهشة، لكنه تحرك بسرعة مذهلة بالنسبة إلى رجل فى مثل سنه: كان خارج الباب فى الثانية التى انتهيت فيها من الكلام. أطفأت المصباح وسحبت الباب ولويت السلك لأبقيه مغلقاً قبل أن أنزلق بداخل شجيرات حديقة "جاميه" النامية بشكل كبير، شكرت "جاميه" بصمت على قلة معرفته بالزراعة البستانية؛ فالمكان يمكن أن يخبئ دستة هنا.

حاولت الذوبان بداخل الشجيرات، عالمة أن قدمى قد غاصت بداخل شىء ناعم ومبلل. اقتربت خطى أقدام وضوء مصباح.. يتأرجح فى يد كيان مظلم.

لصدمتى الأبدية.. كان هذا زوجى!.

كان يحمل المصباح لأعلى ويفتح الباب ويدخل، انتظرت مرور وقت ملائم وقد أصبحت أشعر بالبرد منذ غرق حذائى فى الماء.. متسائلة متى سيفيض الكيل بـ"ستاروك" ويظهر مرة أخرى ليتحدث مع القادم الجديد بدلا من المرأة المجنونة التى هى أنا. ثم خرج "أنجوس" مرة أخرى، معالجًا الباب خلفه.. نظر حوله بالكاد قبل أن يختفى مجدداً فى الممر وسريعاً ما اختفى ضوء مصباحه من مجال الرؤية.

كان المكان مظلمًا الآن.. فوقفت بحدة حيث كانت مفاصلى تصدر أصواتًا وسحبت قدمى من الوحل الرطب، كان الجورب مبتلا تمامًا، وجدت أعواد الثقاب ونجحت بصعوبة فى إعادة إشعال المصباح.

ناديت: "سيد "ستاروك"."، وبعد عدة لحظات جاء إلى دائرة ضوء مصباحى وهو ينفض أوراق الشجر عن معطفه البالى.

"حسناً.. كانت هذه مغامرة إلى حد ما." ابتسم لى. "من كان السيد الذى اختبأنا منه؟"

"لا أعرف.. كان الظلام شديدًا لم أتمكن من الرؤية. أعتذر عن تصرفى سيد "ستاروك"، لابد أنك تعتقد أننى غير عادية، سوف أكون

صريحة كما كنت صريحًا معى، وربما يكون فى استطاعتنا مساعدة بعضنا البعض."

حللت سلك الباب بينما أتحدث، فصدمتنى الرائحة من جديد، إذا كان "ستاروك" لاحظ.. فلقد قام بعمل جيد لإخفاء ذلك.

لن يكون معظم الرجال ـ عندما تختفى زوجاتهم فى ساعة الغسق وترجع بعد حلول الظلام مع رجل غريب ـ طيبى القلب مثلما كان "أنجوس". إن ذلك واحد من أسباب زواجى منه، فى البداية كان ذلك لأنه يثق فى.. الآن لا أعرف.. ربما لم يعد يعتقد أننى قادرة على إثارة أفكار غير بريئة، أو ببساطة لم يعد يهتم. والغرباء كليًا نادرون فى "دوف ريفر"؛ ويقام لهم عادة احتفال، لكن "أنجوس" فقط نظر لأعلى وأومأ برأسه بهدوء، ثم ربما يكون قد رآه فى الكابينة.

تحدث "ستاروك" قليلاً عن نفسه، ولكنى كونت صورة عنه بينما نأكل، صورة عن رجل ذى ثقوب فى حذائه وذوق فى التبغ الجيد، رجل يأكل لحم الخنزير والبطاطس وكأنه لم ير وجبة محترمة منذ أسبوع، رجل ذو لباقة وذكاء وربما خيبة أمل، وشىء آخر.. ألا وهو الطموح. لأنه يريد هذه القطعة الصغيرة من العظم ـ أو لا يهم ما هى ـ كثيرًا جدًا.

أخبرناه عن "فرانسيس"، فالأطفال يضلون فى الغابات.. كان هذا معروفًا.. ناقشنا ـ كما هو حتمى ـ فتيات "سيتون"، مثل أى شخص آخر فوق الحدود، كان يعرف عنهما. وأوضح "ستاروك" الفروق بين فتاتى "سيتون" و"فرانسيس"، ووافقت أنا أن "فرانسيس" ليس فتاة صغيرة لاحول لها، لكنى يجب أن أقول إن ذلك لم يكن مطمئنًا بالتحديد.

أحيانًا.. تجد نفسك تنظر إلى الغابة بشكل مختلف، أحيانًا هى أكثر من أشجار تمدنا بالمنازل والدفء، وتخفى عراء الأرض وتكون سعيدًا بها. ثم فى أحيان أخرى ـ مثل الليلة ـ هى حضور مظلم كبير لا يمكنك رؤية نهايته؛ قد تكون ـ بالنسبة لكل ما تعرفه ـ ليس لها فقط طول وعرض لتفقد نفسك فيها، لكن أيضًا عمق لا يمكن قياسه، أو شىء آخر كليًا.

وأحيانًا تجدين نفسك تنظرين إلى زوجك وتتساءلين: هل هو الرجل المستقيم الذى تعتقدين أنك تعرفين ـ العائل.. الصديق.. الذى يلقى بنكات رديئة لكنها رغم ذلك تجعلك تبتسمين ـ أو هل هو أيضًا لديه أعماق لم تريها من قبل قط؟ ما الذى قد لا يمكنه فعله؟

***

انخفضت درجة الحرارة خلال الليل، حيا غبار خفيف من الثلج "دونالد" عندما مسح بخار الماء البارد من على زجاج النافذة الداخلى ونظر بالخارج. تساءل إذا ما كان "جاكوب" قد أمضى الليل فى الأسطبلات، هو معتاد على هذا البرد. كان الشتاء الماضى ـ أول شتاء لـ"دونالد" فى البلاد ـ معتدلاً نسبيًا، لكنه ما زال صدمة بالنسبة له، فهذا الصباح المسبب لآلام العظام ليس إلا تجربة مسبقة.

كان "نوكس" قد رتب أن يرافق "ماكينلى" رجل محلى فى تتبعه للرجل الفرنسى، شخص أدنى فى المستوى بشكل كاف لكى لا يضطر أن يشاركه المجد.. ثم صرف "دونالد" الفكرة حيث إنها غير طيبة، يبدو أن أفكاره أصبحت قاسية أكثر فأكثر هذه الأيام. لم يكن هذا ما قد توقعه عندما غادر "سكتلند" ـ كانت الأرض المتوحدة الواسعة قد بدت مثل وعد بالنقاء.. حيث المناخ القاسى والحياة البسيطة ستحد من شجاعة الرجل وتزيل نقاط الضعف الصغيرة. لكن الأمر ليس كذلك على الإطلاق ـ أو ربما هو الذى كان على خطأ، وإن الأمر ليس متروكًا للإزالة. ربما لم يكن لديه شخصية جيدة فى المقام الأول.

بعد أن رحل "ماكينلى" ـ متكتمًا وشائكًا حتى النهاية ـ تلكأ "دونالد" فى شرب قهوته على أمل رؤية "سوزانا"، بالطبع إنه أيضًا لمتعة أن يجلس إلى مائدة مغطاة بمفرش أبيض فاخر وأن ينظر إلى لوحات على الحائط، وأن تقدم له الطعام امرأة بيضاء ـ رغم أنها إيرلندية قاسية ـ وأن يحدق بتمعن فى النار دون نكات وقحة توجه فى اتجاهه. أخيرًا أثمر صبره، ودخلت كلتا الفتاتين وأتخذتا مقعديهما.

قالت "ماريا": "حسنًا سيد "مودى"، إذًا أنت تحمى سلامتنا، بينما الآخرون يطاردون المشتبه فيهم."

إنه شىء غير عادى، كيف فى جملة واحدة يمكن لـ"ماريا" أن تجعله يشعر مثل جبان، حاول ألا يبدو دفاعيًا. "نحن فى انتظار "فرانسيس روس"، وإذا لم يعد اليوم إذًا فسوف تنطلق خلفه."

"أنت لا تعتقد أنه من الممكن أن يكون هو الذى فعلها؟" عبست "سوزانا" بوجهه بطريقة ساحرة.

"أنا لا أعرف شيئاً عنه.. ماذا تعتقدين؟"

"أعتقد أنه فتى فى السابعة عشرة من عمره، وجميل الطلعة إلى حد ما." قالت "ماريا" ذلك ونظرت بخبث له.

قالت "سوزانا": "إنه لطيف." ونظرت إلى المائدة. "خجول.. ليس لديه الكثير من الأصدقاء."

شعرت "ماريا" بسخرية، "دونالد" يعتقد أنه سيكون صعبًا على أى شاب أن يظهر بأية صورة غير أن يكون خجولاً ومرتبكاً فى وجه مرارة "ماريا" وجمال "سوزانا".

أضافت "ماريا": "نحن لا نعرفه بهذا القدر، ولا أعرف من يعرفه، إن الأمر فقط أنه دائمًا يبدو مثل الفتيات، إنه لا يذهب للصيد أو يفعل الأشياء التى يفعلها معظم الفتيان."

"ما الذى يفعله الفتيان الآخرون؟" حاول "دونالد" افتراض مسافة كبيرة بين اليوم عندما كان هو نفسه فى السابعة عشرة، عندما لم يكن يذهب للصيد وكان بلا شك يطلق عليه شبيه الفتيات من أولئك الشابات الصغيرات.

"آو.. أنت تعلم.. فهم يتجولون معًا ويفعلون المقالب ويسكرون.. أشياء غبية مثل تلك."

"هل تعتقدين أن شخصاً لا يفعل هذه الأشياء لا يستطيع القيام بجريمة قتل؟"

بدت "ماريا" مراعية للمشاعر للحظة: "لا.. إنه دومًا يبدو فى مزاج سيئ و.. حسنًا، وكأن هناك أشياء تحدث تحت السطح."

قالت "سوزانا" وقد أشرق وجهها: "كان هناك مرة.. أنا أتذكر .. فى المدرسة.. كان فى قرابة الرابعة عشرة ـ على ما أعتقد ـ وولد آخر.. هل كان "جورج بريتى".. ؟ لا.. لا.. كان "ماثيو فوكس"، أو ... " خفت صوتها، ثم عبست، حَدَجَتها أختها بنظرة .

"حسنًا "ماثيو" أو من كان، حاول "ماثيو" نقل واجبه، وكان يتباهى بذلك.. أنت تعرف.. ليتأكد أن أصدقاءه راوه.. وفجأة أدرك "فرانسيس" ودخل فى أكثر نوبات الغضب رعباً، لم أر قط وجه أحد يتحول للون الأبيض من الغضب من قبل، لكنه فعل ـ أصبح بلون الورقة البيضاء وهو بشرته فى الأصل ذهبية نوعاً ما، أنت تعرف... ؟ على كل حال.. بدأ يضرب "ماثيو" كما لو كان يريد قتله. كان فى نوع من الجنون؛ كان على السيد "كلارك" وفتى آخر أن يجراه، كان هذا مريعاً تمامًا."

نظرت إلى "دونالد" بعينين واسعتين فى لون البندق. "لم أفكر فى ذلك منذ زمن، هل تفترض أن... ؟"

"إنه لم يكن هجومًا جنونيًا، هل كان كذلك سيد "مودى"؟" كانت "ماريا" قد ظلت هادئة بينما أصبحت "سوزانا" تدريجيًا فى حالة من التحمس.

"لا نستطيع الحكم على شىء ."

"يعتقد السيد "ماكينلى" أنه التاجر الفرنسى، أليس كذلك؟ ولهذا السبب قد ذهب وراءه، أو ربما أراد فقط أن يكون التاجر الفرنسى هو من فعلها. أنت لا تحب التجار الأحرار.. أليس كذلك يا سيد "مودى"، فى الشركة؟"

"إن الشركة تحاول أن تحصى مكاسبها بالطبع، ولكن الأمر مفيد عمومًا إذا استطاع الصائدون أن يحصلوا على سعر محدد للفراء؛

والشركة تعتنى بالكثير من الأشخاص ـ الصائدون يعرفون أين يذهبون والموقف... مستقر. حيث تكون هناك منافسة، فالأسعار ترتفع أو تنخفض، و التجار الأحرار لا يعتنون بأسرهم. إنه الفرق بين... النظام و الفوضى."

سمع "دونالد" النبرة المتعالية فى صوته فأجفل بداخله.

"ولكن إذا عرض تاجر حر سعرًا أعلى لفراء مما تعرضه الشركة، فحتمًا الصائد له الحق أن يأخذه؟ ثم عندها سيتمكن من العناية بأسرته بنفسه."

"بالطبع.. هو له الحرية ليفعل ذلك، ولكن عندها سيكون عليه المخاطرة بأن هذا التاجر لن يكون موجودًا العام القادم ـ لا يمكن الاعتماد عليه بالطريقة التى يمكن أن يعتمد بها على الشركة."

أصرّت قائلة: "لكن أليس صحيحًا أن الشركة تشجع الهنود الذين يتاجرون بهم أن يصبحوا معتمدين على الشراب، وتتأكد أنها هى المورد الوحيد للشراب.. لكى يعودوا دائمًا؟"

شعر "دونالد" بالدم الدافئ يتصاعد فوق ياقة قميصه. "الشركة لا تشجع أى شىء من هذا النوع، فالصائدون يفعلون ما يريدون، فهم لا يُجبرون على أى شىء ."

بدا غاضبًا.. التفتت "سوزانا" لأختها. "إن هذا لاتهام بشع، إلى جانب ذلك.. إنها ليست غلطة السيد "مودى" إطلاقًا لو كانت أشياء مثل هذه تحدث."

حركت "ماريا" كتفيها بلا مبالاة.. غير مقتنعة.

مشى "دونالد" للخارج.. تاركًا الهواء يبرد وجهه، سوف يكون عليه محاولة إيجاد "سوزانا" بمفردها فيما بعد.. فمن المستحيل أن تجرى محادثة والمزعجة "ماريا" فى الجوار، أشعل غليونه ليهدئ نفسه ووجد "جاكوب" فى الإسطبلات يتكلم إلى حصانه بهذه اللغة التى لا معنى لها التى يستخدمها معهم.

"صباح الخير يا سيد "مودى"."

"صباح الخير.. هل نمت جيدًا؟"

بدا "جاكوب" مرتبكًا، كما يبدو عادة مع هذا السؤال، لقد نام.. ما الذى هناك غير ذلك ليقال؟ لقد رقد مستيقظًا أيضًا يفكر فى الرجل الميت وموت المحارب الذى قابله فى الوطن على فراشه، لكنه أومأ برأسه ليبقى "دونالد" سعيدًا.

""جاكوب".. هل تحب العمل مع الشركة؟"

سؤال غريب آخر... "نعم."

"ألا تفضل أن تعمل مع شخص آخر ـ مثل تاجر حر؟"

حرك "جاكوب" كتفيه قائلاً: "ليس الآن.. ليس وعندى أسرة، فعندما أكون بعيدًا.. أعرف أنهم فى أمان ولا يتضورون جوعًا، وسلع الشركة رخيصة.. أرخص بكثير من الخارج."

"إذًا فمن الجيد أنك تعمل لصالح الشركة؟"

"أظن ذلك، لماذا، أتريد أن تغادر؟"

ضحك "دونالد" وهز رأسه، ثم تساءل لماذا لم يخطر هذا الأمر على باله قط. لأنه ليس هناك مكان آخر له ليذهب إليه؟ ربما ليس هناك لـ"جاكوب" أيضًا ـ فوالده كان رجلا من رجال الشركة.. مسافر بحّار.. و"جاكوب" بدأ العمل عندما كان فى الرابعة عشرة. مات والده و هو صغير، تساءل إذا ما كان قد تعرض لحادثة، ولكن مع النواحى الكثيرة الأخرى فى حياة "جاكوب".. لا يمكنه التفكير فى وقت مناسب ليسأله.

السبب الذى جعل "دونالد" متوترًا كان أن "ماريا" على حق أن تقول إن الشركة تحرس احتكارها بغيرة ـ ولكن لديها مبررًا جيدًا أن تخشى المنافسة. بعد أن تعبوا من احتلالها الصدارة لقرون فى البرية.. عدد من تجار الفراء المستقلين ـ معظمهم فرنسيون وأمريكيون ـ يحاولون تحطيم

سيطرة الشركة على تجارة الفراء. كانت هناك جماعات من المنافسين فى الماضى ولكن الشركة ضمتهم إليها أو حطمتهم كلهم. ولكن هذا التحالف الجديد -الذى عرف باسم "شركة أمريكا الشمالية" ـ قد أقلق المسئولين. كانت هناك جيوب عميقة خلفه.. وعدم احترام للقواعد (بكلمات أخرى.. القواعد التى وضعت من قبل الشركة). عرض التجار على الصائدين أسعارًا عالية للفراء وقطعوا وعودًا أنهم سوف يتجنبون الشركة فى المستقبل. من المحتمل أن الرشوة والتهديدات كانت تستخدم ـ أكثر من المنتظر فى الواقع، حيث إن الشركة كانت تستخدمها بنفسها. فالتجارة وبالتالى الأرباح كانت تعانى.

كان "ماكينلى" قد أجرى عدة مناقشات متكتمة مع "دونالد" حول الطبيعة غير الشريفة للتجار الأحرار، وضرورة خضوع السكان الأصليين للشركة عن طريق الشراب والأسلحة والطعام. كان هذا ما جعل الدم يرتفع إلى خدى "دونالد، حيث كان اتهام "ماريا" دقيقًا تمامًا، لكنه ليس أسوأ مما يفعله الأمريكان.. لأجل السماء. كان يجب عليه أن يخبر "ماريا" عن القرية الهندية التى تعتمد على قلعة "فورت إدجار" فى الطعام والحماية، كان عليه أن يخبرها عن زوجة "جاكوب" وابنتيه الصغيرتين بعيونهن الواثقة، ولكن كالعادة لم يفكر فى أى من هذه الأشياء فى اللحظة المناسبة.

حدث أثناء واحدة من هذه المحادثات مع "ماكينلى" أن خطر على بال "دونالد" شىء: ربما مشكلة انخفاض الأرباح تنبع من مصدر أكثر ثباتاً من طمع الأمريكيين، لقد استمر الصيد لأكثر من مائتى عام وقد ألقى بتأثيره الضار. عندما أنشأت الشركة وظائف الصيد فى البداية.. كانت الحيوانات ودودة ومليئة بالثقة، ولكن البحث المستمر عن الربح قد دفع برغبة قاتلة فى عمق البرية.. ساقت الحيوانات قبلها. ومنذ ذلك اليوم فى المخزن مع "بيل" لم ير "دونالد" ثعلبًا فضيًا آخر؛ ولم ير قطُّ ثعلبًا أسود.. لم يصل أى منهما إلى هناك.

لكز "دونالد" حصانه الصغير ليلحق بـ"جاكوب"، كانا يسيران خلال أرض ممتدة من الغابات حيث أوراق الشجر الأخيرة قد تحول لونها إلى

لون أكثر إشراقًا.. مع الثلج الأبيض على الأوراق الساقطة. إذا كانت "سوزانا" لا تشغل نفسها بالطرق التى تتبعها الشركة، فلماذا يجب أن يهتم؟ فعلى كل حال.. عندما تفكر فى الأمر بعمق فالحقيقة تظل أن النظام أفضل من الفوضى، هذا هو ما عليه تذكره.

تركا حصانيهما يرعيان على شاطئ النهر وسارا هما إلى الكابينة، كان "دونالد" مرتاحًا لفكرة أنها فارغة الآن.. فلقد نجح فى ألا يحرج نفسه عندما واجه الجثة، لكنها لم تكن تجربة يريد الإسراع لتكرارها. فى بقعة الأعشاب الضارة التى تحيط بالمنزل توقف "جاكوب" وتفحص الأرض.. حتى "دونالد" يمكنه رؤية آثار الأقدام المرتبكة.

"هذه من ليلة أمس.. انظر.. أحدهم اختبأ هنا." أشار "جاكوب" إلى الأرض تحت شجيرة.

"ربما أولاد القرية؟"

بدا أن هناك مجموعات عدة من آثار الأقدام، أشار إليها "جاكوب" موضحًا إياها.

"انظر هنا.. حذاء رجل، وتحته.. واحد آخر، ولكن شكله مختلف ـ إذًا كان هناك رجلان، الرجل ذو القدم الأكبر كان هنا أولاً، ولكن آخر شخص غادر المنزل كان هذا.. أصغر بكثير، ربما صبى.. أو امرأة."

"امرأة؟ هل أنت متأكد أن هذه الآثار ليست من الأمس؟ يمكن أن تكون امرأة التكفين؟"

هز "جاكوب" رأسه.

شعر "دونالد" بالنصر عندما اكتشف لوح الأرضية المخلوع الذى تحته فراغ تم حفره، ولكن "جاكوب" هو الذى وجد المخبأ السرى تحت بعض الصخور. لغز ثروة "جاميه" الضائعة قد حل ـ فى حقيبة مبطنة بالصلب كانت هناك ثلاثة مسدسات أمريكية، بعض الذهب ورزمة من الدولارات ملفوفة فى قطعة قماش قطنية مبللة بالزيت. أطلق "جاكوب" صرخة من الدهشة عندما رأى تلك الأشياء. غرق "دونالد" فى التفكير ماذا يفعل بها،

فقرر أن يعيد دفنها حتى يتمكنا من العودة بعرية. أعادا وضع الأحجار وقام "جاكوب" بنشر بعض أوراق الشجر الساقطة على الأرض الطرية ليجعل الموقع وكأنه لم يمس. نظر "دونالد" إلى "جاكوب" وهو يخرج غليونه. عبرت لمحة من عدم الثقة ذهنه ووبخ نفسه على التفكير أن "جاكوب" قد يغريه ما بداخل الحقيبة، والذى كان أكثر مما يمكن أن يجنيه فى عشرة أعوام، كان "دونالد" عالمًا أنه لا يمكنه قراءة وجه "جاكوب" وكذلك لا يعتقد أنه يمكنه فعل ذلك مع رجل أبيض، آمل أن يجد "جاكوب" وجهه وهو غير مفهوم كذلك ، وبذلك لا يرى قلة ثقته.

***

تفاجأت "آن بريتى" أن ترانى بهذه السرعة بعد قرض القهوة، وأصبح تعبير وجهها حذرًا .. رغم أننى لهذه المرة فقط لم آت لاسترداد ممتلكاتى كانت "إيدا" تجلس أمام الموقد.. تقلب فى الملاءات بغضب صامت، نظرت لأعلى بوجه شاحب وملىء بالأفكار، كانت فى الخامسة عشرة وكنت أجدها لطيفة، ربما لأنها فى السن التى تكون لـ "أوليفيا" عليه الآن، أيضًا لأنها تبدو وسط أسرة "بريتى" مثل غراب فى حظيرة دجاج، حيث كانت نحيلة.. سمراء ومنطوية ويُشاع أنها ماهرة، بدا عليها أنها كانت تبكى مؤخرًا.

صاحت "آن" من على بعد ثلاثة أقدام : "سيدة "روس"! هل لديك أى أخبار عن ولدك؟"

"ذهب "أنجوس" للبحث عنه."

الآن وأنا هنا لست متأكدة من استطاعتى أن أحتفظ بمظهر عدم الاهتمام، وإذا لم يكن "أنجوس" يتحدث إلىّ، فمن غيره أستطيع أن ألجأ إليه؟

"آه.. الأطفال هم مجرد إزعاج." ألقت بنظرة قاسية إلى "إيدا" الصامتة ظلت "إيدا" مخفضة رأسها إلى الملاءة.. وهى تحيك بغرز صغيرة ضيقة.

"كان فى حالة مزاجية سيئة عندما غادر.. حتى أننى لم أسأله أين سيذهب، وعندما يعود سيحزن كثيرًا على "جاميه". مهما يكن ما يمكنك القول عنه، فلقد كان رجلاً طيبًا.. وكان طيبًا مع "فرانسيس"."

"يا له من وقت، الله يعلم ما نحن جميعًا مقبلون عليه."

أطلقت "إيدا" أصغر تنهيدة ممكنة، كانت رأسها محنية حتى لم يكن باستطاعتى رؤية وجهها، لكنها كانت تنتحب مجددًا، تنهدت "آن" بحدة كذلك.

"يا بنيتى، لا أعرف ما الذى يبكين عليه، وكأنك كنت تعرفينه لتتحدثى عنه."

شهقت "إيدا" ولم تقل شيئًا، التفتت "آن" ناحيتى وهى تهز رأسها.

"إنها أمه التى أشعر بأسى ناحيتها، فليس لديها أحد آخر.. مما سمعت، أنت تعرفين أنه كان فى "شيكاغو".. منذ شهرين فقط؟ ما الذى يفعله رجل مثله فى "شيكاغو".. أنا أسألك؟"

"أتمنى أن يذهبوا إلى "شيكاغو" ويتوقفوا عن إزعاجى حول "فرانسيس"، من السخيف أن يستمروا فى تتبعه."

"نعم هو كذلك."

أصدرت "إيدا" صوتًا صغيرًا آخر ـ والآن كان كتفاها يرتعشان.

"إيدا".. ألن تنتهى؟ اذهبى لأعلى إذا ما كنت غير قادرة على الجلوس هنا دون نواح.. يا ربى.."

نهضت "إيدا" وذهبت دون أن تنظر إلينا.

"سوف تذهب بعقلى.. هذه الطفلة. يجب أن تكونى مسرورة؛ لأنه ليس لديك فتيات.." بمجرد أن خرج ذلك من فمها تذكرتُ "أوليفيا"، وأعتقد أنه عبر ذهنها أن تعتذر قبل أن تنفى مثل هذه الفكرة السخيفة من رأسها. "لكنك كان لديك تجاربك مع هذا الولد."

أعرف أن هذه حقيقة.

"إنه فى دمهم.. ويصعد إلى السطح، لا تستطيعين فعل شىء حياله، فأنت لم تعرفى والديه قط، أليس كذلك؟ من يعرف أنهما لم يكونا لصين أو بائعين متجولين؟ إنه الدم الإيرلندى فيه.. لا يمكن الوثوق بهم، عندما كنت فى "كيتشنر"، صادفنا جبانًا إيرلنديًا يسرق الثياب من وراء ظهرك بمجرد أن ينظر إليك. أنا لا أقول هذا عن "فرانسيس".. أبدًا.. لكنه فيهم، إنه فيهم وعليك أن تكونى حذرة."

على الرغم من الإهانات.. كنت أعرف أنها تحاول أن تكون طيبة؛ هى فقط ليس لديها طريقة أخرى لإظهار ذلك.

"ما خطب "إيدا" إذًا؟ عليك ألا تكونى قاسية عليها.. أنت تذكرين كيف كان الأمر عندما كنت فى سنها."

أصدرت "آن" خوارًا: "لم أكن قط بهذه السن.. لقد كنت أرعى المنزل منذ سن العاشرة، لم يكن لدى وقت لأجلس وأهيم." حدقتنى بنظرة.. النظرة الخبيثة الساخرة التى يليها عادة مزحة فى حقى.

"هل تعرفين بماذا أفكر؟ أفكر أنها واقعة فى حب "فرانسيس"، إنها لن تقول ذلك.. لكنى أخمن أننى أعرف."

كنت متفاجئة جدًا لدرجة أننى ضحكت بصوت عالٍ تقريبًا: "إيدا"؟ من الصعب التفكير فيها كأى شىء إلا طفلة نحيلة، ولم أفكر قط أن أى من عائلة "بريتى" كان لديه وقت كثير لـ"فرانسيس". كانت هناك رحلة تخييم كوارثية أقحم "أنجوس" و"جيمى" الأولاد فيها، عندما ذهب "فرانسيس" مع "جورج" و"إميلين"، ليعودوا بعد يومين ولم يقل "فرانسيس" كلمة عنها قط. أقلعت عن أن أطلب منه الذهاب للعب معهم بعد ذلك.

"لقد كانا مقربين فى المدرسة قبل أن أرحل."

"دعينى أذهب وأتحدث إليها، أنا أعرف ما كان عليه الأمر فى هذه السن، أتعرفين لطالما اعتقدت أنها تذكرنى بنفسى عندما كنت صغيرة."

ابتسمت لـ"آن" مستمتعة بفكرة أن مستقبل ابنتها اتضح أنه مثلى على الأرجح أسوأ كوابيسها.

تتبعت صوت الشهيق لأجد "إيدا" فى حجرة نومها الصغيرة، تحدق خارج النافذة، رغم أنها كانت منحنية على الملاءة عندما نظرت بالداخل.

"تقول أمك إنك تستمتعين بالمدرسة فى الوقت الحالى."

نظرت "إيدا" لأعلى بعينين حمراوين وفم متمرد. "استمتع بها؟ ليس كثيرًا."

" "فرانسيس" دوماً ما يحكى عن مهارتك."

"حقاً؟" هدأ وجهها للحظة، إذًا ربما كانت "آن" على حق.

"يقول إنك أمهر طالبة، ربما يمكنك المتابعة والذهاب إلى المدرسة فى "كوبرماين"."

"همم.. لا أعرف إذا كان أبى وأمى سيسمحان لى."

"حسنًا.. لديهما أولاد كفاية ليعتنوا بالمكان.. أليس كذلك؟"

"أظن ذلك."

ابتسمت لها.. وابتسمتْ لى هى أيضًا تقريبًا، لديها وجه صغير شاحب بارز العظام ذو بقع تحت عينيها، لن يتهمها أحد قط بكونها جميلة.

"سيدة "روس"؟ هل أكملت تعليمك؟ "

"نعم .. لقد فعلت، إنه أمر يستحق المتابعة ."

إن هذا حقيقى تقريبًا، ربما كنت لأفعل بالتأكيد.. لو لم أدخل المصح العقلى فى ذلك الوقت، كانت تنظر لى الآن بنوع خجول من الإعجاب وملأتنى رغبة فى أن أكون ما تعتقد أننى عليه. ربما أكون نوعًا من القدوة لها -لم أفكر بهذا الشكل من قبل قط، لكنها فكرة ممتعة، ربما هذه واحدة من التعويضات للتقدم فى السن.

"يجب أن يكمل "فرانسيس" أيضًا تعليمه، إنه ذكى جدًا." احمر وجهها مع الجهد غير المعتاد عليه للتعبير عن رأى شخصى.

"حسنًا.. ربما.. إنه لن يتحدث معى فى الوقت الحالى، سوف تدركين.. إنه عندما تكونين أم أحدهم فهم لا ينصتون لكِ على الإطلاق."

"أنا لن أتزوج أبدًا."

تغير وجهها مرة أخرى.. وعاد الظل المظلم.

"هل تعرفين.. أتذكر قول الشىء نفسه، ولكن الأمور لا تصبح دومًا كما تعتقدين."

كنت أفقدها لسبب ما، ملأت الدموع عينيها.

" "إيدا"... لا أفترض أن "فرانسيس" قد تحدث إليك قبل أن يذهب فى هذه الرحلة؟ حول أين سيذهب أو أى شىء من هذا القبيل؟" هزت الفتاة رأسها، عندما رفعت وجهها مرة أخرى كنت مصدومة بالألم الواضح فى عينيها. الحزن وشىء آخر ـ هل هو الغضب؟ شىء حول "فرانسيس".

"لا.. لم يفعل."

ذهبت للبيت وأنا أسوأ مما عندما خرجت، أنا لا أتوقع حقًا أن "انجوس" سيعود ومعه "فرانسيس"، وعندما وصل للبيت بعد الظلام بوقت طويل.. وحيدًا.. لم أشعر بأية مفاجأة، كانت بشرته مهملة من الإنهاك وتكلم دون أن ينظر إلىّ.

"ذهبت إلى بحيرة "سوالو"، رأيت آثار شخص يذهب ـ أكثر من واحد.. واضحة مثل الشمس.. لكنه ليس هناك، ولا أحد يصطاد هناك.. أقسم على ذلك، لو كان هذا "فرانسيس" لكان يجرى."

فكرت بداخلى قائلة.. وأنت عدت، استدرت بظهرك ومشيت بعيدًا. وقفت.. وكنت قد اتخذت قرارًا؛ ليس علىَّ أن أفكر أكثر من ذلك.

"إذًا سوف أذهب فى إثره."

كانت نقطة فى صالحه أنه لم يضحك مثلما كان ليفعل معظم الأزواج، لا أعرف إذا كنت أريده سرًا أن يمنعنى، على الأقل أن يجادلنى ويتوسل إلىّ ألا أرحل، ألا أفعل شيئًا أحمق وشجاعًا وخطيرًا.

على كل حال.. هو لم يفعل، فكرت فى رجال الشركة فى "كالفيد" ـ أول شىء سيفعلونه هو المجىء إلى المزرعة ليروا إذا كان "فرانسيس" هنا.. ينظرون بعيون خبيثة إلى وجوهنا ليروا كم نحن خائفون، حسنًا.. ليس لدى الطاقة لأتظاهر بعد الآن.. سوف أنظر إليهم فى عيونهم وأريهم أننى مرعوبة.

مرعوبة حتى الموت.

***

وصل "دونالد" و"جاكوب" عائدين إلى "كاليفليد" فى وقت متأخر من الصباح، وجهز "دونالد" عربة لتجمع ثروة "جاميه" المُخبأة. بعد أن شعر بالخجل من شكه السابق، قام بإرسال "جاكوب" بمفرده ليعود بالصندوق، الشىء الذى جعله أفضل حالاً وكان لديه منفعة إضافية وهى جعله متاحًا للغداء مع السيدة "نوكس" و ابنتيها، ولكنهم كانوا على وشك البدء فى تناول اللحم قبل أن يقول شيئاً يفسد الموقف.

"كنت أتساءل إذا كان من الممكن أن أقابل السيد "ستاروك" هنا عندما أعود." بدأ بطريقة لفتح محادثة. "أظن أنه من معارف زوجك القدامى."

نظرت السيدة "نوكس" لـ"دونالد" بحركة مفاجئة. "السيد "ستاروك".. "توماس ستاروك"؟" تبادلت الفتاتان نظرات سرية ذات معنى.

"حسناً.. أنا لا أعرف اسمه الأول، لكنى... أخبرونى أنه يعرف زوجك أنا آسف... هل قلت شيئاً...؟"

شحبت السيدة "نوكس" بلا شك، لكنها أبقت فمها فى خط مستقيم.

"لا عليك يا سيد "مودى"، أنا متفاجئة هذا كل شىء، فلم أسمع بهذا الاسم منذ وقت طويل."

نظر "دونالد" إلى طبقه، محرجًا ومرتبكًا، حدقت "سوزانا" فى أختها، تنحنحت "ماريا".

"التفسير يا سيد "مودى" أنه كان لدينا ابنتا عم.." "إيسى" و"إيف"، اللتان خرجتا فى نزهة فى الغابة ولم تعودا قط، جلب العم "تشارلز" أشخاصًا كثيرين ليحاولوا إيجادهما، وكان السيد "ستاروك" واحدًا منهم.. كانت له سمعة جيدة كـ"باحث"ـ أنت تعرف.. لإيجاد الأطفال الذين خطفوا من قبل الهنود، قام بالبحث لوقت طويل لكنه لم يجدهما قط."

"لقد أنفق كل نقود عم "تشارلز"، فمات من جراء قلبه المكسور." قالت "سوزانا" بسرعة.

"أصيب بأزمة قلبية ." قالت "ماريا" لـ"دونالد".

أومأت السيدة "نوكس" برأسها فى صمت.

كان "دونالد" مصدومًا، من وجه "سوزانا" فهم أن هذا ما كانت على وشك إخباره به أول أمس ولكن منزوعًا منه التفاصيل المثيرة. ولذلك هى متضايقة من كون قصتها قد أخذت منها.

"أنا آسف جدًا." أخيرًا تذكر أن يقول... "يا له من شىء فظيع!".

قالت السيدة "نوكس" : "لقد كان فظيعًا، لم تتخطاه أختى ولا زوجها قط، "ماريا" على حق فى قولها إنه عانى من أزمة قلبية لكنه كان فقط فى الثانية والخمسين، لقد حطمه."

وجهت "سوزانا" نظرة انتصار لأختها.

فى الصمت الذى تلى .. كان الصوت الوحيد هو صوت شوكة "دونالد" تخبط فى طبقه، وفجأة شعر بوقاحته لاستمراره فى تناول الطعام، حامت يده الممسكة بالشوكة فى الهواء، حتى صوت مضغه بدا

عاليًا جدًا.. لكن الآن وفمه ممتلئ بالفعل.. ليس هناك الكثير يمكن أن يفعله حيال ذلك.

"أرجو أن يكون لحم الخنزير قد حاز إعجابك." قالت السيدة "نوكس" بابتسامة حازمة؛ كانت مضيفة من الدرجة الأولى لا يثنيها شيء.

غمغم "دونالد": "لذيذ!" واع تمامًا أن على يساره "سوزانا" وقد تركت شوكتها.

قالت "ماريا": "كان هذا منذ وقت طويل، منذ سبعة عشر أو ثمانية عشر عامًا، لكنك لم تقل بعد.. هل عاد "فرانسيس روس"؟ أو هل ستنطلق فى الغابة غدًا؟"

شعر "دونالد" بنوبة من الامتنان لها. "المذكور .. فى الوقت الحالى .. لم يعد بعد، والداه قلقان عليه."

"هل يعتقدون أنه اختفى مثل ..." توقفت "سوزانا" قبل أن تنهى جملتها.

" "فرانسيس روس" دائمًا ما ينطلق إلى داخل الغابات ، إنه من سكانها الأصليين، لابد أنه يعرفها مثل ظهر يده."

"على أى حال.. سوف تتضح الأمور بإيجادنا إياه، و"جاكوب" متتبع أثر ممتاز، ولن يفرق معه تأجيل بضعة أيام."

الآن بعد الغداء، جلس "دونالد" فى المكتب، يراجع ملاحظاته التى كتبها أمس ويضيف أحداث الصباح، كان قد قرر أن يذهب ويعثر على هذا الرجل "ستاروك"ويستجوبه، عندما دخلت "سوزانا" دون أن تطرق الباب.

قفز على قدميه ونجح ـ بشكل لا يصدق ـ فى أن يصطدم بكرسيه فى تسرعه.

"اللعنة.. أنا آسف..."

"آوه .. يا آلهى .."

جاءت "سوزانا" لتساعده ليلتقطها وانتهى بهما الأمر أن وقفا قريبًا جدًا، يضحكان ووجهيهما على بعد إنشات فقط من بعضهما البعض.

تراجع "دونالد" بعيدًا.. مرتعبا فجأة من أن تشعر بطرقات قلبه.

قالت: "جئت لأعتذر، لقد كنا صحبة مأسوية لك، وتعرف.. لقد رجوت أن يكون الأمر مختلفًا المرة القادمة التى نراك فيها."

كان وجهها جديًا إلى حد ما، ولكن كانت هناك حمرة خفيفة فى خديها. كان "دونالد" مصدومًا بالاعتقاد الرائع تمامًا أن هذه الفتاة الجميلة معجبة به، وهذه الحقيقة نزلت عليه مثل الصدمة بعد كأس قوية من البراندى، تمنى ألا يكون يبتسم ببلاهة الآن.

"ليس هناك شىء تعتذرين بشأنه .. آنسة "نوكس" ."

"من فضلك.. ادعونى "سوزانا" ."

"سوزانا."

كانت هذه أول مرة يقول اسمها فى وجهها، وجعله ذلك يبتسم. الشعور باسمها فى فمه ورؤية وجهها تنظر لأعلى إليه.. احترق على قلبه مثل ختم بالنار.

"لقد كنت أروع صحبة.. وإلهاء مرحب به عن كل هذا... العمل، إننى.. سعيد أننى جئت ـ أعنى سعيد لأن "ماكينلى" اختارنى ."

"لكنى أفترض أنك سترحل غدًا، وعندها لن نراك مرة أخرى ."

"حسنًا.. أتوقع أن الشركة ستحتاج لأن تبقى عين على الأشياء هنا .. لذلك .. من يعرف.. ربما أعود أسرع مما تعتقدين ."

"أوه .. فهمت ."

بدت ضائعة جدًا حتى أنه تشجع ليضيف: "لكن.. تعرفين .. ما الذى

سيكون رائعًا ... لو أنك تكتبين لى و.. و.. تدعينى أعرف كيف حال الأمور هنا: "هل تعنى.. مثل تقرير؟"

"حسنًا.. نعم.. وهو كذلك، سوف أحب أيضًا أن أعرف.. كيف هى الأمور معك، وأحب أنا أيضًا أن أكتب لكِ .. إذا كان ذلك ملائمًا.

"هل تحب أن تكتب لى؟" بدت متفاجئة بشكل ساحر.

"سوف أحب ذلك كثيراً ."

للحظة عندما كانا مقطوعى الأنفاس من وعيهما بما كانا يقولانه، ثم ابتسمت "سوزانا" كإجابة.

"سوف أحب ذلك أنا أيضًا ."

كان "دونالد" متحمسًا بجنون، مليئًا بقوة وطاقة كان قد نسى وجودهما. أخذ يشكر بشدة و بصمت بينما - لا يعرف ماذا يفعل - أسرع خارجا من المنزل.. بعد أن وجد بتناقض أنه يريد أن يكون وحيداً ليحتفل بسعادته التى وجدها حديثًا، مشى إلى متجر "سكوت". اندفع خلال الباب.. محاولا أن يزيل الابتسامة الحمقاء من على وجهه - فرغم كل شىء .. لقد مات رجل - ليرى امرأة رشيقة القوام ذات وجه مستدير خلف المكتب الأمامى، نظرت لأعلى على صوت الباب، وكان أول تعبير على وجهها هو الخوف.. سريعًا ما وضعت قناع الحيادية التامة .

إن "جون سكوت" ليس هنا، لكن السيدة "سكوت" أثبتت أنها متعاونة مثله تقريبًا، لاحظ "دونالد" طريقتها المتشتتة، وحاول أن يركز وهى تخبره أن السيد "ستاروك" يقيم فى منزلها، وربما يكون هناك الآن.. لا تستطيع أن تجزم .

"أنت مرحب بك أن تذهب وترى.. فالخادمة هناك..." توقفت السيدة "سكوت" كما لو كانت قد تذكرت شيئًا ما لتوها. "لا.. سوف أبعث برسالة.. هذا سيكون أفضل."

اختفت خلال باب فى الخلف، حدق "دونالد" خارج النافذة على السماء التى بدت كقطع الجبن وتذكر فم "سوزانا" الناعم.

كان لـ"توماس ستاروك" شىء ما حوله جعل "دونالد" يميل إليه - عندما أخبروه أن الرجل كان باحثاً، افترض أنه سيكون رجل غابات عجوزًا ذا طباع خشنة ونوع من حس الدعابة اللاذع، الذى يكون عليه تحمله فى القلعة (فورت)، ولكنه فوجئ بسرور بهذا السيد المهذب الذى قابله بدلاً من ذلك .

"أتساءل لو بإمكانى أن أسالك.. كيف انتهى بك المطاف فى مجال العمل هذا؟"

كانا يشربان قهوة "سكوت" مرة المذاق، وهما جالسان فى كرسيين وضعتهما السيدة "سكوت" أمام المدفأة، حدق "ستاروك" فى كوبه بخيبة أمل قبل أن يجيب.

"لقد قمت بعمل العديد من الأشياء فى حياتى، وكتبت عن طريقة حياة الهنود، لطالما كنت صديقاً للهنود، وعرف أحدهم ذلك فطلب منى أن أساعده فى قضية حيث خُطف صبى، وقد نجحت فى ذلك، فطلب منى أشخاص آخرون ذلك، لم أخطط قط للقيام بذلك.. لكنه فقط جاء فى طريقى، والآن أنا كبرت جدًا على مثل هذا الشىء."

"والغرض الذى جئت تبحث عنه، هل لديك أى إثبات مكتوب بأن "جاميه" أرادك أن تأخذه؟"

"لا.. فهو لم يخطط لأن يُقتل آخر مرة رأيته فيها."

"وهل أنت على معرفة بأى أعداء قد كانوا لديه؟"

"لا.. لقد كان يميل إلى عقد اتفاقيات تخدم مصلحته، ولكن هذا ليس سببًا لأن تقتل رجلاً."

"لا.. حقًا."

"عندما أرانى هذه القطعة من العظم لأول مرة، سألته إذا ما كان بإمكانى نقل العلامات التى عليها، وكان بإمكانه أن يرى أننى كنت مهتمًا، لذلك رفض.. وقال إنه سيبيعها لى."

"لكنك لم تشترها حينها؟"

"لا.. كنت ـ أنت تفهم -كانت قد نفدت منى النقود مؤقتًا، لكنه وافق على الاحتفاظ بها حتى أستطيع أن أدفع له، لدى النقود الآن ولكن بالطبع..." ـ فرد يديه أمامه بلا أمل -لا أعرف أين هى ."

"سوف أتحدث للسيد "نوكس" حول الأمر، نحن لم نجد وصية، لو وافق السيد "نوكس" فأجرؤ على القول إنه يمكنه أن يبيعها لك. هذا على افتراض أننا وجدناها."

فجأة خطر على ذهن "دونالد" أن يتساءل إذا ما كان "ستاروك" قد بحث بالفعل عن هذه القطعة، تذكر آثار الأقدام عند الكابينة، ثلاث مجموعات.. ثلاثة أشخاص جاءوا لينظروا فى الكابينة الليلة الماضية .

"هذا كرم منك يا سيد "مودى"، أقدر لك ذلك."

"ما نوع هذه القطعة؟ هل هى شىء من "روما" أو من "مصر"؟"

"أنا لست متأكدًا تمامًا، لم تبد أنها أى شىء مثل ذلك، ولكن لهذا السبب أحتاجها... أنوى أن آخذها لبعض رجال المتحف الذين يعرفون عن مثل هذه الأشياء."

أومأ "دونالد" برأسه، مازال غير متأكد لماذا "ستاروك" مهتم جداً بهذا الشىء . شىء واحد هو متأكد منه ـ رغم ذلك ـ أنه إذا كان شخص ما مهتمًا للغاية بشىء .. فسوف يخطو بحذر أيضًا. هل من الممكن أن يكون "ستاروك" قد جاء من قبل ورفض "جاميه" بيع قطعة العظم له، فقام "ستاروك" بقتله؟ أو هل قام "جاميه" ببيعها لشخص آخر؟ فى كلتا الحالتين التى وضعهما.. لا يبدو "ستاروك" كقاتل محتمل، ولكن أيضًا بالفعل ليس هناك أى أثر لهذا الشىء الذى من الواضح أن له قيمة، على أية حالة.. بحوزة من هذا الشىء الآن؟

غادر "دونالد" المتجر مع تأكيد "ستاروك" أنه سيبقى فى "كالفيلد" للأيام القليلة القادمة، تعجب لماذا لم يخطر على باله أن يسأله عن فتاتى "سيتون" ـ ربما لأنه وجد أنه من المحال أن يصدق أن هذا الرجل ذا الأخلاق الحميدة هو النصاب الجشع الذى وصفوه آل"نوكس". تساءل ـ ليس للمرة الأولى ـ إذا ما كانت قلة خبرته تقوده إلى الوصول إلى انطباعات مفرحة بمنتهى السهولة. هل عليه أن يكون أكثر شكًا، مثل "ماكينلى" الذى يتحامل على الناس على مبدأ افتراض أنه آجلاً أو عاجلاً سوف يخذلونه ـ وعادة ما يثبت صحته؟

فى طريقه أسفل الطريق رأى "ماريا" تحمل سلة ، رفع قبعته فابتسمت بخفة، بدت بلا شك أقل عداءً منذ هذا الصباح، لكنه لن يغامر بأن يتحدث إليها إلا إذا تحدثت هى أولاً.

"السيد "مودى" كيف تجرى التحقيقات ؟"

"همم ، ببطء .. شكراً لسؤالك ."

توقفت، كما لو كانت تنتظر أن يقول شيئاً لذلك وجد نفسه يقول: "لقد كنت أتحدث لتوى للسيد "ستاروك"."

لم تخف دهشتها ، وأومأت وكأنها توقعت ذلك. "ثم ؟"

"اعتقدت أنه كان ساحرًا، متعلمًا، حساسًا.. ليس كما توقعت على الإطلاق."

"أفترض أنه كان عليه أن يكون ساحرًا ليخدع عمى ويأخذ نقوده كلها ـ وكان هناك الكثير منها.. على ما أظن."

لابد أن "دونالد" قد عبس.. لأنها أكملت: "أعرف أن عمى كان بائسًا بشكل كافٍ ليفعل أى شىء ، لكن رجلا شريفًا كان قد أخبره أن الاستمرار فى البحث عن الفتاتين بلا فائدة وكان قد رفض نقوده، لكان أفضل على المدى الطويل، وفى النهاية لم يعد لديه لا ابنتيه ولا أى شىء يعيش عليه؛ وهو.. حسنًا.. بالإضافة إلى ذلك قد دمــر نفسه. كان هذا بعد موت

عمتى ـ أعرف أنه سيبدو بشعًا أن أقول هذا ولكن.. لطالما افترضت أنه لابد أن تكون الذئاب قد أكلتهما؛ الناس الآخرون يقولون ذلك وأعتقد أنهم على حق، لم يتمكن عمى وزوجته من تصديق ذلك على الرغم من كل شىء."

"كيف يمكن لأى أحد ؟"

"هل هذا أسوأ مما فكرا فيه بالفعل ؟"

"كنت لأفكر أن الحياة ـ مهما كان الثمن ـ أفضل من الموت ."

نظرت "ماريا" إليه بعينيها المقيمتين ـ مثل مزارع يقيم حصانًا، لن تجد زوجًا قط إذا نظرت إلى كل الرجال بمثل هذا الشكل، فكر فى ذلك متضايقًا.

"ربما أنقذتهما الذئاب من قدر أسوأ من الموت." وقع الجملة المحفوظة فى فمها مثل نكتة سيئة.

"أنت لا تعتقدين ذلك حقًا." كان متفاجئًا من جرأته فى الاعتراض عليها.

حركت "ماريا" كتفيها. "منذ عدة سنوات، غرق طفلان هنا فى اليم، كانت حادثة أليمة، وحزن والداهما حزنا شديدًا بالطبع، لكنهما مازالا على قيد الحياة، يبدوان سعداء كفاية الآن ـ تماماً مثل أى شخص منا."

"ربما هو عدم التأكد الذى صعب أن يتحمله ."

"والذى يُمكن عديمى الأخلاق من أن يعيشوا على أملك، حتى يمتصك وتصبح جافًا."

تفاجأ "دونالد" مرة أخرى بالأشياء التى تقولها، كان يسمع بشكل مبهم صوت أبيه، قائلاً فى نبرة المحاضرات خاصته: "الرغبة فى أن تصدم أحدًا هى صفة طفولية يجب أن تختفى مع النضوج." ولكن "ماريا" كانت تبدو مثل أى شىء إلا غير ناضجة، ذكر نفسه أنه لا يحتاج إلى أن يتفق مع والده فى الرأى بعد الآن؛ فهما فى قارتين مختلفتين.

"لم يبد السيد "ستاروك" كرجل ثرى." قال "دونالد" فى نوع من الدفاع.

نظرت "ماريا" وراء "دونالد" على الشارع، ثم نظرت له بابتسامة كانت عيناها ـ غير "سوزانا" ـ زرقاوين. "لمجرد أنك تحب شخصًا ما.. لا يعنى أنه يمكنك أن تثق به. " وبهزة من رأسها ـ أقرب إلى السخرية من انحناءة الاحترام ـ مشيت بعيدًا عنه.

قضى "دونالد" بقية الظهيرة والمساء يفحص ممتلكات "جاميه"، ولكن.. مثل الآخرين الذين سبقوه.. لم يجد شيئًا يبدو أنه له علاقة بموته. كانت ممتلكات الرجل الفرنسى الدنيوية قد كومت كلها فى جزء جاف من الإسطبلات، وهو "جاكوب" ـ الذى أشرف على تفريغ الكابينة مع الأمن لكى يكون عادلاً ـ قد صنفوهم فى صناديق وأكوام، كانت كل الأشياء قد أنتجت عن أشياء قليلة بشكل يدعو للدهشة حاول "دونالد" ألا يفكر فى كم سيكون زملاؤه صغارًا وهم يفتشون، لو أنه تنحى فجأة عن هذا الملف القاتل. لن يكون هناك شىء على الإطلاق ليشير إلى هذه المشاعر الجديدة والمهمة للغاية تجاه "سوزانا".. على سبيل المثال . قطع على نفسه وعودًا أن يكتب لها بمجرد أن يغادر "كالفيلد" ـ من السخف.. طالما أنهما مازالا فى المنزل نفسه، وطالما أن "دونالد" قد قرر أن ينتظر حتى يعود "ماكينلى" و"نوكس" قبل أن ينطلق فى مطاردة الأوز البرى على الأرجح.. يمكنه أن يعود هنا ليوم أو اثنين آخرين .

سوف يطلب منها صورة، أو تذكارًا، إنه لا يخطط لأن يُقتل بالطبع، ولكن لمجرد الاحتياط.

***

عندما كنت فتاة.. حين كان والدایّ على قيد الحياة.. كنت مضطربة بما اصطلح على تسميته "صعوبات"، أمسكت بى مخاوف سببت لى الشلل فتركتنى غير قادرة على الحركة.. والكلام. شعرت بأن الأرض تنزلق بعيدًا

من تحتى، وأننى لا أستطيع أن أثق بالأرض التى تقف عليها قدماى.. إنه لشعور مرعب. تفحص الأطباء نبضى وحدقوا فى عينى قبل أن يقولوا إنه مهما كان الأمر فسوف يختفى على الأرجح مع بداية مرحلة البلوغ (الذى كانوا يعنون به الزواج على ما أعتقد). على كل حال.. قبل أن أتمكن من اختبار هذه النظرية.. ماتت أمى فى ظروف غير معتادة، أصدق أنها قد أنهت حياتها بنفسها.. رغم أن والدى أنكر ذلك. كانت تأخذ الأفيون، وجرعة زائدة قتلتها، سواء كانت عن عمد أم لا. كنت قد ابتليت بالمخاوف بشكل متزايد حتى لم يستطع أبى تحمل الأمر أكثر من ذلك واضطر أن يضعنى فى ـ ليس لأجعل الأمر أجمل ـ مصح عقلى، رغم أنه كان له اسم أنيق له علاقة بأبناء الطبقة الراقية المتعبين نفسيًا. ثم مات هو الآخر.. تاركًا إياى لرحمة المشرف العام غير النزيه، وانتهى بى الأمر فى مصح عقلى عام، الذى على الأقل كان صادقًا بشكل كافٍ ليدعو نفسه ما كان عليه فعلاً.

فى المصح العام كان الأفيون متاحًا بحرية، فى البداية كان يوصف لنوبات الشلل، فأصبح الشىء الذى أعتمد عليه.. فقد أخذ مكان الوالدين أو الأصدقاء. كان يستخدم بكثرة لتهدئة المرضى مثيرى المتاعب، لكنى أدركت سريعًا أننى أفضل أن أكون مسئولة عن التحكم به بنفسى، فاضطررت أن ألجأ للحيلة لأحصل عليه. ووجدت الأمر سهلاً أن أقنع أعضاء الذكور فى فريق العمل أن يفعلوا أشياءً من أجلى، أما المشرف العام ـ شاب مثالى يدعى "واطسون" ـ فاستطعت لفه حول أصبعى الصغير. بمجرد أن تصبح معتادًا على شىء.. تنسى لماذا أردته فى المقام الأول.

فيما بعد عندما قرر زوجى أن عادتى كانت حائلاً دون الحميمية الحقيقية.. تخليت عنها، أو بالأصح قام بأخذ مخزون الأفيون وتخلص منه.. تاركًا إياى وليس لدى أى اختيار إلا أن أحيا بدونه. كان الأمر كأن تفيق مجددًا بعد فترة طويلة من السُكر، وهذه الحالة من الإفاقة بدت

رائعة لفترة. ولكن أن تكون فائقاً يجعلك تتذكر أشياءً كنت قد نسيتها ـ على سبيل المثال ـ لما شعرت بالحاجة لأخذ المخدر فى المقام الأول. عندما- منذ سنوات- كانت الأوقات صعبة.. كنت أعرف بالضبط لماذا أصبحت معتادة، وفى الأيام القلائل الماضية كنت أفكر فى الأفيون تقريباً بالقدر نفسه الذى فكرت فيه فى "فرانسيس". أعرف أننى أستطيع الذهاب للمتجر وشراء البعض، كنت أعرف هذا كل دقيقة من اليوم ولنصف الليل، الشىء الوحيد الذى يوقفنى هو أننى الشخص الوحيد فى العالم الذى يعتمد عليه "فرانسيس" للمساعدة، وحتى الآن لم أقم بتقديم أية مساعدة على الإطلاق.

لقد مرت خمسة أيام منذ رحيل "فرانسيس"، وأنا أمشى فى الممر إلى كابينة "جاميه" عندما سمعت ضجة فى الأمام، ركض كلب عبر الممر ونبح؛ كلب لا أعرفه.. متخم وأشعث ويبدو متوحشاً ـ كلب ضال. توقفت.. كان هناك شخص ما فى الكابينة.

فى المرتفع وراء المبنى، تسللت خلف شجيرة بسرية تدربت عليها وانتظرت. غرست حشرة متذمرة فكيها فى رسغى، أخيراً خرج رجل من الكابينة وأطلق صفيرًا، ركض كلبان إليه.. فيهما الكلب الذى كان فى الممر فيما قبل. من مكانى الذى أختبئ فيه حبست أنفاسى، وعندما أدار وجهه إلىّ شعرت برعشة باردة تسرى فى عمودى الفقرى. كان طويلاً بالنسبة لهندى، قوى البنية ويرتدى سترة زرقاء وبنطلونًا جلديًا، ولكن كان وجهه هو ما جعلنى أفكر فى قصة الرجل الصناعى، كان لديه جبهة منخفضة وعريضة.. عظام خديه عالية، وأنفه وفمه يتجهان لأسفل مثل منقار طائر ويعطى انطباعاً قوياً للتوحش والقسوة، خطوط عميقة محفورة على بشرته النحاسية على جانبى فمه، كان شعره أسود وأشعث. لم أكن قد رأيت قط أى شخص بهذا القبح فى حياتى ـ وجه لابد أنه قطع من الخشب بفأس بارد. لو احتاجت "ميس شيللى" نمطًا لوحشها المرعب.. لكان هذا الرجل إلهامًا مثاليًا لها.

انتظرت.. بالكاد أجرؤ على التنفس حتى دخل مرة أخرى إلى داخل الكابينة، ثم انسحبت للوراء من مخبئى. قلبت فى ذهنى للحظة أفضل تصرف أقوم به- أن أجد "انجوس" فى المزرعة وأخبره، أو أن أركب لأذهب مباشرة إلى "كالفيلد" وأخبر "نوكس"؟ اليوم قررت ألا أواجه الرجل بنفسى، لأنى قدرت أنه من الواضح أنه خطر.على الرغم من نفسى.. وجدت أنه من الصعب تصديق أن أى شخص يمكن أن يكون له مثل هذا الوجه ولا يكون لديه طبيعة قاسية وغاضبة. فى النهاية ذهبت ووجدت "انجوس"، استمع لى بصمت ثم أخذ مسدسه وسار فى الممر.

عرفت فيما بعد أنه سار إلى الكابينة ودخل مباشرة، تفاجأ الغريب بينما كان يفتش الحجرة فى الطابق العلوى. نادى أنجوس" عليه وأخبره ـ بمنتهى الأدب أنا واثقة ـ أنه سيضطر أن يصطحبه إلى "كالفيلد"،حيث إن هذا مسرح الجريمة وليس لديه أى حق فى أن يكون هناك. تردد الرجل لكنه لم يقم بأية مقاومة، التقط مسدسه ومشى أمامه ثلاثة أميال نزولاً إلى الشاطئ. جعله "أنجوس" يسير حتى باب منزل "نوكس" الخلفى. بينما انتظرا.. حدق الغريب فى الشاطئ بنظرة متعالية بعيدة، كما لو كان لا يأبه بما قد يفعله به أى شخص. فى الوقت الذى غادر فيه "انجوس" ليعود للبيت.. كان قد قُبض على الغريب وحبسه. أخذت الشفقة "انجوس" على الكلبين ـ اللذين رفض "نوكس" أن يدخلهما فى باحة منزله ـ فجلبهما للبيت.. مدعياً أنهما لن يكونا مصدر إزعاج. فكرت أنه لابد أنه وجد شيئًا أحبه فى الغريب.. لأن يدفع به إلى المتاعب.

***

جلس "أندرو نوكس" أمامه "ماكينلى" وهو يدخن غليونه، أعطى ضوء النار وهجًا دافئًا برتقالى اللون لوجهيهما ـ حتى وجه "ماكينلى" الشاحب فقد شحوبه واصفراره. لم يستطع "نوكس" مشاركة الآخرين رضاءهم الواضح. فلقد استجوبوا الرجل لأكثر من ساعة ولم يكتشفوا أى شيء محدد إلا اسمه.. "وليام باركر"، إنه كان صائدًا تعامل مع "جاميه" من قبل،

وهو يدعى أنه لم يكن يعرف أن "جاميه" قد مات، لكنه زاره عندما كان مارًا ووجد الكابينة فارغة، وكان يفتش المنزل ليجد بعض العلامات لتوضح له ما حدث.

"أنت تقول إن القاتل لن يعود لمسرح جريمته." قطع "ماكينلى" الصمت. "لكن إذا كان قد أراد الأسلحة وما إلى ذلك، ولم يجدهم فى المرة الأولى، فكان يمكنه الانتظار حتى تهدأ الأمور ثم يعود ليبحث مرة أخرى."

كان "نوكس" يعرف صحة ما يقول.

"أو ربما اعتقد أنه قد ترك شيئاً وراءه فعاد ليستعيده."

"لم نجد أى شىء لا ينتمى إلى هناك."

"ربما فات علينا."

وضع "نوكس" أسنانه فى تشقق بفعل الزمن فى الغليون؛ إنه لشعور رائع.. أن الأسنان والغليون متناسبان بمثالية بعد الاستخدام الطويل، كان "ماكينلى" متعجلاً أن يدين الصائد.. سامحًا لرغبته فى إيجاد حل أن تشكل الحقائق فضلاً عن العكس. كان "نوكس" يريد أن يوضح له ذلك ولكن بدون الإساءة لكبريائه، فقبل كل شىء.. "ماكينلى" هو المسئول بشكل رسمى.

"من المحتمل أن يكون ببساطة ما يقول، صائد تعامل معه فى الماضى، والذى لم يكن يعرف أنه قد مات."

"ومن يذهب ليتجسس فى منزل فارغ؟"

"هذه ليست جريمة، أو حتى شىء غير معتاد."

"إنها ليست جريمة لكنها شىء باعث على الشك، ويجب علينا أن نستشف ما هو أكثر احتمالاً مما لدينا."

"ليس لدينا أى شىء، لست متأكداً أن لدينا أية قواعد ثابتة للقبض عليه على الإطلاق."

أصر "نوكس" أن الرجل ليس سجيناً ولابد أن يعامل معاملة حسنة، فجعل "آدم" يأخذ صينية من الطعام إلى المخزن حيث يقبع الرجل، ويشعل ناراً. كره أن يطلب من "سكوت" معروفاً آخر، لكنه لم يستطع أن تقبل فكرة الاحتفاظ بالرجل فى حجرة ـ حتى لو كانت مغلقة ـ فى المنزل نفسه مع زوجته وابنتيه. بالرغم من كلماته هناك شىء ما حول وجه الغريب يبعث على أفكار سوداء ومرعبة، إنه يذكره بالوجوه فى منحوتات حروب الهنود: وجوه ملونة بالطلاء.. يعصف بها الغضب.. مسيئة للمعتقدات الدينية.. غريبة.

فتحوا باب المخزن للمرة الثانية وأمسكوا بمصابيحهم عاليًا، ليروا السجين يجلس بلا حراك بجانب النار، لم يدر رأسه عندما فتح الباب.

قال "نوكس": "سيد "باركر"، نريد أن نتحدث معك أكثر."

جلسوا على كراس جُلبت لهذا الغرض قبلاً، لم يتحدث "باركر" أو يدير وجهه إليهما. فقط تنفسه- الذى تكثف فى سُحب شاحبة حول وجهه- هو الذى أشار إلى أنه حى.

"كيف حدث أن اسمك "باركر"؟ سأله "ماكينلى".. كانت نبرته مهينة، وكأنه يتهم الرجل بالكذب بشأن هويته.

"كان والدى إنجليزى الأصل.. "صمويل باركر"، جاء والده من "إنجلترا"."

"هل كان والدك من رجال الشركة؟"

"لقد عمل لحساب الشركة طوال حياته."

"لكن أنت لست كذلك (من رجال الشركة)."

"لا"

كان "ماكينلى" يميل للأمام، فذكر الشركة جذبه مثل المغناطيس. "هل اعتدت أن تعمل لحسابهم؟"

"خدمت كمتدرب، أنا صائد الآن."

"وكنت تتعامل مع "جاميه"؟"

"نعم."

"منذ متى؟"

"لسنوات عديدة."

"لماذا تركت الشركة؟"

"لكى لا أشعر بامتنان لأحد."

"هل كنت تعلم أن "لوران جاميه" كان عضواً فى شركة أمريكا الشمالية؟" نظر الرجل إليه.. وكانت تبدو عليه التسلية لحد ما، ألقى "نوكس" بنظرة على "ماكينلى"- هل اكتشفت ذلك من الرجل الفرنسى الآخر؟

"لم أتعامل مع شركة، كنت أتاجر معه."

"هل أنت عضو فى شركة "أمريكا الشمالية"؟

كان "باركر" يضحك الآن بقسوة. "أنا لست عضواً فى أية شركة، أنا أقوم بصيد الفراء وبيعه.. هذا كل شىء."

"لكن ليس لديك أى فراء الآن."

"إنه فصل الخريف."

وضع "نوكس" يداً تحذيرية على ذراع "ماكينلى"، حاول أن يجعل نبرته ودودة وعاقلة، "أنت تفهم لماذا نحن مضطرون أن نسأل هذه الأسئلة - فالسيد "جاميه" مات بطريقة وحشية، ونحتاج أن نعرف ما نستطيع عنه، لكى نتمكن من جلب مرتكب هذه الفعلة للعدالة."

"لقد كان صديقى."

تنهد "نوكس"، قبل أن يتمكن من قول أى شىء آخر.. تحدث "ماكينلى" مرة أخرى: "أين كنت فى ليلة ويوم الرابع عشر من نوفمبر.. أى منذ ستة أيام؟"

"لقد أخبرتك، كنت مسافرًا جنوبًا من "سيدنى هاوس"."

"هل رآك أحد؟"

"أنا أسافر وحدى."

"متى غادرت "سيدنى هاوس"؟"

"قلت "سيدنى هاوس" لكى تعرف أين كنت، كان هذا الاتجاه الذى جئت منه، لقد كنت فى العراء."

"وماذا كنت تفعل هناك؟"

"كنت أصطاد."

"لكنك قلت إنه ليس موسم الفراء."

"كنت أصطاد من أجل اللحم."

نظر "ماكينلى" إلى "نوكس" ورفع حاجبيه: "هل هذا شىء عادى نسبةً لهذا الوقت من العام؟"

حرك "باركر" كتفيه قائلاً: "إنه عادى فى أى وقت من العام."

تنحنح "نوكس": "شكرًا لكَ سيد "باركر"، حسنًا.. هذا كل شىء فى الوقت الحالى."

كان محرجًا من صوته، الذى بدا مثل صوت رجل عجوز.. متوتر ومثل صوت النساء، نهض ليذهب.. ثم استدار "ماكينلى" عائداً إلى الرجل الجالس عند النار، والتقط كوبه الذى يضع فيه الماء من على الصينية وصبه على النار ليطفئها.

"أعطنى حقيبتك."

نظر "باركر" إلى "ماكينلى"، الذى ثبت عينيه، كانت عينا "باركر" مغمضتين فى ضوء المصباح، وبدا وكأنه يريد أن يقتل "ماكينلى" فى الحال. أخذ الحقيبة الجلدية ببطء من حول رقبته، وأعطاها لـ "ماكينلى"، أخذها "ماكينلى" ولكن "باركر" لم يتركها وظل ممسكًا بها.

"كيف لى أن أعرف أننى سأستعيدها؟"

خطى "نوكس" مقتربًا.. قلقًا.. لكى يهدئ التوتر فى الجو. "سوف تستعيدها.. سوف أعمل على ذلك بنفسى."

ترك "باركر" الحقيبة وخرج الرجلان آخذين معهما المصباحين الوحيدين تاركين السجين فى الظلام والبرد، حدق "نوكس" النظر بالداخل وهو يسحب الباب ليغلقه.. ليرى ـ أو هل كان يتخيل فقط؟- نصف حيوان نتيجة لتركيزه فى الظلام فى الفراغ المظلم.

"لماذا فعلت ذلك؟" سأل "نوكس" بينما هما عائدان خلال البلدة الهادئة.

"هل تريده أن يشعل النار فى المكان ويهرب؟ أنا أعرف هؤلاء الأشخاص، ليس لديهم أى مبادئ، هل رأيت الطريقة التى نظر بها إلىّ؟ وكأنه يريد أن يفصل رأسى عن جسدى فى الحال."

أمسك بالحقيبة عاليًا أمام المصباح.. كيس جلدى.. مزين بتطريز جميل، وبالداخل أغراض الرجل التى تبقيه على قيد الحياة، حصى لإشعال النار.. مادة قابلة للاشتعال.. تبغ.. وبعض شرائح اللحم الجاف غير الشهية التى لا اسم لها (غير معروف مصادرها)، وبدونها لكان مات على الأرجح فى العراء.

كان "ماكينلى" منتشيًا من الفرح: "حسنًا.. ما رأيك فى ذلك؟ لقد غير قصته لكى لا نستطيع إثبات أنه كان حيث قال إنه كان، فيمكن أن يكون فى "دوف ريفر" منذ أسبوع ولا أحد يعرف."

لم يستطع "نوكس" أن يفكر فى شىء يقوله ردًا على ذلك، هو أيضًا شعر بهزة شك عندما تردد "باركر".. فجوة فتحت فى سلوك الرجل الواثق، لم يكن يعرف ماذا يقول بالضبط.

قال فى النهاية: "إنه ليس إثباتاً."

"إنه صحيح.. هل تفضل تصديق أن الفتى فعلها؟"

تنهد "نوكس" شاعرًا بالتعب الشديد.. لكنه ليس متعبًا بشكل كافٍ ليتعامل مع الأمر. "ما كل هذا عن شركة "أمريكا الشمالية"؟ لم أسمع عنها قط."

"إنها ليست شركة رسمية، ولكن قد تصبح كذلك. أخبرنى "أندريه" أن "جاميه" كان متورطًا، وهو أيضًا. فالتجار الفرنسيون الكنديون كانوا يتحدثون عن إنشاء شركة تقف أمام شركتنا، إن لديهم دعمًا ماديًا من الولايات المتحدة، وهناك اهتمام حتى بين بعض البريطانيين هنا."

تقلص فك "ماكينلى".. فهو رجل ذو ولاءات بسيطة؛ فكرة أن أى كندى من جذور بريطانية ينحاز ضد الشركة تعد مؤلمة بالنسبة له. أما بالنسبة لـ"نوكس" فهى مفاجئة بشكل أقل، فالشركة لطالما كانت تدار بواسطة رجال أثرياء فى لندن، يرسلون مندوبيهم (يرجعون إليهم كخدامين) للمستعمرة لانتزاع ثرواتها، أما بالنسبة للذين ولدوا هنا.. فهى قوة أجنبية.. تجرد أرضهم من خيراتها.. وتوزع الفتات فى المقابل.

اختار كلماته بعناية وحذر: "إذًا ربما كان يُنظر لـ"جاميه" على أنه عدو لشركة "هدسون باى" ؟"

"إذا كنت تلمح أن رجلاً من الشركة هو الذى فعل ذلك به... فأنا أؤكد لك.. أن ذلك لا يمكن التفكير به."

" أنا لا ألمح لأى شىء، ولكن إذا كانت حقيقة.. فلا يمكن تجاهلها إذًا، كم كان حجم تورطه مع شركة "أمريكا الشمالية" هذه؟"

"الرجل لا يعرف.. فقط "جاميه" ذكر ذلك فى الماضى."

"وهل من المؤكد أن "أندريه" كان فى "سوالو" عندما مات "جاميه"؟"

"كان متكومًا فى ركن من حانة.. فاقد الحواس.. وفقًا لكلام المالك، فمن المستحيل له أن يقتل "جاميه" فى "دوف ريفر" فى الوقت نفسه."

شعر "نوكس" بموجة من الغضب من أحداث هذا المساء؛ من تحكم "ماكينلى" وإصراره، ومن حضور السجين الفطرى القوى، وحتى من

"جاميه" تعس الحظ وموته المريك. لطالما كانت "كالفيلد" فى عمرها القصير مجتمعًا مسالمًا ليس لديه سجن ولم يحتاج إلى واحد قط. الآن.. للأيام القليلة الماضية.. أينما ينظر يجد عنفًا ومرارة.

كانت زوجته لاتزال مستيقظة عندما صعد للطابق العلوى، حتى عندما أصبح الرجل "باركر" بعيدًا عن مجال النظر.. فإنه فى عقل كل واحد. ربما يكون هناك قاتل فى بلدتهم.. معزول عنهم فقط بحوائط خشبية رفيعة، هناك شىء ما بخصوص هذا الرجل يجعل من السهل تصديق أنه مذنب، المرء لا يمكنه التحكم فى وجهه - بالطبع - ولا يجب أن يعم الحكم عليه بواسطته، هل هذا ما يفعله؟

علق قائلاً وهو يخلع ملابسه: " بعض الأشخاص لا يسهلون الأمور عليك لتحبيهم."

"هل تتكلم عن السجين أم عن السيد "ماكينلى"؟"

سمح لنفسه بابتسامة مكبوتة، نظر إلى وجهها وفكر أنها تبدو مرهقة.. سألها: "هل أنت على ما يرام؟"

كان يحب الطريقة التى يتموج بها شعرها عندما تتركه منسدلاً.. بنى اللون لامع.. تمامًا كما كان عندما تزوجا، كانت فخورة به وتمشطه لمدة خمس دقائق كل ليلة جتى يصدر صوتًا ويلتصق بالفرشاة.

"كنت سأسألك السؤال نفسه."

"أنا بخير.. أتطلع لإنهاء هذا الأمر برمته، كنت أفضل "كالفيلد" عندما كانت هادئة وكئيبة."

تحركت من مكانها عندما دخل بين الأغطية، "هل سمعت الأخبار الأخرى؟"

يمكنه القول من نبرة صوتها إنها لم تكن أخبارًا جيدة. "أخبار أخرى؟ ما هى؟"

تنهدت قائلة: " "ستاروك" هنا."

" "ستاروك" الباحث؟ فى "كالفيلد"؟"

"نعم.. لقد قابله السيد "مودى"، من الواضح أنه كان يعرف "جاميه"."

"يا إلهى!" لم يتوقف قط ليتعجب بما يمكن لزوجته أن تلتقطه من دائرة الشائعات. "يا إلهى... " كررها بهدوء. رقد على الفراش.. والشكوك تزدحم بداخل رأسه، من كان يعتقد أن "جاميه" لديه الكثير من المعارف غير المرئيين؟ هناك قوة غامضة ما تنبعث من الكابينة الفارغة.. جاذبة غير المحتمل وغير المرغوب فيهم إلى "كالفيلد"، فى سباق من يعرف ماذا. لم يكن قد رأى "توماس ستاروك" منذ عشر سنوات.. ليس بوقت طويل قبل وفاة "تشارلز". لقد حاول أن ينسى المقابلة.. والآن فليحاول كما يحب، فإنه لن يستطيع التفكير فى مبرر برىء لحضور "ستاروك".

"هل تعتقد أنه فعلها؟"

"مَنْ؟" للحظة لم يستطع تذكر ما الذى كانت تتحدث عنه.

"مَنْ! السجين بالطبع، هل تظن أنه فعلها؟"

"فلتنامى الآن." قال "نوكس" ذلك ثم قبلها.

***

قضى "دونالد" اليوم قبل أن يغادروا وقته الثمين يمشط متجر "سكوت" باحثًا عن هدية لـ"سوزانا"، فكر فى شراء قلم حبر لها؛ رغم أنها ستكون هدية مناسبة عند الفراق.. لكنها قد تجده تذكرة قاسية لوعدها بأن تكتب له. كانت هناك اختيارات محدودة من الأغراض، وفى النهاية استقر رأيه على منديل مطرز.. متجاهلا التلميح المحتمل أنه قد يتوقع منها أن تبكى فى غيابه.. إنها لن تفكر فى ذلك على الأرجح.

تلكأت "سوزانا" بعد الظهيرة لساعات فى مكتبة منزلهم، منتظرة "دونالد" أن يجدها بالصدفة.. تتصفح كتابًا (دون أن تقرأه) كانت لديها

فرصة لتقرأ كتابًا بأكمله بحلول الوقت الذى أدرك هو أخيرًا ما الذى يجرى.. لكنها لم تفعل؛ فالروايات فى المكتبة كان معظمها كئيبًا.. تم اختيارها من قبل أبيها عندما كان صغيرًا أو من قبل "ماريا" التى لها ذوق غريب، سمع "دونالد" سعالها ففتح الباب بخجل.. واضعًا يدًا واحدة خلف ظهره.

"نحن سنغادر غدًا، قبل الفجر.. لذلك فلن نراك."

وضعت الكتاب الجاد بسرعة على المنضدة ونظرت إلى "دونالد" بنظرتها الجانبية التى لا تقاوم. "سيكون الأمر مملاً بدونك."

ابتسم "دونالد".. اضطرب قلبه داخل قفصه الصدرى. "أرجو ألا تعتقدى فى أنها وقاحة منى.. لكنى اشتريت هذا من أجلك، أردت أن أعطيك شيئًا قبل أن أرحل."

أخرج لفة صغيرة ملفوفة فى ورق المتجر البنى اللون ومربوطة بشريطة. ابتسمت "سوزانا" وفتحتها.. وفردت المنديل.

"إنه جميل حقًا! أنت طيب جدًا يا سيد "مودى"."

"من فضلك.. ادعينى "دونالد"."

"نعم.. "دونالد".. شكرًا لك كثيرًا، سوف أحتفظ به معى دائمًا."

"لا يمكننى التفكير فى شرف أكبر من ذلك."

كان على وشك أن يقول كيف أنه يحسد المنديل، لكنه فقد الثقة.. ربما لحسن الحظ. لم يكن ليعرف أن "سوزانا" لديها واحد آخر مثله تمامًا، اشتراه لها من المتجر نفسه وأهداه لها منذ أقل من عام شاب محب من المدينة. ولكن الآن احمرت وجنتا "سوزانا"؛ اللون الباهت على خديها جعلها تتألق من الداخل.

"الآن أنا محرجة فليس لدى شىء لأقدمه لك فى المقابل."

"أنا لا أريد أى شىء فى المقابل." مرة أخرى.. كان يتأرجح على حافة

أن يجرؤ ويطلب قبلة، ولكن مرة أخرى خانته شجاعته. "فقط أنك ستكتبين لى من وقت لآخر، إذا لم تكونى مشغولة جدًا."

"نعم.. سوف أكتب لك، وربما أنت أيضًا تكتب لى من حين لآخر.. لو لم تكن مشغولاً."

"كل يوم!" قال بلا مبالاة.

"أوه.. أعتقد أنك ستكون منشغلاً جدًا لتفعل ذلك، آمل ألا يكون خطرًا.. جدًا."

مرت الدقائق القليلة الباقية فى المكتبة فى غيبوبة عذبة، لم يعرف "دونالد" ما الذى يقوله بعد ذلك.. لكنه شعر أن الكرة كانت فى ملعبه وأخيرًا.. استجمع شجاعته ليأخذ يدها بين يديه، ثم قرع أحدهم الجرس السومطرى الذى يقف فى القاعة - كإشارة على العشاء - فسحبت يدها.. وإلا لا أحد يعرف ما قد كان ليحدث تباعًا، جعله هذا يشعر بالدوار أن يفكر فى ذلك.

هناك طريقان فقط لمغادرة "دوف ريفر": جنوبًا إلى الخليج أو شمالاً.. مع مجرى النهر خلال الغابة. التقط "جاكوب" الأثر من خلف منزل "برايس". أخبره "أنجوس روس" أنه وجد علامات أن "فرانسيس" قد مر ببحيرة "سوالو"، وتوقف "جاكوب" فقط ليقيم الآثار ويحدد إذا ما كان من المحتمل أن تكون آثار الفتى. كان الممر سالكًا مسارًا بسرعة معتدلة.. ومرا على البحيرة فى وقت مبكر من بعد الظهيرة، انحنى "جاكوب" ليلقى نظرة متفحصة.

"لقد مرت أيام، ولكن أكثر من شخص واحد مرَّ من هنا."

"فى الوقت نفسه؟"

حرك "جاكوب" كتفيه.. علامة أنه لا يعرف.

"يمكن أن يكون التاجر الفرنسى، لقد جاء من هذا الطريق.. أليس كذلك؟"

"أكثر من شخص ذهب من هذا الاتجاه.. هناك اثنان من آثار الأقدام.. بأحجام مختلفة."

تتبعا الأثر لعدة أميال، حيث انضم رافد إلى نهر "دوف" انحرف الأثر جهة الغرب وتتبع ذلك، على أرض صخرية لا تظهر عليها أى آثار.

تبع "دونالد" "جاكوب" مفترضًا أنه يعرف ما يفعله، لكنه كان راضيًا أن يرى قطعة من الأرض قرب المجرى المائى؛ حيث ضغطت آثار أقدام على أوراق الشجر والطحالب فى الوحل.

"لنقل إنه ظل مسافرًا على قدميه لستة أو سبعة أيام، وهو متعب وجوعان، أعتقد أننا إذا أسرعنا سنلحق به."

"ولكن إلى أين هو ذاهب؟ إلى أين يقود ذلك؟"

لم يكن "جاكوب" يعرف، استمرت الآثار..منحرفة هنا وهناك خلال الغابة مع مجرى النهر.. دائمًا تتسلق لأعلى.. ولكن لا علامة على أنها تقود إلى أى مكان غير التوغل فى الأحراش غير المحدودة.

توقفا ومازال الضوء موجودًا وعرض "جاكوب" على "دونالد" كيف يقطع الأغصان لصنع مأوى لهما. رغم أنه فى "كندا" منذ أكثر من عام.. فهذه أول مرة يتذوق فيها "دونالد" طعم طريقة حياة السكان الأصليين، وهو منتشى بالفرح من غرابتها. إنه يلقى بماضيه وصدفته العلمية الأنيقة، وأصبح أخيرًا رجلاً ذا فعل.. رجل خشن يعيش على الحدود.. مغامر حقيقى من رجال الشركة، استمتع بفكرة أن يحكى تجربته للرجال بعد عودته إلى "فورت إدجار".

بعد أن بنيا المأوى وأشعلا نارًا وأخرج قلمًا وورقة ليكتب لـ"سوزانا". لم يكن قد فكر فى كيف ستصل إليها، ولكن على الأرجح سيكون هناك شكل ما من الحياة على طول الطريق ومنها يمكن أن تصل الخطابات. كتب "عزيزتى "سوزانا"" ثم توقف، هل يكون من الأفضل أن يصف رحلة اليوم... الغابة بألوانها الخضراء الداكنة والأصفر الوهاج... الصخور البنفسجية

التى تظهر خلال الطحالب اللامعة.. تحضيرات النوم؟ رفض كل هذه الأشياء حيث إنها من المحتمل أن تكون مملة لها، فكتب: "لقد كان أكثر الأيام...." قبل أن يستسلم بطريقة ما لدفء النار ويفقد الوعى، ولذلك اضطر "جاكوب" أن يهزه بقوة ليوقظه ويدفعه تحت السقف المصنوع من شجرة القضبان، حيث انهار على أغصان شجرة التنوب. ضربه الإرهاق مثل مطرقة ثقيلة، وكان متعبًا جدًا ليلاحظ أن القمر يلقى ظلالاً فائقة الرقة وسط الأشجار، وبالتأكيد متعبًا جدًا ليرى "جاكوب" وهو يشاهد هالات بلورات الثلج التى تحيط به، ويعبس.

لقد قمت ـ على مر السنوات ـ ببناء مجموعة جيدة إن لم تكن مختارة من الكتب، وكنت قد أعرت بعضًا منها لتوى لـ"إيدا"، فهى على عكس أمها حافظة للجميل، وبدت أنها تأثرت بحق أننى وثقت فيها بشىء قيم للغاية، لم أكن لأفعل ذلك قبل الأسبوع الماضى، ولكن الآن حتى أكثر ممتلكاتى قيمة لا تبدو بهذه الأهمية. واحد من الكتب التى أعرتها إليها هو قاموس، كتاب احتفظت به ككنز لعشرين عامًا، أبقيته معى خلال مشوارى فى المصح العقلى.. للتعويض عن تعليمى الضائع، ولكن "إيدا" طلبته بالذات، حيث إن آل "بريتى" لم يروا مثل ذلك الشىء قط.

أعطته لى أمى قبل أن تموت بوقت قصير وكأنها تعوض به النقص الذى سأعانيه من غيابها، قد تفكر أنه تعويض صغير بشكل كاف؛ لأنه لم يكن كليًا بلا نفع. كنت أكره أن أصادف كلمات فى الكتب لا أعرفها وأكشف عنها بعناد فى القاموس: "رائق"، "مزعج"، "يلمح". كشفت عن كلمة "انتحار" بعد موتها، فكرت أنه قد يساعدنى على فهم لماذا فعلت ذلك. كان المعنى قاسيًا ومقتضبًا.. صفتان لم يكونا فيها قط. "فعل تدمير النفس." بدا عنيفًا وذات غرض فى حين أن أمى كانت حالمة ولطيفة.. شاردة الذهن غالبًا. سألت والدى لأرى إن كان بإمكانه التفسير افترضت أنه كان يعرفها أفضل مما عرفتها أنا، تعصب وعلا صوته قائلاً: إن هذا الكلام فارغ فهى لم تكن لتفعل مثل ذلك الشىء قط.. حتى أن التفكير بذلك خطيئة.

والشيء الذى أحرجنى بشدة.. أنه بكى. وضعت ذراعى حوله.. محاولة تهدئته وهو ينتحب. بعد دقيقة أو اثنتين من وقوفنا فى موقف حميم من تجمع الأب والابنة الذى لم تحدث أى فرق على الإطلاق - دقيقة أو اثنتان بدتا، وكأنهما امتدت لساعة - تركته وغادرت الحجرة.. ولم يبد عليه أن لاحظ رحيلى.

لا أعتقد أن أحدًا منا عرفها على الإطلاق.

أدركت فيما بعد أنه كان غاضبًا لأننى خمنت الحقيقة، أعتقد أنه يلوم وأؤمن أنه أرسلنى إلى المصح العقلى؛ لأنه كان خائفًا أن يكون قد سبب لأمى الاكتئاب وأن يكون يفعل الشيء نفسه لى، فهو لم يكن من النوع الملهم وأشك فى أنه كان على حق.

لقد قضيت حياتى أحاول ألا أكون مثل أى من والدى، الآن وأنا أقترب من السن التى ماتت عندها أمى.. لا أعرف إلى أى مدى نجحت فى ذلك.. فولدى الوحيد هرب فى هذه الظروف السيئة ومن الواضح أننى لا يمكننى إلقاء اللوم كله على دمه الايرلندى، فلقد لعبت أنا دورًا فى تحديد مصيره ولا أعرف إلى أى مدى كان مدمرًا.

يمدنى الحديث مع "إيدا" ببعض الراحة، والتى كانت أكثر إشراقًا اليوم، وهناك البهارات الإضافية المتمثلة فى الشائعة عن الرجل المحبوس فى المخزن فى "كالفيلد"، كانت "إيدا" تقلد جيدًا "سكوت" وهو ينفخ خديه فى غضب مفاجئ عندما سئل أن يسلم جزءًا من ممتلكاته الغالية لمثل هذا الغرض، وأضافت شيئًا ممتعًا - أن أخويها وجدا علامات أن الرجل قد مر بمزرعتهم فى طريق لمكان "جاميه"، والذى يعنى أنه جاء من الشمال، والذى يعنى أنه من المحتمل أنه رأى "فرانسيس"، والذى يعنى أنه - حتى لو كان شريرًا - يجب أن أذهب وأسأله. وقبل أن تغادر بالضبط ذكرت "توماس ستاروك".. الذى يقيم فى منزل "سكوت". هل كنت أعرف أنه الباحث الهندى الشهير الذى فشل فى العثور على فتاتى "سيتون"؟ البلدة كلها تتحدث عن هذا الأمر، أومأت برأسى بغموض وقلت إننى سمعت شيئًا ما

عنه، تساءلت لماذا فشل فى ذكر ذلك عندما كنا نناقش القضية.. مثال آخر حيث أكون أنا آخر من يعلم.

كما كان متوقعًا.. قام "نوكس" بعمل ضجيج بشأن تحدثى مع السجين، جادل قائلاً: إننى لن أحصل على أى شىء منه وأنهم سألوه بالفعل، فقد يصبح الأمر ضارًا. بقيت عاقلة.. أعرف أننى لو بقيت هناك لوقت كافٍ ورفضت الذهاب فسوف يرضخ فى النهاية وقد فعل مع الكثير من هز الرأس والتنهدات الكئيبة، أكدت له أننى لن أخاف من الرجل.. مهما كان مخيفًا.. وأنه سيخسر كل شىء لو تصرف بشكل سيئ (إلا إذا كان قد أدين، عندئذ افترض أنه لن يحدث أى فرق كم عدد القتلى الذين سيشنق من أجلهم، لكنى لم أقل ذلك). على أى حال.. أصر "نوكس" على أن يرسل خادمه معى، وألقى عليه تعليمات بأن يجلس بجانب باب المخزن ويراقب ما يحدث.

فتح "آدم" باب المخزن، الذى تم إفراغه من البضائع بحيث غرق السجين فى محيط من الفراغ، كانت هناك نافذتان قرب السقف.. تمثلان فرصًا غير كافية للهرب، ولكن على كل حال كان منكس الرأس على صندوق خشبى ولم يلحظ عندما فتح الباب، ربما كان نائمًا.. فهو تنبه فقط عندما صاح "آدم".. والذى على أثره جلس معتدلاً ببطء، وهو يشد غطاءً خفيفًا حوله. لم يكن هناك نار وبدا البرد أكثر قسوة وتخفى منه فى الخارج.

التفت إلى "آدم" قائلة: "هل تحاول أن تجعل الرجل يتجمد حتى الموت؟"

غمغم "آدم"- بشىء عن أنه سيحرقنا كلنا تمامًا.

أمرته أن يجلب بعض الأحجار الساخنة لتدفئة أقدامنا، وبعض القهوة، نظر "آدم" إلىّ فى دهشة.. "أنا لن أتركك."

"أحضرهم فورًا.. لا تكن سخيفًا.. لا يمكننا الجلوس هنا للتحدث فى هذا البرد، أنا واثقة أننى سأكون بخير حتى تعود." حدجته بأكثر نظراتى تعاليًا وتأثيرًا حتى ذهب، وأغلق الباب خلفه بارتباك.

لم ينظر إلى السجين.. لكنه جلس مثل التمثال، نقلت كرسيًا إلى مكان يبعد أقدامًا قليلة عن الصندوق الخشبى وجلست. كنت قلقة لكنى عرضة ألا أظهر ذلك، إذا أردت مساعدته فيجب أن أحاول أن أنظر إليه وكأننى أثق به.

فكرت فى كيف أجعل حديثى طويلاً: "سيد "باركر".. اسمى هو السيدة "روس"، جئت لأطلب مساعدتك وأعتذر عن أننى أستغل.. احتجازك هنا."

لم ينظر إلىَّ أو يعرف أننى هناك بأية طريقة، خطر على ذهنى أنه ربما كان أصم قليلاً.

تابعت بصوت أعلى: "يا سيد "باركر".. أعتقد أنك جئت من الشمال.. عابرًا ببحيرة "سوالو"؟"

بعد فترة صمت طويلة.. تحدث.. بهدوء.. "ما أهمية الأمر بالنسبة لك؟"

"الأمر أننى.. لدى ابن "فرانسيس".. خرج منذ سبعة أيام، وأعتقد أنه اتجه شمالاً.. وهو لا يعرف أحدًا هناك.. وأنا قلقة عليه.. وأتساءل إذا كنت قد رأيت أية علامة...؟ إنه فى السابعة عشرة.. وهو أسود الشعر.. وقامته نحيلة."

حسناً.. هذا كل شىء.. لا توجد أية طريقة أخرى لقول هذا، وعلى كل حال وجدت حلقى وقد ضاق بشدة حتى أننى لم أكن واثقة من استطاعتى أن أخرج أية كلمات أخرى.

بدا "باركر" أنه يفكر؛ تخلى وجهه عن تعبيره الفارغ وركز عينيه السوداوين على عينى.

"منذ سبعة أيام؟"

أردت أن أضرب نفسى.. كان يجب أن أقول ثمانية أيام أو تسعة.. أومأت برأسى.

"و"جاميه" وُجد منذ ستة أيام."

"ابنى لم يقتله.. يا سيد "باركر"."

"كيف تعرفين ذلك؟"

شعرت بموجة من الغضب تجتاحنى من سؤاله، بالطبع أنا أعرف.. فأنا أمه. "كان صديقًا لـ "جاميه."

فعل "باركر" شيئاً غير متوقع إطلاقًا بعدها.. لقد ضحك، كانت ضحكته مثل صوته.. منخفضة وقاسية لكنها ليست سيئة.

"لقد كنت صديقه أنا أيضًا، ولكن يبدو أن السيد "نوكس" والسيد "ماكينلى" يعتقدان أننى قتلته."

"حسناً.." بهت من هذا التحول فى الأحداث. "أفترض أنهم لا يعرفانك، ولكنى أعتقد أن رجلا بريئًا سيفعل ـ بالتأكيد ـ قصارى جهده ليساعد امرأة فى موقفى، وهذا سيثبت أنه رجل ذو معدن صالح."

هل أنا أتخيل.. أم أنه يبتسم فعلاً؟ التوى الفم المقلوب لأسفل قليلاً.

"إذًا إذا ما ساعدتك.. هل تعتقدين أن السيد "ماكينلى" سيطلق سراحى؟"

لم أستطع أن أحدد إذا ما كان ساخرًا، "هذا يعتمد على ظروف أنا لا أعرف شيئاً عنها يا سيد "باركر"، مثل إذا ما كنت مذنبًا أم لا."

"أنا لست مذنبًا.. ماذا عنك؟ (هل أنت؟)"

"أنا..." لم أكن أعرف ماذا أقول. "أنا وجدته.. أنا رأيت ماذا تم فعله به!".

الآن كان يبدو مندهشًا بصدق، وكان لدى انطباع خفى أنه يريد أن يعرف ماذا رأيت، خطر على بالى فى لحظة خاطفة أنه إذا كان يريد أن يعرف، إذًا فهذا يرجح أنه لم يفعلها.

"أنت رأيته؟ فهم لم يخبرونى ماذا حدث."

لو كان يكذب.. فهو يقدم عرضًا مقنعًا، مال للأمام فحاولت ألا أميل مبتعدة عنه، ولكن وجهه كان مرعبًا، يمكننى الشعور تقريبًا بالغضب يشع منه.

"أخبرينى بما رأيت، وقد أكون قادرًا على مساعدتك."

"لا يمكننى فعل ذلك.. لا يمكننى عقد اتفاق معك."

"إذًا لماذا علىّ أن أساعدك؟"

"ولماذا لا تفعل؟"

وفجأة هب واقفًا وخطى باتجاه حائط المخزن، فقط بضع خطوات.. لكنى فزعت قبل أن أتمكن من تمالك نفسى. تنهد.. ربما هو معتاد على أن يخاف الناس منه، أتساءل أين عسى "آدم" أن يكون والقهوة، يبدو أنه قد ذهب على الأقل منذ ساعة.

"أنا من جنس مختلط، متهم بقتل رجل أبيض، هل تعتقدين أنهم يهتمون إذا كان صديقى؟ هل تعتقدين أنهم يصدقون أى شىء أقوله؟"

كان "باركر" يقف فى بقعة ظليلة بالتحديد من المخرن ولم أستطع رؤية تعبير وجهه، ثم التفت عائدًا إلى فراشه المصنوع من صندوق خشبى.

"أنا أشعر بالتعب.. سأحاول وأتذكر، اسألينى غدًا."

رقد على الفراش وسحب الغطاء فوقه وأعطانى ظهره.

"سيد "باركر".. أتوسل إليك أن تفكر فى الأمر." فأنا لست متأكدة على الإطلاق أننى أستطيع المجاملة لأعود إلى هنا مرة أخرى. "سيد "باركر"..؟"

عندما عاد "آدم" كنت أنتظره بالداخل عند الباب، نظر إلىّ فى دهشة، كان إبريق القهوة يتصاعد منه البخار مثل بركان مصغر فى الهواء الرطب البارد.

"لقد انتهينا أنا والسيد "باركر" فى الوقت الحالى" أخبرته.. "لماذا لا تترك القهوة هنا."

بدا "آدم" غير سعيد لكنه فعل كما اقترحت، وضعت الإبريق وكوبًا على مسافة حذرة من الإطار الخشبى.

وكان هذا ـ على ما يبدو ـ هو كل شىء.

***

يتمنى "أندرو نوكس" أحيانًا لو لم يكن كبير المجتمع المحترم الذى أصبح عليه الآن، عندما تقاعد من القانون ليبتعد عن كل هؤلاء الناس الذين يستجدونه ليغرس النظام فى حيواتهم المتشابكة والمليئة بالفوضى، الناس الذين يكذبون ويغشون لكن مازالوا يعتقدون أن العالم يتآمر ضدهم ومهما ارتكبوا من مظالم.. ولا واحدة من متاعبهم من صنع أيديهم. كما لو كان ليس كافيًا أن تكون البلدة بأكملها فى فوضى عارمة بسبب قاتل محتمل فى وسطهم. كان "جون سكوت" فى مكتبه هذا الصباح يشكو أنه يجب أن يستعيد مخزنه، أو تعويضاً مُرضٍ لمنحه مبناه لصالح البلدة ـ كما يقول ـ وإلا سيضطر إلى أن يصعد المسألة إلى الحكومة. تمنى له "نوكس" حظًا سعيدًا. السكان الآخرون يوقفونه فى الشارع ليسألوه لماذا لم ينقلوا المجرم إلى سجن مناسب ـ لم يبد أن أحدًا يأخذ فى الاعتبار احتمال أن يكون بريئًا، و"ماكينلى" ليس فى عجلة من أمره فى أن يغادر، يشك "نوكس" أنه يريد أن ينتزع اعترافًا بنفسه، وبذلك يتمكن من استعراض الإدانة مثل كأس الفوز، كان "نوكس" محصورًا بين جوع الرجال الطموحين وهو لا يريد أن يكون له علاقة بذلك بعد الآن.

ثم هناك مسألة "ستاروك" الذى لا يستطيع تجاهلها.

نقرت "مارى" على الباب وقالت إن السيدة "روس" هنا لتراه.. مرة أخرى، هذه المرأة لن تتركه فى حاله، أومأ برأسه وتنهد بداخله.. كان لديه إحساس دفين أنه لو قال لا فسوف تنتظر بالخارج فى الردهة.. أو حتى ـ لا سمح الله ـ فى الشارع.

"سيد "نوكس".. " بدأت فى التحدث حتى قبل أن يغلق الباب.

"سيدة "روس".. أعتقد أن حديثك قد ساعد؟"

"رفض أن يتحدث.. لكنه يعلم شيئًا ما.. وعلىَّ أن أعود غدًا."

"لا يمكننى أن أدعك تفعلين ذلك.. أنت ترين... "

"هو لم يفعلها."

بدا صوتها متأكدًا للغاية حتى أنه حدق فيها وفمه مفتوح، حتى تذكر أن يغلقه. "ما الذى يجعلك متأكدة لهذه الدرجة؟ حاستك الأنثوية؟"

ابتسمت بسخرية، الشىء الذى لا يعتبر خصلة حميدة فى امرأة. "لقد أراد أن يعرف كيف مات "جاميه"، فهو لا يعرف، وأنا واثقة أنه يعرف شيئًا ما عن "فرانسيس"، لكنه لا يثق بأن السيد "ماكينلى" سيكون عادلاً مع.. شخص مختلط العرق."

راود "نوكس" الشك أن "باركر" لا يثق فيه هو أيضًا، لكنها تحاول أن تكون دبلوماسية.

"ربما تعرفين أيضًا ماذا كان يفعل فى كابينة "جاميه"؟

"سوف أسأله."

عبس "نوكس"... إن الأمر كله يخرج من بين يديه، نسى أنه منذ لحظات قليلة كان يتمنى أن يتحرر من مسئولياته.. كانت فكرة أن تأخذها زوجة مزارع منه غير محتملة.

"أنا آسف.. إنه أمر خارج نطاق السؤال، فسوف ننقل السجين فى أسرع وقت ممكن، لا أستطيع ترك أى شخص يشعر بالرغبة فى أن يدخل ويتحدث معه."

"سيد "نوكس"... " أخذت خطوة تجاهه، كما لو كانت تقريبًا (لو كانت رجلاً) تهدده.. "ابنى فى الغابات ورجال الشركة قد لا يجدونه، ربما يكون مفقودًا.. ربما يكون مجروحًا... إنه صبى وإذا أوقفتنى عن معرفة ما أستطيع الوصول إليه، فقد تكون مسئولاً عن موته."

اضطر "نوكس" أن يبذل جهدًا كى لا يتراجع للخلف، هناك شىء ما حولها؛ أو ربما هو الإحساس بعدم الكفاءة من حقيقة أن النساء الطويلات حسنى الطلعة يملن إلى إخراج غضبه، بالنظر إلىَّ فى عينيها الحجريتين ـ عينان ذواتا لون رمادى غير معتاد وصلابة معدنية ـ أصبح على وعى بصلابة إرادتها.

"كنت قد اعتقدت أنك ـ دون كل الناس ـ ستتفهم ما هو أن تفقد طفلاً، هل تتكر أننى كنت لأساعد لو كان ممكنًا؟"

تنهد "نوكس"... غاضبًا أنها استخدمت مأساة آل "سيتون" ضده، لكنه أيضًا كان على علم أنه سيستسلم نتيجة لذلك. لو أن الفتى قد فقد طريقه بنفسه فهو لا يجب أن يفكر فى العواقب، وربما لا يجب أن يعلم "ماكينلى"، لو كان حريصًا.. فلن يكون أى شخص آخر فى حاجة أن يعرف.

أخبرها أن تعود فى الصباح.. مبكرًا جدًا.. مؤكدًا على ضرورة الكتمان، وتنهد بارتياح عندما ذهبت. يعترض أن من الطبيعى أن تتصرف أم بهذه الطريقة لحماية ابنها؛ ولكن الأمر فقط أنه سيكون أكثر طبيعية (وسيكون من الأسهل أن يتعاطف) لو أنها بكت أو أظهرت بعض الرقة فى الفعل.

"سيد "نوكس"!" اقتحم "ماكينلى" مكتبه دون أن يستئذن، فالرجل حقًا قد أصبح غير محتمل أكثر فأكثر؛ إنه يتسكع خلال المنزل كما لو كان يملكه. "أعتقد أن يومًا آخر سيتكفل بالأمر.. أليس كذلك؟"

نظر "نوكس" إليه بتعب: "يتكفل بماذا... يا سيد "ماكينلى"؟

"يتكفل بأن يجعل الرجل يعترف، فلا داعى من المماطلة فى الأمور."

"ماذا لو لم يعترف؟"

"أخ! لا أعتقد أن هذا سيكون مشكلة." ابتسم "ماكينلى" بخبث. "جرد هؤلاء الرجال من حريتهم وسريعًا ما تراهم يأتونك زحفًا، لا يحتمل القيود.. مثل الحيوانات."

نظر "نوكس" إليه بكراهية، لم يلحظ "ماكينلى".

"أعتقد أننى سأذهب فى جولة أخرى قبل العشاء."

"لدى عمل إدارى عاجل.. ألا يمكن الانتظار؟"

"أنا لا أرى داعيًا لإزعاج نفسك يا سيد "نوكس"، أنا على استعداد أن أستجوبه بمفردى."

"أظن أنه سيكون.. أكثر حكمة لو كان كلانا موجودًا."

"لا أعتقد أننى سأكون فى خطر." أزاح سترته ليظهر مسدسًا فى حزامه، شعر "نوكس" بموجة من الغضب.

"ليست سلامتك ما أفكر فيه يا سيد "ماكينلى"، وإنما الحاجة لوجود أكثر من شاهد على ما يقال."

"سآخذ "آدم" إذًا.. إذا كان هذا ما يهمك، المفتاح.. لو تسمح."

عض "نوكس" على لسانه وفتح الدرج حيث يرقد مفتاحان للمخزن فى حوزته، تساءل إذا ما كان يجب أن يغير خططه ويذهب معه، لقد بدأ يفكر فى "ماكينلى" كمجرم، وهو بالطبع ليس من هذا النوع، لكنه خادم محترم للشركة، أعطاه واحدًا من المفتاحين وأجبر نفسه على الابتسام.

"ستجد "آدم" فى المطبخ."

بعد أن رحل "ماكينلى"، سمع "نوكس" أصواتًا عالية من حجرة الرسم، ابنتاه تتشاجران، فكر لفترة قصيرة فى أن يتدخل ليفض النزاع.. كما اعتاد عندما كانتا صغيرتين، لكن لم يكن لديه طاقة لذلك. بالإضافة إلى أنهما امرأتان بالغتان الآن. استمع إلى الأصوات المألوفة: صوت "سوزانا" وهو يذوب فى دموعها.. نبرة صوت "ماريا" الذى يجعله ينتفض.. وكأنها تلقى محاضرة، صوت باب يغلق بشدة.. ثم خطوات أقدام تجرى على السلم لأعلى. إنهما حقًا امرأتان بالغتان.

***

كان "ستاروك" يتحدث مع السيدة "سكوت"، وهى تنظر إلىّ بطريقتها المتوترة المعتادة، على الأرجح فى حالة إذا ما كان زوجها قد أتى ليكشف الأخطاء. تلقيت انطباعًا أنهما كانا يجريان محادثة حميمة لأننى عندما دخلت المتجر ابتعدا عن بعضهما البعض بغموض كما لو كانا يعلنان نهاية الثقة. شعرت بالضيق؛ فلقد اعتقدت أننى شريكته فى التآمر، يبدو أن السيد "ستاروك" لديه عادة وهى أن يجرى محادثات هامسة مع زوجات الآخرين.

التفت إلىّ وابتسم وحيانى برأسه الفضى. "سيدة "روس".. لقد وجدت أكثر الأماكن دفئًا وترحيبًا فى "كالفيلد" فى هذا اليوم البارد."

أومأت برأسى.. بحدة قليلاً.. لسبب ما كنت متوقعة تقريبًا ألا يتعرف علىَّ.

"هل أحضر لك كوبًا من القهوة يا سيدة "روس"؟ على حساب المتجر؟"

نظرت السيدة "سكوت" إلىّ بجرأة غير معتادة، بدت أنها اكتسبت نوعًا من الشجاعة من حضور "ستاروك" لتقدم قهوة زوجها مجانًا.

"شكرًا لك.. هذا سيكون لطيفًا."

كنت لآخذه حتى بأسعارهم اللا معقولة، فلقد كنت أشعر بالبرد حتى العظام، مخزن بارد.. قتل بارد.. رغم ما قلته لـ "نوكس" فليس لدى أية فكرة عما إذا كان "باركر" قاتلاً أم لا، فتأكدى أنه لا يعرف ماذا حدث لـ "جاميه" قد وهنت بمجرد أن أغلق "آدم" الباب.

"أنت لم تخبرنى أنك تعرفت على السيد "نوكس"." قلت لأجعل الأمر واضحًا.. متمنية لو بدوت أقل تذمرًا.

"لا أعتقد أننى أخبرتك.. آسف."

"كان من الممكن أن تذهب إليه وتسأله عن ممتلكات "جاميه"، لم تكن مضطرًا أن تتسلل مثل لص."

تتسلل مثلى، شعرت بالخيانة، كنت أحبه أكثر عندما كان متخفيًا وغامضًا مثلى.

"إن معرفتى بـ "نوكس" هى معرفة قديمة، لا أعتقد أنه سيتعرف علىّ الآن."

"هل هو يعلم أنك هنا؟"

"أعتقد أنه سيكون صعبًا ألا يعرف."

"أنا لا أقصد التطفل.. أنا فقط أشعر.. بالإحباط."

رشفنا قهوتنا فى صمت لبضع لحظات.

"أنا لم أقصد تضليلك فى هذه الأمسية يا سيدة "روس" صدقينى من فضلك، أحيانًا.. يكون المرء محُبطًا بسبب دوره الخاص فى الأمور، نحن دائمًا نريد أن نكون البطل.. أليس كذلك؟ بطل القصة أو... لا شىء."

"أنا واثقة أنك بذلت قصارى جهدك."

تنهد. كنت أميل إلى تصديقه، لكنى واعية أن هذا له علاقة بسحره أكثر من علاقته بأى حكم لا يخطئ من ناحيتى.

"إذا لم تكن هناك لنجدها، إذاً فليس هناك شىء تستطيع فعله ليرجعها."

ابتسم وقال: "ولكن البعض يقول- كما أنا واثق أنك سمعت ـ إننى بحثت طويلاً جدًا، وإننى أبقيت الأمل حيًا فى حين أنه كان يجب أن يموت ويدفن."

"إذا ما اختار والد أن يبقى الأمل.. فليس هناك أى شىء أى شخص آخر يمكن أن يقوله ليوقفه."

خرج ذلك أقسى مما عنيت، ونظر "ستاروك" إلىّ بهذه النظرة ذات العاطفة المعبرة التى رأيتها فى عينيه من قبل. تساءل الجزء الخبيث فى

داخلى عن عدد الأسر التى كان يعذبها القلق.. ورأت هذه النظرة ووجدت الراحة على إثرها.

بالطبع لم يكن التعاطف هو ما أحتاجه فى موقفى.. ولكن أحتاج الفعل، شىء ما كان يتقلب بداخلى.. مخيف وبلا اسم.. أخذ يتقلب فجأة. وأنا أعرف أننى لم أعد أستطيع الاعتماد على الأشخاص الآخرين وعلى أى شخص، فهم يسببون خيبة الأمل فى النهاية.

***

وجد "نوكس" "ستاروك" مقيمًا عند آل "سكوت"، أعلن عن نفسه للخادمة وجاء "سكوت" ليحيه. نظر له بفضول فطرى ولكن "نوكس" لم يقل شيئاً عن سبب مجيئه، فليدعهم كلهم يلوكون الشائعات فسوف يفعلون فى كل الأحوال.. ربما يظنون أن "ستاروك" مشتبه فيه آخر.

تم إرشاده لحجرة فى خلف المنزل التى يؤجرها آل "سكوت" للباعة المسافرين. طرق الخادم على الباب وعندما أجاب "ستاروك".. دخل "نوكس".

كان "توماس ستاروك" قد هرم منذ آخر مرة رآه، لكن لابد أن عشر سنوات قد مرت.. وعشر سنوات بين الخمسين والستين يمكن أن تظهر الفرق بين رجل فى عنفوان حياته وبين ضعفه العقلى. تساءل "نوكس" إذا كان قد تغير هو نفسه بنفس القدر، كان "ستاروك" ممشوق القامة وأنيقًا كالعادة، لكنه بدا أنحف وأكثر جفافًا.. أكثر هشاشة. وقف عندما دخل "نوكس".. واضعًا قناع الدهشة.. أو ما شعر به.. وابتسامة عذبة.

"سيد "نوكس".. افترض أنه لا يجب أن أكون متفاجئًا."

تصافحا.. "سيد "ستاروك" أرجو أن تكون بصحة جيدة."

"أتمكن من إيجاد أشياء لأشغل نفسى فى تقاعدى."

"حسنًا.. أتوقع أنك تعرف لماذا جئت."

حرك "ستاروك" كتفيه بمغالاة، حتى مع أساوره البالية وبنطاله المبقع قليلاً فهو يعطى انطباعًا بكونه أنيقًا.. وهذا يحسب ضده.

شعر "نوكس" بعدم الراحة، كان قد نسى تأثير حضور "ستاروك" وقد نجح تقريبًا فى إقناع نفسه أن القصة المقبولة التى تدور فى "كالفيلد" كانت صحيحة.

"أنا آسف بشأن... حسنًا.. أنت تعرف، أنا أعرف كيف يتحدث الناس ولا يمكن أن يكون سارًا."

ابتسم "ستاروك" وقال: "أنا لا أشعر بإغراء لمعارضتهم، لو كان ذلك ما أنت قلق بشأنه."

أومأ "نوكس" وقد استراح، "إنها زوجتى هى ما أنا قلق بشأنه.. سيكون ذلك سببًا لألم شديد لها، وابنتى... أنا واثق أنك تفهمنى."

"نعم.. بالطبع."

لم يوافقه.. أدرك "نوكس".. إنه لا يمكنه الوثوق به، فهو يريد استعادة سمعته.

"على أية حال.. ما الذى جاء بك إلى "كالفيلد"؟ فلقد سمعت كل أنواع القصص الغريبة."

"أعتقد أنها قصص حقيقية." قال "ستاروك" بابتسامة.

ثم سمع "نوكس" صوت صرير خارج الحجرة، نهض دون أن يصدر صوتًا وذهب ليفتح الباب. كان "جون سكوت" واقفًا هناك ومعه صينية.. محاولاً أن يبدو وكأنه قد وصل لتوه.

"فكرت أنكما قد ترغبان فى كأس ويسكى." قال بود غير مقنع.

"شكرًا لك." أخذ "نوكس" الصينية وهو ينظر له نظرة صارمة.. "إن هذا شعور طيب منك، أعتقد أنك تريدنى أن أكتب لأدعم طلبك للتعويض؟"

تحول وجه "سكوت" متذمرًا ثم- فى محاولة لإنقاذ الموقف- متآمرًا، همس قائلاً: "إنه رجل مثير للاهتمام." مشيرًا برأسه فى اتجاه "ستاروك".

كان وجه "سكوت" محمرًا ولامعًا بطريقة مزعجة فى ضوء المصباح، تذكر "نوكس" فجأة خنزيرًا كان فى أرض والديه الذى اعتاد أن يصدر خوارًا ليثير الاهتمام ويحصل على الطعام، وأنفه التى تخترق حافة السور عند نهاية الحديقة. كان متفاجئًا من تصادم الصور حتى أنه أومأ ودفع الباب ليغلقه بقدمه.

وضع الصينية على المائدة. "إن السيد "سكوت" ليس فقط صاحب محل البقالة هنا وصاحب طاحونة الدقيق وتاجر، إنه أيضًا الجريدة الرسمية." سكب كأسًا من الويسكى لـ "ستاروك". "هل لى أن أساعدك فى أى شىء.. بينما أنت هنا؟ باستثناء أن أعرض عليك حجرة فى منزلى.. الشىء الذى سيكون... غير مناسب."

"لطف منك أن تسألنى." بدا على "ستاروك" أنه يفكر فى الأمر، الشىء الذى لا يحتاج لأن يفعله. أخبر "نوكس" بسبب حضوره ووعده "نوكس" أنه سيفعل ما بوسعه، رغم أنه مرتبك من الطلب. بعد مضى نصف ساعة وبعد إنفاق بعض الدولارات.. شق طريقه خارج المنزل ووجد قدميه تأخذانه إلى المخزن الذى تراءى له ككتلة حجرية ضخمة بدون نوافذ..معزولاً تمامًا عن المنازل المزينة.

توقف بالخارج ـ كان الضوء قد ذهب تقريبًا ـ يستمع إلى الأصوات التى بالداخل، لم يكن بإمكانه أن يسمع أى شىء، فأخرج المفتاح الآخر.. متأكدًا أن "ماكينلى" سيكون قد رحل.

حتى قبل أن تعتاد عيناه على الظلام بالداخل.. أدرك أن شيئاً ما قد تغير، لم يلتفت السجين بوجهه إليه.

"سيد "باركر".. إنه أنا سيد "نوكس"."

الآن تحرك الرجل وكشف عن وجهه، للحظة لم تفهم عيناه ما يراه ـ بدا الوجه مثل ذى قبل ـ مثل نحت خشن لوجه.. نحت قد تُرك دون أن

ينتهى.. أو تم إفساده بانزلاق تعس للسكين، رأى تورم حاجبه وخده.. والدم قد أظلم وجهه.

"يا إلهى.. ما الذى حدث؟" صرخ عاليًا.. قبل أن يتماشى عقله مع فمه وعض على لسانه.

"هل هذا دورك الآن؟" كان صوت الرجل خشنًا.. لكن دون مشاعر واضحة.

"ماذا فعل؟" كان يجب أن يصر على أن يصحب "ماكينلى"، كان يجب أن يستمع إلى شكوكه، تبًا لهذا الرجل! لقد أفسد كل شىء.

"أعتقد أنه يمكنه أن يحثنى على أن أعترف، لكنى لا أستطيع الاعتراف بما لم أفعله."

خطى "نوكس" ذهابًا وإيابًا فى حالة هياج، تذكر تأكيد السيدة "روس" على أن "باركر" برىء، وهو يميل لموافقتها. اختبر "نوكس" الفزع المتزايد لحاو وجد نفسه فجأة معه كرات أكثر من اللازم فى الهواء، وأدرك أن هذه الكارثة - والإهانة الناتجة عنها - ستحدث سريعًا جدًا.

"سوف.. أجد لك شيئًا لوجهك."

"ليس هناك كسور."

"أنا.. أنا أعتذر، ما كان لهذا أن يحدث."

"سوف أخبرك بشىء لم أخبر به الآخر."

حدق "نوكس" فى الرجل بأمل جامح.

"كان لـ"لوران" أعداء، وألد أعدائه كانوا فى الشركة، كان يمثل تهديدًا لهم.. وهو حى، لكن وهو ميت لا يمثل أى تهديد."

"ما نوع التهديد؟"

"كان مؤسسًا لشركة أمريكا الشمالية، ولكن الأكثر من ذلك، لقد كان واحدًا منهم فى السابق.. كما كنت أنا، فالشركة لا تحب هؤلاء الذين ينشقون عنها ويتحولون ضدها."

"مَنْ فى الشركة؟"

صمت طويل.

"لا أعرف."

شعر "نوكس" بالعرق يتصبب ويشق طريقه إلى عظمة صدره، رغم برودة المخزن، خطر على ذهنه شيء.. شيء غبى ولا مبال وملح.. شيء ليس مثل أى شيء قد فعله من قبل قط ـ وعرف أنه كان على وشك أن يفعله.

طوال العشاء هذا المساء.. كان يشاهد "ماكينلى" وهو يصبح ودودًا ومرحًا تحت تأثير الخمر واهتمام النساء، ارتفع صوته مع حضوره وهو يعدد محاسن رجال الشركة العظماء الذين عرفهم. حكى عن عامل فى الشركة قام بالتهدئة من حدة معركة بين قبيلتين هنديتين ـ كانت تعانى منها كلتاهما ـ ثم عن رجل معين كان محل إعجاب وكان لا يفكر فى شيء قبل أن يقطع مئات الأميال فى رحلات شاقة فى أعماق الشتاء. ومن الواضح أنه حتى المرشدين الهنديين يعجبون بقدراته فى الملاحة والبقاء حيًا، وهذا يثبت أنه ليس هناك شيء فائق بالفطرة بشأن مهارة السكان الأصليين فى البرية؛ لا شيء لن يتفوق فيه الرجل الأبيض (خصوصًا الرجل الأبيض الإسكتلندى) مع توفير الظروف الصحيحة .

شاهد "نوكس" "ماكينلى" وهو يتحدث، وإن كان لم يشارك فى المحادثة فقد نجح فى إخفاء نفوره من الرجل الآخر. فيما بعد ستسأله زوجته إذا ما كان على ما يرام، وسوف يبتسم هو ويقول إنه متعب، لكن لا داعى للقلق.

من الآن فصاعدًا سوف يتكلمون عنه؛ الشائعات ستسافر لمسافات بعيدة.. متحدثة عن عدم كفاءته.. عدم لياقته. لحسن الحظ أنه تقاعد. لو كانت سمعته هى الثمن الذى سيدفعه من أجل العدالة.. إذًا فلتكن.

لقد أغلق فمه عن الحقيقة من قبل، ويمكن أن يفعل ذلك مرة أخرى.

مـــروج الســـمـــاء

ها قد فشل، وهكذا يرقد بصمت في غرفته لعدة أيام لايكاد يملك القوة على الحركة؛ فقد كان النبض في ساقه اليسرى متقطعًا حتى أنه يقض مضجعه ليلاً. ومن مرقده بالسرير الضيق ظل يتفحص الحوائط المطلية بالجير الأبيض و المقاعد الخشبية المطلية (الملونة)، وكذا النافذة المعراة من الستائر و التى لا تكشف عن شىء وراءها سوى السماء، وحين يشرئب بجسده متكئًا على مرفقيه فليس من شىء تراه عيناه إلا برج الكنيسة الصغير المطلى بلون أحمر كئيب. وغالبًا ما بدت السماء رمادية اللون أو بيضاء أو ربما متشحة بالسواد .

خفت حدة الارتعاش بجسده الآن، وهو على وعى الآن بأنه قد أصيب بالحمى إثر سقوطه فى المستنقع، إذ كان قد عبر مستنقعًا مائيًا راكدًا مسطحًا بألوان طيف زيتية ـ حين انزلقت قدمه من على تلك الناحية البعيدة وغاصت به عميقًا فى ذلك المستنقع؛ كان قد أصيب بالفزع من مدى سرعة ابتلاع الماء له، تشبث بقبضة من الحشائش.. رفع صدره طافيًا على الوحل فى محاولة منه للتوقف عن الانزلاق. كان يرى بوضوح نفسه يُبْتَلَعُ فى جوف المستنقع ، وملأ الطين فمه و أنفه ؛ مسببًا له تجلطات بحلقه. صرخ وكان صراخه تعبيرًا عن التشبث بالحياة أكثر من كونه طلباً للنجدة بحد ذاتها ؛ كان ذلك واضحًا على نحو مؤلم.استغرق منه الأمر ساعات ليجذب نفسه بقوة الى خارج هذا المستنقع، ومن ثم زحف على الضفة ذات اللون البنى المكسوة بأشجار التوت البرى، والتى كانت ملاذًا آمنًا بالنسبة له؛ ارتمى على الأرض متعبًا.. وقد أصيبت قدمه

اليسرى؛ إذ بينما كان يحاول جهده أن يقف انثنت تحته وكان الألم شديدًا بشكل جعله كاد أن يتقيأ من فرط ما أصابه من الألم، قضى ثلاثة أيام على الأرجح لم يذق طعامًا؛ ربما أكثر من ذلك لايدرى؛ فلم يكن باستطاعته تذكر كم يومًا على وجه التحديد، كما أنه لم يستطع تحديد ما إن كان ثمة أحد قد عثر عليه أو أن أحدًا ما قد حمله إلى هنا، على أية حال ها هو الآن هنا. استفاق ليجد نفسه فى الحجرة البيضاء وجاشت نفسه بالتساؤل عما إذا كان قد مات حقًا وأن هذا ما وراء الموت؛ حجرة بيضاء لا معالم لها تحددها حيث تتوافد الملائكة ذهابًا وإيابًا يتكلمون لغة سماوية.

خفت حدة الحمى وأدرك أن الحجرة تحددها معالم، وما الملائكة إلا من بنى الأرض وهم أناس عاديون تمامًا ؛ وإن كان لا يزال لايفهم لهم حديثًا.

كانت هناك امرأتان تميلان إليه، تطعمانه الحساء وتفعلان أشياءً يخجل من التفكير فيها. ولكن لابد و أنهما فى سن والدته، وما معاملتهما إياه إلا كأحد أبنائهما؛ فقد كانتا جادتين و عمليتين تمامًا، تطهران جراحه وترتبان فراشه 'وتمسحان على رأسه فى حنو. وبالأمس ـ كما كان يحسب أنه الأمس ـ دخل عليه رجل وتحدث مع واحدة منهما ، وجاء ليلقى بنظرة عليه كما لو كان حينها ينظر إليه من جبل شاهق، كان الرجل فى سن والده؛ له لحية بيضاء كثة ليس لها فى هذا الأوان مثيل، كما أن عينيه سوداوان بشكل واضح.

"هل أنت فرنسى؟" سأله بلكنة غريبة، انتفض "فرانسيس" من هول المفاجأة فالرجل يعرف اسمه حتى قبل أن يدرك معنى الكلمات الفرنسية. كان فى حيرة من أمره ما عساه أن يقول، فقد كانت ثمة أشياء كثيرة لايدرى عنها شيئًا، بعدها استدار الرجل الى المرأة متحدثًا معها بصوت عميق.

"إنجليزى؟"

حدق "فرانسيس" فى الرجل وقرر بعدها أنه لن يقول أى شىء على الإطلاق.. ربما كان هذا أفضل.

نظر الرجل والمرأة إلى بعضهما البعض، حرك الرجل كتفيه وبعد برهة ضم يديه إلى بعضهما البعض وبدأ يتكلم، برهة من الوقت وأدرك "فرانسيس" أنه كان يتضرع الى السماء، كما كانت المرأة تتضرع هى الأخرى خلف الرجل. كانت ملابسهما بسيطة جدًا ـ أقمشة خشنة سوداء وبيضاء ورمادية اللون.. تمامًا كتلك السماء التى تبدو من نافذة حجرتهم البيضاء.

بدأت ذاكرته لتوها ـ فى الساعة التى مضت توًا على ما يبدو ـ تسترجع أحداثًا مما وقعت له: ها قد تذكر تلك المسافة التى قطعها بمشقة ميلاً من بعد ميل على طول شاطئ النهر ماخرًا عباب الغابة لمسافة أبعد مما ذهب إليه فى حياته كلها قط، متتبعًا أثر الرجل. لم يره مجددًا منذ تلك الليلة فى الغرفة الخشبية، حسَّنت هذه من مهاراته كمتتبع أثرٍ لأبعد حد فى تقفى الآثار؛ غير أن الأرض كانت حانية عليه، ففى كل مرة يظن أنه قد ضل الطريق الصواب ـ بعد ساعات من السير المجهد والبحث والتدقيق لا يجد فيها أثرًا على الأرض؛ حين يبلغ به الأمر حد الظن بأنه قد فقد أثر الرجل يصادف علامة أخرى؛ ضغطة حذاء خفيف على أوراق الشجر، ثلج غائر فى حفرة. رأى الرجل وليس من أثر لموقد نار خلفه، تتلاشى آثاره فى لمح البصر، لم يكن يعرف متى يأكل، لم ير أحدًا يتحرك بمثل هذه السرعة قَطٌّ.

جرؤ " فرانسيس" على إشعال النار مرة واحدة، و لم تذق عيناه نومًا بعدها، فقد تملكته الهواجس من أن الرجل قد يعرف أن هناك من يقتفى أثره وسوف يجده. ولكن شيئًا من هذا لم يحدث، فقد كان جل حرصه ألا يقترب منه جدًا، مادًا ببصره للأمام دومًا خشية أن يسقط فى فخ ما.

وما كان سقوطه فى المستنقع أخيرًا إلا نتاج حذره هذا، ففى اليوم الرابع فقد الأثر الذى كان يتتبعه، وترك الغابة متجهًا الى ربوة وانحرف باتجاه الشمال الغربى إلى مكان معزول ليس به شجر ـ أرض مرتفعة ذات أحراش ومستنقعات حيث أبطأت هذه المستنقعات من سرعته وتمزق معطفه المصنوع من فراء الذئاب جراء الرياح التى تهب من الشمال. سار على مهل؛ أصابه التوتر فليس هناك من شجر يغطى تحركاته فى هذه الأرض المكشوفة وقد اعتاد أن يتوارى بالأشجار، وبعد مضى ساعات وهو على هذه الحال كان قد سقط كليةً تقريبًا فى نهر آخر أصغر قد قطعته قناة خلال الشواطئ الموحلة المليئة بالزيت. كان الماء لا يسمح للضوء بالنفاذ خلاله ولم يستطع إيجاد أية علامات لممر يسلكه، تحرك بصعوبة وتعثر، تملكه الخوف لأول مرة حقًا. كانت تنتابه هواجس الخوف دومًا على طول الطريق ؛ غير أنه الآن قد سقط فى أرض تبتلعه شيئًا فشيئا ؛ تزج به فى دروب الموت فى مجاهلها؛ ولن ترى الشمس له أثرًا وسيغدو كومة من عظامٍ بيضاء اللون تمامًا كهياكل الغزلان المتناثرة حوله بقايا افتراس. قاوم كيما يظل نصف جسده العلوى طافيًا فوق سطح المستنقع إلى أن ألقى الظلام بحلته على وجه السماء، صاح بصوت عالٍ؛ فلعل الرجل الذى يتتبعه بمكان قريب؛ فربما كان الموت على يديه ـ على الأقل ـ أكثر رحمة من الموت فى أحشاء البرارى ؛ قد يكون الموت على يديه رحيمًا.. ولكنه أخيرًا ـ وبطريقة ما ـ جذب نفسه إلى خارج هذا الشرك وهنا خارت جميع قواه.

فى نهاية الأمر صار كل شىء بعينيه سواء، سقط إلى جانب النهر فاقدًا الوعى، منهكًا.. خائر القوى تجمدت فرائصه... لقد سقط.

ها هو الآن ما بعد منتصف النهار على ما يظن، وقد تناول بعض الحساء منذ ساعة، حيث اضطر إلى تحمل الإحراج فى أن يتناول هذا الحساء تساعده إحدى الامرأتين: تلك المرأة ذات الشعر الداكن، التفت بعينيه عنها فضحكت ؛ كما لو كان شيئًا مسليًا لها أن تراه هكذا ولم يبد عليها الإحراج على الإطلاق.

حدق فى أركان الغرفة عله يرى قطعة من ثيابه التى كان يرتدى..تردد فى السؤال عنها؛ ولكن كيف ؟!! ربما أمكنه أن يسأل الرجل ذا اللحية البيضاء حين يعود، لكنه يعتقد أنه لايستطيع سؤاله لا بالفرنسية ولا بالإنجليزية.. كم هو مثير للشفقة أن يتشرنق الرجل فى صمت؛ قد لايسأله أحد عن أى شىء إن لم يتحدث.. إنه يأسى على فشل مسعاه.. غير أنه فعل كل ما بمستطاعه على أية حال... تبدو الأسباب التى دفعت به للارتحال الآن بعيدة كل البعد من عالم مختلف.. عالم مؤلم.. وليس ذلك العالم الذى يتطلع للعودة إليه.. جُلّ همه الآن أين تقبع قطعة العظم.

عندما تعود واحدة من النساء فيما بعد ـ المرأة ذات الشعر الأشقر الجاف والضحكة العالية ـ سيحاول أن يستخدم الإشارة، إنها تذكره بوالدة "إيدا"، إذ إن لديها الطابع العملى نفسه. بينما تشغل نفسها حوله.. تعدل من وضع الأغطية وتتحسس جبهته، التقى بعينيها وظل ينظر إليها، ثم مرر كلتا يديه على ذراعيه من أسفل لأعلى وأشار وكأنه يضع سترته، وهو يرفع يديه فى تساؤل. فهمت وشدت تنورتها كإجابة، وأطلقت سيلاً من الكلمات الحادة، ابتسم.. كان يريد أحدًا ما إلى جانبه، ثم استخدم الإشارة ليشخبط على راحة يده ويرسم شكل القطعة فى الهواء، فعبست عقب ذلك.. ثم بدا أنها أدركت ماذا يقصد، نظرت له بعدم رضا، لكنها غادرت الحجرة.

ذات مساء.. منذ أشهر كان "لوران" قد أخرج قطعة العظم من مخبئها (كان سكران آنذاك) وأراها لـ"فرانسيس" وتفحصا معًا تلك الأشكال الصغيرة والعلامات الحادة التى تبدو مثل الكتابة. ظن "لوران" أن " فرانسيس " قد يعرف هذه الأشكال و الكتابات، تذكر " فرانسيس " أيام مدرسته والنقوش الهيروغليفية المصرية واليونانية القديمة، والصور التى كانت تحتويها كتب والدته، لكنه لم يستطع تذكر أى شىء يتطابق مع هذه العلامات. الطريقة الوحيدة التى تستطيع التحقق من أى طريق هم ذاهبون فيه كان من أشكال الرجال الذين تجمعوا حول الحافة. قال "لوران" إنه

حصل عليها من تاجر فى الولايات المتحدة؛ قال إنه التقى رجلا راقيًا فى "تورنتو" قد يدفع الكثير من المال مقابل هذه القطعة؛ ضحكًا من حماقة أولئك الرجال الأغنياء، ثم أخبره " لوران " أن بإمكانه ـ أى فرانسيس ـ أن يأخذها له، فرفض "فرانسيس".. متوترًا بسبب شىء ما لم يستطع فهمه، من يدرى ـ ربما كانت لعنة؟ لكن " لوران " عرضها عليه عندما أخذها.. لذا لم تكن سرقة حقًا. أما بالنسبة لأشياء أخرى، فقد أخذها ليحتمى بها ويبقى على قيد الحياة ؛ كان يأخذ البندقية أيضًا لو أن عينيه وقعتا عليها. بينما يتردد فى ناحية أخرى ـ عهد الصبية الذين طالما تحملهم خلال السنوات التى قضاها بمدرسة القرية ـ سؤالٌ ، ماذا كنت لتفعل بالبندقية لو كنت أخذتها ؟ فأنت لا تستطيع حتى أن تصيد أرنبًا.

فتح عينيه ، كان الرجل ذو اللحية جالسًا إلى فراشه. وضع كتاباً كان بيديه جانبًا ـ كان بانتظار أن يستيقظ " فرانسيس" ؛ نظر "فرانسيس" إلى العنوان المدون على وجه الكتاب ولكن الكلمات بدت خليطًا غريبًا من الأصوات السواكن، أطلت من وجه الرجل ابتسامةٌ ، فبدت أسنانه وقد تغير لونها، يزيد من وضوح ذلك حمرة شفتيه. حدق "فرانسيس" به فى المقابل ولكن شيئًا ما فى وجهه بدا لطيفًا ؛ إذ أطلت من وجهه بسمة مشرقة وربت على كتف" فرانسيس"؛ تكلم معه وسأله مرة أخرى إذا ما كان فرنسيًا أو إنجليزيًا. جال ببال "فرانسيس" أن الناس الذين عثروا عليه ربما رأوا الرجل الذى كان يتبعه. من يعرف، ربما جاء إلى هنا؟ يمكنه التخلى عن فكرة الكلام، لكن معها سيضطر إلى التخلى عن أمله. وقد وجد ـ لمفاجأته ـ أنه ليس مستعدًا للاستسلام بعد.

بلل فرانسيس فمه الذى أحس به متقرحًا جافًا، وقال بصوت متحشرج: "إنجليزى."

"إنجليزى! جيد." كان الرجل فرحًا جدًا، "هل تعرف اسمك؟"

تردد " فرانسيس" برهة من الوقت، ثم أفلت منه لسانه: " لوران ".

" لوران؟ " " آه " .. " لوران " .. نعم.. حسنًا ، أنا "بير" التفت برأسه وصاح :" بريتا !.. تعالى."

أطلت المرأة الشقراء من قرب، وابتسمت لـ " فرانسيس " . فتحدث " بير " إليها بلغتهم.. شارحًا لها ما دار مع فرانسيس .

قالت: " لوران ! مرحبًا."

" إنها لا تتحدث الإنجليزية كثيرًا، فإنجليزيتى أفضل. هل تعرف أين أنت؟ "

أطرق "فرانسيس" برأسه.

"أنت فى هيميلفانجر" وتعنى " مروج السماء".. اسم جميل أليس كذلك؟"

أومأ " فرانسيس " برأسه.. لم يسمع بها قط. " أى نهر...؟ " كان صوته مازال غريبًا وضعيفًا.

"نهر؟ آه.. نحن وجدناك.. نعم. آه.. نهر بلا اسم. كان "جينز" قد خرج للصيد... وعثر عليك هناك. يا لها من مفاجأة ! ومثّل له " بير" بالإشارات كيف تفاجأ الرجل وهو يبحث عن صيده من الأرانب البرية حين عثر على شاب مغطى بالوحل.

ابتسم " فرانسيس " .. على قدر ما استطاع، وجد فمُه الابتسام جهدًا، "هل بإمكانى التحدث مع "جينس"؟"

بدا "بير" متفاجئًا وقال: "بالطبع نعم، لكن الآن... أنت مريض، استرح وتناول الطعام، وتعافى.. تعتنى "بيرتا" و"لين" بك جيدًا... أليس كذلك؟"

أومأ "فرانسيس" وابتسم لـ "بيرتا".. التى ضحكت بطريقة لم يتوقعها.

انحنى "بير" لأسفل والتقط ملابس " فرانسيس". "كلها نظيفة أليس كذلك؟ وهذه..." وأخرج حقيبة "لوران" التى أخذها "فرانسيس".

"شكرًا لك.. كثيرًا.. وأشكر "جينس" لأنه عثر علىّ، أرجو أن أتمكن من الحديث معه قريبًا."

ابتسم الآخرون وأومأوا برءوسهم.

تحدثت "بريتا" إلى "بير"، الذى جر الكرسى ليقف مصدرًا صوتًا دالا عن رضاه .

"الآن.. استرح ونم، و"بيرتا" ستخبرنى، أليس كذلك؟"

أومأ "فرانسيس".

ترك لذهنه العنان مفكرًا بوالديه فى المنزل، لا بد وأن فؤاديهما ينفطران قلقًا عليه، أما إن دفع بهما القلق إلى البحث عنه فتلك مشكلة أخرى؛ لابد أن الناس قد عثروا على " لوران" الآن : ماذا سيظنون بشأنه؟ هل سيعتقدون بأنه من فعلها ؟

جعلته هذه الفكرة يبتسم تقريبًا.

***

كانت "لاين" بالخارج مع "توربين" و"آنا" عندما خرجت "بريتا" إليهم لتخبرهم بأن الشاب قد تحدث. تعتقد "لاين" أنه من الغريب أن شابًا إنجليزيًا يدعى "لوران"، إنها عرفت رجلاً فرنسيًا يدعى "لوران" فى وقت سابق فى حياتها، عندما كان "جينى" حيًا. كانت لغتها الإنجليزية أفضل من أى واحد.. حتى من "بير"، لذلك فهى مسرورة سرًا. لقد شعرت أنها تحميه منذ أحضره "جينز".. ملقى فوق ظهر حصان صغير، والآن تشعر أنها محقة.. حيث إنه يمكنها أن تصبح همزة الوصل بينه وبين الآخرين.

جاء "توربين" و"آنا" يجريان إليها وسط صياح الدجاج وآذانهما تهتز من الحماسة.

"هل باستطاعتنا رؤيته الآن؟" سأل "توربين" ووجهه متوهج من البرد.

"لا.. ليس بعد، إنه متعب جدًا وأنتما سترهقانه."

"لن نفعل.. سنكون مثل الفئران الصغيرة.. الصغيرة للغاية." قلدت "آنا" أصوات صياح الفئران الصغيرة.

قالت "لين": "قريبًا.. عندما يستطيع القيام والمشى فى الجوار."

تذمرت "آنا": "مثل لازاروس"، راغبة فى أن ينصهر الغريب فى عالم "هيميلفانجر"

"ليس تمامًا مثل "لازاروس".. فهو لم يكن ميتًا."

"كان فى حكم الميت! أليس كذلك؟" كان "توربين" آملاً فى المزيد من الدراما.

"نعم، ميت تقريبًا.. كان فاقدًا للوعى."

"نعم.. مثل ذلك. أمى ـ انظرى!" كان "توربين" يلقى نفسه على الثلج ويدعى فقدان الوعى والذى يتضمن ـ بحسب رؤيته للأمر ـ تدلى اللسان من جانب فمه. ابتسمت "لاين".. يمكن لـ "توربين" أن يجعلها تبتسم دائمًا، فهو مندفع ولا شىء يقف أمامه مثل كرة كثيفة من المطاط، إنه لا يذكرها كثيرًا بـ "جينى"، بينما تبدو "آنا" وكأن "جينى" قد بُعث للحياة مرة أخرى فى صورتها -عظام وجنتيها عريضة، شعرها بنى، عيناها زرقاوان عميقتان، لابتسامتها التى لا ترتسم على شفتيها كثيرًا لذة فى النفس، وكم يؤلم النفس شىء إلا ما ندر.

تسلق الطفلان خارج حظيرة الدجاج وتوجها عبر الباحة. يجب على "لاين" أن تطعم الدجاج ثم تساعد "بريتا" فى حياكة الألحفة، ليس لديها الكثير من الوقت لنفسها، لكن هذا ليس ما جاءت من أجله، إنها تحب التواجد فى حظيرة الدجاج.. لقد تم بناؤه بصلابة ضد رياح الشتاء بسطح مائل ليتجمع الجليد فوقه ويندفع إلى الأسفل. كما تتميز مبانى "هيميلفانجر" بشكل خاص، فكل شىء فيها يجب أن يبنى بمظهر جميل، ذلك أنها تُبنى للرب: وصلات من الخشب..حوائط مزدوجة... ألواح الأسطح الممتدة.. مرصوصة بنظام بألواح خشب السيدار.. كل واحدة لها شكل القلب تقريبًا. قمة برج الكنيسة.. بصليبه المطلى... لعشر سنوات صمد فى وجه ماجمع الشتاء الكندى من رياح عاتية و أنواء عواصف، فالرب كان دومًا يظل القرية بحماه.

وكم تلقى الناس الأمر بطيبة ورحمة، حتى لو كانت العظة مقترنة بالنص؛ يجب عليك أن تصلى أكثر يا "لين".. عليك أن تضعى ثقتك فى الرب.. لينبثق إيمانك وعملك من بعضهما البعض. أولى لك الكف عن الحزن على "جانى"، لأنه مع الرب الآن.. لذلك فهو سعيد. و قد حاولت " لين " جهدها فعل ذلك، لأنها تدين لهم بحياتها. و منذ اختفى "جانى" ـ وهى لا تزال تجابه صعوبة فى أن تقول إنه "مات"، حتى أنها لاتستطيع أن تهمس لنفسها بهذا ـ أنجبت منه طفلين صغيرين ؛ ولا تملك من المال شيئًا تقتات به. طُرِدت من مسكنها المستأجر ولم يكن لديها مكان لتذهب إليه. فكرت مليًا فى العودة إلى النرويج ؛ غير أنه ليس معها من المال اللازم لذلك.. كما ألحت عليها الهواجس بأن تلقى بنفسها وطفليها فى بحيرة "سانت لورانس"، وذات مرة أخبرتها صديقة عن "هيملفانجر"، بدت فكرة الذهاب للعيش فى مجتمع ملتزم دينيا بشكل مثالى خيالية تماما لدرجة الهزل. غير أن أهل تلك البلدة كانوا نرويجيين.. يطلبون عمالا جادين ؛ الأهم من ذلك أنهم لم يطلبوا مالا مقابل السكنى بينهم.

وبالسخرية القدر ؛ فقد انطلقت فى الاتجاه نفسه الذى سلكه "جانى" فى رحلته الأخيرة. أو فى آخر مرة رأته فيها ـ إن لم تكن حقًا رحلته الأخيرة. كان يبحث عن عمل والتقى برجل نرويجى آخر كان بطريقه للعمل فى شركة "هندسون باى"، التى كانت تعد بأجور مغرية مقابل العمل فى ذلك الموسم ، لكنه كان طريقًا طويلاً.. فى أعالى الشمال الغربى.. فى " رابرتس لاند "، ربما كان يعرف أنه لن يرى "لين" ولا الطفلين لما يزيد عن عام.. غير أنه كما كان يمنى نفسه فسيكون لديهم المال الكافى لشراء منزل، سيكون ذلك لاشك طريقًا مختصرًا لتحقيق حلم طالما راودهما : منزل خاص بهما تحتضنه قطعة من الأرض من حوله ولن تضطر "لين" إلى غسل الملابس القذرة للناس وإعادة حياكتها؛ ولن يضطر هو بدوره إلى تحمل الحمقى من الناس والعمل لديهم.

تلقت منه خطابًا واحدًا فقط بعد رحيله، فلم يكن "جانى" كاتبًا ماهرًا.. لذلك لم تكن تتوقع منه خطابات تتأجج كلماتها حباً، رغم ذلك.. جرح مشاعرها قليلاً أن تتلقى خطابًا واحدًا فقط فى ستة أشهر ـ وفرت الشركة له مع رفقائه مسكنًا مع جماعة من المجرمين النرويجيين الذين جلبتهم الشركة للعمل لديها أيضًا. كان رجال هذه الجماعة قساة القلوب يتسمون بالعنف، كونوا عُصبة من سواهم من عمال الشركة الآخرين كان يتجنبها. شعر "جانى" بعدما الراحة لوجوده برفقة هؤلاء الرجال، غير أن التصنيف العرقى كان أقوى تطبيقًا على أرض الواقع من تلك التصنيفات القانونية. كان منهم بعض رجال يمكن تقبلهم ـ كما كتب "جانى" فى خطابه اليتيم الى زوجته ـ كان يتطلع لرؤية "لين" وطفليهما الصيف القادم كما كان يأمل أنهما سيختاران معًا موقع البيت الخاص الذى سيبنيانه. لا رسائل حب؛ لا كلمات عاطفية.. كان خطاب يمكن أن يكتبه لعمه أو خاله، لا شىء سوى ذلك.

حل الصيف التالى وهى تنتظر على أحر من الجمر، تسأل الناس عن الأخبار. كان الجو فى "تورنتو" حارًا ورطبًا؛ الذباب الأسود يزعج الأطفال بقسوة ومسكنهم المزدحم الرخيص تفوح منه رائحة المجارى. فى الليل تحلم بالروابى الخضراء الرحبة بعيدًا عن الناس، مغطاة بالجليد الأبيض البارد الصافى، لتستيقظ على رائحة العرق الجاف و لسعات البعوض التى لا تزال تلهب جسدها. أصبحت حادة المزاج ومتذمرة، ثم. وفى يوليو تلقت خطابًا موجهًا إلى عائلة" جان فيلستاد" تم إرساله خطأ وفُتح إلا أنه قد أعيد عنونته من جديد ولكن بخط يشبه خربشات الأطفال. علمت منه أسفاً أن زوجها كان واحدًا من جماعة من النرويجيين الذين تمردوا وفروا من موقع الخدمة فى يناير الماضى، بعد أن سطوا على ممتلكات الشركة القيمة. وقد اختفوا فى البرارى، ولقوا حتفهم بلا شك فى العواصف الثلجية التى اجتاحت البلاد ذاك الشهر. غير أن كاتب الخطاب لم يفته التأكيد على أنه فى حال نجاة أى منهم بفعل معجزة ما من المعجزات فهو مطلوب للعدالة حتمًا.

لم تصدق "لين" الأمر فى البداية، ظلت منتظرة أن يظهر زوجها معتقدة أنهم قد أخطأوا زوجها، فعادة ما يقع الإنجليزيون فى خلط ما بين أسماء النرويجيين.. همست فى نفسها بذلك، ولم تستطع تصديق أن "جانى" قد سرق أى شىء، فليس من طبيعته ارتكاب جرم كهذا.

ذهبت إلى مكتب الشركة فى "تورنتو" وطلبت أن تلتقى أى شخص من مسئوليها، فاستقبلها شاب إنجليزى أشقر الشعر فى مكتبه الصغير. كان مهندمًا لبقًا، أخبرها بأنه ليس من مبرر للشك فى كون "جانى" هو ذاك الذى يعنيه الخطاب، فلقد حدثت عملية الهروب ، ورغم أنه ليست هناك علاقة شخصية تربطه بأى من الهاربين المتورطين،إلا أنه متأكد من أن هذا صحيح. صاحت "لين" فى وجهه بطريقة أثارت غضبه، لم يبد منه أنه يقدر أنه يتحدث عن موت زوجها و تلاشى سراب آمالها خلفه.. ركضت خارج المكتب وظلت تقاسى جحيم الانتظار.

مرت الأيام ثقيلة على فؤادها المنفطر ولم يعد زوجها، نفد ما كان بجيبها من مال؛ ولم تعد تبالى بصدق الموظف أو صدق حدسها، و لم تعد تهتم لصحة الأمر أو لزيفه.. فقد كان عليها أن تفصل فى الأمر بقرار، انطلقت ـ صباح يوم من أيام سبتمبر ـ برفقة طفليها فى رحلة استغرقت ثلاثة أسابيع إلى "هيميلفانجر" سخيفة المسمى مسافرة بعيدًا تمامًا مثل ما فعل "جانى" فى رحلته إلى " مووس فاكتورى " التى يقل مسماها سخافة عن "هيميلفانجر".

كان ذلك منذ ثلاثة أعوام مضت، وهاهى قد اعتادت حياتها الجديدة. فى البداية كانت متأكدة أن "جانى" سوف يأتى ليعثر عليها و طفليهما؛ لذا أخبرت الناس فى "تورنتو" بمقصدها الذى هى بسبيلها للرحيل إليه. ذات يوم سيدخل الباحة ممتطيًا صهوة حصان قوى.. ويناديها باسمها فى القرى؛ وسوف تطرح ما بيدها أرضًا وتقطع الأرض ركضًا إليه. تملكتها أحلام اليقظة تلك وشغلت عليها بالها كل يوم؛ كان ذلك فى بادئ الأمر، غير أنها وبمرور الأيام جرت نفسها من هذه الأحلام، فقد نالت منها الأيام

وحطت عليها الليالى لباس الاكتئاب؛ حتى التقت بـ "سيجى جوردال" التى حضتها على الحديث لكى تفرغ ما فى صدرها من مواجع الأيام، فاضت عينا "لين" بالدموع.. للمرة الأولى ينسال دمعها منذ وطأت قدماها تلك البلدة، واعترفت لـ "سيجى" كم تود الموت أحيانًا. وكان هذا خطأ.. أحاط بها أهل القرية علمًا، فأحاطوا بها كل منهم بدوره يحثها على أن تتوب عن ذلك الذنب الجلل : خطيئة اليأس؛ وأن تسكن الرب بقلبها ليطهرها من الجزع الذى نال من قلبها. أكدت لهم سريعًا أنها (فجأة) تقبلت الرب وأنه أخذ بيدها مخرجًا إياها من وادى الحزن المكفهر. وفر لها تظاهرها هذا شيئًا من الراحة؛ ما كان يقضه إلا تساؤل يتناوبها من آن لآخر حيال ما إذا كانت ما تظاهرت به قد بسط لها قسطًا من راحة النفس فعلاً. كانت تذهب وتجلس فى الكنيسة وتحدق فى الشمس المتربعة فى كبد السماء.. تتبع عيناها ذرة واحدة من الغبار المتطاير فى ضوء الشمس حتى ينال منهما الألم. كانت تتعجب فى قرارة نفسها حيال ما يحدث؛ فهى هنا لاتصلى بمعنى الكلمة؛ سوى أنها لا تشعر بالوحدة هنا كثيرًا.

كان ذلك الوقت تقريبًا عندما بدأ "إسبن مولاند" يوليها اهتمامًا خاصًا. كان رجلاً متزوجًا (فمجتمع هيميلفاجنر بنى فى الأصل ليكون مجتمعًا من الأسر فقط؛ ليس به أحد بدون زواج)، وأطفاله يلعبون مع "توربين" و"آنا"، كان اهتمامه بها أكثر من مجرد اهتمام روحى. أخذت حذرها منه فى البداية؛ وهى تدرك أن مثل هذا الأمر محرم فى هذه البلدة؛ غير أنها استقطبت إليه فى عميق نفسها. أحيا "إبسن" فيها إحساسها بجمالها مرة أخرى. قال إنها أجمل امرأة فى "هيميلفانجر" وإنها تدفعه للجنون. كان المر يزعج " لين " فى العلن ؛ إلا أنها كانت توافقه سرًا، لم يكن "إبسن" على قدر كبير من الوسامة، ليس مثل "جانى".. لكنه كان خفيف الظل ومرحًا ودائمًا ما تكون له كلمة الفصل فى أية مناقشة أو تبادل للحديث. من اللطف على غير المعتاد ـ أن تسمع كلمات حب من رجل لا يكف قط عن المزاح، إلا أنها لم تستطع كبح جماح الجسد المتأجج؛

و قد وقع فعلا؛ فمنذ عدة أشهر سارت أقدامهما فى درب الخطيئة؛ كانت تلك نظرتها لما حدث رغم أنها لم تشعر بالذنب، كانت فقط حذرة ومترقبة.. إذ ليس بمقدورها احتمال أى جديد من الكوارث.

أنصتت "لين"؛ ها هو إبسن " قادم يدندن بواحدة من ألحانه المركبة، هل هو قادم إلى بيت الدجاج؟ نعم - ينفتح الباب.

"لين"! لم أرك طوال النهار!".

"لدى عمل أقوم به.. أنت تعرف ذلك."

"بالطبع.. غير أن الحزن يبددنى إن غبت عن ناظرى!".

"آه.. نعم بالطبع."

"أتيت لأصلح الثقب الذى فى السطح."

كان يضع حزام الأدوات الخاص به - فهو نجار القرية - وألقت "لين" بنظرة لأعلى تتفحص السطح.

"ليس هناك ثقب."

"حسنًا.. ربما كان هناك ثقب، من الأفضل أن تقفى بالجانب الآمن، فنحن لا نريد أن يبتل البيض.. أليس كذلك؟"

ضحكت بصوت خافت، يجعلها "إبسن" تضحك دومًا، حتى عندما يقول أتفه الأشياء. تسلل بذراعه حول وسطها مقتربًا منها بشدة، فراحت تغوص فى إحساس بالذوبان المألوف الذى يطغى عليها فى حضوره.

"إن "بيرتا" تنتظرنى."

"إذًا؟ لن تلاحظ غيابك عنها لبضع دقائق."

كم يصعب على المرء التقيد بسلوك لائق؛ حتى فى مجتمع متدين صارم كهذا!!!!! هاهو يلثم عنقها ؛ شفتاه تنفثان لهيبًا فى جسدها، إما أن تجذب نفسها من طوقه الآن ، وإلا افتضح أمرها.

" ليس الآن بالوقت المناسب لهذا "قالتها وهى تتملص من إمساكه لها، ملتقطةً بالكاد أنفاسها.

"يا إلهى.. كم تبدين اليوم جميلة!! ، يمكننى أن..."

"توقف!"

كانت تحب نظرة النهم التى تشع من عينيه، كم هو رائع أن تعرف أن لديها القوة أن تجعل شخصًا ما سعيدًا.. بلمسة فحسب. ولكنها إذا لم تخرج من حظيرة الدجاج الآن فقد ترسل الكلمات لهيبًا فى فرائصها؛ لهيبًا يتوارى منه عقلها ، كلماته قذرة مشينة لا يمكنها التلفظ بها، لكن لها سحر طاغٍ يخلبها. لم يكن هذا بالشىء الذى يفعله "جانى" قط، إذ لم يكن متلاعبًا بالكلمات هكذا. فى الواقع الطريقة التى تشعر بها تجاه "إبسن" شىء لم تختبره قط من قبل؛ فيبدو أنها تتغير بطريقة تزعجها أحيانًا، كما لو كانت تركب المد العالى فى قارب خفيف.. ترتفع وتطفو.. تتحمس.. لكنها ليست واثقة تمامًا أنها متحكمة.

أجبرت نفسها على الانسحاب للخلف، جسدها يتأجج فى الحشى رغبة فيه تنشده ـ ابتسمت.. فقط فى اللحظة الأخيرة.. لكى لا يعتقد ـ لا سمح الله! ـ أن اهتمامها به قد انزوت جذوته.

خارج حظيرة الدجاج مسحت الابتسامة عن وجهها وحاولت التفكير فى شىء آخر؛ شىء مقزز.. مثل رائحة الخنازير، ليس "إبسن" وفمه العذب الوقح. سيكون عليها أن تجلس مع "بيرتا" ليعملا فى أشغال الإبرة، وقد كانت تتلقى الكثير من النظرات الحادة والمتسائلة من "بيرتا" مؤخرًا. ليس من المحتمل أن تعرف، لكن ربما شيئًا ما حولها قد حمَّل الريح خبرًا. أجبرت نفسها على التفكير فى الفتى المريض لتستفيق ، ولكن لم يجد هذا نفعًا، تخيلت أنها ترفع الأغطية تنظر إلى جسده العارى. فلقد رأت ما لديه؛ بشرته الذهبية الجذابة.. شعرت بنعومتها.

يا إلهى! لقد بث "إبسن" سمومه فى شرايين عقلها جمعاء، ربما يجب عليها التسلل إلى الكنيسة لعدة دقائق وتصلى؛ لتحاول تذكير نفسها بالعار الآزف بالأفق.

***

الجو بارد لدرجة التجمد: اليوم أكثر برودة من الأيام الخمسة التى كانوا يقتفون الأثر خلالها. الرياح تعوى قادمة من القطب الشمالى ؛ تنحت وجوههم بقطرات المطر المتجلد.. كانت عينا "دونالد" تدمعان منها، والدموع تتجمد على خديه؛ تشق فيهما أخاديد يفوح منها لهيب الألم. ثمة قطعة أخرى أيضًا تجمدت فوق شاربه، لف أسفل وجهه بكوفيته، حتى تجمدت هى الأخرى من فرط البرد، وتصلبت من برودة أنفاسه، مزقها محررًا عنقه منها قبل أن يلقى حتفه اختناقًا. تجمدت فرائصه من البرد و خارت أنفاسه من فرط التعب؛ حتى اضطر " جاكوب "لحمل الكثير من الأمتعة؛ فسوف يسقط "دونالد" طريح الأرض إن حمل حتى نصف مايحملون من أمتعة.

مضى يومان؛ أحس "دونالد" بأن كل حركة يقوم بها تجلب على أجزاء جسمه ويلات من الألم، وهو الذى طالما رأى - فى السابق - فى نفسه شابًا فتيًا نضرًا، بيد أنه الآن يرى نفسه وقد بدأ لتوه أولى دروس تحمل المشاق ، كان "جاكوب" يخطو أمامه فى قوة؛ حاملاً على كتفيه ثقلاً من الأحمال، يجوب الطريق مقتفياً الآثار، وعندما توقف "دونالد" عن المسير فى وقت متأخر من بعد الظهيرة كان "جاكوب" هو من جمع الخشب وأشعل نارًا وقطع من الأشجار غصونًا ليصنع بها مأوى للنوم. فى البداية اعترض "دونالد" مؤثرًا أن يقوم بدوره فى العمل، لكنه كان متعبًا للغاية ثقيل الحركة حتى أنه لم يجد نفعًا بشىء، وكان مخيمهما ليُقام بشكل أسرع بكثير إذا ما ترك الأمر كله لـ "جاكوب". طلب "جاكوب" بلطف منه أن يجلس ويركز على غلى بعض الماء.

غادرا الغابة مبكرًا هذا الصباح وشرعا يعبران هضبة جدباء وعرة حيث ما من شىء يقيهما من لفح الرياح التى تهب من ساحل "هدسون باى"

الذى اكتسى بالجليد، ولم تفلح ثيابهما الثقيلة فى منع الرياح التى تتسلل إلى فرائصه ترشق فيها كأسنة من فولاذ ؛ وحالما كشفت الهضبة عن نفسها؛ فلم تكن الهضبة إلا مستنقعًا كبيرًا.. برك من الطمى وماء آسن من الأرض.. مغطى بطبقة من الثلج. أمسك البوص وصفصاف الأرض بالثلج الذى يهب مع الرياح وقبض عليه فى خيوط متشابكة. من المستحيل أن تجد أكثر من زوج من مواطئ الأقدام الجافة فى صف، و"جاكوب" قد أقلع عن محاولاته إبقاء قدميه جافين، وأصبح يخطو بصعوبة من التل الصغير الذى ثقبه بخطاه الرتيبة. مهما كان مصرًا على أن يتبعه.. اضطر "دونالد" أن يصرخ به مرارًا ليبطئ خطاه ، ظل "جاكوب" يتوقف من حين لآخر؛ منتظرًا إياه أن يلحق به. نجح "جاكوب" فى فعل هذا دون أن يشعر "دونالد" بشىء من المهانة ، إذ كان يتوقف متظاهرًا بأنه توقف ليطلع "دونالد" عما جدَّ بشأن الأثر الذى يقتفيانه. واضح أنه يجابه صعوبة أشد فى اقتفاء الأثر فى هذه المنطقة، بينما كان "دونالد" يطوى أذنيه عن حديثه شيئًا فشيئًا؛ وبالأمس غدا "دونالد" غير ذى طاقة تتحمل التفكير بشأن ما إذا كانا سيجدان الفتى أم لا، وهاهى ـ اليوم ـ تجوب برأسه الهواجس ارتيابًا بإمكانية العودة من هذه الرحلة أصلاً ، حتى أنه لا يبالى بهذا المر أيضًا.

فقد كانا يمران فوق جيف الحيوانات النافقة التى يتزايد عددها كلما طال بهما المسير، تخطيا لتوهما هيكلاً عظميًا لابد وأن له مدة من الوقت فى هذا الموضع؛ فهو عار تمامًا حتى من نسيرة لحم، متشحًا بلون بنى يميل للسواد؛ كانت الجمجمة تحدق فيهما؛ على مسافة غير بعيدة من بقايا الجسد الأخرى، وتنظر إلى "دونالد" من خلال فتحتى العينين العظميتين الفارغتين.. صامتةً تذكره بعبثية مسعاهم.

حاول "دونالد" أن يحول أفكاره إلى "سوزانا"، ليغلق الباب بين الألم الذى يفت فى جسده وما يشعر به. لخيبة أمله.. سمع صوت أبيه فى المقابل يحاضره: " العقل فوق المادة.. يا "دونى".. العقل فوق المادة.. ترفع

عنها! كلنا نضطر لعمل أشياء لا نريد عملها." أحس بالملل المستمر يصاعد فقاعات فى صدره تماما كتلك الغازات العفنة التى تصعد من قاع المستنقع من النباتات الميتة فقاعات إلى سطح الماء الآسن؛ فأبوه الذى يطن صوته بالمحاضرات فى أذنيه ـ والذى كان محاسبًا فى "بيرسون" ـ لم يمش يومًا على الأقل فى مستنقع لا نهاية له فى الشتاء الكندى هكذا.

انحشرت ثلاثة خطابات لـ "سوزانا" داخل قميصه قريبة من قلبه. كان محبطًا من قلة حيلته؛ كان يواسى نفسه بأنه كم من الصعب أن يكتب المرء سجعًا نديًا بينما يحاول الاقتراب بشكل كاف من النار ليرى دون أن يبدأ شعره فى الاحتراق. كان يخشى أن تتلطخ الخطابات بالهباب المتطاير من رماد النار، أو أن تفوح منها رائحة الدخان إن لم يكن أسوأ من ذلك. ربما أمكنه ذلك إذا ما وجد حضارة فى طريقهم مجددًا أبدًا.. فقد يمكنه حينها تدوينها على ورق نظيف، أو حتى يبدأها كلها من جديد، بأسلوب أدبى معدّل، سيكون هذا أفضل.

ومع الرابعة عصرًا، أصاب جاكوب الارتباك ؛ إذ جعل "دونالد" ينتظره بينما هو يبحث ويدور فى دائرة، ثم أشار إلى "دونالد" أن ينضم إليه. تتبعا خطواتهما مرة أخرى لبعض الوقت.. لعن "دونالد" ما ضيعا من جهد سرًا فى نفسه.. كان منهكًا للغاية وليس بمقدوره طرح أية أسئلة؛ الثلج الخفيف يتساقط ؛ الرؤية يقل مداها شيئًا فشيئًا؛ الهواء رطب لاسع؛ يُسمع زفير "جاكوب" يصّاعد من صدره ببطء

عادةً تلازمه كلما استغرق فى التفكير عميقًا .

"أظن أنهم افترقوا ها هنا."

حدق "دونالد" فى الأرض.. لكنه لم يستطع رؤية أى شىء يشير إلى أن أى شخص قد كان هنا من قبل قط.

"لقد تركا الغابة كلاهما عند المكان نفسه، كان الأثر واضحًا إلى هناك، غير أنى أعتقد أن الرجل الثانى كان يبطئ من سرعته تدريجيًا. فلننطلق الآن فى هذا الاتجاه؛ ثمة أثر قدم متجمدة على الوحل تشير إلى

هذا الاتجاه. لكنه على مسافة ما بعيدًا وكم يصعب تتبع أثر في المستنقع، أظن أن الثانى قد فقد أثره، وذهب فى هذا الاتجاه..." أشار إلى حيث انخفضت الأرض قليلاً ليتشكل بها منحدر ضحل. "هناك علامات هنا على أن شخصًا ما كان عالقًا.. ثم أكمل، كان يجب أن أراه قبلاً."

وافقه "دونالد" الرأى فى داخله: "أراك تظن أن الأثر الثانى لـ"روس"؟"

"الأثر الأول لمسافر سريع الخطو، اعتاد السير لمسافات طويلة، يعرف وجهته جيدًا دون حاجة إلى التوقف وتدقيق النظر، لذا.. نعم.. الشخص الثانى هو الفتى.. وقد كان متعبًا."

"ولكن أين ذهب بحق الجحيم؟ الغابة كتلة مخيفة، ولكن هذا.. يا إلهى، انظر! لا أحد يمكنه أن يحيا هنا!".

لم يكن ثمة شىء يُرى على مد البصر إلا الشجيرات فقط وتلك البرك المقيتة من الماء، لم يكن هناك أى شىء من شأنه إضفاء مسحة من الجمال فى هذا المشهد المقيت (كان هذا عينه ما جاش بصدر دونالد) ـ ليس من فارق يميز الجبال من الوديان.. ليس ثمة شىء من بحيرات أو من أرض يكسوها الشجر، إن كان لهذه الأرض أى طابع.. فهو الكآبة والعشوائية والعداء.

قال "جاكوب": "لست أعرف هذا المكان جيدًا، لكن هناك معسكرات فى هذا الجزء.. إلى الشمال من هنا."

"يا إلهى.. رحمتك بالبؤساء المساكين الذين يضطرون للعيش فيها."

ابتسم "جاكوب"، فقد سقطا فى أدوار المبتدئ، والمعلم المر الذى فك من كآبة الموقف شيئًا قليلاً، وجعل من السهل على كل منهما معرفة ما ينبغى عليه قوله بشكل منظم ومنطقى، عندئذ يسهل على المرء أن يستشف كيف يكون رد فعل صاحبه، وقد أرسيا على مدى الأيام القلائل الماضية نظاما يوميا صار مألوفًا بالنسبة لكل منهما.

"الناس يعيشون فى كل مكان. لكنهم يسمون هذه "بلد المجاعة"."

تهكم "دونالد" قائلاً: "إذًا من الأفضل أن نجده بأسرع وقت ممكن." لم يكن فى حاجة لأن يصف البدائل.

"ربما كان الرجل الأول ذاهبًا إلى واحد من المعسكرات هناك." أشار "جاكوب" إلى الرياح العاوية فى اتجاه لا يعد بخير مثله مثل كل الاتجاهات الأخرى.

"والثانى؟"

"لا أعلم.. ربما ضل الطريق."

واصلا تقدمهما المؤلم على مهل، شقا طريقهما فوق العشب الكثيف ومنحدرات الصخور التى تبرز فجأة بين النباتات. كانت هذه الصخور تتلون تارة بلون أخضر قاتم، أو قرمزى، أو برتقالى كئيب، يواجهان بركاً من الماء الآسن وقد تجمدت وصار سطحها صلبًا، أحيانًا أخرى تغوص أقدامهما فى طبقة من الثلج هشة لتتلطخ بسواد مقيت من الماء والوحل المتجلد، أحس "دونالد" بالريبة تمخر صدره يشتم منها أنهما قد يجدان الفتى جثة فارقتها الحياة ؛ وهو الاحتمال الذى يزداد واقعية الآن، إذ لكم من الوقت يمكن لأى شخص أن يبقى على قيد الحياة فى هذا المكان مفقودًا وحيدًا؟ حاول أن يقنع نفسه أنهما سيعثران عليه قريبًا، وداهمه الظن بأن "جاكوب" قد يتركه ويمضى دونما قصد منه؛ حينها سيقبع ـ أى دونالد.

فى هذا المكان المقيت وحيدًا تمامًا كذاك الفتى ؛ فلكم من الوقت قد يظل على قيد الحياة حينها؟ مضى يجد فى إثر ذلك الظل الأسود إلى أعلى مصرًا على ألا يتركه ظنه يمسى واقعًا وبالسخرية الجسد؛ فقد بدأ النزيف يتسرب من جرح تحت أضلعه كان مافتئ لتوه يبرأ، مذكرًا إياه بضعفه ـ أو ربما كان يذكره أن "جاكوب" الذى يتشبث به للبقاء على قيد الحياة، قد طعنه مؤخرًا؟

بعد وقت طويل وصل الرجلان إلى نهر يتلوى خفية خلال الأرض الممتدة، أسود كالزيت بين ضفتيه اللتين اكتسيتا بالجليد، أوقفه "جاكوب" وأشار إلى شتات من الوحل تجمد فى شكل منخفضات ومرتفعات.

"ثمة أناس مروا من هنا، وحصان، أظنه قد لحق بهما."

ابتسم "جاكوب" وحاول "دونالد" أن يبعث فى نفسه شيئًا من التفاؤل، غير أن إحساسه بعدم القدرة على المضى قدمًا إلى أبعد من ذلك كان أكثر تمكنًا منه.؛ وكان يجيش بصدره كره يضطرد حيال هذا المكان الذى لم يلق له مثيلاً بين كل الأماكن التى وطأتها قدمه من قبل؛ لا يجدر بإنسان أن يأتى إلى هنا، بينما كانت فكرة أن يكون ثمة رجل يمتطى حصانًا قد التقط الفتى تبث فى صدره الرعب ـ فالله أعلم إلى أى مدى يتوجب عليهما السير إذاً، حتى الآن لم يتمكن "دونالد" من فهم العلة من رفض "جاكوب" إحضار الخيل معهما؛ كانت تجيش بنفسه احتمالية أن يكون هذا محاولة لإسدال الستار على مسعى لم تتجح طعنة السكين فى الفصل فيه.

تقدم "جاكوب" بعيدًا عن النهر، و"دونالد" يجد فى سيره، عيناه معلقتان على الأرض المقيتة ؛ لا يحسان تقدمًا فى المسير.

توقف "جاكوب" فجأة فارتطم "دونالد" مباشرة بظهره.. مغيبًا تمامًا عما يحيط به، أخذه "جاكوب" من ذراعه وابتسم فى وجهه.

" أيا متقلب المزاج.. انظر! انظر!".

كان يشير إلى الجليد والغسق اللذين يكسوانهما دونما وعى منهما ، وفى هذا الظلام الرمادى الزاحف.. لمحت عينا "دونالد" بزغات ضوء فى المدى.. ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، وأحس بشىء من الدفء يداعب ذقنه ـ ها قد تحركت شفتاه اللتان كانتا قد التصقتا من فرط البرد. ولكن ليس من شىء بإمكانه أن يخمد جذوة هذه الفرحة المتقدة بداخله. سيكون هناك بيوت وناس ودفء... ستكون هناك نيران.. أو ربما

الأفضل من ذلك: حوائط! حوائط يتوارى بها من سوء الطقس ابتعثت فى نفسه مجدداً ـ فى خضم تلك الانتشاءة المتوهجة ـ البهجة التى يبثها وجه القمر المنير فى جنبات نفسه ؛ أحس بسعادة تسرى فى أوردته كما لو كان فتى يافعًا فى الرابعة عشرة من العمر ؛ سعادة بددت مرارة كل الأيام التى مضت؛ بددت معاناة دامت لعام ونصف العام ؛ وبدا له أن جهده قد كلل بالنجاح. ربت على كتف "جاكوب" على نحو ساذج.. مقتنعًا بأنه الأفضل؛ أفضل صديق التقاه فى حياته.

مضى من الوقت ما يناهز الأربعين دقيقة ؛ دلفا بعدها إلى باحة كبيرة محاطة بمبانٍ خشبية منظومة، كانت ثمة حظائر بها ماشية مشدودة إلى مرابطها ؛ يسمع لها خوار؛ وكنيسة صغيرة ذات برج قصير وعريض.. يعلوه صليب مطلى بلون أحمر قاتم. كانت المشاعل موقدة ينسال منها الضوء خارج النوافذ على الباحة التى تدثرت بالجليد؛ بدت، وكأنها أرض الميعاد الجليلة؛ احتبست بعينى "دونالد" عبرات الامتنان بينما كانا يشقان طريقهما إلى أضخم هذه المبانى ويطرقان على الباب.

***

اعتدت ـ حين كنت فتاة، وحتى فيما بعد عندما كنت فى المصح العقلى ـ أنه عندما يتزوج الناس لا تعرف الوحدة الطريق إليهم بعد ذلك قط. كنت ـ آنذاك ـ أشك أننى قد أتزوج أبدًا؛ افترضت أنه قُدر لى أن أكون منبوذة من المجتمع.. أو الأسوأ.. أن أصبح عانسًا. كان لدى أصدقاء فى المصح العقلى، حتى فى مصح "دكتور واطسون".. كان لدى صديق من نوع خاص؛ لكن كونى المصدر الملهم لطبيب مجنون لم يجعلنى أشعر وكأنى أنتمى للعالم الطبيعى، ولا حتى مجرد الشعور بالأمان. لقد منحنى زوجى شيئًا لم أتوقعه قط: شعور بشرعية وجودى، وكذا الشعور بأن هناك شخصًا ما ليس علىّ أن أخفى أى شىء عنه.. ليس علىّ أن أتظاهر.. أفترض أن ما أقوله هو أننى أحببته وأعرف أنه أحبنى.. لكنى لست واثقة تمامًا متى تلاشى سرابًا.

كان الوقت متأخرًا.. وانتابنى الأرق مجددًا.. أفكر فى مقابلتى القادمة مع السجين؛ فقد وافق "نوكس" على إمكانية عودتى طالما ظللت هادئة الأعصاب مستقرة حالتى؛ يعتقد "نوكس" أننى قد جرحت مشاعره عندما استخدمت مأساة زوجته ضده، وقد حُسبت موافقته على عودتى فى ميزان مناقبه، كم يخشى نوكس رجل الشركة؛ كما يخشى أيضًا أن يحسبه الناس لين الجانب بشكل مفرط. رقدت بجانب زوجى لبرهة قصيرة.. فتقلب "أنجوس" ـ فى نومه ـ طوقنى بذراعيه؛ لم يفعلها منذ فترة طويلة. لم أجرؤ على الحركة.. متسائلة إذا كان واعيًا بما يفعله أم أنه يحلم وفقط؛ هنيهة وسمعت شخيره لمرة تقلب بعدها فى الفراش وأصبح ظهره لى مجددًا. لم أولِ الأمر عناية ؛ فلكم شعرت بوحدتى إلى أقصى مدى حتى فى أحلك لحظاتى فى المصح العقلى بعد موت والدى. لو كانت "أوليفيا" على قيد الحياة.. هل كانت الحياة لتكون مختلفة عما هى عليه الآن؟ لو لم يأت "فرانسيس" إلينا قط؟

أسئلة بلا مغزى لطالما شغلت بها نفسى.

أمقت هذا الضعف فى نفسى ـ هذا الحوار الممل الذى لا أحادث فيه أحدًا سوى نفسى ، وكم تمنيت فى أوقات معينة (عادة فى ساعة متأخرة من الليل)، لو كنت مثل "آن بريتى".. ربما كانت غير محظوظة باسم عائلتها، ولكن أحيانًا أعتقد أنها النموذج الأمثل لرائدة الغابات الخلفية ؛ تلك التى دومًا ما ينتشلها القدر من الموت المقنع فى أكثر من موقف، فظة الجانب غير أنها واقعية التفكير ينبض فؤادها بالضمير، قد لا تظل تتقلب فى فراشها ليلاً تتساءل ماذا يظن بها زوجها ـ أو حتى أى شخص آخر ـ وربما لن تضيع طفلها فى البرارى.

نهضتُ من الفراش لأفعل شيئًا ما.. وبدأت أحزم حاجاتى للرحلة التى ظللت أخطط لها؛ والحق يقال إننى لا طاقة لى بها ؛ فأنا بسبيلى إلى الاصطدام بمخاوفى من البرارى: نقص الشجاعة لدىّ، من يدرى لربما عاد "مودى" ورفيقه بصحبتهما "فرانسيس" إلى الديار غدًا؛ ليس يشغلنى

أن أضطر إلى القبض عليه؛ طالما أنهما قد عثرا عليه وهو على ما يرام،بعدها قد يُلقى به فى المخزن فى "كولفيلد" وأنا أخبر نفسى بذلك.. جمعت أثقل ملابسى ومجموعة من الأطعمة الجافة التى تتحمل. إن الأمر يشبه قليلا الإعداد لرحلة شتوية، إذا فكرت فى الأمرَ على هذا النحو؛ فلن يبدو سيئًا بدرجة كبيرة.

لم أفاجأ بأرق الطرقات على الباب كثيرًا مثلما تفاجأت لهذه الطرقات: فأنا أفكر كثيرًا فى "فرانسيس" لذلك ربما بدا من المحتم أن يلقى الشوق المتأجج بداخلى فى النهاية جوابًا. فتحت الباب وقلبى يشهق فرحًا.. تجمعت الكلمات لتنثر عليه.. معًا مع الدموع.. عندما تثاءبت الظلمة فى وجهى. نظرت حولى.. هامسة باسمة ـ من الغريب أننى همست.. كما لو كان لدى نوع من التحذير المسبق.

كان يقف فى الظلام ـ ليخفف من وطئ الصدمة ـ هكذا افترضت ـ لكى يكون على عينى أن تجداه وتدركا تدريجيًا من هو.

رفع السجين يده فى إشارة مهدئة. " لطفًا.. لا تصرخى."

حدقت فيه، لم أكن لأصرخ، شعرت بالفخر بنفسى لأننى لم أصرخ، حتى تحت ظروف التجربة.

"آسف على إزعاجك، لقد أطلق "نوكس" سراحى، سوف أقوم بتتبع ابنك، لأننى أعتقد أنه رأى القاتل، لكنى فى حاجة إلى مؤن، ومسدسى قد تم التحفظ عليه، وأعتقد أن لديك كلابى."

حدقت فيه و الريبة تختلج صدرى إزاءه.. أدركت بالكاد ماذا يقول.

"سيدة "روس"، أنت بحاجة لمساعدتى بقدر حاجتى لمساعدتك."

إذًا هكذا تمضى الأمور: الحاجة المشتركة هى ما يدفع بالناس إلى التعاون معًا؛ لا علاقة للأمر بالثقة أو الطيبة أو أى مفهوم عاطفى من هذا القبيل. أنا لا أقبل ما قاله عن "نوكس" والسبب وراء إطلاقه سراحه بهذه الطريقة الخفية، ولكن بعد أن نظرت إلى وجهه المصاب؛ أستطيع أن

أصدق أن "ماكينلى" قد فعل ذلك. كان "باركر" يريد مسدسًا وطعامًا وأيضاً كلابه، وكنت بدورى بحاجة إلى مرشد يقتفى أثر "فرانسيس"، وربما أعتقد هو أن "فرانسيس" سيكون أكثر استعدادًا للتحدث إذا كنت أنا هناك ـ ولدى "فرانسيس" شىء هو يريده أيضًا؛ لذا حزمنا أمتعتنا معًا؛ بينما كان زوجى يغط فى النوم بالأعلى، تأهبت للانطلاق إلى البرية برفقة سفاح مشبوه. الأسوأ من ذلك أنه رجل لم أتعرف عليه عن كثب من قبل؛ كنت مصدومة إلى درجة أننى لم أشعر بالخوف، تلهبنى الحماسة بحيث لم تعد لياقة الأمر تشغل لى بالا؛ إذ كانت فرضيتى حينها أنه إن فقد المرء أثمن ما لديه؛ فإن الأشياء التافهة كالشرف والسمعة يتلاشى بريقها فى النفس (إضافة لذلك إن حدث ما هو أسوأ من ذلك؛ يمكننى حينها أن أذكر نفسى بأننى قد بعت شرفى بثمن أبخس بكثير من هذا، أستطيع تذكير نفسى بذلك.. إذا ما اضطررت).

يتساقط الثلج الخفيف ونحن نسير خروجًا من "دوف ريفر"، بينما يمشى الكلبان بهدوء إلى جانب "باركر"، وبعد مسيرة ساعة مرورًا بمنزل آل "بريتى" ذهب إلى مخبأ سرى وسط بعض جذور الأشجار وأخذ يبنى زلاقة من المواد التى وجدها هناك ـ بناء صغير من أفرع أشجار الصفصاف مع نوع من المقعد مصنوع من الجلد الجاف، كنت على وشك أن أعبر عن امتنانى لمراعاته عندما كان يربط حزم الطعام والأغطية إلى المقعد. كان الكلبان متحمسين لرؤية الثلج والزلاقة؛ يعبران عن ذلك بالنباح؛ طوال هذه العملية التى استغرقت نصف ساعة.. لم ينظر لى "باركر" ولم ينبس ببنت شفة، أظن أنه لسبب ما لم تكن له حاجة فى أن يسلبنى شرفى. قام بجذب اللجام جذبة أخيرة وانطلق مجددًا.. شمالا.. على طول مجرى نهر "دوف ريفر"، ليس من دليل يقوده فى الطريق إلا خرير الماء فى النهر، والألق المنبعث من حبيبات الجليد على ما يبدو.

تبعته.. أتعثر فى الحذاء الخفيف الغريب الذى أصر على أن أنتعله، مصممة فى قرارة نفسى على ألا يصدر منى شىء يشى بتبرمى؛ مهما كان الأمر.

***

رغم أنه أمر نادر الحدوث، لم يكن وصول زوار إلى "هيميلفانجر" على غرة ليُعد أمرًا غريبًا تمامًا؛ فعادة ما يجوب الهنود تلك البلدة يروجون لبضاعتهم ويذيعون بين الناس مستجدات الأخبار؛ أحسن "بير" لقاءهم ؛ فهم جيران ، وعلى المرء أن يعيش فى سلام مع جيرانه، كما أنهم من بنى دينه ؛ حتى وإن كانوا يرتعون فى دروب العمى والضلال مثلهم كمثل الخنازير، فهم يفدون أحيانًا بالمرضى من أقربائهم الذين لم تفلح العلاجات فى مداواة أسقامهم، شاحبة وجوههم منكسرة آمالهم، ليشهدوا النرويجيين وهم يخرجون متصدقين بجرعات صغيرة من الأفيون أو الكافور، أو يداوونهم بما فى طبهم التقليدى الذى عادة ما يخذلهم أيضًا. كان "بير" يأمل ألا تكون هذه واحدة من تلك المرات.

مد الرجل الأبيض يدًا متجمدة، كان يرتدى نظارة طبية ذات إطارات معدنية مغطاة بالثلج الأبيض أضفت عليه مظهرًا غريبًا وكأنه بومة:

"معذرة للاقتحام، نحن من شركة "هدسون باى" وقد جئنا فى مهمة عمل."

ازدادت دهشة "بير" إزاء ما يجرى ؛ متعجبًا ما عسى هذه الشركة أن تطلبه إليه: " تفضلا بالدخول؛ فلابد أنكما قد تجمدتما بردًا.. إن يدك..." كانت اليد التى صافحها تنضح بالبرد، لا نبض فيها.. بدت قطعة من اللحم.

تنحى "بير" عن الباب جانبًا ليدخلا إلى المرفأ الدافئ.

"هل معكما دواب؟"

"لا.. لقد قطعنا المسافة سيرًا على الأقدام".

رفع "بير" حاجبيه؛ قادهما إلى حجرة صغيرة بجانب المطبخ، حيث نادى "سيجى" و"هايلد" ودبر من بيته ليحضر لهما عصيدة ساخنة وخبزًا وقهوة، جحظت عينا "سيجى" لرؤية الغريبين بالدار.

"رباه! "بير" كم من غريب نزل بدارنا ضيفًا هذا الشتاء!".

تذمر "بير" ـ فليست لديه رغبة فى إثارة اللغط و النميمة حول شىء لم يفهم مجراه بعد، ولحسن الحظ لم يبد على الرجلين أنهما يفهمان ما يقال بالنرويجية، إذ كانت ترتسم على شفاههما ابتسامات خرقاء تنم عن جوع وإنهاك؛ يفركان أيديهما منقضين على الطعام يلغطون بامتنان.

بمجرد أن بدأ الدفء يتسلل عائدًا إلى يديه.. أحس "دونالد" بآلام حادة تخزه بيديه، تفحصهما على ضوء النار بديتا منتفختين وبهما عدد من الكدمات.! أحضرت إليه امرأة وعاء به ثلج مصرةً على أن يفرك يديه به ، فعادا إلى ذات الوضع المؤلم، ابتسمت المرأة فى وجهه بينما كانت تداويه ولم تنبس بكلمة ـ نظر إليه "بير" وأخبره بأنهم نرويجيون، وليس منهم كثير يستطيعون التحدث بالإنجليزية.

" ما الذى أتى برجال الشركة هؤلاء إلى هنا فى نوفمبر؟"

" الحق أنهما لم يأتيا فى مهمة تخص الشركة تحديدًا ." وجد "دونالد" أنه من الصعب عليه أن يقصى الابتسامة عن وجهه.. فيالسعد حظهما، ليس لأنهما عثرا على مكان مأهول بالسكان فحسب.. بل لأنهما قد عثرا أيضًا على مدينة من المدن كهذه والتقيا رجلا متحضرًا مثل "بير أولسن" ليتحدثا معه.

"هل أنتما فى طريقكما لمكان ما؟"

عكست نبرته ريبة فى هذا، حاول "دونالد" ألا يتحدث وفمه مملوء بكيك اللوز. (اللوز! إنهم حقًا فى نعيم هنا.)

"جئنا فى أثر شخص ما، وقد اقتفينا أثره من "دوف ريفر" على طول الساحل، صعودًا إلى النهر الذى يقطع المستنقع، وقادنا الأثر إلى هنا."

نظر إلى "جاكوب" ليؤكد كلامه، ولكن "جاكوب" بدا خجولاً فى حضرة الآخرين، فكان يومئ برأسه فحسب.

استمع "بير" باهتمام ثم غادر الحجرة لبرهة، ظن "دونالد" أنه قد ذهب ليتشاور مع الآخرين، لأنه عندما عاد كان برفقته رجل آخر قدمه على أنه "جنز أندرسون".

" يريد "جنز" إخباركما بشىء ما." ؛ قال "بير".

حكى "جنز" ـ وهو رجل خجول.. بطىء الحركة.. لسانه يبدو وكأنه أكبر من أن يسعه فمه ـ كيف وجد الفتى على شاطئ النهر؛ وقد أشرف على الموت، أحضره إلى "هيميلفانجر" حيث اعتنوا به، كان يقول ذلك بالنرويجية و"بير" يقوم بالترجمة.. ببطء.. باذلاً جهده للحصول على الكلمات الصحيحة.

كان لـ "دونالد" أن يشعر بالحماية فى ظل "بير"؛ فـ "فرانسيس" هو الحمل الذى كان مفقودًا.. وشمله الرب برعايته.

"ما الذى يدفع بك للاشتباه به؟ ماذا حدث؟"

لم يكن "دونالد" يريد أن يكشف كل الحقائق، فلو كان لدى"بير" اهتمام بالفتى فما من نية لديه لاستنفار غضبه. "حسنًا.. كان هناك هجوم خطير."

نظر " بير " لأعلى.. جحظت عيناه الشاحبتان؛ عندما كان يترجم لـ"جنز" التقت عيناهما فى صدمة.

" ليس من المؤكد بطبيعة الأمر أن "فرانسيس" مذنب..غير أن ما علينا إلا العثور عليه، فكم ينفطر فؤاد أم الفتى على ولدها!".

قطب "بير" جبينه قائلاً: "من هو "فرانسيس"؟"

"الفتى.. اسمه " فرانسيس روس".

فكر " بير" للحظة.. " هذا الفتى يقول إن اسمه " لوران ".

نظر "دونالد" و"جاكوب" إلى بعضهما، أحس "دونالد" برعشة باردة من اليقين تسرى فى أم دمه.

استأنف " بير" قائلا: " قد لا يكون ذلك الفتى هو من تطلبونه"

ارتفع صوت " دونالد "حماسة: " الأثر يقود إلى هنا، ليس من سبيل للخطأ فيه. إنه فتى إنجليزى ذو شعر أسود، لا يبدو أنه إنجليزى.. فهو أكثر... فرنسى أو إسبانى. هكذا وصفته "ماريا".

ضم "بير" شفتيه الحمراوين على نحو ما تفعل الفتيات: "يبدو أنه هو."

"ماذا قال أيضًا؟"

" هذا فحسب .. كما قال إنه كان فى طريقه إلى عمل جديد، ولكن مرشده تركه، يقول إنه كان ذاهبًا إلى الشمال الغربى مع مرشد هندى." لمعت عيناه باتجاه "جاكوب" للحظة.

التفت "بير" إلى "جنز" وشرح له ما دار بينهما من حديث، فتحدث "جنز" مجدداً كإجابة على سؤال ما.

"يقول "جنز" إنه يعتقد أنه من الغريب أنه وجده وحيدًا، فهذا الفتى لا يمكنه.. لم يكن بإمكانه المجىء هنا بمفرده فى هذا الطقس."

"لم لا؟"

" لقد كان الفتى متعبًا للغاية.. منهكًا تمامًا، لم يكن بإمكانه الذهاب لمسافة كهذه إلا بمساعدة شخص ما.. أو أن ثمة من أرغمه على ذلك".

" الذنب دافع كبير فى مثل هذه الحالات" ؛ حدث" دونالد" نفسه بذلك.

استأنف "بير" قائلا: "فكرت فعلاً بغرابة الأمر، لقد أخبرنى أنه بحاجة إلى العمل ليستدر منه المال؛ غير أنه كان معه من المال الكثير؛ كان معه ما يربو على أربعين دولارًا؛ وظل حريصًا على أن يبقى المال دائماً معه"

التقط "بير" شيئاً ما من الأرض لم يلحظه "دونالد" فى السابق؛ حقيبة جلدية يحملها الهنود حول أعناقهم للتبغ ومادة قابلة للاشتعال فتحها وهزها ليخرج منها لفة من النقود الورقية وقطعة رفيعة بحجم اليد من العظم أو العاج.. عليها أرقام وعلامات داكنة صغيرة محفورة، كانت متسخة جدًا حدق "دونالد" فيها.. ضاق حلقه ومد يده.

"هذه الحقيبة تخص "لوران جاميه".

""لوران جاميه"؟"

"ضحية الهجوم."

"أنت تقول " تخص".حدق "بير" فيه.. " أفهم ما تعنيه بقولك"

فهم "دونالد" على الفور وصف "ماريا" لـ "فرانسيس" عندما أدخلوه حجرة المرضى؛ كانت ثمة امرأة شابة جميلة وسمراء عندما فتح الباب، نظرت بارتياب ثم خرجت، هفت تنورتها بوقاحة لامسة ساقى بنطاله. نظر إليهما الفتى دون كلام بينما يجلسان على مقربة منه، قدمه "بير" إليهما؛ بدت بشرته شاحبة من أثر المرض على خلفية من الأغطية البيضاء.. بدا لاتينيًا تقريبًا فى مظهره، شعره أسود طويل إلى حد ما.. عيناه لهما لون أزرق قاتم ؛ قالت "ماريا" أيضًا إنه وسيم؛ صبى وسيم، لم تكن لدى" دونالد "أية فكرة حول ما إذا كان يمكن أن يدعى "فرانسيس" وسيمًا، ولكن ليس من براءة طفولية فى نظرات العداء التى تطل من عينيه؛ فعيناه الزرقاوان تحدقان باستمرار؛ تشيان بسذاجته وارتباكه، أخرج دفتر ملاحظاته ثم عدل من وضع كرسيه فانزلق دفتره من حجره إلى الأرض. تأفف فى سره والتقطه... محاولاً أن يتجاهل فيض الدفء الذى يتصاعد إلى عنقه ووجهه، ذكر نفسه بمن يكون وماذا يفعل هنا، قابل هاتين العينين مجددًا ـ اللتين تحولتا عن عينيه الآن ـ وتنحنح.

"هذا الرجل هو السيد "مودى" من شركة "هدسون باى"، وقد جاء من "دوف ريفر"، يقول إن والديك قلقان جدًا بشأنك." حاول "بير" أن يطمئن الفتى بكلماته هذه.

"مرحبًا يا "فرانسيس"."

أومأ "فرانسيس" برأسه قليلاً، كما لو كان "دونالد" أدنى من مستوى ملاحظته.

"هل لديك فكرة عن سبب مجيئى إلى هنا؟"

نظر له "فرانسيس" بتبرم.

"هل اسمك " فرانسيس روس ؟ "

خفض "فرانسيس" نظره إلى الأرض.. نظرة دلت على جوابه بالإيجاب، نظر "دونالد" إلى "بير".. الذى كان يحدق فى الفتى ؛ مصدوماً.

"إحم.. فى "دوف ريفر"، هل كنت تعرف رجلاً يدعى "لوران جاميه"؟"

ازدرد الفتى لعابه، تقلصت عضلات فكيه ـ بينما دونالد ناظر إليه ـ ثم أومأ برأسه.

"متى كانت آخر مرة رأيته فيها؟"

توقف الفتى طويلاً ؛ تساءل "دونالد" ما إذا كان الفتى سيتحدث على الإطلاق.

"رأيته عندما كان ميتًا، ورأيت الرجل الذى قتله، لذلك تبعته شمالاً لأربعة أيام، لكنى فقدت أثره."

كان صوته مسطحًا وهادئًا ، حدق "دونالد" فى الفتى.. تملكته الحماسة بقدر ماتملكته الدهشة، إذ عليه أن يظل حذرًا ويأخذ الأمور على مهل؛ وينتظر حتى يتيقن من ثبات موطئ قدمه قبل أن يمضى بخطوة أخرى للأمام، تمامًا كالسير فى المستنقعات المقيتة التى مر بها ؛ تقبض يداه بشدة أكثر على دفتر ملاحظاته.

" إحم... أخبرنى بما رأيته بالضبط.. ومتى حدث هذا؟"

تنهد " فرانسيس": " الليلة التى غادرت فيها، كان ذلك... منذ أيام عديدة..لا أتذكر."

"أنت هنا منذ خمسة أيام." أضاف " بير " بلطف ، فنظر "دونالد" إليه عابسًا ؛ ولكن "بير" رد بنظرة رقيقة بغير عتاب.

"إذاً .. خمسة أيام مضت.. ربما؟ كنت ذاهبًا إلى مقصورة "لوران جاميه"، كان الوقت متأخرًا فظننت أنه ليس بالداخل هناك، ثم رأيت رجلا يخرج ويمشى مبتعدًا .. فدخلت ورأيته."

"رأيت من؟"

" "جاميه"."

ازدرد لعابه مرة أخرى بصعوبة ، انتظره "دونالد" وقتًا طويلاً ليبدأ مجددًا .

"كان قد مات.. لتوه، كان جسده دافئًا، والدم الذى سال منه لايزال رطبًا ؛ أدركت إذًا أن الرجل الآخر هو القاتل."

دون "دونالد" بسرعة ما قاله "فرانسيس" ثم قال: "هذا .. الرجل الآخر ـ هل كنت تعرفه؟"

"لا."

"هل رأيت هيئته؟"

"رأيت فقط أنه كان من السكان الأصليين و له شعر طويل، ولمحت وجهه لكن الظلام كان شديدًا فلم أستطع رؤية الكثير."

كتب "دونالد".. محتفظًا بتعبير محايد على وجهه. "هل ستتعرف عليه لو رأيته مرة أخرى؟"

صمت لوقت طويل ، ثم قال: "ربما."

"ماذا عن ملابسه ـ ماذا كان يرتدى؟"

هز "فرانسيس" رأسه: "كان الظلام دامسًا .. ملابس داكنة."

"هل كان يرتدى ملابس كتلك التى أرتدى ؟ أم كملابس الصيادين ؟ لابد وأن لديك انطباعًا ما عنها".

" ملابس صيادى الغابات"

"لماذا ذهبت إلى كابينة "جاميه"؟"

"كنا صديقين."

"وكم كان الوقت حينذاك؟"

"لا أعرف.. الحادية عشرة.. ربما منتصف الليل."

نظر "دونالد" لأعلى محاولا أن يراقب وجه الفتى فى الوقت نفسه الذى يدون فيه ما يقوله. "ألم يكن ذلك متأخرًا؟"

حرك "فرانسيس" كتفيه فى لا مبالاة.

"هل كنت تزوره غالبًا فى هذه الساعة؟"

"لم يكن ينام مبكرًا.. فلم يكن مزارعًا."

"إذًا.. فقد رأيت الجثة، ثم ماذا فعلت؟"

"تتبعت الرجل."

"هل ذهبت إلى البيت.. لتحزم حقيبتك؟"

"لا.. أخذت بعضًا من أغراض "جاميه"."

"ألم تفكر فى إخبار والديك؟ أو أن تطلب المساعدة من شخص ذى خبرة بمثل هذه المواقف؟"

"لم يكن ثمة وقت لأهدره، لم أكن أريد أن أفقد أثره."

"لم تكن تريد أن تفقد أثره.. إذًا، ماذا أخذت معك من أغراض جاميه؟"

"ما احتجت إليه فحسب.. معطف.. طعام."

"ما من شىء آخر؟"

"لماذا؟ هل هذا يهم؟"؛ ناظرًا باتجاه "دونالد" مجددًا. "هل تعتقد أننى قتلته؟"

رد "دونالد" على نظرته بهدوء. "وهل فعلت؟"

"لقد قلت لتوى ـ إننى رأيت القاتل، و"لوران" كان صديقى، فلماذا أقتله؟"

"أحاول أن أتقصى حقيقة ما حدث فحسب."

تململ "بير" محذرًا، تساءل "دونالد" هل يدفع بالفتى أكثر، أم يلقى عليه بالتهمة كلية؛ كان يتحسس طريقه فى الظلام مثل جراح مبتدئ لا يدرى من أين تتبع الحقيقة.

"إنه متعب كثيرًا." ؛ كلمة قطع بها "بير" ريبة الصمت، بدا الفتى منهكًا حقًا، وقد التصق الجلد منه بالعظم.

" دقيقة أخرى فحسب...من فضلك! قلت لتوك إنك قد ذهبت إلى منزل هذا الرجل.. السيد "جاميه".. فوجدته مضرجًا فى دمائه، ثم تتبعت الرجل الذى تظن أنه القاتل.. لكنك فقدت أثره."

"نعم." رد الفتى ثم أطبق جفنيه .

" ما هذه القطعة من العظم؟"

فتح "فرانسيس" عينيه مرة أخرى.. فى دهشة هذه المرة.

"أنت تعرف ماذا أقصد.. أليس كذلك؟"

"لست أعرف ماذا تكون هذه ؟"

" لقد جلبتها معك.. لابد من سبب وراء ذلك"

"هو أعطاها لىّ."

"هو أعطاها لك؟ إنها ثمينة"

"هل رأيتها؟ لا أعتقد أنها كذلك"

"ماذا عن النقود؟ هل أعطاك إياها أيضًا؟"

"لا... لكنى احتجت مساعدة للعثور على... الرجل، كان من الممكن أن أضطر لدفع نقود لأحدهم."

معذرة.. أنا لا أفهم، تدفع لأحدهم من أجل ماذا؟" أشاح " فرانسيس " برأسه بعيدًا " ما الذى يدور فى ذهنك؟ "

تنحنح "بير" ورمى "دونالد" بنظرة غاضبة، فأغلق دفتره على مضض.

بالخارج.. أخذ "بير" "دونالد" من ذراعه وقال: "أنا آسف ولكن علىّ أن أهتم بصحة الفتى، لقد كان على شفير الموت عندما أحضره "جنز" إلى هنا."

"إن هذا على ما يرام." لم يكن هذا ما يعتقده "دونالد" حقًا، لكنه هنا ضيف قبل كل شىء. "لكنى أرجو أن تفهم ـ تحت أى ظرف ـ أننى سأضطر لوضعه قيد الاعتقال، مع النقود التى فى حوزته وما إلى ذلك."

اعتاد "بير" أن يميل باتجاه من يحدثه، حيث أدرك "دونالد" أن هذا عائد إلى قصر النظر. بهذا القرب.. وعيناه الزرقاوان البارزتان.. بدا "بير" يشبه الماعز قليلاً.

"إنه قرارك بالطبع."

"نعم.. هو كذلك. إذاً.. أريد أن أرتب لوجود حارس خارج الحجرة."

"من أجل ماذا؟ لا يمكنه مغادرة "هيميلفانجر"، حتى لو تمكن من السير."

"صحيح.. حسناً.." شعر "دونالد" بالحماقة، لاحظ فجأة ذلك الثلج المتساقط خارج النافذة. "طالما يمكن مراقبته."

"ليس هناك أسرار هنا." قالها "بير"، وهو يلقى نظرة خاطفة خجولة على السقف.

***

حدق "أندرو نوكس" خارج النافذة على الثلج المتساقط بينما تختلج صدره أحاسيس مختلفة، فهو يعرف ـ من ناحية ـ أن "سوزانا" قد تعلقت

بـ" دونالد مودى" وقد أولاه ـ من ثم ـ رعاية خلال مسيرهما فى البرارى، من ناحية أخرى يخفف من توتره أن آثار السجين ستختفى تحت دثارالجليد؛ فقد تجمد الثلج و صار جليدًا: جليدًا حقيقيًا يطمس وجه الأرض حتى يطل وجه الربيع من جديد؛ أخذ يتحسر على الأمر مع "ماكينلى" والباقين، وساعد فى تنظيم المتطوعين فى جماعات بحث لتحديد أى اتجاه قد سلكه الهارب على الأقل. وبعد أن انطلقوا.. أخذ "نوكس" "آدم" إلى مكتبه وألقى عليه محاضرة طويلة عن مدى خطورة خطئه، اعترض "آدم " بشدة قائلا: إنه يتذكر جيدًا أنه قد أحكم إغلاق الباب بالقفل والجنزير، تقبل "نوكس" فكرة إن يكون ثمة تفسير ما آخر للهرب، ومن ثم لن يفقد "آدم" وظيفته. بدا على وجه "آدم" خليط من الاعتراض المبرر أخلاقيًا والامتنان المشوب بامتعاض؛ فكلاهما يعرف أن الحق فى جانبه غير أنهما يدركان أن هناك حدًا لا يمكن تخطيه حين يتحدث المرء مع رئيسه فى العمل ؛ فليس ثمة عدل فى هذه الحياة.

ازداد الطين بلة ؛ فمنذ ساعة وصل إلى سمعه خبر من "دوف ريفر" مفاده أن السيدة "روس" قد اختفت، و شاع أن الهارب هو من اختطفها؛ أصاب "نوكس" الفزع من هذا المنحى الذى انعطفت باتجاهه الأحداث، وارتبك إزاء دوره فيه، هل تسبب فى هذا بطريقة ما حين سمح لها بالتحدث مع الرجل؟ أو أن اختفاء الاثنين محض صدفة؟ وهو الأمر الذى ينبغى عليه ألا يضعه فى منطق الاحتمال؛ وازن الأمور فى رأسه آملاً ألا يكون الأمر اختطافًا، إذ إنها إن كانت قد مضت بمفردها فلن تكتب لها النجاة على الأرجح.

كان حريصًا ـ لدى إخباره زوجته وابنتيه ـ على أن يؤكد على أن السجين سيبتعد بنفسه قدر استطاعته عن "كالفيلد". كان رد فعلهن على خبر اختفاء السيدة "روس" رعب توقّعه قبلاً.. إنه كابوس كل امرأة بيضاء فى بلد وحشى،على الرغم من تأكيده لهن بأن الأمر لايزال حتى هذه اللحظة مجرد شائعة، غير أن ما استقر فى أذهان الجميع يؤكد على إدانة "باركر" بالهرب واختفاء امرأة محلية على إثره.

تلقى "ماكينلى" الأخبار بنوع من الرضا على خلفية وجه يموج بالرعب.. حتى وهو يقسم على غباء "آدم" ويثور على قلة الإمكانات المناسبة، وهاهو الآن وقد خرج برفقة إحدى جماعات البحث، يبحث عن آثاره المحتملة على طول الشاطئ. بعد مواجهته لـ"ماكينلى" عندما أخبره عن المخزن الفارغ، اضطر "نوكس" أن يغلق على نفسه فى مكتبه ليحتسى كأسًا من البراندى، حيث استسلم لنوبة من الارتجاف العنيف انتهت ـ لحسن الحظ ـ بعد عدة دقائق، غير أنه ظل عاجزًا عن استجماع شجاعته ليخرج ويواجه العالم.

"بابا؟" لم تدعوه "ماريا" بذلك منذ وقت طويل، "هل أنت على ما يرام؟" جاءت من خلفه ووضعت يديها على كتفيه. "أوه ؛ ياللفظاعة!".

"قد يكون الوضع أسوأ ... قد يكون دائمًا أسوأ."

بدت "ماريا" وكأنها كانت تبكى ـ عادة طفولية أخرى ظن أنها كفت عنها، يعرف أنها قلقة.. ليست على نفسها ولكن على سمعته.

"لا أستطيع تحمل ما سيقوله الناس."

"لا تتعجلى الوصول إلى الاستنتاجات... كلنا يظن أنه يعرف ماذا حدث، لكن كلها تخمينات. لو أردت معرفة ماذا أعتقد... " قبض لسانه عن الكلام لبرهة.. "معظم السجناء الهاربين لا يبتعدون كثيرًا، فسوف يوضع وراء القضبان مرة أخرى خلال اليومين أو الثلاثة أيام التالية على الأرجح."

"لا أستطيع تحمل التفكير بشأن تلك المرأة البائسة".

" لم يتحدث أحد مع زوجها بعد، سوف أذهب وأتحدث معه.. ربما ليس هناك شىء بشأن الأمر برمته."

" بدا "ماكينلى" غاضبًا جدًا لدرجة أننى ظننت أنه قد يضرب "آدم"."

"إنه محبط.. يعتقد أن إدانة أحدهم ستجعله يفوز بترقية فى عمله."

أصدرت "ماريا" صوت احتقار من حلقها، "لا أستطيع تصديق أن الأمور ستعود إلى مجاريها بعد ما حدث قط".

" لن يبقى من الأمر شىء نتذكره ـ فى غضون أشهر قلائل ـ إلا قليل القليل".

ألقى بنظرة خارج النافذة ؛ متسائلا إن كانت ستقتنع بقوله أم لا. ينتابه شعور باطن مجددًا بأن ثمة كارثة يوشك وقوعها، التفت بنظره (بعد عدة ثوان؟ دقيقة؟ لم يشعر كم مضى من الوقت تحديدًا) لقد اختفت "ماريا" ، انشغل ببياض الثلج بالخارج فأخذ يحدق به، تستقر نتف الثلج مثل الريش وتحبس طبقة من الهواء على الأرض، كل نتفة ثلج تصافح أختها؛ مستقرة بجانبها.

يالقدرة الثلج على طمس أى أثر!.

كان رد فعل "سوزانا" على ما عانته من ضغوط طوال اليوم أن أخذت ترتدى الفساتين فى حجرتها ؛ فستانا من بعد فستان، تلقى جانبًا الفساتين التى لم تعد تجارى الموضة؛ وهو طقس اعتادت على القيام به، أحست بثقل حياة الريف يزداد وطأة على كاهلها ، وقفت "ماريا" بالباب ترقبها وهى تشد الشرائط من على فستان "مواريه" أخضر بطريقة تنم عن اشمئزاز شديد،أحست بفيض من الإعجاب. ينسرب فى شرايينها إزاء أختها؛لاهتمامها بأشياء مثل مقاسات الوسط واتساع الأكمام فى ظل أزمة لم تترك لأحد بالأ لفعل مثل هذه الأشياء.

" لا تمزقى هذا الفستان ، يا "سوزانا".. سأعيد حياكته بشكل أفضل"

نظرت "سوزانا" لأعلى قائلة: "حسنًا ..لا يمكننى ارتداءه بما فيه من أشياء سخيفة كهذه.... كم تبدو سخيفة!! "؛ تنهدت وطرحت الفستان أرضًا، يختلج أنفاسها شعور بالانهزام، كانت "ماريا" هى من قام بحياكة هذه الشرائط البغيضة بغرز ضيقة و قوية.

التقطته "ماريا" من على الأرض؛ قائلة: "يمكننى حياكة أكمام جديدة

له.. وربما الدانتيل.. ننزع هذه، ونغير من الرقبة، وهكذا سيصبح مجاريًا للموضة تمامًا ".

" أظن ذلك، وما عسانا أن نفعل بهذا؟"، رفعت يديها ممسكة برداء من القطن المكشكش الثقيل؛ بدت و كأنها "ماري انطوانيت" وهى تلعب دور فتاة تحلب البقر.

"همم.. خرق لتنظيف الأطباق."

ضحكت "سوزانا" ـ ضحكتها التى اعتادتها داخل البيت؛ ضحكة مجلجلة على العكس من ضحكتها المصطنعة وسط الناس التى طالما شبهتها أمها بضحكة سيدة مهذبة. " شنيع، أليس كذلك؟ لا أعرف ما الذى كنت أفكر فيه."

"ماتيو فوكس" على ما أذكر."

طوحت "سوزانا" الفستان عليها : " أفضل مايمكن عمله بهذا هو تنظيف الأطباق " جلست "ماريا" على الفراش، محاطة بالفساتين التى ألقت بها سوزانا " ألم تكتبى لـ"دونالد مودى" بعد؟"

تجنبت "سوزانا" عينيها. " آنى لى أن أكتب إليه؟ فليس من سبيل ليصل إليه ما أكتب! ".

" أذكر أنك قطعت على نفسك وعدًا بذلك؟"

"حقًا.. كما أخذ على نفسه هو الآخر عهدًا بذلك أيضًا، وإلى الآن لم يصلنى منه شىء بعد، وهو يعرف عنوانى على حين أنى لست أعرف له الآن موضعًا".

"حسنًا.. قد تصل بعض الأخبار قريبًا، أظن أنهم سيعرفون أخبارًا عن السجين الفار قريبًا؛ وعندئذ ستبدأ لعبة اصطياد الإوز البرى" رقدت وسط الفساتين الفارغة. " ظننتك معجبةً به ".

" لا بأس به" كست حمرة الخجل وجنتى "سوزانا" ما أزعجها بعض الشىء؛ فابتسمت لها "ماريا".

"توقفى! لكن ماذا ينبغى علىّ فعله؟"

"أوه.. ظننتك قد كتبت خطابات عاطفية مطولةً عقدتى عليها بشريط وردى اللون ، وضممتيها إلى قلبك ".

سُرَّت "ماريا" كثيرًا بحمرة الخجل التى بدت على وجنتى "سوزانا"، فكم من شاب رأته يُولع هيامًا بأختها ظانًا أنه قد فاز من قلبها بحمرة خجل تموج على خدودها، على حين لم يكن الأمر ليتكلف من "سوزانا" أسبوعًا واحدًا أو أكثر قليلاً لترمى به فى طى النسيان، معلقة عينيها بما هو أكثر أهمية بالنسبة لها؛ أدراج تسريحتها تعج بتذكارات حب لم يرق لها، لم تكن أدراج "ماريا" نفسها مثقلة بمثل هذا الكم من التذكارات، لم يكن لهذا أن يقدح الغيرة فى صدرها من أختها، فالأمر أهون من ذلك بكثير، فهى ترى كم يزعج "سوزانا" اهتمام الشباب الكثير بها، ما يدفع بها إلى التصرف مثل سيدة صغيرة ، كما أن كل الرجال الذين يهيمون بجمالها قدًا ومحيًّى يجهلون أنها فتاة عملية جدًا مولعة بالسباحة وصيد الأسماك أكثر من حفلات الشاى الأنيقة، كما أنها تمل من فارغ الكلام وتتحرج من العبارات العاطفية الوردية، ومن ثم ليس ذلك بالأمر الذى يثير فى نفسها نيران الغيرة من أختها، كما أنها ـ أى ماريا ـ لم تلق من سوزانا ـ حين وُلعت بحب شاب كان يدرس بمدرسة البلدة السنة الماضية ـ سوى تمنياتها القلبية الصادقة بأن تجد سعادتها مع هذا الشاب، ولم يكن خطأ "سوزانا" عندما التقاها "روبرت"؛ مرتبك المشاعر حتى انتهى الأمر بتصريحه لها بحبه، ثم تسلل عائدًا إلى "سارينا" على متن السفينة التالية؛ مندفعًا فاراً من رد فعلها العنيف، لم تقم "سوزانا" بإخبار "ماريا" بالأمر، ولكن الشائعات طافت البلدة حول ما حدث، وهذه هى حال كل شئ فى "كالفيلد".. آجلاً أو عاجلاً. بعد فترة من الجحيم المتأجج فى صمت، لقد صنعت "ماريا" تمثالاً من الشمع لـ"روبرت فيشر" وأحرقته ببطء فى نار المدفأة فى حجرة نومها، الغريب فى الأمر أن ذلك خفف من وطأة الألم النفسى الذى لحق بـ"ماريا" جراء فعلته تلك.

قطعت "ماريا" على نفسها عهدًا ـ بشكل ما ـ بالتزام العفة منذ ذلك الحين، حتى لا تتخيل أنها قد تلتقى يومًا برجلٍ يرقى إلى مثال الرجولة فى عينيها: وهو والدها، كما أنها ليست ـ على أية حال ـ على ثقة بما يقال عن الزواج والسعادة المنزلية؛ ففى "كالفيلد" و"دوف ريفر" تتبرى أنامل النساء يعملن من فرط العمل ويصيبهن الهرم بسرعة مخيفة، بينما يرفل الرجال فى ذات الآن بما قد يسمى ريعان شبابهم يتمتعون بصحة جيدة وقوة فتية، فيبدو الواحد منهم وكأنه قد تزوج من أمه، ليس هذا بالمصير الذى تود أن تلقى بنفسها فى هوته.

ولكن "دونالد" يبدو رجلاً مهذبًا وذكيًا، وقد اعتادت منذ وقت طويل أن تكون مستفزة و متبلدة المشاعر ـ حين تلتقى بأحد الرجال للمرة الأولى ـ حتى تستطيع أن تنحى أولئك السطحيين الذين ليست لديهم نظرة ثاقبة تتجاوز قناعها الزائف جانبًا، وهى تقوم بذلك ـ على وعى منها ـ دفاعًا عن نفسها؛ مستعيدة قواها التى أوهنتها تلك التجربة التعيسة ، غير أن "دونالد" رجل غير كل الرجال ؛ فهو الوحيد الذى ثابر؛ حتى إن كان ذلك من أجل "سوزانا" ، ما جعلها تحترمه، حتى حين التقيا فى الشارع عقب لقائه بـ "ستاروك".. كانت منبهرة بما قاله، لدرجة دفعت بها للتساؤل حول صحة ما أخبرته به عن الباحث.

"ماذا عن هذا الفستان؟" رفعت "سوزانا" رداءً من الصوف أزرق اللون؛ لطالما كانت ترتديه من قبل، "أريد أن أرتديه مجددًا؛ إن قمنا بتعديل أكمامه".

يبدو أنها قد أفرغت رأسها من كل ما يشغلها بـ"دونالد"، بمعنى أنه بمجرد أن ابتعد عن "كالفيلد" لم يعد له أى معنى من المعانى؛ لم يعد بالنسبة لها سوى معنى مجرد؛ شيء طواه النسيان فى جوفه، يعاود الظهور مجددًا حين يعود مرة أخرى إلى "كالفيلد" ؛ ظنت "ماريا" أن "سوزانا" لن تكون من سيبدأ بإرسال الخطابات إلى رفيقه أولاً؛ هذا إن حدث أن كتبت إليه أصلاً، وتساءلت لو لم يكن افتتان "دونالد" بـ "سوزانا" قائمًا ـ والذى

كان واضحًا من مقابلتهما الأولى ـ إذا ما كانت ستسمح لنفسها بأن تهتم به.. إنها لحمقاء لتفكر فى ذلك حتى.. بالطبع.

أخذ "نوكس" الموقف الصعب على عاتقه وقصد إلى "دوف ريفر" ليزور "أنجوس روس"، كان قد فشل فى تحديد من أطلق الشائعة ولام نفسه على تصديقه إياها بهذه السرعة، ومنذ سرت تلك الشائعة تبعتها شائعات غريبة أخرى، فمرة يشاع أن آل "ماكلانز" لقوا حتفهم ذبحًا فى مضاجعهم؛ وأخرى بأن هناك طفلاً قد اختطف؛ حتى أنه قد أشيع أن السجين الهارب قد أوثق "نوكس" نفسه بالقيود قبل أن يلوذ بالفرار، ما منحه أملاً كبيرًا فى أن يجد السيدة "روس" بالمنزل.

أطل بناظريه فوجد "روس" يصلح أسوار الحقل خلف المنزل، ظل "روس" يعمل بينما "نوكس" يقترب، ولم يلحظ وجوده إلا حين اقترب على مسافة بضع خطوات كان "روس" رجلا معروفًا بقلة كلامه، على حين اشتهرت زوجته بأسلوبها المستخف، حياه "روس" بلطف حين اقترب إليه.

"أنجوس."

"أندرو".. أرجو أن تكون بخير."

" بخير" ، كان السيد " روس " واحدًا من أناس قلائل لا يجدون حرجًا فى مناداة "نوكس" باسمه الأول؛ " أعرف سبب مجيئك إلى هنا".

كان لـ"روس" عينان شاحبتان وشعر شاحب أيضًا كما كان متبلد السلوك، كان يذكر "نوكس" بالجرانيت المنحوت: تمثال نموذجى لا حراك له؛ كان العناد سمة شاركته امرأته فيه، وإن بدت أنيقة ذات مظهر إنجليزى بليدة المشاعر.

الجرانيت والصوان : صنفان من الناس يستحيل على المرء أن يتخيلهما فى انصهار حميمى مع بعضهما البعض (نفض "نوكس" عن رأسه

ذلك.. رعدة أصابت ذهنه صاحبها لوم لنفس ارتكبت جرمًا)، كم يختلفان عن ابنهما "فرانسيس" حتى أنه ليس من أحد يظن أنه ولدهما الطبيعى.

"نعم .. لقد أسمعت الشائعات اليوم آذان القرية كلها، فالكل يخوض فى لغط عن هرب السجين..شىء مؤسف حقًا".

"حسناً.. كلامك صحيح.... لقد اختفت ؛ ولكن لم يكن اختفاؤها رغمًا عنها ".

صمت " نوكس " لبرهة من الوقت يستشف قدرًا أكبر من المعلومات ؛ غير أنه لم يكن "روس" ذلك الذى يستّشف المرء منه معلومة.

"هل تعرف إلى أين مضت؟"

" للبحث عن "فرانسيس"، قالت إنها ستفعل.. لم تستطع تحمل القلق."

اندهش "نوكس" من برود أعصاب هذا الرجل، رغم أن ذلك ليس بجديد عليه.

" أظنها ستلتقى صدفةً برجال الشركة."

"هل مضت بمفردها؟"

هز "روس" كتفيه قليلاً.. ناظرًا فى عينيه. "إن كنت تسألنى عما إذا كان السجين الهارب قد مضى معها أم لا؛ فليست لدى إجابة لهذا السؤال، لست أدرى لما قد يساعدها هذا الرجل؛ هل لديك أى تصور حيال هذا ؟ "

"ألست قلقًا يا رجل؟ زوجتك.. فى الخارج.. فى هذا الوقت من السنة؟"

التقط "روس" فأسه ومعوله متوجهًا إلى المنزل.

" تعال، لتتناول كوبًا من الشاى."

أدرك "نوكس" أن ليس لديه أى اختيار.

ما أراه "روس" لـ "نوكس" فى المطبخ كان يشير أن ليس على هذا الرجل أن يقلق كثيرًا بشأن السيدة "روس".. فمن الواضح أنها قد أعدت للأمر جيدًا، حتى أنه قرأ الملحوظة التى تركتها.. التى كانت مقتضبة لكنها معبرة. الجملة "لا تعر ما ستسمع اهتمامًا" قد تلمح إلى هروب السجين، لكنها ربما لم تلمح إلى ذلك. لم يعلق "روس" على هذا. تساءل "نوكس" ما إذا كان "روس" يشعر بأية غيرة.. أى مشاعر تلتهب داخل زوج قد تكون زوجته هربت مع رجل آخر، مهما كانت غرابة الظروف، لم يستطع تحديد أى أثر لهما.

بينما هو يحتسى الشاى ـ هادئ البال على غير المتوقع ـ وجد نفسه يتحرى حول حالة زواج السيد والسيدة "روس"، ربما كانا لا يطيقان بعضهما بعضًا بعد كل هذه السنوات.. لربما كان سعيدًا لرحيلها؛ هى وابنهما.

" من الأفضل ـ ربما ـ فى الوقت الحالى لو لم تخبر أحدًا بشأن مادار بيننا من حديث، سأقول إننى تحدثت إليك وأنه ليس هناك من شىء يدعو للقلق، فنحن لا نريد المزيد من... هستيريا الشائعات".

توقع أن مزيدًا من الرجال سينطلقون فى رحلة البحث إلى الشمال، وأحس بضحكة تخرج من أعماق نفسه حيال ما سيحدث... رد فعل غير مناسب والذى يصبح أكثر انتشارًا فيه مع زيادة السن.. ربما كانت خطوة مفاجئة نحو الهرم. ابتلع فقاعة الضحك لأسفل.. فهذا عمل جاد. ولكن ربما المزيد من الرجال لن يكون ضروريًا.. بما أن "دونالد مودى" و"جاكوب" فى مكان الهدف بالفعل ـ كما يأمل ـ أينما كان هذا الهدف.

أومأ "روس".. "كما تقول إذًا".

"هل أنا.. على حق فى أن أعتقد أنك لا تنوى الذهاب خلفها بنفسك؟"

وقفة صغيرة.. بالنسبة لمعظم الرجال.. قد يفسر سؤاله هذا على أنه إهانة.

"أين عساى أن أذهب؟ فى هذا الجو لا يمكننى معرفة أين ذهبت بالتحديد، كما فعلت.. فهى على الأرجح سوف تلتقى صدفة برجال الشركة."

ترى هل يحاول الآن تبرير موقفه؟ أحس "نوكس" بطعنة من الامتعاض.

فلكم يرى فى هذا سادية تستنفد صبره؛ إن لم تكن لتجلف إحساس الرجولة فى هذا الرجل.

"حسنًا..."وقف "نوكس" مستسلمًا لرغبته فى المغادرة. "شكرًا لصراحتك فى الحديث معى، أرجو بصدق أن يلتم شمل أسرتك ثانية عما قريب".

أومأ "روس" وشكره لمجيئه، ولم يبد عليه أى ارتباك ناتج عن حماسة أو قلق.

شعر "نوكس" بشىء من الارتياح عندما ترك "أنجوس روس"، لقد مر بمشاعر مشابهة أثناء تعاملات له مع السكان الأصليين، الذين لا يعبرون عن مشاعرهم بنفس القدر الذى يعبر به البيض، وكم هو مرهق أن تضيع وقتًا فى صحبة هؤلاء.. الذين فى جوارهم تبدو الابتسامة العفوية ضعفًا طفوليًا.

***

شق "ستاروك" طريقه عبر الثلج الذى لم يتجلد بعد، مرتديًا معطفًا شتويا مستعارًا؛ يتفحص الأرض بحثًا عن آثار لرحلة الفارين، عن يمينه رجل يدعى "إدوارد ماكاى" يقوم بذات الشىء، وعن يساره شاب ذو حنجرة بارزة ينقب الأرض بعصا طويلة، كان "ستاروك" يعلم أنها مهمة لا أمل فى نجاحها ، فكل شىء فيها قد تم بشكل خطأ من البداية؛ إذ خرجت جموع الناس ـ بمجرد أن تطايرت أنباء فرار السجين من المخزن كالزئبق فى أنحاء "كالفيلد" ـ إلى الطرقات تنقب عن أى آثار، مما أدى إلى طمس أى

أثر يُحتمل، ربما كان للثلج الخفيف الذى تساقط الليلة الماضية دور ما في طمس تلك الآثار؛ غير أن خروج تلك الجموع جعل من العثور على أى أثر من مسرح عملية الهروب ضربًا من ضروب المستحيل.

بحلول الوقت الذى وصل فيه "ستاروك".. كانت الأرض حول المخزن قد تحولت إلى بحر من الوحل والثلج الذائب، ولم يكن لدى أى واحد ممن ينقبون الأرض بحثًا عن أدنى فكرة عما يبحث عنه، فتم تقسيم الرجال إلى جماعات، انطلقت كل واحدة منها فى اتجاه مختلف ؛ تمسح الأرض فى عشرة خطوط على التوازى، مما أدى إلى مسح الأرض من حول " كالفيلد " تمامًا، فتبددت الآمال فى العثور على أى سر كانت الأرض تبقى عليه للبوح به لمن هو بمثل هذا الأمر خبير.

أبدى "ستاروك" اعتراضه على نحو لطيف، مشيرًا إلى أن هذه هى ثمار ماقاموا به خطأ ، استمع إليه الرجال بشكل مهذب، غير أنهم ضربوا بما قال عرض الحائط بمجرد انتهائه ، ذلك أنه يعتبر غريبًا عن بلدتهم، فى هذه الأثناء تعددت الهتافات الآتية مع كل جهة تصيح بالعثور على أثر قدم أو علامة على مرور الفارين من هذه الطريق أو تلك؛ ولكن كان يتبين فى كل مرة أن الأثر المزعوم ما هو إلا أثر أقدام حيوانات أو هوة فى الأرض أو كلا الاثنين معًا .

عاد "ستاروك" بذاكرته إلى منزل آل "سكوت".. حيث كان قد خبأ أوراقًا تحت المراتب (وكان قد تحقق أولاً من عدم وجود حشرات قد تتغذى عليها)، إنه على استعداد للبقاء للوقت الذى يتطلبه الأمر، واثقًا من أن بإمكانه طلب المزيد من المال من "نوكس".. منتظرًا ظهور ابن السيدة "روس" وقطعة العظم، وهو على يقين من أن أحدًا لا يدرى عن هذا الأمر شيئًا، هو نفسه لا يدرى ؛ فكم هو نادر ذلك العقل ـ مثل عقله ـ الذى يمكنه الإحاطة بمثل هذه الأمور الفائقة إدراكًا وفهمًا!.

عندما التقى "ستاروك" بـ"لوران جاميه" أول مرة، كان ذلك فى "تورنتو" منذ عام مضى، حيث كان الطقس عاصفًا وقاتمًا، كانت الأموال التى

أنفقها "ستاروك" قد تخطت ـ كالعادة ـ الحد المتاح، فتلقى سيلا من التوبيخات من السيدة "برات"، وهى واحدة من أولئك ـ و كثير ما هم ـ الذين لم يرق فهمهم لاستيعاب أن " ستاروك " ما خلق إلا ليعمل فى كل راقٍ وجميلٍ من الأشياء، وأنه كان يؤثرها بتشريفه ذلك البيت المتهالك الذى تسكن فيه، مضى "ستاروك" إلى أحد المقاهى كى يفرغ رأسه من أثر ذلك الموقف السخيف ، وكان لايزال على ثقة بأن بإمكانه ـ بشكل ما أو بآخر ـ تدبير بعض من المال، كان يشرب كوبًا من القهوة، ويجعله يبقى لأطول وقت ممكن عندما التقط مقتطفات من محادثة الرجال فى الطاولة المجاورة لطاولته.

قال واحد منهم ـ فرنسى بحسب ما تشى به لكنته ـ إنه تاجر ذات مرةٍ مع رجل من " ثندر باى " كان قد حصل على شيء غريب غير أنه لا قيمة له على الأرجح كما لاحظ مؤخرًا: كانت قطعة صغيرة من العاج بها نقوش، بدت " وكأنها تعود إلى قدامى المصريين" ، والقول لايزال على لسان ذاك الفرنسى.

"ليست للمصريين القدامى ، فعليها رسوم.. طيور أو ما شابه" قال آخر، يُعرف من صوته أنه واحد من أولئك الأمريكيين الأوغاد الذين منحتهم الحدود الممتدة مع كندا طوق النجاة من الحرب، بينما كانت القطعة ما زالت تمر من يد لأخرى على الطاولة المجاورة.

"لا أدرى.. لعلها تعود إلى اليونانيين القدامى" قال ثالث:

قال الرجل الفرنسى.. " لعلها نفيسة إذًا".

ها قد واتت "ستاروك" فرصته الثمينة، انتصب قائمًا، قدَّم نفسه للرجال على الطاولة المجاورة، فهذه لعبته التى طالما أتقنها؛ اختراق أية صحبة من الناس: من صحبة عمال المناجم إلى رفقة ذوى الجاه والسلطان؛ فهو أحد الرجال البيض القلائل الذين حالفهم الحظ فى اكتساب ثقة كثير من زعماء قبائل الهنود الحمر على جانبى الحدود ونالوا

منهم كل إعجاب، فذاع صيته كـ" باحث ماهر " فى جميع الأرجاء ، وسمع به الأمريكيون فى كل مكان ، ما سهل عليه مهمته فى هذا الموقف .

قال لهم "ستاروك" بأنه دارس للحفريات والآثار، وربما أمكنه مساعدتهم،

طلب إليه الأمريكيون من الجلوس أن يقص عليهم من مغامراته، فجلس يقص عليهم ما طلبوا بينما كان يقلب تلك القطعة بين يديه، تظاهر بالقول بأنها لا قيمة لها.

على حين أنه ـ فى الحقيقة ـ لم يكن يفقه بشأنها أى شىء، إذ أدرك مما تيسر له معرفته ـ وكان يغالى فى ذلك ـ عن الحضارتين المصرية واليونانية أنها لا تمت لأى منهما بشىء، إلا أنه كان مأخوذاً بالأشكال الصغيرة التى أحاطت بالعلامات المحفورة وقد بدت نوعاً من الكتابة ذكرته بأسلوب الأشكال الساذجة فى نقوش الهنود التاريخية، التى كانوا يرصعون بها أحزمتهم، نهاية ناولها للرجل الفرنسى، الذى كان يدعى "جاميه".. وقال إنه لا يعرف ما هى.. لكنه يعرف أنها ليست مصرية أو لاتينية أو يونانية، ومن ثم فهى لاتنتمى إلى أى من الحضارات القديمة العظيمة.

تعاطف واحد من الرجال الآخرين مع "جاميه" قائلاً: "لربما كانت لهندى أحمر ، إذًا.. ها؟".

ضحك الرجال بصخب، وتفرق الجمع بعد ذلك بقليل، وظل"ستاروك" بالمقهى لساعة أخرى.. يرتشف كوب القهوة الذى ابتاعه الرجل الفرنسى له.

لليومين التاليين اختمرت الفكرة فى رأسه ولم تزل، كان"ستاروك" يمشى فى الشارع (فلم يكن معه من النقود ما يكفى لتكلفة الركوب)، بينما تسبح قطعة العاج بما تحمله من علامات غريبة بفضاء ذاكرته؛ الكل يعرف ـ بالطبع ـ أنه ما كانت للهنود الحمر من حضارة كتابية.

ما عساها أن تكون ، إذًا ؟ ما عساها ؟

عاد "ستاروك" أدراجه إلى ذات المقهى يسأل عن الرجل الفرنسى، فوجده مرة ثانية ـ كما لو كان بالصدفة ـ خارجًا من بنسيون.. فى حى أفضل من حيه هو.. كان حريصًا أن يلاحظ ذلك. تحدث لفترة وقال "ستاروك" إنه قد تحدث إلى صديق له.. رجل يعرف الكثير عن اللغات القديمة، وهمه أن يرى تلك القطعة القديمة، لو أنه استعارها ليوم أو اثنين.. ليريها له.. فربما يكون بإمكانه المساعدة فى حسم مسألة قيمتها. كشف "جاميه" عن نفسه كتاجر جاد ورفض أن يعطيه القطعة إلا مقابل مبلغ مناسب من المال، نال من "ستاروك" ـ الذى ظن أنه قد أفلح فى إخفاء نواياه ـ ارتياب الفرنسى منه، ولكن "جاميه" ضحك وربت على كتفه وقال إنه سيحتفظ بها له حتى يأتيه بالنقود،تظاهر "ستاروك" باللامبالاة ؛ تلعثم وراوغ وتوسل ليعطيه فرصة لينقل العلامات فقط ليتأكد أن القطعة لها قيمة، فأخرجها "جاميه" وهو مسرور.. وقام هو بنقل العلامات على قصاصة من ورق.

ومنذ ذلك الحين قام بأخذ النسخة ما نسخ من كتابتها إلى المتاحف فى "تورنتو" و"شيكاغو"، إلى أساتذة الجامعات ومن عرف بخبرته فى هذا الأمر، لم يكن من بينهم أحد يدحض تصوره بأنها ليست من حضارات مصر أو اليونان أو حتى اللاتينيين القدامى، لم يخبر أحدًا بما قاله لرفاقه فى المقهى، فكل ما كان يسأل عنه إن كانت الكتابة التى عليها من إحدى اللغات الهندو ـ روبية، وهو ما أجاب عليه الدارسون بالنفى، و تباحثوا فيما بينهم كافة اللغات القديمة التى أطلعوا عليها، وكان ليساعدهم لو عرفوا مصدر هذه القطعة، غير أنه كان حريصًا ألا ينتبه التاجر إلى ذلك، غير أن أمر هذه القطعة ـ خلال الأشهر التى تلت – لم يعد مجرد موضع اهتمام ؛ بل صار شغفًا.

خاض فى البحث صدفةً كما أخبر"مودى"، وقام بالترويج لنفسه كمحرر صحفى ذى خبرة فى دراسة القانون وفنون المسرح والشئون الكنسية، وكانت الأخيرة الأكثر نجاحًا بين ثلاثية تعيسة: فقد كونت كنيسته

جماعة من المصلين من عدة مئات من الناس اجتذبهم بفضل فصاحته ودهاء حيله، ولمع نجمه - حتى فُضح أمر علاقته بزوجة شخص مهم من أبناء الأبراشية، وتم تهريبه خارج البلاد. ناسبت الصحافة ميوله المستقلة أكثر.. كانت متنوعة واجتماعية وأتاحت له فرصة للتعبير عن آرائه بلغة ثرية، ولكن الأكثر من ذلك.. أنه وجد في نفسه شغوفًا بالاستطلاع والاستكشاف ، ففي البداية.. حركته أفكار رومانسية للوحشية النبيلة، بدأ يكتب عن شئون الهنود، ورغم أنه سريعًا ما تحرر من التخيلات المذهلة، فقد حركته كذلك حقيقة ما عرفه، بالتحديد قام بمصادفة رجل يدعى "جوزيف لوك".. شخص في الثمانين من عمره يعيش في فقر مدقع قرب "أوتاوا"، الذي أخبره بحكايات عن قبيلته.. قبيلة الـ"بيناكوك"، وكيف أنهم قد أجبروا على ترك أرضهم في "ماستشوسيتس". كان واحدًا من القلة المتبقية.. إن لم يكن آخر فرد متبقٍ من قبيلته، فكتب عنه "ستروك" ببلاغة - كما كان يسمع ممن حوله ، حتى أنه صدق ما يقال عنه - عن كارثة "جوزيف"، فوجد نفسه و قد أصبح ضيفًا تنشده المنتديات في "تورنتو" و"أوتاوا".. هنا ضالته التي طالما كان ينشدها!.

إلا أنه لم يكتب لأي من مساعيه الاكتمال، فلم يقده صيته إلا إلى مزيد من الكتابات عن المزيد من الهنود الحمر؛ إناس أكثر أحدث من "جوزيف" عهدًا و أكثر منه حنقًا على مستجدات الأمور تجاههم، وبدلاً من أن تتناول مقالاته بشكل حيوي فقر هؤلاء المدقع أو أن ترثي لجور الدهر عليهم (كان أمامه أكثر من سبيل لفعل ذلك) ؛ بدلاً من ذلك كله صارت مقالاته أكثر تعقيدًا، فوجد نفسه وقد فقد الناشرون الرغبة في نشر أعماله ، متحججين بأعذار واهية أو باهتمامات القراء التي انصرفت عما يكتب، فدخل معهم في نقاشات حول أهمية وعي القراء بمآسي السكان الأصليين و مشاعرهم، لم يكن من رد بالمقابل إلا التغمغم والادعاء بأن قضايا العلاقات مع إنجلترا أكثر أهمية، غير مبالين بمايقول؛ هاهي كل الأبواب قد أوصدت في وجه "ستاروك" ، وصار الغيث قطرًا، فأحس بالظلم ينال منه كما نال الهنود الحمر سلفًا.

ذاع فى الأنحاء بعد ذلك أن أسرة أمريكية فقدت ابنها أثناء هجوم الهنود، وقد بعثت إليه ،على الرغم من أن الحادثة وقعت جنوب البحيرات فى "ميتشيجان" ، إلا أن والد الفتى سمع بـ "ستاروك"، وكان ـ أى الأب ـ رجلاً ذكيًا وصل به اليأس الى حد الاعتقاد بأن " ستاروك" سوف يعينه فى هذا الأمر، كانت سن "ستاروك" آنذاك تناهز الخمسين، غير أن المهمة استهوت ما استجمع من الخيال والحماسة بداخله، فألقى بنفسه فى تياراتها، رحب به الهنود و صار موضع ثقة لهم، ربما كان السبب ـ جزئيًا ـ فى ذلك وضعه كغريب، بعد عدة أشهر وجد "ستاروك" الفتى يعيش مع جماعة من "هرون" فى "ويسكنسين"، ووافق الفتى على الرجوع إلى أسرته.

الآن استعاد "ستاروك" منزلته مجددًا ، وبعد تلك الثمرة المرضية التى حققها، قام بتبنى المزيد من قضايا اختطاف الأطفال، والتى حالفه التوفيق فى حل ثلثيها، لم تكن المشاكل التى واجهها ـ فى هذا الصدد ـ تكمن فى تحديد مواقع الأطفال المفقودين؛ بل فى إقناعهم بالعودة الى ديارهم كسابق عهدهم؛ وكم كانت قدرة "ستاروك" على الإقناع!.

بعد سنتين، تلقى خطابًا من "تشارلز سيتون"؛ و كانت قضية "سيتون" مختلفة عن القضايا التى مر بها من قبل، فقد اختفت بنتا " تشارلز سيتون "منذ مايربو عن الخمس سنوات، ولم يكن من دليل على أن الهنود هم من اختطفوهما بالمقام الأول، دفعته إلى الأمر ثقة تعززها نجاحاته، ولم يكن لدى" ستاروك " رغبة فى أن يدير ظهره لقضية ستكلل بالمجد ـ حسب ما رأى ـ مشواره فى هذا المجال. كان عمله يدر عليه مالاً؛ لكن لم يغن العثور على أطفال المستوطنين الفقراء أحدًا.

لم يعرف متى بدأت الأمور تفلت خيوطها من بين يديه، كان قلب"تشارلز سيتون" مازال يلتاع حزنًا حتى بعد مرور خمس سنوات، توفيت زوجته كمدًا، ففت هذا فى عزيمته و صبره، لم يعد يعمل؛ ترك العمل مكرسًا ما بقى لديه من المال فى سبيل العثور على ابنتيه، ولم يعد لحياته من داعٍ إلا العثور عليهما، كان على " ستاروك" ـ إذًا - أن يستقرأ

خارطة رجل ما من تأويل للأمر يشفى له غليلاً، وليس من نتيجة تعوضه عما أفناه معاناة ، بدأ أمل" ستاروك " فى العثور على الفتاتين ينحسر شيئًا فشيئًا، واعتقد كثير من الناس أنهما - لا مناص - قد لقيتا حتفهما فى البرية، وأن الحيوانات الضارية قد أتت على ما بقى منهما، وبعد عام من البحث بدأ " ستاروك " نفسه يميل إلى هذا الرأى، غير أنه ما كان ليخبر "ستون " بمثل هذا الأمر، بل يستحيل أن يذكره على مسمع منه حتى.

فى هذا الوقت، كان "ستاروك" يسافر كثيرًا بين بحيرة "أونتاريو" وساحل "جورجيا"، والتقى شابًا هنديًا اسمه "كاهون ـ وس" وهو صحفى مكافح كان يكتب عن المشكلات السياسية للسكان الأصليين، كان "كاهون ـ وس" متحمسًا لمقابلة "ستاروك" وجمع التقارير للصحف، ظن "ستاروك" ـ فى بادئ الأمر ـ أنه ليس بإمكان هذا الفتى مساعدته فى شىء كثير، غير أنهما أصبحا صديقين بعيدًا عن هذه القضية ، وكان "كاهون ـ وس" يدعوه بـ "ساكوتاه ـ تيس" وتعنى "البشير"، أحس "ستاروك" فى نفسه بالاطراء نتيجة هذا الاهتمام ، وكذا للطريقة التى يرتأيه بها هذا الشاب قدوة و ومثلا كانا يخوضان فى حوارات طويلة خلال الليل حول الحروب جنوب الحدود، وحول السياسيين فى "أوتاوا"، تحدثا عن الثقافة السائدة عن الهنود الحمر؛ كيف ينظر إليهم الناس على أنهم أناس من العصر الحجرى، ومدى الاضطهاد الذى تموج به ثقافة الوافدين المكتوبة إزاء الثقافة الهندية الشفهية، أخبره "كاهون ـ وس" عن أعمال الحفريات التى تتم عند نهر "أوهايو" والتى كشفت عن بنايات وأدوات يرجع تاريخها لما قبل ميلاد المسيح، والتى أبى علماء الآثار من البيض ـ لدى اكتشافهم هذه الأشياء ـ التصديق بأن تكون هذه الحضارة لأسلاف الهنود، (ومن ثم يمكنهم أن يقصوا الهنود عن حضارة يدعون بأن الهنود ينسبونها لأنفسهم).

أعادت هذه المحاورات الليلية "ستاروك" بذاكرته عقدًا من الزمان إلى الوراء، حين كان يجوب شوارع تورنتو؛ باحثًا لتلك القطعة من العاج عن جواب، جال بخياله فى مدى ما سيحدثه ما سيكتبه عن موضوع كهذا

البحث، والصدمة التى سيتلقى بها الناس فى أمريكا الشمالية هذه الأبحاث، فنشر مثل هذا البحث قد يمثل مساعدة لا حد لها لصالح أصدقائه الهنود، كما سيذيع صيته تبعًا لذلك. من المحزن أنه لم يعد يستطيع إيجاد "كاهون ـ وس" لطلب رأيه.. حيث إن الرجل قد استسلم للشرب وانجرف خارج الحدود.. مثل هذا المصير عادة ما يقع للرجال الذين يحيدون عن المسار الذين ولدوا فيه.

***

بخلاف زوجى.. فلقد قضيت وقتًا قليلا نسبيًا وحيدة مع رجل، لذلك وجدت أنه من الصعب أن أحكم على ما هو طبيعى وما هو ليس بطبيعى، فى اليوم الثالث لى منذ خرجت من "دوف ريفر" كنت أمشى خلف "باركر" والزلاجة ووجدت أنه قليل الكلام معى، وتساءلت لو كنت قد فعلت شيئًا خطأ ـ بالطبع كنت أعرف أن الظروف غير طبيعية، وأننى بطبيعتى صموتة أكثر منه، ومع ذلك لا أجد فى صمته راحة لى. لم يكن لدى أى ميل ـ على مر يومين ـ لأن أطرح أية أسئلة، كنت بحاجة لاستجماع كامل قوتى لأتابع ذلك السير الموجع، لكن اليوم أخف وطأة من سابقيه إلى حد ما، كنا قد وصلنا إلى أرض مستوية من الممرات الممهدة نسبيًا كانت أشجار الأرز تحمينا من الرياح وكنا نتحرك تحت ضوء الشفق خلال الأشجار، لم نكن نسمع فى المدى صوتًا سوى وقع أقدامنا وفحيح الزلاجة المصنوعة من خشب الصفصاف على الجليد.

تتبع "باركر" المسار بطول النهر ولم تغف عيناه للحظة، فأدركت أنه يعرف على وجه الدقة إلى أين نحن متجهون. عندما توقفنا لتناول الشاى الأسود وخبز الذرة سألته: "إذا.. هذا هو الطريق الذى سلكه "فرانسيس"؟"

أومأ برأسه إنه ـ أقل ما يقال عنه ـ رجل قليل الكلام.

"إذا.. أ رأيت هذا الأثر فى طريقك إلى "دوف ريفر"؟"

"نعم.. جاء رجلان من هذا الطريق..فى الوقت نفسه تقريبًا."

"اثنان؟ هل تعنى أنه كان مع شخص ما؟"

"واحد منهما كان يتبع الآخر."

"كيف لك أن تعرف؟"

"هناك أثر دائمًا خلف الآخر."

بدا أنه انتظر لبرهة.. فلم أنطق بكلمة.

"لقد قاما بإشعال نيران فى مواضع عدة، لو كانا معًا.. لكان للنار موضع واحد".

شعرت بشىء من الغباء لأننى لم ألحظ ذلك، كان على وجه"باركر" مسحة من الرضا، أو ربما كنت أتخيل ذلك، كنا نقف إلى نار صغيرة الحجم أوقدناها، كان الكوب يبعث الدفء فى يدى المتجمدتين خلال قفازى - راحة يشوبها بعض الألم تسرى فى يدى، أمسكت بالكوب وقد غطى وجهى بالبخار الساخن الرطب، كنت أعرف كم سيألمنى البخار حين يتكثف على وجهى ويصير ماء، لكن ليس لأحد جرب برد الشتاء ليفوت تلك المتعة.

نبح أحد الكلبين، هبت ريح وصفرت خلال الأغصان المثقلة بالثلج فانسالت موجة ستارة الثلج الأبيض الرقيق إلى الأرض، لم يكن لدى فكرة كيف سيستطيع "باركر" تتبع الأثر بينما تكتسى الأرض بهذا الثلج، وكأنه كان يقرأ أفكارى.. قال: "ثمة آثار واضحة لأربعة من الرجال "

"أربعة؟"

"رجال الشركة.. الذين يتتبعون ابنك، من السهل اقتفاء آثارهم."

هل أنا أتخيل.. أم هل أرى شبح ابتسامة بالفعل؟

جرع "باركر" ما فى كوبه مرة واحدة وتجول بعيدًا لعدة ياردات ليريح نفسه، بدا أن لديه ذات القدرة التى يتمتع بها أولئك الرجال الذين اعتادوا على التجوال بالعراء؛ يبتلع الواحد منهم السوائل المغلية دون أن تُلهب

صدره حرارتها، لابد أن فمه مصنوع من الجلد،التفت بعيدًا أراقب الكلبين اللذين ناما كل منهما يستدفئ بالآخر على نحو غريب، كانت الصغرى ذات اللون الرملى تدعى "لوسى"، وكان "باركر" ينطقه " لوسيه"، شعرت بألفة تجاهها، إذ بدت ودودة وفية كما يفترض بالكلاب أن تكون على النقيض من رفيقها "سيسكو" الذى يشبه الذئاب، بعينيه الزرقاوين المريبتين وزمجرته كالرعد، تملكتنى فكرة أن هناك تناغمًا معينًا بين الكلبين والشخصين فى هذه الرحلة، تساءلت إذا ما كانت هذه الفكرة قد خطرت لـ"باركر" أيضًا، رغم أننى بالطبع لم أكن قد أخبرته باسمى الأول، ولم يكن من المحتمل أن يسألنى بشأن ذلك.

فى الهواء الثلجى برد الشاى بسرعة حتى صار من الممتع أن أشربه خلال نصف دقيقة، ولابد كذلك أن تبلعه سريعًا، لأنه بعد عدة لحظات سيتجمد باردًا كالحجر.

فى الليل أقام "باركر" معسكرًا وأشعل نارًا صغيرة لى لأجلس بجانبها، يدى ووجهى فى غاية الدفء بينما ظهرى قد تجمد بردًا، فى هذه الأثناء قام بقطع عدة أغصان من الصنوبر بالفأس. (أفترض أن "أنجوس" سيبكى على فقدانه هذه الفأس، فكم هو مقتر فى مثل هذا؛ كان يجب عليه أن يفكر فى ذلك قبل أن يتخلى عن ابنه). شذب الأغصان الكبيرة ، وأقام بها هيكل مأوى فى جانب من جذع شجرة كبيرة، أو إن كان ثمة شجرة مناسبة ساقطة على الأرض.. خلف طبقة من الجذور التى تم اقتلاعها من الأرض. قام بتجميع الأفرع المورقة الأصغر حجمًا على الأرض ورتبها مثل أشعة الشمس.. الأوراق للداخل فى المركز. أول مرة رأيتها ظننت أنها تشبه مذبحًا للقرابين، ثم اضطررت لإبعاد هذه الفكرة قبل أن تتمادى بى لأكثر من ذلك، ثم قام بتغطيته بالكامل بالقماش الخشن المغطى بالقار الذى أخذته من القبو، تم تثبيت القماش بالأرض بالمزيد من الأغصان وبالثلج الذى تمت تعبئته بالجاروف، حتى أصبحت الحوائط عالية تبث الدفء بداخل المأوى ، بالداخل قام بفرد قطعة أصغر من

القماش من الغصن الذى يمثل العمود الفقرى للخيمة، بحيث يكون هناك نوع من الستارة يفصل الفراغ إلى نصفين، كانت هذه هى لفتته الأخلاقية الوحيدة، وكنت ممتنة لذلك.

قام باركر بإقامة هذا البناء فى الوقت الذى قمت فيه بغلى الماء وتحضير وجبة من الشوفان واللحم المقدد مع بعض التوت المجفف، نسيت أن أحضر ملحًا.. لذا كان الطعام طعمه مقززًا، لكن من الرائع أن تأكل شيئًا ساخنًا وصلبًا وتشعر به وهو يلهب أسفل حلقى. ثم تتبعه بالمزيد من الشاى.. مع السكر.. ليمحى المذاق السيئ للطعام، بينما أتخيل المحادثة المتألقة التى كنت لأجريها إذا كان شخص آخر مرشدى ـ أو هل كان الشخص الذى يأسرنى؟ ثم.. ونحن متعبان (من ناحيتى على أى حال) زحفنا إلى داخل الخيمة وشق الكلبان طريقهما للداخل بعدنا، قبل أن يغلق "باركر" المدخل بصخرة.

زحفت فى الليلة الأولى بداخل النفق الصغير المظلم بقلب كالمطرقة، تكورت تحت أغطيتى، خائفة للغاية من أن أتحرك، منتظرة مصيرًا أسوأ من الموت، حبست أنفاسى.. مستمعة لـ "باركر" وهو يتقلب ويستدير ويتنفس بعيدًا عنى بأنشات. تدحرجت "لوسى" ـ أو تم دفعها ـ تحت الستارة لتتكور بجانبى، رحبت بامتنان بالجسد الصغير الدافئ بجانب جسدى، ثم بدا أن "باركر" توقف عن الحركة.. لكن جزءًا منه ـ أدركت هذا برعب ـ كان يضغط على الستارة القماشية ـ وبالتالى على ظهرى. لم يكن ثمة مساحة لأتحرك بعيدًا ـ كان وجهى يضغط تقريبًا على قماش الخيمة المغطى بالجليد (من الخارج) حيث أرقد. ظللت أنتظر حدوث شىء شنيع ـ كان النوم فى حالتى.. مستحيلا ـ ثم تدريجيًا.. شعرت بدفء خافت ينبعث منه. كانت عيناى مفتوحتين على وسعهما دون أن أرى.. أذناى مرهفتان لأخفت الأصوات، ولكن شيئًا لم يحدث. أعتقد أنه عند نقطة ما غرقت فى النعاس. أخيرًا.. رغم أننى احمررت خجلا من التفكير فى الأمر.. أدركت روعة هذا النظام الذى يحفظ نوعًا من الخصوصية بينما

يسمح لنا أن نتشارك فى الحرارة التى تنبعث من كلانا.

فى الصباح التالى استيقظت على ضوء خافت يتسرب من قماش الخيمة، كانت شرنقتى مكتومة وفارغة من الهواء وتفوح برائحة الكلاب. كانت الخيمة باردة.. لكنى كنت مندهشة عندما زحفت للوراء عائدة إلى ضوء النهار مدى الدفء مقارنة بالهواء بالخارج. كنت واثقة أن "باركر" كان يراقبنى وأنا أتحرك بلا لياقة على كوعىّ وركبتىّ.. شعرى مرسل منسدل على وجهى، ولكن حمداً لله لم يبتسم أو حتى يحدق كثيراً. ناولنى كوباً من الشاى بصمت، فوقفت وحاولت أن أهندم من مظهر شعرى المتشعث. متمنية لو كنت قد جلبت معى مرآة جيب. إنه من العجيب كيف يلح الكبرياء على المرء فى أقل الظروف ملاءمة لذلك. لكن بعد ذلك.. قلت لنفسى.. إن الكبرياء إحدى الصفات التى تميزنا عن الحيوانات، لذلك ربما علينا أن نفخر بها.

هذا المساء ـ مساؤنا الثالث ـ كنت مصرة على أن أبذل جهداً أكبر مع رفيقى الصامت. ونحن نتناول أوعية العصيدة.. بدأت أتكلم، شعرت أنه علىّ أن أمهد الأمور لكى أتحدث، وكنت أفكر فيما أقول لساعات.

"يجب أن أقول يا سيد "باركر" كم أنا ممتنة أنك اصطحبتنى، وكم أقدر لك جهدك الذى تبذله فى سبيل راحتى."

على ضوء النار البرتقالى.. كان وجهه فى قناع غامض من الظلال، رغم أن الظلام وارى الكدمات التى بخده كما خفف كثيراً من حدة ملامحه بعينى.

"أعرف أن الظروف غير مناسبة بشكل ما، لكنى على أمل أن يكون مازال بإمكاننا أن نكون رفيقين جيدين." بدت "رفيقين" الكلمة المناسبة، على ما أعتقد؛ ودية دون التلميح إلى الكثير من الدفء الشخصى.

رفع نظره الىّ.. وهو يمضغ قطعة صلبة من اللحم، اعتقدت أنه سيتابع صمته كما لو كان لا وجود لى أو أننى كائن لا اعتبار له مثل

مخلفات خنفساء، لكنه ابتلع الطعام وقال: "هل سمعته قط وهو يعزف على الكمان؟"

استغرق الأمر منى عدة لحظات لأدرك أنه يتحدث عن "لوران جاميه".

كنت خارج المقصورة الخشبية على النهر فى بلدتى، أستمع لهذا الصوت العذب الغريب وأرى "فرانسيس" يخرج من الباب مندفعًا.. والضحك قد غير ملامح وجهه ـ يشل حركتى طيف فقدانه.

لم أبك كثيرًا فى حياتى.. على قدر ما مررت به من مواقف، فكل إنسان يجابه فى حياته بعضًا من الصعوبات ـ بخاصة إذا ما بلغ المرء من السن مثلى و قد عبر محيطاً وفقد والديه وطفله، غير أنى أشعر بأنى قد جابهت فى حياتى صعوبات تفوق ما قد يواجهه الكثير من الناس، وإن كنت أرى أن البكاء لا يجدى، فهو يثير شفقة من يراك، مما يدفع به الى افتراض أن بيديه ربما مساعدتك ، وما ظننته من البداية ألا أحد يمكنه مساعدتك أبدًا، لم أبك على "فرانسيس" على مر الأيام التى مضت، فقد شغلنى أن أتوارى بالادعاءات والتمويه والتخطيط للكيفية التى يمكننى بها مساعدته ، و بدا البكاء إهدارًا لطاقة نفسى الضعيفة، ولست أدرى ما الذى تغير فى مجرى الأمور الآن، ليتدفق الدمع سيلا؛ تاركًا دفئه على خدى، أغمضت عينى وأدرت وجهى بعيدًا؛ آملة ألا يكون "باركر" قد لاحظ ما حدث، ليس الأمر وكأنه يمكنه المساعدة، إلا بإرشادى خلال الغابة كما يفعل بالفعل، كم أنا فى حرج؛ لأن الأمر يبدو وكأننى أنشد إنسانيته؛ ألقى بنفسى فى دثار رحمته ـ كما لو كان هناك ـ عندما يكون كل ما أعرفه أنه ليس لديه.

كنت أشعر طوال الدقائق التى بكيت فيها بمتعة البكاء؛ فالدموع تحنو على خدىّ وكأنها يد حانية .. تفرغ ما فى نفسى من الألم.

عندما فتحت عينى مرة أخرى كان "باركر" قد أعد الشاى، لم يطلب أى تفسير.

" سامحنى.. فابنى كان يحب موسيقاه."

ناولنى كوبًا قصديريًا، فرشفت منه والدهشة تتملكنى؛ فقد وضع مزيدًا من السكر هذه المرة فى كوبى؛ الترياق لكل العلل.. آهٍ لو كان بإمكان المرء تحلية آلامه بهذا اليسر.

"اعتاد أن يعزف لنا عندما كنا نعمل فى عصابة، كان كبارها يسمحون له بإحضار كمانه معه فى تنقلاتنا، كانوا يعرفون أن الأمر يستحق الوزن الزائد."

"هل عملت معه؟ لحساب الشركة؟"

تذكرت صورة "جاميه" مع مجموعة الرحالة وتفحصتها فى ذهنى لأرى إن كان "باركر" واحدًا منهم، أنا واثقة أننى كنت ألاحظ وجهًا كوجهه.. لكنى لا أتذكره.

"منذ زمن بعيد."

"أنت لا تبدو كواحد..... من رجال الشركة." ابتسمت سريعًا فى حال بدا ذلك إهانة.

"كان جدى إنجليزيًا، اسمه "ويليام باركر" كذلك، كان أصلاً من مكان يدعى "هيرفورد"."

كان يدخن غليونًا ؛ إنه واحد من اثنين بخاصة زوجى، فقد صادروا منه غليونه حين سُجِن

""هيرفورد؟" فى إنجلترا؟"

"هل تعرفينها؟"

"لا.. أظن أن بها كاتدرائية جميلة للغاية."

أومأ برأسه، كما لو كان وجود الكاتدرائية لا يحتاج إلى إثبات.

"وهل عرفته؟"

"لا .. مثل معظمهم.. لم يمكث طويلا، تزوج من جدتى وكانت من قبيلة "كرى" (من السكان الأصليين). لكنه عاد أدراجه إلى إنجلترا. أنجبا طفلا هو أبى، الذى ظل يعمل لحساب الشركة طوال حياته."

"ووالدتك؟"

"هاه..." ماجت على وجهه لمحة من العاطفة " تزوج والدى امرأة من قبيلة "موهاك" من إرسالية فرنسية"

"آه!" قلت وكأن هذا يفسر شيئًا ما، فالـ"إيروكوا" معروفون بقوة البنيان وضخامته، بالإضافة إلى (رغم أننى بالطبع لم أقل ذلك) طلعتهم الحسنة. "أنت من الـ"إيروكوا".. لذا فأنت طويل جدًا."

"أنا من الـ"موهاك".. وليس الـ" إيروكوا"." صحح لى ولكن بلطف.. دون أن يبدو منه أى تبرم

"اعتقدت أنهما الشىء نفسه."

"هل تعرفين ماذا تعنى كلمة "إيروكوا"؟"

أومأت برأسى نفيًا.

"إنها تعنى.. "الحيات ذات الجرس"، كان هذا اسم لقبهم به أعداؤهم."

"آسفة.. لم أكن أعلم بذلك."

التوى فمه فيما بدأت أدرك أنه ابتسامة. "كان من المفترض أن تكون كاثوليكية متعلمة فى الإرسالية، لكنها ظلت دائمًا واحدة من الـ "موهاك" فى المقام الأول".

كان ثمة دفء فى صوته.. حس فكاهى، بدت لى ابتسامته عبر لهب النار المضطرم، كم هو جميل أن ترى قاتلاً مشبوهًا يحب أمه!

كان الشاى قد أوشك على النفاد؛ بارد كالحجر بالطبع. أردت أن

أسأل عن موت "جاميه"، ولكن خشيت أن يعكر تساؤلى هذا الجو اللطيف، استدرت إليه - بدلاً من ذلك ـ قائلة:

"كيف حال وجهك الآن؟"

لمسه بأصبعين وقال: "لا يؤلمنى كثيرًا."

"جيد.. لقد زال الورم"، أعتقد أنه "ماكينلى".. فهو لا يبدو كشخص يستسلم بسهولة. " أظن أن أحدًا ما سيحاول تتبعنا."

خار "باركر" ... "حتى لو فعلوا،مع هذا الجليد.. سيفقدون أى أثر، كما أنه سيعيق من حركتهم ".

"لكن هل ستستطيع أن تقفى الآثار فى ظل هذا الثلج؟"

كان القلق يضطرد فى صدرى إزاء هذا، بينما كان الثلج يتساقط ـ ثلج متجمد ورقيق ـ فقد أقنعت نفسى بأن "فرانسيس" قد احتمى بقرية فى مكان ما، صدقت ذلك لأنى ما من سبيل أمامى سوى هذا.

"نعم."

ذكرت نفسى أنه صياد اعتاد أن يتتبع كائنات أضعف وأخف وقعًا خلال الجليد، ولكن بدا أن هذا ليس السبب الوحيد وراء ثقته هذه؛ تملكتى الإحساس مجددًا بأنه يعرف جيدًا إلى أين يؤدى الأثر.

جلسنا فى صمت لبرهة.. وأنا أحسد الإيقاع وطقس تدخين الغليون، الذى يجعل رجلا يبدو مشغول البال منغمسًا فى التفكير حتى وإن كان لا يفعل أو يفكر فى شىء أصلاً، لكنى شعرت بالمزيد من الارتياح عما كنت منذ بعض الوقت، فنحن فى طريقنا.. لفعل شىء لمساعدة "فرانسيس".

أنا أفعل شيئًا لأثبت كم أحبه وهذا يهم، لأننى أخشى أن يكون قد نسى.

***

أدرك "فرانسيس" عند نقطة ما أنه رهن الاعتقال، لم يخبره أحد بذلك فى واقع الأمر، غير أن ثمة شيئًا فى نظرات " بير " لـ "مودى" يدفع به لافتراض ذلك ، فـ"مودى" يعتقد بأنه قاتل "لوران"، وهذا ما يشعره بالضيق أكثر مما يشعر بالخوف أو الغضب، ولو كان " فرانسيس "مكان" مودى" لكان من الممكن أن يعتقد ذلك.

"لست أدرى" قال "مودى" وهو يدفع بنظارته الطبية لأعلى أنفه للمرة المائة. "لماذا لم تخبر أى شخص بما رأيت، كان من الممكن أن تخبر والدك، فهو رجل موضع احترام فى قريتكم."

قبض "فرانسيس" على لسانه موصدًا فمه دون خروج رده الحاد، بدت فكرة معقولة، تلك التى طرحها "مودى" لتوه، فتساءل ما إذا كان "مودى" قد التقى بوالده من قبل.

" ظننت أن القاتل سوف يفر إلى مسافة أبعد..كان تفكيرى حينها مشوشًا" .

لم تكن تأتى تلك الجملة فى موضعها الصحيح، أمال "دونالد" رأسه جانبًا، بدا وكأنه يحاول استيعاب نقطة "التفكير المشوش" ، وبدا أنه قد فشل نهاية .

جلس هذه المرة بصمت بجانب "مودى" شاب هجين قُدِّم لـ"فرانسيس" على أن اسمه "جاكوب"، لم يسمعه "فرانسيس" يتحدث قط، ظن أنه جاء كشاهد من شركة "هدسون باى". كان قد سمع ـ من "جاميه"ـ أن الشركة سترسل رجالاً إلى أرض "ربرتس لاند" لتطبيق نظام قضائى بدائى؛ فإذا ما اكتُشِف أمر قاتلٍ مثلا، فسيقبضون عليه ويقتلونه جزاء بما قتل، تساءل ما إذا كان "جاكوب" هو من سينفذ الحكم به، إذ كان جالسًا لمعظم الوقت مطرقًا برأسه للأرض وعيناه ترقبان"فرانسيس" باهتمام عن قصد، ربما يظن كلاهما أنه سيزل فى حديثه و يكشف عن فعلته.

استدار "مودى" هامسًا إلى "جاكوب" بشىء ما، فنهض "جاكوب" وغادر الغرفة، سحب "مودى" كرسيه مقتربًا من "فرانسيس"، مبتسمًا فى وجهه كأنه طفل صغير يحاول إقامة صداقة مع زملائه الأغراب.

"أود أن أريك شيئًا."

سحب قميصه لأعلى، وشده من بنطلونه حتى يرى "فرانسيس" ندبة الجرح ـ جلد طرى لامع.. أحمر على بشرة بيضاء. "هل ترى هذا؟ لقد غاص النصل ثلاثة إنشات للداخل، والرجل الذى فعل ذلك بى... كان يجلس هنا بالضبط."

نظر لـ"فرانسيس" فى عينيه. وشعر "فرانسيس" ـ رغم نفسه ـ بعينيه تتسعان من الدهشة.

"لكنى لا أعتقد أن هناك رجلاً فى هذه البلد يهتم بى أكثر مما يفعل هو."

ابتسم "فرانسيس" قليلاً متناسيًا أمره؛ فارتسمت على وجه "دونالد" ابتسامة عريضة.. مشجعًا إياه. "سوف تضحك عندما أخبرك ما السبب، كنا نلعب كرة الرجبى وقمت بطرحه أرضًا، وأمسكت بساقيه من تحته ـ حركة انزلاقية مسموح بها. فهاجمنى بالغريزة، فهو لم يلعب مباراة رجبى من قبل قط، لم أكن حتى أعرف أنه يحمل سكينًا."

ضحك "دونالد" فشعر "فرانسيس" بشرارة من الدفء تجتاحه كرد فعل لما يسمع ، بدا المشهد ـ للحظة ـ وكأنهما صديقان.

حشر "دونالد" قميصه فى بنطاله مرة أخرى.

"ما أعنيه أنه ـ حتى بين الأصدقاء ـ يمكن أن تنشب المعارك فى لحظة؛ يمكن أن ينقض عليك أحدهم فى لحظة غضب، دون أن يتعمد ذلك، وهو الذى قد يفتديك بحياته بعدها بلحظة كذلك، هل حدث الأمر بينكما ـ أنت وجاميه ـ على هذا النحو؟ تشاجرتما.. ربما كان ثملاً.. وربما كنت ثملاً.. ربما أغضبك، فانقضضت عليه دون تفكير..".

حدق "فرانسيس" في السقف: "إن كان إقرار العدل جل اهتمامك فلم لا تقتفى الآثار الأخرى؛ آثار القاتل؟ لابد أنك قد رأيتها، كان بإمكانى تتبعها، حتى لو لم تصدق قولى، لابد وأنك قد رأيتها".

وكأن ثمة شيئًا تحرر بداخله؛ فاستمرت الكلمات تتدفق وأخذ صوته يعلو أكثر فأكثر:

"كان بإمكانك أن تتبع الآثار فقط لتتأكد أنك وصلت لمكان ما بأمان."
مال "دونالد" للأمام.. كما لو كان يشعر بأنه سيصل لنتيجة ما في النهاية.

"لوكنت لأهرب؛ فماكان إلى هنا مهربى! كنت لأذهب إلى "تورنتو"، أو كنت لأركب قاربًا ..." أدار "فرانسيس" عينيه لأعلى ناظراً إلى السقف بشروخه وألواحه التى ألفها، علامات لا تفضى بمكنونها، "أين يمكننى أن أنفق المال هنا؟ من الجنون أن تظننى من قتله، ألا يمكنك أن ترى ذلك؟ إنه من الجنون حتى التفكير في الأمر..."

"ربما كان ذلك سبب مجيئك إلى هنا؛ فهو مكان غامض .. تختبئ هنا لفترة ثم تمضى ـ بعد أن تخبو نار القضية ـ إلى حيث تريد؛ هذا لو أردت رأيى".

حدق "فرانسيس" فيه ـ ما جدوى الحديث إلى هذا الأحمق الذى قرر مسبقًا ما حدث؟ أهكذا تجرى الأمور؟ إذا كان الأمر كذلك؛ فليكن ما يكن، تحجرت حنجرته وأحس مرارة السقم في فمه؛ يريد أن يصرخ..آهٍ لو يعرفون الحقيقة، هل سيصدقونه حينها؟ لو أخبرهم ماذا كان عليه الأمر حقيقةً؟".

لم يفعل سوى أن لسانه انطلق قائلاً: "تبًا لك ـ تبًا لك! اللعنة عليكم جميعًا." ثم أشاح وجهه إلى الحائط.

بينما كان "فرانسيس" يشيح بوجهه إلى الحائط، خطر ببال "دونالد "شيء ما؛ لقد تذكر أخيرًا ما الذى كان يلح عليه في الأيام القليلة الماضية ـ شيء يتعلق بـ "فرانسيس" الذى يذكره بفتى كان يعرفه في

المدرسة لكنه ـ مثل كل شخص آخرٌ ـ كان الجميع يتجنبه؛ فلربما كان ذلك هو الدافع ؛ يكاد الأمر يدهشه حقًا.

***

ثمة شيء غريب يختلج صدرى، فبينما كان الطقس مستقرًا؛ تابعنا سيرنا شمالاً خلال الغابة، أحسست بمتعة ترتادها نفسى؛ صدمت إزاء هذا الإحساس وشعرت بالذنب؛ إذ يجب أن أكون قلقة بشأن "فرانسيس"، لكنى لا أستطيع إنكار ذلك: طالما أننى لا أفكر فى الواقع فى كونه راقدًا مجروحًا ومتجمدًا، فأنا أكثر سعادة مما كنت منذ زمن طويل.

لم أفكر قط أنه يمكننى التوغل لهذا البعد فى البرية بدون خوف. ما كنت أكرهه دومًا فى الغابة ـ رغم أننى لم أخبر أى شخص بذلك قط ـ هو تشابهها الشديد. فقلما تتمايز الأشجار عن بعضها البعض ، خصوصًا فى مثل هذا الوقت من العام.. عندما يغطيها الجليد بأكملها؛ جاعلاً منها شواهد للحزن ويجعل من الغابة مسرحًا للكآبة خافتة أضواؤه يتخلله الظلام، فى سنواتنا الأولى فى "دوف ريفر" كان ثمة كابوس ينتابنى: أنا فى وسط الغابة، أتلفت حولى لأرى الطريق الذى أتيت منه، فأجد أن كل اتجاه يبدو تمامًا مثل الآخر، فيصيبنى الجزع.. أفقد القدرة على التمييز مابين الاتجاهات ، أدرك أننى تائهة.. ليس من مخرج من هذا التيه قط.

ربما كانت هذه أقصى درجات الإحساس التى أشعر عندها بأنه من المستحيل ـ أو ربما من عديم النفع ـ أن أخاف؛ فلم أكن خائفة من مرشدى الصموت طالما أنه لم يقتلنى بعد.. رغم وفرة الفرص، بدأت فى الوثوق فيه. تساءلت لوقت قصير لو كنت قد رفضت الذهاب معه، ما الذى كان سيحدث ـ هل كان سيجبرنى؟ لقد توقفت عن التساؤل. إن السير لمدة ثمانى ساعات خلال الثلج المتساقط لتوه طريقة جديدة للخروج من حيرة العقل، كان مسدس "أنجوس" معلقًا بزلاجة الكلاب وليست به ذخيرة، ومن ثم لم تكن الحماية التى يوفرها لنا كبيرة فى حالة وقوع هجوم مفاجئ. عندما سألت "باركر" إذا كان هذا من الحكمة فى شىء.. فضحك وقال إنه

ليس هناك دببة فى هذا الجزء من البلاد... ماذا عن الذئاب إذًا؟ أود أن أعرف.. نظر إلىّ وعيناه تموجان بالشفقة:

"الذئاب لا تهاجم البشر، قد تكون فضولية إزاءهم.. لكنها لن تهاجمك."

أخبرته عن هاتين الفتاتين المسكينتين اللتين أكلتهما الذئاب استمع دون مقاطعة ثم قال: "لقد سمعت بهما، ليس هناك من إشارة إلى أن الذئاب قد هاجمتهما."

"ولكن ليس هناك دليل على أنهما خُطفتا، ولم يتم العثور على أى شىء على الإطلاق."

"الذئاب لا تأكل الجثة كلها، لو كانت الذئاب هاجمتهما.. لكانت ثمة آثار - شظايا من العظام، والذئاب لن تأكل المعدة والأمعاء."

لم أكن أعرف تمامًا ماذا أقول ردًا على هذا، تساءلت إذا ما كان يعرف هذه التفاصيل المقيتة؛ لأنه رآها بالفعل.

استطرد قائلاً: "ولكن.. أنا لم أعرف ذئباً يهاجم دون أن يستفزه أحد، فالذئاب لم تهاجمنا؛ كانت هناك ذئاب تراقبنا فقط."

"هل تحاول إخافتى يا سيد "باركر"؟" قلت.. بابتسامة لامبالاة فيها؛ رغم أنه كان يتقدمنى ولا يمكنه رؤية تعبير وجهى.

"ليس هناك سبب لتخافى ثمة رد فعل للكلاب إن رأت ذئابًا حولنا.. فى المساء بخاصة. ونحن مازلنا هنا."

ألقى بهذا الكلام وراء ظهره، وكأنها ملاحظة عابرة حول الطقس، لكنى ظللت ألقى بنظرات خلفى.. لأرى إذا كان ثمة شىء يتبعنا، وكنت متوترة أكثر من ذى قبل مما دفع بى للاقتراب دومًا من الزلاجة.

بينما كان الضوء يتلاشى تدريجيًا.. شعرت بظلال تتحرك وتقترب من حولى، تمنيت لو أننى لم أثر الموضوع. جلست بقرب النار.. التعب لا يتغلب على تلف أعصابى. أفزع من كل حفيف للأغصان وسقوط جليد.

جمعت ثلجًا من أقرب مكان للنار وأعددت وجبة باهتمام أقل مما تستحق. بينما بقى "باركر" بعيدًا عن نظرى يجمع أفرع الأشجار، أبذل جهدًا لأبقى خياله بمرأى منى؛ فإذا ثار الكلبان نباحًا.. ارتعد خوفًا كما لو كنت أفر من جلدى.

مضت تلك الليلة.. وأنا أرقد مثل قطعة سجق فى الخيمة.. أيقظنى شىء ما، أستطيع الشعور بلون رمادى خافت يتسرب خلال قماش الخيمة لذلك فلابد أن الوقت قريب من الفجر.. أو أن هناك قمرًا مكتملاً يتجلى فى السماء؛ جاء صوت "باركر"ـ عن يمينى ـ ما اقتلع قلبى فزعًا من أم صدرى.

"سيدة "روس".. هل أنت مستيقظة؟"

"نعم".. همست أخيرًا.. علق قلبى فى حلقى.. وأنا أخال كل ألوان الرعب القابعة خلف أروقة الخيمة.

"إذا كان بإمكانك.. حركى رأسك إلى الفتحة وانظرى بالخارج، لا تنزعجى.. ليس هناك ما يخيف، قد يثير اهتمامك."

كان من السهل أن أدير نفسى لكى أنظر بالخارج.. حيث إنه بعد الليلة الأولى كنت قد نمت ورأسى تجاه الفتحة. وجدت أن "باركر" قد قام بعمل فجوة فى ناحيتى من الستارة ونظر خارجًا.

لم يكن الفجر قد أماط لثام الليل عن وجه السماء بعد.. لكن ثمة ضوءًا رماديًا مشبعًا بالبرودة ؛ ربما كان ينسال من القمر المتدثر بالسماء منعكسًا على الجليد مما مكن عينى من الرؤية خلال هذا الجو؛ على الرغم من العتمة التى كانت تتسلل خلال الأشجار، ثمة بقعة سوداء: إنها بقايا النار التى أشعلناها، بينما انتصب الكلبان مشدودة أنظارهما إلى شىء ما خلال الأشجار.. يعوى أحدهما؛ يدفعنى عواؤه إلى الفرار من تحت غطائى.

فى البداية لم أر شيئًا، دققت بناظرىَّ فلمحت شيئًا تحرك فى الظلال؛ ارتعدت شرايينى صدمة مما أرى ؛ ثمة شىء يشبه الكلب.. رمادى

اللون مقارنة بالجليد الذى يبدو لونه أكثر بياضًا، يراقب الكلبين.. العينان ومقدمة الوجه تميل للسواد قليلاً عن فرائه، كان الثلاثة على ضفتى الظلال يراقب كل منهم الآخر بكثير من الاهتمام؛ ليس بعداء على ما يبدو، لكن لم يبد أن أحدهم يريد أن يدير ظهره للآخر، سمعت عواء.. ربما من الذئب؛ بدا صغيرًا.. أصغر من "سيسكو".. بدا أنه بمفرده. راقبته وهو يقترب بضعة أقدام.. ثم يتراجع مرة أخرى.. مثل طفل خجول يريد الانضمام فى لعبة لكنه ليس واثقًا من حسن القبول به فيها.

تواصل المشهد مابين الكلبين والذئب لعشر دقائق فى صمت مطبق ؛ نسيت الخوف، أدركت أن "باركر" يقف إلى جانبى يرقب المشهد باهتمام أيضًا ؛ لم أدر رأسى باتجاهه، فقد كان قريبًا لدرجة تمكننى من شم رائحته، أصبحت واعية بهذا تدريجيًا فحسب؛ بطبيعة الحال الهواء بارد جدًا فيقضى على أية رائحة، الشىء الذى كنت ممتنة له.. لطالما فكرت فى ذلك. ولكن بينما أشاهد الحيوانات.. شىء ما فاح برائحة الحياة ـ ليست رائحة الكلاب، أو حتى العرق، شىء أشبه بأوراق الشجر، رائحة حادة شذية كتلك التى تفوح بداخل صوبة نباتات.. رطبة ونامية. شعرت بوخزة مثل.... وكانت هذه هى الذكرى: ذكرى الصوبة فى المصح العقلى العام حيث اعتدنا زراعة الطماطم، وكيف أن رائحتها كانت تمامًا مثل دكتور "واطسون" عندما كنت أضغط وجهى فى قميصه أو على بشرته. لم أعرف رجلاً قط يمكن أن تكون له مثل تلك الرائحة، بخلاف التبغ والكولونيا مثل والدى، أو الأكثر سوءًا من إفرازات الجسد والملابس غير المغسولة.. مثل معظم العاملين.

الشىء الوحيد الذى يمكن أن تكون رائحته مثل "واطسون" وصوبة النباتات فى هذه الغابة المتجمدة هى "باركر" نفسه.

عند هذه النقطة.. لم أستطع منع نفسى من إدارة رأسى قليلاً تجاهه واستنشاق رائحته، لأحصل على تركيز أعلى من الذكرى.. التى كانت مغرية (وصعبة المنال) لا تتخللها بهجة على الإطلاق. حاولت أن أفعلها خفية،

لكنى شعرت أنه لاحظ، وكان علىَّ أن أرفع عينى لأكتشف الأمر، ثم لأجده ينظر من على بعد بضع بوصات. فزعت متراجعة.. ثم ابتسمت لأغطى إحراجى. أعدت نظرى إلى الكلبين.. ولكن الذئب كان قد اختفى مثل شبح رمادى، والآن لا يمكننى الجزم إذا ما كان قد ذهب لتوه.. أو إنه ذهب منذ عدة دقائق مضت.

"كان هذا ذئبًا."

"ألست خائفة؟!".

ألقيت نظرة إليه مرة أخرى.. لأرى إذا ما كان يثير غيظى، لكنه انسحب إلى ناحيته من الخيمة.

"شكرًا لك." قلت.. أحسست بالضيق من نفسى، لا يبدو الأمر، وكأنه رتب زيارة الذئب خصيصًا من أجلى؛ لذلك كان ما قلته سخيفًا. نظرت إلى الكلبين مجددًا.. مازال "سيسكو" يحدق عن عمد فى الأشجار فى أثر الدخيل، أما "لوسى" فكانت تنظر إلىّ فارغة فاها يتدلى لسانها كأنما كانت تضحك منى .

***

لم تجد جماعات البحث أى أثر لهروب السجين، بينما خفت حدة الهستيريا التى ثارت حول اختفاء السيدة "روس" على إثر صبر زوجها وجلده، كان ثمة افتراض شاع بأنها ستلتقى "مودى" وابنها، لم يبد على "ماكينلى" أنه يتقبل أى من قسمى هذا الافتراض، فكان يقبع فى حجرته يفكر معظم اليوم. ثلاثة أيام تقريبًا بعد الاختفاء و"ماكينلى" مازال يسكن منزل آل "نوكس" مثل روح ثائرة، كان يغلى بمرارة عاجزة لرجل كان لديه ما يبحث عنه فى قبضته فقط ليفقده مجددًا.

لم تكن أسرة "نوكس" تذكره بالاسم. كما لو كان تظاهرهم بأنه ليس موجودًا سيجعله يرحل بعيدًا. اقترح "نوكس" عليه أن يعود إلى "فردت إدجار"، وينتظر أخبارًا من "مودى".. فرفض "ماكينلى"، إذ كان مصممًا على

البقاء بينما تبعث رسائل بأوصاف الهارب، إنه مهووس بأداء واجبه.. أو أنه يدعى فعل هذا؛ فـ"نوكس" لم يعد واثقًا.

الليلة بعد العشاء.. بدأ "ماكينلى" يتحدث عن الحظ، عاد إلى واحد من موضوعاته المفضلة: أبطال الشركة، وكان يمتع "نوكس" بقصة معروفة بالفعل عن "جيمس ستيوارت".. الذى دفع برجاله خلال الثلج فى الشتاء ليقوموا بتوصيل إمدادات إلى مركز تجارى.. محققًا رحلة مدهشة فى طقس سيئ للغاية. كان "ماكينلى" ثملاً؛ يلمع الخبث فى عينيه ما أزعج "نوكس"، إذا ما كان ثملاً.. فليس ذلك من أثر الخمر التى يقدمها له "نوكس".. لابد أنه شرب فى حجرته.

"لكن هل تعرف؟" تحدث "ماكينلى" إلى "نوكس"؛ وعيناه تحدقان بالثلج الدقيق المتساقط بالخارج، والذى يبدو أنه يأخذه على محمل الإهانة الشخصية. كان صوته ناعمًا كذلك، كان يحاول جهده ألا يرفع من صوته.. يحاول ألا يكون رجلاً ضئيلاً، رغم أن "نوكس" يعرف أنه سلوك مصطنع.. فالنتيجة لا تزال طى الخفاء.

"هل تعرف ما فعلوه به ـ برجل حسن مثل هذا؟ كل هذا بسبب القليل من سوء الحظ؟ لقد كان واحدًا من صفوة الرجال، خادمًا مخلصًا للشركة.. تخلى عن كل شىء لديه، كان حريًا به أن يدير المجموعة كلها الآن، لكنهم دفعوا به جانبًا إلى مكان موحش فى وسط المجهول ـ لا فراء على الإطلاق.. أرض جرداء. كل هذا بسبب القليل من سوء الحظ، وهذا ليس بالأمر الصحيح.. ليس بالأمر الصحيح.. أليس كذلك؟"

" لست متأكدًا من أن الامر كذلك. ؛ لم يكن يجب على " نوكس " أن يستقبل ـ على غير رغبة " ماكينلى" كضيف فى منزله، ولكن ليس هناك من يشكو له بشأن ذلك، لو كان فقط "ماكينلى" قد ذهب خلف فتى آل "روس" بنفسه وترك "مودى" هنا، لكان لـ "سوزانا" أن تكون أسعد أيضًا.

"أنا لم أترك لهم فرصة ليدفعوا بى جانبًا.. لم يفعلوا ذلك بى."

"أنا واثق أن هذا لن يحدث، لا يبدو الأمر خطأ منك."

"لكن كيف لى أن أعرف أنهم أداروا العملية على هذا النحو؟ أنا مسئول عن القانون والنظام فى قلعتى والأماكن المحيطة بها. ربما.. لو كتبتَ خطابًا... واضعًا الحقائق.. وما إلى ذلك..." حدق "ماكينلى" فى "نوكس" بعينين واسعتين وكأن هذه الفكرة قد واتته تواً.

أخذ " نوكس " نفسًا عميقًا؛ إذ أنه لا يصدق هذا الرجل فى شىء، متسائلاً إن كان من الممكن لـ"ماكينلى" أن يطلب مثل هذا الطلب، لكنه فكر أن هذا فى غاية الوقاحة حتى بالنسبة له. منح نفسه عدة لحظات ليضع إجابة.

"إذا كنت لأكتب مثل هذا الخطاب يا سيد "ماكينلى"، فسيكون من العدل إذا ما وضعت كل الحقائق كما أعرفها، لكى أتجنب الخلط." أدار نظرته إلى "ماكينلى".. محتفظًا بوجه هادئ وبلا أى تعبيرات.

"حسنًا.. بالطبع.." بدأ "ماكينلى" ثم توقف.. جحظت عيناه "ماذا تعنى؟ ما الذى قاله "آدم"؟"

""آدم" لم يقل أى شىء.. أنا رأيت بعينى كيف تنفذ فكرتك من العدالة."

حدق "ماكينلى" فيه بغضب شديد.. لكن لم يقل المزيد، شعر "نوكس" برضا مع الشعور بالذنب عند إسكاته.

عندما غادر "نوكس" المنزل فى النهاية،اجتمع الجليد والسحب ليتبدى فى أثرهما ضوء غريب.. شحوب فى ساعة الغسق يجعل الجو يبدو أكثر برودة. رغم أن النهار قصير والشمس منخفضة.. فهناك شعور بالمؤامرة فى الهواء ـ ربما تبشر بعرض من "هالات الضوء" ـ يضع نوعًا من الخفة فى خطواته. من الغريب أن يشعر بعدم القلق عندما يحارب العار بهذه الطريقة.

فتح "توماس ستاروك" بابه وسمح بتحرير هواء مكتوم كثيف ملىء بالدخان فى الطرقة،من الواضح أنه رجل يؤمن أن الهواء النقى يجب أن يبقى خارج الأبواب.

"أعتقد أن أحدًا لن يزعجنا الليلة، فهناك بعض المشاحنات المنزلية ومضيفاى مشغولان تقريبًا."

لم يكن "نوكس" واثقًا من الطريقة التى يرد بها على هذا، لكنه ليس مستعدًا لمواجهة "جون سكوت" عندما يكون ثملاً. ربما من الأفضل أن يخرج حنقه وغضبه على زوجته ويبقى وجهه للعامة على أنه مواطن صالح. شعر بالذنب لمثل هذه الفكرة.. فدفعها بعيدًا عن ذهنه.

"لقد تلقيت رسالتك وأنا أشعر بالفضول لمعرفة ما الذى لديك لتقوله." ذكر نفسه أن يكون فى موقع دفاعى.. حتى مع "ستاروك".

"كنت أفكر فى "جاميه" سابقًا عندما كنا نبحث عن شاطئ البحيرة." صب "ستاروك" كأسين من الويسكى وأخذ يهز السائل فى كأسه. "وكنت أفكر فى رجل اعتدت أن أعرفه عندما كنت باحثًا،اسمه "كاهون وس".

انتظر "نوكس".

"لم أكن واثقًا من إثارة هذا الموضوع... سألت نفسى لماذا قد يقتل تاجر مثل "جاميه" ـ لأى غرض؟ وأنا أشك... رغم أنه لا تأكيد بالطبع ـ أنه قد يكون بسبب قطعة العظم."

"قطعة العظم التى تحدثت عنها قبلاً؟"

"نعم.. لقد أخبرتك أننى أحتاجها من أجل بعض الأبحاث التى أعمل عليها فى الوقت الحالى، وربما خطر على ذهنك أنه إذا كنت مستعدًا لإزعاج نفسى للحصول على مثل هذا الشىء، فالآخرون قد يكونون مستعدين للوصول إلى ما هو أبعد أيضا. إلا أن... اللعنة.. حتى أنا لا أعرف إذا ما كان الأمر مثلما أفكر." بدا وجهه فى ضوء المصباح جافًا وهرمًا.

"ما الذى تفكر به؟"

ابتلع "ستاروك" محتويات كأسه فتقلص وجهه كما لو كان دواءً.

"سيبدو ذلك لامعقولا، ولكن... حسنًا.. أعتقد أنها قد تكون دليلاً على وجود لغة قديمة مكتوبة للهنود."

كانت أول رغبة لـ"نوكس" عند سماعه ذلك أن يضحك. إن الأمر بالفعل يبدو سخيفًا ولامعقولا ـ قصة مغامرات للصبية، إنه لم يسمع قط أى شىء بمثل هذه السخافة.

"ما الذى يجعلك تؤمن بذلك؟" لم يفكر قط أن "ستاروك" أحمق، على الرغم من عيوبه، ربما كان مخطئًا وهذا هو عيب الرجل.. والسبب وراء ارتدائه ـ وهو فى الستينات من عمره ـ معطفًا من طراز قديم بأساور منسلة.

"أستطيع أن أرى أنك تعتقد أن الأمر لا معقول. أنا عندى مبررات،فلقد درست المسألة لأكثر من عام."

"لكن الكل يعلم أنه ليس هناك وجود لمثل هذا الشىء!" لم يستطع "نوكس" منع نفسه: "ليس هناك ولو ذرة دليل، لو كان هناك وجود لهذه الكتابة.. لكانت وُجدت آثار... لكانت هناك بعض الوثائق أو السجلات، أو دليل قصصى... ولكن ليس هناك شىء."

نظر له "ستاروك" بصمت، وضع "نوكس" نبرة لكسب وده،"أنا آسف إذا بدا كلامى محبطًا، لكن ما تقوله... خيالى."

"ربما، ولكن تبقى الحقيقة أن بعض الأشخاص يعتقدون أن هذا ممكنًا، هل تقر بأن ذلك حقيقى؟"

"نعم.. نعم بالطبع قد يكونون كذلك."

"وإذا كنت أنا أبحث عنها، فقد يكون هناك آخرون يبحثون عنها أيضًا."

"هذا أيضًا محتمل."

"حسنًا.. إذًا.. ما كنت أفكر فيه هو: الرجل الذى ذكرته.. "كاهون وس" .. فهو صحفى نوعًا ما وكاتب.. هندى.. لكنه موهوب.. متعلم.. ذكى.. قادر على صياغة جمل جميلة وما إلى ذلك. لطالما اعتقدت أنه قد يكون هناك عرق أبيض فيه، لكنى لم أسأل قط. لقد كان فخورًا بتطرف.. مهووسًا بفكرة أن الهنود لهم حضارة عظيمة من صنعهم.. وهى مساوية فى كل النواحى لحضارة الرجل الأبيض. لقد كان مخلصًا بنفس طريقة بعض رجال الدين،كان يعتقد أننى متعاطف.. ولقد كنت إلى حد ما،وكان هو غير مستقر ورجل فقير، اعتاد أن يشرب عندما لا يحقق نوع الضربة التى كان يأمل فى تحقيقها."

"إلى ماذا تشير؟"

"إنه.. أو شخص مثله.. يؤمن بحرارة بالأمة والحضارة الهندية، سيفعل أى شىء تقريبًا ليحصل على قطعة دليل مثل هذه."

"وهل كان هذا الرجل يعرف "جاميه"؟"

بدا "ستاروك" متفاجئًا قليلاً: "أنا حقًا لا أعرف، ولكن يحدث أن الناس تسمع بأشياء.. ألا يفعلون؟ ـ أنت لن تكون بحاجة بالضرورة لمعرفة شخص ما لتريد ما لديه. أنا لم أكن أعرف "جاميه" بنفسى حتى سمعته يتحدث عن هذه القطعة فى مقهى "تورنتو"،فهو لم يكن كتومًا."

حرك "نوكس" كتفيه، كان يتساءل إذا ما كان "ستاروك" قد أخرجه من منزله ليخبره بهذه القصة الغريبة حقًا. قال: "وأين يعيش هذا الـ"كاهونوس" الآن؟"

"ليس باستطاعتى إخبارك.. آخر مرة رأيته فيها كان منذ سنوات، كنت قد عرفته عندما كان مسافرًا حول شبه الجزيرة.. يكتب مقالات. كما قلت.. عقر الخمر واختفى عن الأنظار، سمعت أنه ذهب خارج الحدود.. ولكن هذا كل شىء."

"هل تخبرنى بذلك لأنك تعتقد أنه قد يكون منتهيًا؟ إن هذه أرض هشة.. أليس كذلك؟"

نظر "ستاروك" إلى كأسه الفارغة، كان الغبار قد سقط بالفعل على آثار الشراب.. فجعله سميكًا.

"تحدث "كاهون وس" ذات مرة عن لغة قديمة مكتوبة.. أعنى احتمالية وجود واحدة، ولم أكن أنا قد سمعت عن مثل هذا الشىء." رسم "ستاروك" ابتسامة باردة على وجهه.. ضيقة على ركنى فمه. "بالطبع.. اعتقدت أنه مجنون." حرك كتفيه من إيماءة وجدها "نوكس" مثيرة للشفقة.

"فيما بعد جاءت هذه القطعة فى طريقى. فتذكرت ما قاله، ربما أخبرك بهذا بشكل شخصى،لكنى شعرت أنك يجب أن تعلم كل الحقائق. ربما لا تكون مهمة.. ولكنى أخبرك بما أعرف فحسب، أنا لا أريد أن يهدر دم رجل ولا يعاقب الفاعل لأننى لم أتكلم."

هبط "نوكس" بعينيه لأسفل، شاعرًا بإحساس مألوف من السخف يجتاحه. "إنه من المؤسف أنك لم تبح بهذه المعلومة قبلاً،قبل أن يهرب السجين. ربما كنت قادرًا على التعرف عليه."

"حقًا ؟ هل تعتقد...؟ حسنًا.. حسنًا."

لم يصدق "نوكس" ولو للحظة نظرة الإدراك المفاجئ على وجه "ستاروك"، فى الواقع لقد بدأ يشك فى القصة بأكملها، ربما لدى "ستاروك" حافز ليحول الاهتمام عودة إلى الأشخاص الذين ولدوا من عرقين مختلفين، ليحول الاهتمام عن حضوره هو. فى الحقيقة.. كلما فكر فى الأمر.. كلما أصبحت القصة أكثر سخافة. تساءل "نوكس" إذا ما كانت هناك أبدًا قطعة عظم؛ لم يأت أحد على ذكرها بخلاف "ستاروك".

"حسنًا.. شكرًا لك على إخبارى يا سيد "ستاروك"، قد يكون هذا مفيدًا،سوف أناقش الأمر مع السيد "ماكينلى"."

فرد "ستاروك" يديه قائلا: "أنا لا أريد إلاَّ المساعدة فى إحضار القاتل للعدالة."

"بالطبع".

"هناك شيء آخر..."

فكر "نوكس".. أهـا.. الآن جئنا إلى المسألة الحقيقية.

"كنت أتساءل إذا كان بإمكانك إقراضى قليلا من النقود القذرة؟"

على إثر ذلك.. عندما كان "نوكس" يمشى، وهو يشعر بالبرد عائدًا إلى منزله، تذكر فجأة بوضوح رهيب وحاد ما قاله لـ "ماكينلى" فى وقت باكر: "أنا رأيت بعينى كيف تنفذ فكرتك عن العدالة".

كان قد أخبرنى "ماكينلى" (أو على الأقل سمح له بتكوين انطباع) أنه لم يعد ليرى السجين بعد تحريات "ماكينلى"، يمكنه فقط أن يأمل أن "ماكينلى" كان ثملا جدًا أو متوترًا جدًا بحيث لا يلاحظ.

أمل واهٍ.. مع أخذ الظروف فى الاعتبار.

***

تحدث "باركر" على الإفطار عن زائر الليل، كان الذئب الذى شاهداه أنثى صغيرة.. عمرها عامان على الأرجح ولم يكتمل نموها بعد. يعتقد هو أنها كانت تتبعنا لليومين بدافع الفضول.. وتبقى خارج مجال الرؤية. من المحتمل أن تكون أرادت أن تتزاوج مع "سيسكو"، وقد تكون فى الواقع فعلت ذلك.

"هل كانت لتتبعنا إن لم يكن هناك كلاب؟" سألت.

حرك "باركر" كتفيه وقال: "ربما".

"كيف عرفت أنها ستكون هناك ليلة أمس؟"

"لم أكن أعرف،كان محتملا."

"أنا مسرورة لأنك أخبرتنى."

"منذ عدة سنوات... " توقف "باركر" كما لو كان متفاجئًا من نفسه لتطوعه بأى شىء، انتظرت أنا.

"منذ عدة سنوات وجدت صغير ذئب متروكًا افترضت أن أمه قد قُتلت، أو أنها قد طردت خارج القطيع. حاولت أن أربيه ككلب. لفترة كان سعيدًا.. كان مثل حيوان أليف.. أنت تعرفين.... محب، اعتاد أن يلعق يدى ويتقلب.. يريد أن يلعب، لكنه بعد ذلك كبر وتوقف عن اللعب، تذكر أنه ذئب.. وليس حيوانًا أليفًا. كان يحدق بعيدًا ثم ذات يوم رحل. إن قبيلة "تشيباوا" يقولون كلمة لمثل هذا الموقف ـ إنها تعنى "مرض طول التفكير"، فأنت لا تستطيع ترويض حيوان شرس.. لأنه سيتذكر دومًا من أين جاء.. ويرغب فى العودة."

حاولت قدر استطاعتى تخيل "باركر" الصغير وهو يلعب مع صغير الذئب.. فلم أستطع.

لأربعة أيام بقيت السماء رمادية ومنخفضة.. الهواء رطب وكأننا نمشى وسط سحاب كثيف. كنا نسافر لأعلى تدريجيًا ولكن بشكل ملحوظ، طوال الوقت تتحرك خلال الغابة.. رغم أن الأشجار تتغير؛ فتصبح أقصر.. كان هناك الكثير من الصنوبر والصفصاف.. والأرز أقل. ولكن الآن قلت كثافة الغابة.. تقلصت الأشجار إلى نباتات خشنة متفرقة، ووصلنا ـ غير مصدقين ـ إلى الحافة.. إلى نهاية الغابة التى بدت بلا نهاية.

خرجنا إلى سهل واسع بينما تخترق الشمس طريقها للسحاب وتغرق العالم بنورها. كنا نقف على حافة بحر أبيض تمشى عليه أمواج من الثلج إلى الأفق.. شمالاً وغربًا.. وشرقًا،لم أكن رأيت مثل هذه المساحات منذ وقفت على شواطئ خليج "جوريا"، وقد جعلنى ذلك أشعر بالدوار. خلفنا.. الغابة.. وأمامنا دولة أخرى: واحدة لم أرها من قبل.. تتألق.. بيضاء وكبيرة تحت الشمس. كانت درجة الحرارة قد انخفضت عدة درجات، لم يكن هناك رياح ولكن البرودة مثل يد ترقد بلطف ولكن بقوة عارمة على الجليد.. مخبرة إياه أن يبقى.

شعرت بالفزع المتزايد الذى شعرت به عندما واجهت لأول مرة الغابة العذراء لـ "دوف ريفر": إن هذا كبير جدًا.. وفارغ جدًا بالنسبة للبشر، وإذا خاطرنا بدخول هذا السهل فسوف نصبح هشين مثل نمل على طبق العشاء. بالفعل ليس هناك مكان للاختباء. حاولت مقاومة رغبتى فى التوجه عائدة تحت غطاء الأشجار بينما أخطو وراء خطوات "باركر" بعيدًا عن الغابة المألوفة الودودة، شعرت بتفاهم مفاجئ مع تلك الحيوانات التى تحفر داخل الجليد فى الشتاء.. لتعيش تحت الأرض فى أنفاق.

فى الواقع لم يكن السهل مستويًا.. لكنه ملىء بأكوام وأكواز من الثلج الذى يخفى الشجيرات والتلال الصغيرة والصخور. أخبرنى "باركر" أن السهل بأكمله عبارة عن مستنقع، وأن عبوره قبل أن يتجمد يعد جحيمًا، وأشار إلى حفرة ضخمة؛ حيث ادعى أن شخصًا قد غاص فيها: واحد من الرجال الذين نتبعهم. بالنسبة لنا.. كان من الواضح أن الأمر سهل، وحتى مع ذلك.. كانت الأرض وعرة جدًا حتى أننى بعد ساعتين لم يكن بإمكانى تحريك قدمى لخطوة أخرى. جززت على أسنانى وركزت على رفع قدم بعد الأخرى، لكنى تخلفت أبعد فأبعد، فتوقف "باركر" وانتظر أن ألحق به.

كنت غاضبة.. فهذا فى غاية الصعوبة، تجمدت عيناى وأذناى.. لكن تحت ملابسى كنت أتصبب عرقًا، أردت ملجأ وراحة.. فأنا عطشى جدًا لدرجة أننى أشعر بلسانى مثل أسفنجة جافة فى فمى.

"لا أستطيع!" صرخت من حيث أقف.

خطى "باركر" عائدًا تجاهى.

"لا أستطيع الاستمرار.. أحتاج للراحة."

"لم نجتز ما يكفى لنأخذ راحة، وهذا الطقس قد يتغير."

"أنا لا أهتم.. لا أستطيع التحرك." غصت إلى ركبتى فى الثلج.. كاعتراض، بدا من الرائع ألا أقف على قدمى فأغلقت عينى فى سعادة.

"إذًا سيكون عليك البقاء هناك."

لم يتغير صوت "باركر" ولا وجهه،لكنه استدار ومشى بعيدًا.. لايمكن أن يكون أنه يعنى ذلك.. فكرت فى ذلك بينما وصل هو للزلاجة والكلبان، اللذان كانا يعبثان ويعقدان نفسيهما فى لجامهما. لم يقم حتى بالنظر للخلف، وضرب الكلبين بالسوط فبدءا فى التحرك.

كنت فى قمة غضبى.. إنه على استعداد للابتعاد وتركى هنا،كافحت للقيام على قدمى، وبدأت أصبرهما بألم على اتباع الزلاجة.. ودموع الحنق فى عينى.

دفعنى غضبى لساعة أخرى، وحينها كنت متعبة جدًا بحيث لم يعد لدى أى مشاعر على الإطلاق. بعد ذلك ـ أخيرًا ـ توقف "باركر"، أعد الشاى، وأعاد وضع الحقائب على الزلاجة، ثم أشار إلىّ لأجلس عليها، كان قد رتبها لتكون مسند ظهر خشنًا، كنت متأثرة الآن تمامًا بنفس درجة غضبى قبلاً.

"هل ستستطيع الكلاب فعل ذلك؟"

"نحن نستطيع." قال.. لكنى لم أفهم ماذا يعنى حتى ربط حبل آخر إلى الزلاجة ليساعد الكلبين، قام بوضع حلقة الجلد حول جبهته ومال فى وضع السحب.. صارخًا فى الكلبين.. حتى تحررت الزلاجة من حيث كانت متجمدة فى الثلج. قام بالشد وضغط على نفسه ثم سار على المسار نفسه السريع كالسابق. كنت أشعر بالعار من كونى جزءًا من حمله، من أن أجعل شيئًا قريبًا بالفعل من حدود اللامحتمل أكثر صعوبة، إنه لم يشك.. فحاولت ألا أشكو أنا أيضًا.. لكن لا يمكننى القول إننى كنت ناجحة تمامًا.

كنت أتشبث بالزلاجة وهى تهتز وتتمايل فوق أكوام الثلج، وأدركت أن السهل جميل، شدة الضوء جعلت عينى تدمعان، فغشيت الرؤية.. ليس فقط جسديًا.. ولكن كنت أشعر برهبة بهذا النقاء الشاسع.. الفارغ. مررنا بشجيرات تحتوى أغصانها على شبكات عنكبوت من الثلج وكتل ثلجية

تمتص ضوء الشمس ثم تفرقه على شكل قوس قزح. السماء مطلية بلون أزرق معدنى لامع؛ ليس هناك أى أثر لهبوب رياح، وليس هناك صوت على الإطلاق.. من أى نوع.. كان الصمت ساحقًا.

على عكس بعض الأشخاص.. لم أشعر بالحرية قط فى البرية.. فالفضاء يجعلنى أختنق، أدركت أعراضًا لهستيريا فى مراحلها الأولى وحاولت دفعها بعيدًا، أجبرت نفسى على التفكير فى الليل المظلم.. والراحة من هذه الرؤية التى تعمى البصر، أجبرت نفسى على التفكير فى مدى ضآلتى وعدم أهميتى.. كم أنا تحت مستوى الملاحظة، لطالما وجدت الأمر مريحًا بخلاف التأمل فى عدم أهمية ذاتى،لأنه لو كنت مهملة.. فلماذا قد يضطهدنى أى أحد؟

عرفت ذات مرة رجلاً قد كلمه الرب، بالطبع كان هناك الكثير من أمثال هؤلاء الرجال والنساء فى المصح العقلى الذى عشت فيه ـ لدرجة أننى اعتدت أن أتخيل أنه لو وصل غريب من أرض أخرى إلى بابنا.. فسوف يعتقد أنه قد تعثر صدفة بالمكان حيث يجتمع كل الأشخاص المقدسين فى مجتمعنا. كان "ماثيو سمارت" معذبًا من كثرة المحادثة، كان مهندسًا قد اقتنع بفكرة أن قوة البخار عظيمة للغاية لدرجة أنها يمكن أن تنقذ العالم من الخطايا. هو نفسه قد كُلف من قبل الله بمهمة بناء مثل هذا المحرك، وقد وضع موارد كبيرة للبداية فى هذا المشروع. وعندما نفدت منه النقود.. انكشفت خطته وجنونه،ولكن أخذه بعيدًا عن محركه كان أكثر تعذيبًا لا يمكنه احتماله، لأنه اعتقد أنه بفضل توقفه عن العمل المجبر عليه.. فسوف نذهب جميعًا للجحيم. كان يعرف مدى أهميته فى التخطيط للأشياء وكان يمسك كل منا فى الأرض ويتوسل إلينا أن نساعده على الهرب.. لكى يتمكن من استكمال عمله الحيوى. وسط تلك الأرواح المعذبة ـ تقريبًا كلهم ينتحبون على بعض الآلام الخاصة ـ كانت توسلاته الأكثر تحطيمًا للقلب التى سمعتها على الإطلاق. مرة أو مرتين جاءنى إغراء بأن أغرس حقنة مملوءة فيه، لأخرجه من مأساته

(لكن لم يكن الإغراء غير محتمل بالطبع)، هذا هو عذاب معرفة أهميتك الذاتية.

صاح "باركر" للكلبين وكنا قد وصلنا إلى جزء وعر، مازلنا فى مكان مجهول.. فقط الآن لم تعد الغابة على مرمىٰ البصر ولم أعد واثقة من إمكانية تحديد مكانها بعد الآن.

عاد ناحيتى قائلاً: "أعتقد أننى أعرف أين ذهبوا."

نظرت حولى فلم أر شيئًا بالطبع، امتد السهل فى كل اتجاه، إن الأمر أشبه فعلاً بكونك فى البحر، فبدون شمس.. لم يكن ليكون لدى أية فكرة عن الاتجاه الذى نحن مسافران فيه.

"هناك" أشار فى اتجاه بعيدًا عن الشمس التى كانت تغرب على يسارنا،"إنه مركز تجارى للشركة يدعى "هانوفر هاوس".. على بعد عدة أيام،الأثر يقود إلى هذا الطريق.. هناك مكان يدعى "هيميانفانجر" ـ قرية متدينة نوعًا ما.. أجانب.. سويديون على ما أعتقد."

تبعت أصبعه الذى يشير به ودققت النظر فى المسافة الخاطفة للبصر إلى الغرب،مفكرة فى المصح العقلى ونزلائه المتدينين المثيرين للمتاعب.

"إذًا.."فرانسيس"....؟" استطعت بالكاد منح صوت لأملى.. الذى يتشبث بحلقى:

"يجب أن تكون هناك بحلول المساء."

"أوه..."

لم أستطع قول المزيد.. تحسبًا لتدمير هذه الهدية الرائعة من الحظ. فى ضوء الشمس لاحظت أن شعر "باركر" ليس أسود تمامًا، لكن فيه لمحات من لون بنى داكن وكستنائى.. وليس هناك أثر لأى شعر أبيض.

صرخ فى الكلبين مجددًا.. صرخة جامحة تردد صداها فى أرجاء السهل الفارغ مثل صرخة حيوان، وبها انطلق بحماس باللجام، والزلاجة

اندفعت من حالة الثبات، اهتزت أنفاسى خارجة من جسدى.. لكنى لم أهتم.

كنت أقدم الشكر.. على طريقتى.

***

قرر "إبسن" أن زوجته "ميريت" تشك فى شىء ما، فاقترح أن يتوقفا عن اللقاء لفترة.. حتى تصبح الأمور أهدأ. قامت "لاين" بمهامها وهى تستشيط غضبًا، تركل الدجاج عندما يمر من تحت قدميها، تغرس إبرتها فى الألحفة بعنف.. وتسحب الخيط بشكل ضيق جدًا فتطوى الغرز على بعضها. الشىء الوحيد الذى تستمتع به هو الاعتناء بالفتى، بالطبع الكل يعرف أنه رهن الاعتقال بسبب جريمة مروعة، اليوم بدا شاحبًا وثابط الهمة وهى تغير الملاءات على سريره.

"ألست خائفة منى الآن؟"

نظرت "لاين" خارج النافذة.. إنه يعرف أنها تتلكأ.. ابتسمت.

"لا.. بالطبع لا،أنا لم أصدق الأمر ولو للحظة.. فى الواقع.. أعتقد أنهم كلهم حمقى."

قالت ذلك بعنف جعله مصدومًا.

"لقد قلت ذلك للرجل الإسكتلندى، لكنه يعتقد أنه يؤدى واجبه، يعتقد أن النقود هى كل الأدلة التى يحتاجها."

"أفترض أنهم سيعيدوننى، وسيكون هناك محاكمة، لذلك لن يكون الأمر بيده."

انتهت "لاين" من وضع الملاءات فرقد هو مجددًا، لاحظت كيف أن كاحليه ورسغيه نحيلان.. إنه يزداد نحافة.. بدا صغيرًا ولا حول له فجعل ذلك الدم يغلى فى عروقها.

"لسوف أرحل من هنا لو استطعت،صدقنى.. إنه لموت للروح أن تعيش فى هذا المكان."

"اعتقدت أنكم تعيشون حياة جيدة بعيدًا عن كل الإغراءات والخطايا."

"ليس هناك مثل هذا الشىء."

"هل ستعودين إلى "تورنتو"؟"

"لا أستطيع، ليس لدى نقود.. ولهذا السبب جئت هنا فى المقام الأول،إن الحياة شاقة على امرأة بمفردها ومعها أطفال."

"ماذا لو معك نقود؟ هل سيجعل هذا الأمر ممكنًا؟"

حركت "لاين" كتفيها.. "ليست هناك فائدة من التفكير فى ذلك، إلا لو عاد زوجى فجأة ومعه ثروة من الذهب، لكن هذا لن يحدث.. لن يعود." ابتسمت بمرارة.

"لاين... " أخذ "فرانسيس" يدها فى يده.. الشىء الذى جعلها تتوقف عن الابتسام، لديه نظرة حزينة تجعل قلبها يقفز، عندما يكون لدى الرجال هذه النظرة على وجوههم، فإن هذا يعنى شيئًا واحدًا.

""لاين".. أريدك أن تأخذى النقود، ليس هناك شىء لأفعله بها، فـ"بير" لن يتركنى آخذها.. لذلك لو أخذتيها الآن فبإمكانك إخفاءها ثم ترحلين بعيدًا فى وقت ما.. فى الربيع.. ربما."

كانت "لاين" تنظر إليه وهو يتكلم.. وهى مذهولة. "لا.. أنت لا تعنى ذلك.. إنه... لا.. لا أستطيع."

"أنا جاد، خذيها الآن.. إنها مهدرة على أى حال. فهى كانت لـ "لوروان" ـ أعلم أنه كان يريدك أن تحصلى عليها.. بدلاً من أن يحصل عليها هؤلاء الرجال. أين سينتهى بها المطاف إذًا؟ فى جيوبهم.. على الأرجح."

خفق قلبها بعنف فى حلقها.. يالها من فرصة!.

"أنت لا تعرف ما تقول."

"أنا أعلم بالضبط ما أقول، أنت لست سعيدة هنا، فاستخدميها لتصنعى لنفسك حياة جديدة. أنت صغيرة السن وجميلة ولا يجب أن تظلى

عالقة هنا مع هؤلاء الرجال المتزوجين.... يجب أن تكونى سعيدة." خفت صوت "فرانسيس".. وقد خرج الأمر من قدرته قليلا. وضعت "لاين" يدها الأخرى على يده.

"هل تظن أننى جميلة؟"

ابتسم "فرانسيس".. محرجًا قليلاً.. "بالطبع.. الكل يعتقد ذلك."

"أيفعلون؟"

"تستطيعين رؤية ذلك من الطريقة التى ينظرون بها إليك."

شعرت بموجة من الفرح، ثم حدث أن انحنت باتجاهه ووضعت شفتيها على شفتيه. كان فمه دافئًا لكن ثابتًا، ورغم عينيها المغلقتين.. عرفت على التو أنها قد فعلت خطأً فادحًا. بدا أن فمه تراجع فى اشمئزاز وكأنه لمسته حلزون أو دودة الأرض، فتحت عينيها وتراجعت قليلاً.. مرتبكة ـ نظر هو بعيدًا.. وتعبير من الصدمة المروعة على وجهه، حاولت أن تجد عذرًا لنفسها.

إنها لا تفهم ما الذى فعلته خطأ.. "أنا... أنا اعتقدت أنك قلت إننى جميلة."

"إنك كذلك، لكنى لم أعن... ليس لهذا أريدك أن تأخذى النقود، ليس هذا ما عنيته."

بدا أنه يحاول أن يبتعد عنها بقدر ما تسمح له أغطية الفراش.

"آه.. يا إلهى." شعرت "لاين" بالحرارة والسقم من العار، كيف أمكنها فعل أشياء أسوأ لنفسها؟ وكأنها قامت من نومها هذا الصباح وفكرت فى كل الأشياء الغبية التى يمكن أن تفعلها اليوم، وقاومت الجهر بمشاعرها لـ"إبسن" خلال صلوات الصباح،وغرز إبرتها فى مؤخرة "بريتا" السمينة (كلاهما مغر) لتقوم بدلا من ذلك بتقبيل فتى صغير تم القبض عليه فى جريمة قتل. بدأت تضحك.. ثم فجأة بدأت تبكى.

"أنا آسفة.. أنا لا أعرف ماذا اعتراني.. أنا لست نفسي في الوقت الحالي.. فأنا مستمرة في فعل أشياء غبية." استدارت بعيدًا عن الفراش.

""لاين" من فضلك لا تبك، أنا آسف.. أنا أكن لك حبًا.. وأعتقد بالفعل أنك جميلة،لكني لست... إنها غلطتي.. لا تبك."

مسحت "لاين" عينيها وأنفها في كمها، تمامًا مثلما تفعل "آنا". شيء أو اثنان أصبحا واضحين لها، لم تستدر مجددًا، ولكن فقط لأنها لن تتحمل لو أنه مازال يبدو مشمئزًا.

"إن ذلك لطف منك.. سوف آخذ النقود.. إذا ما كنت تعني ذلك فعلاً.. لأني لا أعتقد أنه بإمكاني البقاء هنا، في الواقع أعرف أنني لا أستطيع."

"حسنًا.. خذيها."

استدارت الآن.. وكان "فرانسيس" جالسًا في الفراش، ممسكًا بالحقيبة الجلدية. أخذت لفة العملات الورقية الذي أخرجها وقاومت رغبتها في عدها.. لأن هذا سيبدو على أنه نكران للجميل. إلا أن المبلغ بدا قرابة أربعين دولارًا على الأقل (أربعون دولارًا! دولارات أمريكية كذلك)، فحشرتهم بداخل بلوزتها.

على كل حال.. لن يهم لو أنه رأى ذلك الآن.

فيما بعد.. كانت في المطبخ.. تملأ فمها خفية بالجبن عندما اندفع "جينز" للداخل وقد احمر وجهه بالتحمس.

"خمني ما حدث؟ هناك المزيد من الزائرين!".

ركض "جينز" و"سيجي" للخارج وتبعتهما "لاين" وهي عابسة لترى شخصين وزلاجة كلاب. تجمع النرويجيون حولهما، وساعدوا الشخص الذي على الزلاجة ليقف على قدميه.. كان يتعثر في مشيته وكان يجب مساندته. التقطت "لاين" لوحة لوجه داكن غاضب، ثم ركزت على الشخص الآخر فأدركت أنها امرأة بيضاء. على غير المعتاد أن ترى امرأة مثلها ـ

فلديها.. رغم طبقات الملابس.. نفحة من الذوق الرفيع ـ ومعها هندى ذات طلعة شريرة، حتى أن لا أحد يعرف ماذا يقول أو ماذا يفعل أولاً. كانت المرأة منهكة بوضوح حتى أن "بير" استدار إلى الرجل الهندى،لم تلتقط "لاين" الكلمات الأولى التى قيلت.. لكنها سمعت بعد ذلك.. بالإنجليزية "نحن نبحث عن "فرانسيس روس".. هذه المرأة هى والدته."

أول ما جاء على ذهن "لاين" وهى خجلة أن "فرانسيس" سوف يريد أن يسترجع النقود، شعرت أيضًا بطعنة من الغيرة، حتى بعد الأحداث المحرجة لهذه الظهيرة.. مازالت تشعر أن هناك رابطة خاصة بينها وبين الصبى؛ إنه صديقها وحليفها ـ الشخص الوحيد فى "هيميلفانجر" الذى لا ينظر لها باحتقار. إنها لا تريد أن تُنزع من مكانها.. حتى فى مشاعر قاتل محتمل.

ضغطت "لاين" بيدها على صدرها فوق لفة النقود وأبقتها هناك.

لا أحد ـ أقسمت بصمت ـ لا أحد سيأخذ منها هذه النقود.

***

سحبنى رجال ونساء ذوو وجوه متحمسة ومنفعلة لأقف على قدمى، وأمسكوا بى عندما تعثرت، لم أكن أفهم لماذا هم مسرورون للغاية لرؤيتنا، ثم اعترانى الإنهاك وزحف علىّ ارتعاش غامض وغناء فى أذنى. بينما الناس المرشقون حولنا يومئون ويبتسمون ويثرثرون فى إجابة على شىء قاله "باركر"، لم أستوعب أى شىء أكثر من ضوضاء غير واضحة مرتبكة وحقيقة أن عينى كانت تحترقان بسخونة، وظلتا جافتين تمامًا. ربما كنت مصابة بالجفاف.. ربما أكون مريضة، ولكن هذا لا يهم.. إن "فرانسيس" حيًا وقد وجدناه.. هذا كل ما يهم. حتى أننى وجدت نفسى أشكر الله.. هذا إذا ما كانت قنوات الاتصال التى صدأت منذ وقت طويل لاتزال مفتوحة.

أعتقد أننى نجحت فى التحكم فى الشعور المتصاعد بداخلى عندما رأيته، كان قد مر أسبوعان على رحيله من البيت؛ بدا شاحبًا.. بدا شعره

أكثر سوادًا من أى وقت مضى؛ وكان نحيلاً.. جسد طفل تحت الملاءات. كان الأمر وكأن قلبى قد تضخم لدرجة الانفجار وهدد بخنقى. لم أستطع التحدث؛ لكنى ملت للأمام لأحتضنه وأشعر بعظامه الحادة تحت جلده مباشرة. التفت ذراعاه حول كتفى بشدة.. أستطيع شم رائحته.. الأمر الذى كان أكثر مما أحتمل، ثم كان علىَّ أن أنسحب للخلف؛ لإننى لم يكن بإمكانى رؤيته بعد.. أريد أن أراه. ملست على شعره.. ووجهه.. قبضت على يديه فى يدىّ.. لم أستطع التوقف عن لمسه.

نظر إلىّ مستعدًا لحضورى.. كنت قد بدأت أصدق، لكن هو مازال متفاجئًا.. ومر شبح ابتسامة سريعًا بوجهه.

"ماما.. أنت جئت.. كيف فعلت ذلك؟"

" "فرانسيس".. لقد كنت قلقة جدًا..."

ربت على كتفيه وذراعيه، وأنا أحاول أن أحارب الدموع، فأنا لا أريد إحراجه. بجانب ذلك.. لم تعد هناك حاجة للبكاء بعد الآن؛ ليس مجددًا قط.

"أنت تكرهين السفر."

ضحك كلانا.. مهتزًا، سمحت لنفسى أن أفكر ـ للحظة ـ فى كيف سنعود للبيت فسوف نبدأ من جديد؛ لن يكون هناك المزيد من الأبواب المغلقة.. لا مزيد من حواجز الصمت،بعد هذا.. سنكون سعداء.

"هل "بابا" هنا أيضًا؟"

"آوه.. لم يستطع ترك المزرعة،فكرنا أنه سيكون من الأفضل لو جاء أحدنا فقط."

أخفض "فرانسيس" نظره إلى أفرشة الفراش، بدا كعذرٍ واهٍ كما هو فعلاً، تمنيت لو كنت قد فكرت فى كذبة أكثر إقناعًا، ولكن عدم حضوره كان أكثر تعبيرًا من أى تفسير له. لم يسحب "فرانسيس" يديه من يدى.. ولكن كان هناك ابتعاد بطريقة ما،إنه محبط رغم كل شىء.

"سوف يفرح جداً عندما يراك."

"إنه سيغضب."

"لا .. لا تكن سخيفًا."

"كيف جئت إلى هنا؟"

"مع مقتفى أثر يدعى السيد "باركر"، لقد عرض علىَّ بلطف أن يحضرنى و... "

بالطبع.. لم يكن لديه معرفة بالأحداث الجارية فى "دوف ريفر" منذ أن رحل،من هو "باركر".. أو من قد يكون.

"إنهم يعتقدون أننى قتلت "لوران جاميه"، أنت تعرفين بذلك.. أليس كذلك؟" كان صوته مسطحًا.

"عزيزى.. إنه لخطأ، أنا رأيته... أنا أعرف أنك لم تفعل ذلك. السيد "باركر" كان يعرف السيد "جاميه"، إن لديه فكرة عن... "

"أنت رأيته؟" نظر إلىّ.. عيناه واسعتان.. من الصدمة أو الشفقة.. لا أدرى. بالطبع كان متفاجئًا، كنت أفكر فى اللحظة التى وقفت فيها عند باب كابينة "جاميه" ألف مرة فى اليوم.. كل يوم من حينها.. حتى بهتت ذكرى هذا المشهد الشنيع بسلاسة، فلم تعد تصدمنى بعد الآن.

"أنا وجدته."

ضاقت عينا "فرانسيس".. كما لو كان شلال من المشاعر قد اجتاحه، للحظة اعتقدت أنه غاضب، رغم أنه لم يكن هناك مبرر لغضبه"أنا الذى وجدته."

كان التأكيد لطيفًا.. لكن لا خطأ فى وجوده، وكأنه يجب أن يصر عليه.

"أنا وجدته وتتبعت الرجل الذى قتله،لكن فقدته فيما بعد،إن السيد "مودى" لا يصدقنى."

"سوف يفعل يا "فرانسيس"، نحن رأينا آثار الأقدام التى كنت تتبعها، يجب أن تخبره بكل شىء رأيته وهو سوف يفهم."

تنهد "فرانسيس" بحدة ـ تنهيدة هازئة كثيرًا ما يستعملها فى البيت عندما أكشف عن غبائى الذى لا نهاية له. "لقد أخبرته بالفعل بكل شىء."

"إذا ما كنت.. قد وجدته، لماذا لم تخبرنا؟ لماذا تتتبع الرجل وحدك؟ ماذا لو كان قد هاجمك؟"

حرك "فرانسيس" كتفيه قائلاً: "فكرت أنه لو انتظرت.. فسأفقده."

لم أقل ـ لأنه لابد أن يكون يفكر فى ذلك أيضًا ـ أنه قد فقده على كل الأحوال.

"هل يعتقد بابا أننى فعلتها؟"

"فرانسيس".. بالطبع لا، كيف يمكن أن تقول مثل هذا الشىء؟"

ابتسم مرة أخرى ـ ابتسامة ملتوية.. غير سعيدة. إنه صغير جدًا؛ لأن يبتسم بهذه الطريقة، وأنا أعرف أنه خطئى. لقد فشلت فى جعل طفولته سعيدة، والآن وهو كبير لا أستطيع حمايته من الأحزان وصعوبات العالم.

مددت يدى ووضعتها على جانب وجهه. "أنا آسفة."

لم يسأل حتى ما الذى أعتذر عنه.

جعلت نفسى أستمر فى الحديث عن كيف أننى سأتحدث مع السيد "مودى" وأجعله يفهم أنه كان مخطئًا، وعن المستقبل وكيف أنه ليس هناك شىء يقلق من أجله، ولكن عينيه شردتا بعيدًا إلى السقف؛ لم يكن يستمع إلىّ، ورغم أننى احتفظت بيديه فى يدى،عرفت أننى قد فقدته. ابتسمت.. مجبرة وجهى وسلوكى على البقاء مرحًا.. متحدثة بحماقة عن هذا وذاك.. لأنه ما الذى يمكننا أن نفعل غير ذلك؟

***

كان الخليج هادئًا اليوم، فطوال الأمس فى العاصفة الثلجية.. كان زئير الماء وهو يرتطم بالصخور يصدر همهمة غاضبة اجتاحت البلدة. فكر "نوكس" من قبل أنه لابد أن هناك تركيبة غامضة للساحل الصخرى الذى يصدر ـ تحت ظروف جوية معينة ـ هذا الزئير المنخفض لكنه رتيب ومستمر. لأبعد ما تستطيع أن ترى خلال غطاء الجليد المتموج ـ والذى لم يكن بعيدًا جدًا ـ كان الخليج رماديًا وأبيض، الرياح تقطع وتمزق سطحه بعنف. فى مثل هذه الأوقات يمكن للمرء أن يفهم لماذا اختار المستوطنون الأوائل أن يبنوا بيوتهم فى "دوف ريفر".. بعيدًا عن هذا الحضور الهائل.. الذى لا يمكن التنبؤ به.

كان هناك قليل من الأشخاص فى الجوار الآن، كان الثلج غير المكوم عمقه ثمانى عشرة بوصة.. لكنه رطب ومستقر فى نفسه. الطرق المليئة بالخطى تقاطع الشارع.. والأكثر سيرًا يضع مسارات عميقة وقذرة فى بياض الثلج، والأقل استخدامًا خطوط واهية وغير مكتملة.. تصل من منزل إلى متجر.. من منزل إلى منزل.. يمكنك أن ترى من له شعبية فى "كالفيلد" ومن الذى من النادر أن يخرج. اتبع هو طريقًا من الطرق الواهية الآن.. قدماه تزداد رطوبة وبرودة مع كل خطوة. ما الذى جعله بحق السماء يخرج بدون حذائه المطاطى الواقى؟ حاول أن يتذكر الدقائق قبيل مغادرته للمنزل، ليكشف عما كان يفكر به.. لكنه لم يستطع إيجاد أى شىء.. وكأن هناك ثقبًا أسود فى ذهنه، كان لديه العديد من تلك الثقوب السوداء مؤخرًا،وهو لا يجد هذا مقلقًا بشكل زائد عن اللازم.

فى المنزل كان الجو هادئًا جدًا،دخل إلى حجرة الرسم يتساءل أين "سوزانا" الصاخبة كالعادة، وفوجئ بوجود "سكوت" و "ماكينلى" جالسين معًا على الأريكة، لم يكن هناك أى أثر لعائلته، وكان لديه الانطباع بأنهما كانا فى انتظاره.

"أيها السادة... "جون"!.. أنا آسف.. لم نكن نتوقع صحبة الليلة."

أخفض "سكوت" عينيه وبدا غير مرتاح.. وهو يطبق فمه الصغير.

تحدث "ماكينلى"، وكان صوته حازمًا وواعيًا الآن. "إن وجودنا هنا الليلة ليس كصحبة."

فهم "نوكس" وأغلق الباب خلفه، للحظة قصيرة خطر على ذهنه أن ينكر كل شىء وأن يصر على أن سكر "ماكينلى" قاده لسماع أشياء لم تكن حقيقية، ولكن حتى عندما جاءت الفكرة إلى ذهنه.. قام بطردها.

بدأ "ماكينلى" فى الحديث: "منذ بضعة أيام.. قلت إنك لم تعد إلى المخزن وأن أنا و"آدم" كنا آخر شخصين شاهدا السجين، وقد عوقب "آدم" على تركه للقفل مفتوحًا. ولكن اليوم.. أخبرتنى أنك رأيت السجين بأم عينيك بعد أن تركته أنا."

مال للخلف فى مقعده.. وهو ينضح برضا صائد قد نصب فخًا ماهرًا تمامًا، ألقى "نوكس" نظرة على "سكوت" الذى قابل عينيه للحظة قبل أن يشيح بنظره بعيدًا، شعر "نوكس" أن الرغبة الخبيثة لأن يضحك تتصاعد فى داخله مجددًا. ربما الأمر حقيقى قبل كل شىء أنه يفقد عقله، وتساءل هل لو بدأ فى قول الحقيقة الآن.. سيكون بإمكانه أن يتوقف قط.

" ما قلته فعليًا إننى قد رأيت فكرتك عن العدالة بأم عينى."

"أنت لا تنكر الأمر إذًا؟"

"لقد رأيته وأثار اشمئزازى، لذلك اتخذت خطوات لأتجنب صورة مشوهة للعدالة،وهذا ما قمت أنت بفعله."

نظر إليه "سكوت" وكأنه لم يكن يصدق الأمر من قبل لكنه يجد الشجاعة الآن لمواجهته. "هل تقول إنك... تركت السجين يهرب؟" بدا أكثر سخطًا من أى شىء آخر.

أخذ "نوكس" نفسًا عميقًا. "نعم.. قررت أن هذا هو أفضل شىء يمكن فعله."

"هل جننت تمامًا؟ ليس لديك أية سلطات لتفعل مثل هذا الشىء!" كانت هذه من "سكوت".. الذى بدا مريضًا إلى حد ما، وكأنه قد تناول بعض البطاطس العفنة.

"أنا مازلت الحاكم هنا.. على ما أعتقد."

أصدر "ماكينلى" صوتًا صغيرًا من حلقه. "إنها مسألة تهم الشركة، وأنا مسئول عنها، وأنت قمت متعمدًا بمنع العدالة من أن تأخذ مجراها."

"إنها ليست مسألة الشركة،أنت سعيت لتجعلها كذلك. ولكن إذا ماكان هناك أية علاقة للشركة بهذا، فيجب إذًا أن تكون العدالة أكثر عدلاً... ولم يكن هذا ليحدث طالما كنت تحبس هذا الرجل."

"سوف أبلغ عنك من أجل هذا." اشتد لون "ماكينلى" وأصبح تنفسه عميقًا وسريعًا، تفحص "نوكس" فارقًا فى ظفر إبهامه الأيسر وهو يجيب: "حسنًا.. عليك أن تفعل ما تراه مناسبًا، فأنا لن أذهب إلى أى مكان.. بينما أنت على الجانب الآخر... أعتقد أنه حان الوقت لتجد مكان إقامة بديل فى هذه البلدة، وأنا واثق أن السيد "سكوت" يمكنه مساعدتك فى هذا الشأن.. بالإضافة إلى العديد من الآخرين.. طاب مساؤكما أيها السيدان."

وقف "نوكس" وأمسك الباب وأبقاه مفتوحًا.. فقام الرجلان ومشيا من أمامه .. عينا "ماكينلى" مثبتتان على نقطة محددة فى ردهة المدخل، ويتبعه "سكوت" وعيناه فى الأرض.

رأى "نوكس" الباب الأمامى ينغلق دونهما واستمع للصمت المطبق للمنزل. كان على علم بوقوف الرجلين خلف الباب بالخارج يتحدثان بأصوات منخفضة، قبل أن يبتعدا. لم يشعر بأى ندم لما فعله.. ولا بأى خوف. واقفًا فى الردهة غير المضاءة.. كان "نوكس" واعيًا بثلاثة أشياء الآن: نوع من الارتخاء المرتعش، وكأن لجام الحياة كلها قد انفك فجأة؛ رغبة فى رؤية "توماس ستاروك" الذى يبدو فى هذه اللحظة الشخص

الوحيد الذى يمكن أن يفهمه؛ وحقيقة أنه للمرة الأولى منذ أسابيع.. يشعر أن الألم الذى فى مفاصله قد ذهب كليًا.

***

استمر الجليد فى التساقط لليومين التاليين دون توقف،وكل يوم يصبح أكثر برودة من الذى قبله. خرج "جاكوب" و"باركر" ذات الصباح وعادا بثلاثة طيور وأرنب برى، الله وحده يعلم كيف استطاعا رؤيتها فى هذا الطقس. ما جاءوا به ليس كثيرًا.. لكنه لفتة جيدة طالما أن لدى النرويجيين كل هذه الأفواه الإضافية ليطعموها.

كنت أقضى الوقت جالسة مع "فرانسيس"، رغم أنه كان ينام كثيرًا.. أو يتظاهر بذلك،كنت قلقة بشأنه؛ وبشأن الجرح الذى فى ركبته الذى كان متورمًا وعلى ما يبدو مؤلمًا. قال "بير" ـ الذى يدعى أن لديه بعض المعرفة الطبية ـ أنه ليس كسرًا.. مجرد التواء سيئ، ويحتاج للوقت فقط ليلتئم. استطعت باستجواب صبور ـ فلم يتطوع "فرانسيس" بأى شىء ـ أن أستخرج تقريرًا ما عن رحلته، وكنت مذهولة ومتأثرة أنه نجح فى الوصول لمثل هذا البعد. تساءلت لو أن "أنجوس" سيكون فخورًا به لو علم بذلك. قبل أن آتى.. كانت تعتنى به بشكل رئيسى السيدة التى تدعى "لاين"، ولكنى الآن أخذت على عاتقى هذه المهام. لم تبد سعيدة عندما وصلت وبدت أنها تتجنبنى، رغم أننى رأيتها تتحدث مع "باركر" باهتمام كبير فى مخزن الحبوب المقابل، لم يمكننى تصور ما الذى قد يقولانه لبعضهما البعض، علىّ أن أعترف أن فكرة غير طيبة دخلت ذهنى: فهى ـ رغم كل شىء ـ المرأة الوحيدة هنا دون زوج.. رغم أن هذا ليس لعيب فيها شخصيًا، فهى ـ علىّ الاعتراف ـ حسنة الشكل إلى حد ما بطريقة أجنبية سمراء. عندما تم تقديمنا حيتنى بنظرة عدائية، شكرتها على الاعتناء بـ"فرانسيس".. فاعترضت بإنجليزية ممتازة ولكن بعبوس لم أستطع فهمه. ثم أدركت أننى بوصولى قد انتزعت منها ذلك وأعدتها إلى مهامها المعتادة حيث ـ تقريبًا لأنها أرملة ـ تأخذ الكثير من الأوامر من النساء المتزوجات،قال "فرانسيس" إنها كانت طيبة جدًا معه وإنه مولع بها.

يجلس إما "مودى" أو عادة أكثر "جاكوب" كحراسة خارج الباب، وكأنهما ينتظران منى أن أصرخ أن "فرانسيس" يهاجمنى، وعلى إثر ذلك سيدخلان سريعًا وينقذان حياتى. لقد غيرت رأيى فى السيد "مودى"، ففى "دوف ريفر" كان يبدو طيبًا وأكثر إهابة.. منفذًا للقانون رغمًا عنه. الآن أصبح لديه عدم صبر وتزمر، وأدعى أن لديه عباءة السلطة وارتداها دون لياقة. طلبت أن أتحدث معه على انفراد، وحتى ذلك الحين نجح فى تجنب ذلك.. بالادعاء أن مهام العمل تضغط عليه. ولكن بعد يومين من الجليد المستمر عرف الكل أنه ليس هناك عمل له إلا الانتظار، واستطعت رؤية ذلك فى عينيه وهو يقلب فكرة ادعاء عذر آخر.

"حسنًا.. سيدة "روس".. لماذا لا نذهب إلى... حجرتى."

تبعته فى الردهة ومرت بنا هذه المرأة "لاين" وأعطت "مودى" نظرة خبيثة وهى تمر.

كانت لحجرة "مودى" نفس الطابع الرهبانى لحجرتى، فقط كانت متعلقاته منثورة بعشوائية على الأثاث والأرض وكأنه قد تعرض للسرقة لتوه. نزع ملابسه عن الكراسى وألقى بها على الفراش، بينما أجلس رأيت على المكتب بجانبى ظرف موجه إلى الآنسة "سوزانا نوركس". وجدت الأمر ممتعًا.. وكنت واثقة أنه لم تكن لديه نية أن أرى هذا؛ وتأكد لى هذا بعد لحظة عندما كوم كل الأوراق على المكتب فى كومة غير منظمة. أخذ يحوم حول الفوضى بارتباك لبضع لحظات ففكرت أنه تحت ظروف مختلفة كنت لأستطيع الشعور بالأسف من أجله، فهو أكبر من "فرانسيس" ببضعة أعوام فقط وقد وصل إلى هذه البلدة مؤخرًا ووحيدًا.

تنحنح عدة مرات قبل أن يتحدث.

"سيدة "روس"،أنا متفهم كليًا لاهتمامك بشأن "فرانسيس"،فمن الطبيعى لكونك والدته أن تشعرى بهذا."

"ومن الطبيعى أيضًا أنك ترغب فى العثور على مذنب لهذه الجريمة الشنيعة." قلت ذلك بطريقة لطيفة بشكل كاف على ما أعتقد،لكن وجهه

تغير لنظرة مليئة بالضيق السريع. "إن "فرانسيس" أيضًا يريد أن يجد الرجل المسئول، كما سبق وأخبرك."

رسم "مودى" تعبيرًا يقترح الصبر والاحتمال تحت ظروف المحاولة.

"سيدة "روس".. أنا لا أستطيع إخبارك بكل مبرراتى لإمساكى ابنك كمشتبه فيه، ولكن تلك المبررات ملحة للغاية، ويجب عليك أن تصدقينى."

"لقد فكرت فى أنه.. من بين كل الناس.. أنت الذى يجب أن تخبرنى ما هذه المبررات."

"إنها مسألة عدالة.. يا سيدة "روس"،هناك أسباب جيدة جدًا لأفعالى، إن القتل جريمة خطيرة جدًا."

قلت: "آثار الأقدام.. الأثر الآخر.. ماذا بشأنه؟"

تنهد قائلاً: "مجرد مصادفة، أثر تتبعه الـ... ابنك ليجد مكاناً آمنًا."

"أو أثر القاتل."

"أنا أتفهم تمامًا رغبتك فى تصديق أن ابنك برىء، إنه شىء طبيعى وصحيح، ولكنه هرب من "دوف ريفر" بعد القتل ومعه نقود الرجل الميت،ثم كذب بشأنها. الحقائق تشير لاستنتاج واحد،وسأكون متجاهلاً لواجبى لو لم أتصرف على أساسه."

"سيكون الأمر بنفس درجة التجاهل ألا تتتبع الاحتمالات الأخرى،فالأثر يمكن أن يكون للقاتل... أو ألا يكون. كيف يمكنك أن تعرف لو أنك لم تتتبعه؟"

تنهد "مودى" من خلال فتحتى أنفه، ثم دلك قصبة أنفه حيث حفرت نظارته علامتين غائرتين. لم يكن لديه رغبة على الإطلاق فى أن يفعل أى شىء بشأن الأثر الآخر.

"فى الظروف الراهنة.. مهمتى هى أن أبقى على المشتبه به فى مكان آمن،التحريات التالية سيكون عليها أن تنتظر حتى يسمح الطقس."

بدا راضيًا عن هذا الخطاب، بعد أن وضع المسئولية على مهمته وليس عليه هو شخصيًا. حتى أنه سمح لنفسه بابتسامه خفيفة وكأنه نادم إلى حد ما على أن هذه الأمور قد خرجت من يديه. ابتسمت أنا أيضًا، طالما أن هذه هى الطريقة التى تجرى بها الأمور،لكنى لم أعد أشعر بميل إلى أن أهدر أى تعاطف عليه.. سواء كان رجلاً وحيدًا أم لا.

"سيد "مودى".. هذا ليس عذرًا على الإطلاق، يجب أن تتتبع هذا الأثر،لأنه عندما يسمح الجو ـ كما تقول أنت ـ فلن يكون هناك أى شىء لتقتفيه. وواجبك أن تجد الحقيقة، ولا شىء آخر. يمكنك أن تترك "فرانسيس" فى عناية هؤلاء الناس هنا، أو إذا لم تثق بهم.. اترك زميلك ليراقبه. سوف يقتفى "باركر" الأثر وأنت وأنا سوف نرى إلى أين يقود."

بدا "مودى" مندهشًا وغاضبًا. "إنها ليست مهمتك يا سيدة "روس" أن تملى علىَّ كيف أؤدى واجبى."

"إنه شأن أى شخص أن يشير إلى إهمال فى المهام فى قضية بهذه الأهمية."

حدق فىَّ وقد فاجأه أن يكلمه أحد بهذه الطريقة، يمكننى أن أقول إننى كنت أضغط على عصب؛ ربما كان قد فكر بالفعل فى الأثر وهذا الأمر يزعجه. اشك أن لديه عقلاً مرتبًا، وهذه الآثار للأقدام التى تقود إلى عمق البرية هى نهاية.

"رغم كل شىء.. لو أنك على حق..." لم أستطع حمل نفسى على قولها. "لو أنك محق، فسوف تعرف أنك قد استبعدت كل احتمال، وسيرتاح ضميرك. بالإضافة إلى أنه إذا وصل الأمر للمحكمة، فإن وجود الأثر واحتمالية ما سيأتى به ترتفع إلى... حسنًا،سوف تعرض استنتاجاتك للتساؤل على الأقل،أليس كذلك؟"

حدق "مودى" فىّ بقوة، ثم اتجهت عيناه للنافذة.. حتى هناك لم يبد أنه قادر على إيجاد إجابة.

عندما سألت "فرانسيس" عن النقود رفض ببساطة أن يتحدث، تنهد بحدة ليلمّح أن الإجابة واضحة وأننى حمقاء لعدم رؤيتى إياها. شعرت بموجة من الحنق القديم تجاهه.

"أنا أحاول مساعدتك، لكنى لا أستطيع إذا لم تخبرنى بما حدث، فـ "مودى" مقتنع أنك سرقتها."

نظر "فرانسيس" للسقف؛ على الحوائط؛ على أى مكان إلا عينى. "لقد سرقتهم بالفعل."

"ماذا؟ ما الذى جعلك تفعل ذلك؟"

"لأننى احتجت لنقود لو أننى ذاهب فى رحلة، كان من الممكن أن أحتاج لمساعدة لأجد القاتل، كان من الممكن أن أضطر للدفع لذلك."

"كان لديك مساعدة فى البيت، ونقود فى البيت لماذا لم تأخذ ذلك؟"

"لقد أخبرتك لماذا لم أستطع الرجوع."

"لكن.. الآثار لا تختفى بهذه السرعة."

"إذًا أنت تعتقدين أننى من فعلها أيضًا؟"

ابتسم.. تلك الابتسامة المريرة.. العجوز.

"لا.. بالطبع لا أعتقد ذلك،لكن ـ أتمنى أن تخبرنى أنت لماذا كنت هناك فى قلب الليل."

توقف "فرانسيس" عن الابتسام، ولم يقل أى شىء لوقت طويل.. طويل بشكل كافٍ حتى أننى فكرت أن أقوم وأمشى مبتعدة.

""لوران جاميه"..." ثم توقف. "... كان الشخص الوحيد الذى يمكننى التحدث معه، الآن ليس هناك أحد.. وأنا لا يعنينى إن لم أرجع قط."

بعد عدة لحظات أدركت أننى توقفت عن التنفس، وأخبرت نفسى أنه يتحدث دون تفكير، أو أنه يريد أن يجرحنى. لطالما كان "فرانسيس" قادرًا على جرحى أكثر من أى شخص آخر."

"أنا آسفة لخسارتك لصديق، وبهذه الطريقة،لكنت ضحيت بأى شىء لكى لا ترى ذلك."

جاء غضبه واضحًا لى، غضب طفولى على حافة الدموع.

"هل هذا كل ما يمكنك قوله؟ تتمنين لو أننى لم أره؟ ماذا يهم فى ذلك؟ لماذا لا يفكر أحد فى "لوران"؟ إنه الشخص الذى قُتل، لماذا لا تتمنين لو أنه لم يقتل؟

ألقى بنفسه على الوسائد مرة أخرى، عيناه جافتان.. والغضب قد زال فجأة مثلما ظهر.

"أنا آسفة.. يا عزيزى.. آسفة، إننى بالفعل أتمنى ذلك.. بالطبع،لا يجب أن يموت أحد بهذا الشكل.. لقد كان رجلاً لطيفًا، وكان يبدو أنه... يحب الحياة."

تذكرت أننى كنت بالكاد أعرفه، ولكن بدا هذا رهانًا آمنًا بشكل كاف. لكنى إذا اعتقدت أننى أريح "فرانسيس" أو أقول ما يريد أن يسمع، فأنا كالعادة على خطأ. كان صوته غمغمة خفيضة.

"لم يكن لطيفًا، كان قاسيًا، كان ليجد نقطة ضعفك ويستخدمها ليؤلف دعابات،أى شىء ليجعل الناس تضحك.. مهما يكن الأمر فهو لم يكن يهتم."

كان هذا التغيير المفاجئ فى الأحداث أكثر مما أستطيع التحمل. جاءنى خوف مفاجئ كريه أن "فرانسيس" على وشك الاعتراف بشىء ما لى. فربت على جبهته وقلت "هشش"،وكأنه مازال طفلا، لكنى لم أعرف ماذا أعتقد، فلذلك تحدثت بكلام فارغ ـ لا شىء أقوله ـ فقط لأمنع "فرانسيس" من فتح فمه وقول شىء قد أندم عليه.

كان "باركر" مع "جاكوب" فى مخزن الغلال مع أحد النرويجيين، ويبدوا أنهم قد عزلوا أنفسهم عن الدراما الجارية عبر الباحة، وكانوا يناقشون دودة الغلال.. كما أعتقد. شعرت بالارتباك لأن أطلب من "باركر" أن نتحدث على انفراد، فالآن وقد عدنا إلى نوع من الحضارة. لمحت النرويجى ينظر إلىَّ.. ينجمون بالتأكيد (أنا واثقة) عن زواجى واختيارى الغامض لرفيقى. تحت ظلال مخزن الغلال بالظلمة القائمة فى وطنى الأصل بدا وكأن وقتًا طويلاً قد مضى.

"ليس لدى السيد "مودى" اهتمام باقتفاء الأثر الآخر، قد يكون علينا أن نذهب بمفردنا."

"سوف يكون الأمر صعبًا للغاية، سيكون من الأفضل أن تبقى هنا مع ابنك."

"لكن.. يجب أن يكون هناك.. شاهد."

أعتقد أننى صغت الأمر بحرص، دون أن أقول إننى لا أثق به، لكنه ـ على كل حال ـ لم يبد مستاءً.

"أنت لا تعرفين أننى سأعود."

"يجب أن يرى "مودى"... ما سنجده، لو كنا فقط نستطيع أن نأخذ "فرانسيس"..."

حرك"باركر" كتفيه: "لو كان ابنك هو القاتل، فسوف يرغب فى إلقاء اللوم على شخص آخر، ولن يقبل "مودى" بذلك."

كنت أعرف أن "باركر" على حق، وللمرة الأولى يكون لدى إحساس باليأس... بالإنهاك التام. كنت أكافح لأتسلق منحدرًا زلقًا شديد الانحدار، لكنى فعلتها. الآن بدأت الأرض تنزلق بعيدًا من تحت قدمى، ولا أعرف إذا كان بإمكانى الاعتماد على "باركر" لمساعدتى، لا أعرف لماذا عليه أن يساعدنى، بالنظر فى عينيه لا يمكننى رؤية أى أثر للعاطفة ـ لا أثر لأى شىء يمكننى معرفته،ورغم ذلك.. إذا كان الاستجداء هو الثمن الذى سأدفعه فسوف أفعل ذلك، وأكثر من ذلك أيضًا.

"يجب أن تأخذني، عليّ أن أجد الدليل على أنه برىء، ليس هناك أحد آخر يهتم بمن سيتم القبض عليه طالما لديهم شخص ما.. أتوسل إليك."

"ماذا لو لم يكن هناك شىء لتجديه؟ هل فكرت فى ذلك؟"

كنت قد فكرت فى ذلك.. لكن ليس لدى إجابة، حدقت فى وجهه المميز.. فى العينين اللتين تبدوان بلا فرق بين القزحية وحدقة العين على الإطلاق.. لكنهما داكنتان تمامًا، وشعرت برجفة تجتاح كيانى.

ليس هناك شراب مسكر من أى نوع فى "مروج السماء"، فالمختارون ليسوا فى حاجة إلى محفزات صناعية،أو إلى طريق لفقدان الوعى،فهم سعداء ومسالمون فى كل الأوقات. بعد أن صاحت فيه السيدة "روس" كان "دونالد" يفكر فيما سيدفع مقابل كأس من شراب الروم المقزز الذى يُشرب بكميات وفيرة فى "فورت إدجار". إن الشتاء موسم الشرب؛ فهو يخفف تدفق الليالى الطويلة عندما يكون الدفء ذكرى بعيدة، ويجعل النكات الرهيبة التى يلقيها رفقاؤه ويعيدون إلقاءها محتملة،إنه يجعل الرفقاء أنفسهم محتملين. كان لدى "دونالد" نصف قنينة من الويسكى قد أقسم لنفسه إنه سيحتفظ بها لرحلة العودة،لكنه يتعرض للإغراء بجدية،لديه شعور أنه لن يعود فى أى وقت قريب.

تحول الجليد إلى مطر،وارتفعت درجة الحرارة،وأصبحت نتف الثلج مثقلة بالماء، لم تعد تطير بخفة لكنها تسقط على الأرض، وتغيرت طبيعة الجليد الراقد على الأرض كذلك؛ من كونه خفيفًا كالريش مثل لحاف.. إلى كونه رطبًا بالماء وغير مستقر. فالثلج عندما يكون محملاً بالرطوبة يصبح بلا قوة؛ كتل كبيرة تنفصل وتنزلق من على السطح المقابل لنافذة "دونالد"، وتهبط على الأرض بصوت ناعم ثقيل، فتتكشف الأسطح تدريجيًا بألوانها الكئيبة؛ أحمر صدئ.. أزرق معدنى.. حتى الثلج نفسه لم يعد أبيض.. لكنه ذو لون رمادى نصف شفاف.. يقطر الماء بشكل مستمر من

حواف الأسطح، لا يمكن الهروب من الصوت؛ هادئ لكنه ملح.. مثل الصفير.

رأى "باركر" الطويل الهندى عبر الباحة، كان يبدو أنه يحزم حاجاته استعدادًا للمغادرة، يعرف "دونالد" تأكيدًا أنه سيذهب مع "باركر" والمرأة، فقط ليتأكد من أنه ليس هناك شيء فى هذه القصة. تساءل إذا كانت هذه شجاعة.. فكرة الانطلاق عبر هذا السهل الكريه ترعبه. ومن ناحية أخرى.. إذا أخذ الفتى وعاد به كمشتبه فيه ثم اتضح أنه كان على خطأ،فسوف يتم توبيخه ومعاقبته، وسيتحدث عنه الناس بأصوات منخفضة فى غرف الشراب، فشل المهمة لن يكون بالشىء الجيد لمستقبله المهنى،عندما يكون الاختيار بين البرية والخزى المهنى.. فهو يعرف ما الذى يخيفه أكثر من أى شىء.

أخبره "باركر" أن المركز التجارى على بعد ستة أيام سيرًا على الأقدام ليس أكثر من هنا ـ والظروف الجوية مناسبة، إنها فرصته أن يقابل القائم على الأعمال هناك ـ ربما هناك رجل تمكنه مساعدته من التقدم. أخبر "جاكوب" أن عليه أن يبقى ويحرس الفتى، فالسجين سيكون آمنًا هنا لبعض الوقت.

بدا "جاكوب" جادًا للغاية وهو يقول : "اسمح لى.. لكنه سيكون من الأفضل إذا ذهبت أنا معهما، سيكون السفر صعبًا وأنا أعرف ما الذى سأبحث عنه."

ليس هناك شىء يرغب به "دونالد" أكثر من أن يبقى فى "هيميلفانجر" بينما "جاكوب" يخطو بصعوبة خلال الثلج والماء وصولاً إلى هذا المكان المنعزل، ولكن لا فائدة.

"شكرًا لك يا "جاكوب" ولكن يجب على أن أذهب وأقرر ما الذى يجب أن يتم، ولابد لأحد أن يبقى هنا." ابتسم لـ"جاكوب" الذى تراجع بجدية.

"سيكون من الأفضل إذا جئت معك، فيمكننى الاعتناء بك."

ابتسم "دونالد" وقد تأثر بولائه،كذلك بالطريقة التى ينظر له "جاكوب" ـ من مكان ما هناك ـ كطفل لا حول له ولا قوة.

"ليس من حاجة لذلك، فـ"باركر" لابد وأن يعود هنا على أى حال، ليعيد السيدة "روس"، وسيكون من الممتع أن أرى مركزًا آخر للشركة."

أجبر نفسه على أن يبدو مرحًا أكثر مما يشعر، هناك قلق كبير.. وأكثر من مجرد خوف.. فى فكرة البرية الباردة التى أمامه. بدا "جاكوب" غارقًا فى الأفكار وكأنه يجاهد نفسه.

"ولكن انظر.. لقد راودنى حلم، ربما تظن أن الأمر غبى ولكن اسمع: لقد حلمت بك وأنت وحدك وكان هناك خطر، أعتقد أنه يجب أن آتى معك."

طرد "دونالد" الحركة المرتبكة لأمعائه فى معدته، ورفع صوته أكثر ليطارد الخرافات فى نفس "جاكوب" وفى نفسه هو أيضًا، إنها خرافات الهنود الأصليين ـ لم يكن يعتقد أن "جاكوب" فريسة لمثل هذه الخيالات.

"أنا لست متفاجئًا أنك كنت تحلم مع كل جبن الماعز اللعين الذى يأكلونه هنا؛ إنها كافية لتسبب الكوابيس لأى أحد!".

لم يشركه "جاكوب" الضحك،كان يعرف أنه تم توبيخه.

"من المهم أن تُبقى عينيك على الفتى،فقد يقول... شيئًا مهمًا، يجب أن تحاول وتكسب ثقته."

بدا "جاكوب" غير واثق.. لكنه أومأ برأسه.

"هلا ذهبت وأخبرت السيد "باركر" أننى سوف أصحبهما؟"

عندما ذهب "جاكوب" جاءت لـ"دونالد" رغبة مفاجئة أن يصيح خلفه، ليعبر عن امتنانه الصادق لاهتمامه ـ إلا أنه ليس فى محله ـ ولصداقته، فـ"جاكوب" هو الشخص الوحيد هنا الذى يهتم لأقل شىء يحدث له،ثم أوقف نفسه؛ إنه رجل بالغ ولا يحتاج إلى خادم من السكان الأصليين ليعتنى به... ولا حتى "جاكوب".

تأمل "دونالد" فى التغيير الذى طرأ على علاقتهما، فبعد الرحلة إلى "دوف ريفر" وعواقبها المشئومة كان هناك تقارب بينهما والذى لابد أنه كان يقدره أكثر مما كان يعرف.. طالما أنه الآن يندم على غيابه. أرجع "دونالد" ذلك إلى حقيقة أنه الرئيس الآن، فى حين أنه من قبل كان "ماكينلى" يعامل كلاهما بنفس نوع الاحتقار العذب، وكانا (أو على الأقل "دونالد") يعكسان هذا الاحتقار عليه فى صورة أكثر خفوتًا. الآن يرى "ماكينلى" فى ضوء مختلف،يتفهم أكثر لتعقيدات القيادة. حسنًا... كان والده يخبره دومًا أن الحياة ليست بنزهة ـ بكلمات أخرى ـ ليست موجودة لنستمتع بها،كطفل اعتاد أن يجدها فكرة غير عادية.. مزعجة، ولكن الآن تبدو كلمات والده منطقية. أن تكون بالغًا هو أن ترتفع إلى تحديات غير مأمونة ومزعجة. أن تتجنب الصداقة فى سبيل المسئولية. أحيانًا يجب أن تتخلى عن أن تكون محبوبًا لكى تحظى بالاحترام، وشىء آخر قد حدث له: شىء توافق مع أفكاره عن "سوزانا"،فقط بالاحترام يمكن للرجل أن يفوز بالحب حقًا.. بينما بالنسبة للمرأة.. يجب أن يحتوى الحب على عنصر الإعجاب.

نظر إلى خطابات: خطابات الحب.. افترض ذلك رغم أنها لا تحتوى على أى شىء ذى طبيعة عاطفية، إنه لمبكر جدًا لمثل هذا الشىء... رغم أنه فى يوم ما.. من يعرف.. هناك أربعة خطابات مطوية بعناية ومعنونة، سيعطيها لـ"بير" ليرسلها إلى "دوف ريفر" عندما يسمح الطقس. إنه مسرور بالخطابات، التى طبعها فى غرفته مزينًا إياها بمتاهات فلسفية ملتوية، والتى أخذت كتابتها مساءين طويلين دون أى مشروب كحولى، تخيل "سوزانا" تقرؤها وتحتفظ بها فى جيب أو ملفوفة فى منديل معطر (المنديل الذى أعطاه لها؟) فى درج ما.

مع تدفق المشاعر.. حاول أن يستحضر صورة وجهها فى اللحظة المميزة عندما ابتسمت له فى المكتبة، لكنه وجد ـ لفزعه ـ أنه لا يمكنه تثبيت وجهها تمامًا فى ذهنه، لديه انطباع غامض عن ابتسامتها.. الشعر البنى الناعم الخفيف.. البشرة الشاحبة المتألقة والعينان البندقيتان، ولكن

الأجزاء لا تنفك تتغير وتخبو.. وترفض أن تتألف فى كيان بشرى معروف. ولسبب ما يستطيع تذكر وجه أختها "ماريا"،ووالدها بوضوح مثالى ثلاثى الأبعاد،ولكن شكل "سوزانا" كان من المستحيل الوصول إليه.

جلس ليكتب ملحوظة قصيرة لها، ليخبرها عن رحلته المقبلة، كان مشتتًا ما بين رغبته فى أن يجعلها تبدو خطيرة وجريئة، ورغبته فى ألا يجعلها تقلق كثيرًا إذا ما تلقتها قبل عودته. فى النهاية جعلها تبدو غير مهمة.. قائلا إنه سيعود إلى "كالفيلد" فى غضون ثلاثة أسابيع على الأرجح، وإنها سوف تكون فرصة جيدة ليمثل الشركة ويقابل وكيلا آخر،؟ بينما يريح ذهنه كذلك ويحسم أمر إدانة "فرانسيس". وأكد على أفضل تمنياته وطلب منها - فى فقرة منفصلة أدهشته قليلاً - أن ترسل تحياته الدافئة لأختها. حدق فى الصفحة للحظة... متسائلاً إذا كان الأمر يبدو غريبًا، ولكن ليس هناك وقت لينقل الخطاب بأكمله مرة أخرى، وبذلك أغلقه فى ظرف ووضعه مع الخطابات الأخرى.

***

إنها الساعة العاشرة مساءً من يوم الخميس، ثلاثة أسابيع مضت منذ وُجدت جثة "لوران جاميه". حدقت "ماريا" خارج نافذة مكتب أبيها.. رغم أنه لم يكن هناك شىء لتراه، يمكنها تبين رماح الأمطار تتساقط بشدة على وحل ما كان يفترض أنه الحديقة،لكنها الآن تماثل حظيرة الماشية. ما وراء ذلك فقط الظلمة المنتشرة.. حيث حُجُب من الماء تظهر من وقت لآخر مغطاة بشكل أو بآخر بالرياح التى تلتقط ضوءًا من مكان ما لا يعلمه أحد.

داخل المنزل ليس أفضل كثيرًا، فبعد أحداث الظهيرة.. رقدت السيدة "نوكس" على وجهها فى غرفة نومها تحت تأثير شىء ما أعطاها إياه دكتور "جراى" منذ ساعة. كانت أقل حزنًا مما اعتقدت "ماريا"، ولكن كان الطبيب مقتنعًا فى الحديث عن أخطار صدمة مؤجلة، لذلك شجعت "ماريا" أمها على ابتلاع الدواء. كانت "سوزانا" مستاءة بطريقة أكثر علانية، ولكن هذه

هى طريقة "سوزانا" ـ عاصفة فجائية تتبعها سموات صافية، وحتى هذه اللحظة مازالت الأجواء عاصفة، رغم أنها من موقعها هذا لم تكن تسمع شيئًا.. كان المنزل غارقًا فى صمت كالموت.

بعد بعض المناقشات.. الكثير من المناقشات، حيث إن كبار البلدة لم يستطيعوا الاتفاق حيث إن الأمر يعد سابقة جديدة من نوعها، تم وضع والدها فى الحجز بتهمة منع العدالة من أن تأخذ مسارها. ولأنه رغم كل شىء هو الحاكم المفترض لهذا المجتمع وليس غريبًا قذرًا مختلط الأعراق، فلم يتم احتجازه فى المخزن: ولكن قُرر أنه يجب أن تحدد إقامته فى منزل "جون سكوت"، وهذا يعنى أنه سيُغلق عليه فى غرفته بجانب غرفة السيد "ستاروك" وسيتم إحضار وجباته اليومية إليه،الغرفة مشابهة جدًا لمكان إقامة السيد "ستاروك" وأجرتها واحدة،ولكن والد "ماريا" لن يضطر للدفع مقابل تلك الميزة.

جاء "جون سكوت" مع السيد "ماكينلى" و"آرتشى سبتس" وطرقوا على الباب عند الساعة الخامسة والنصف من هذا المساء، أجابت "ماريا" على الباب ثم قادتهم إلى حجرة الرسم بينما تحضر والدها. تحدثوا خلف الباب المغلق لعشرين دقيقة قبل أن يخرج والدها ليشرح أنه ـ فى الواقع ـ محتجز. كانت هناك ابتسامة خفيفة تلعب حول فمه وكأنه يستمتع بمزحة خاصة. بينما زوجته تعترض وهى غاضبة بشدة وجافة العينين، و"سوزانا" تنتحب.. وقفت "ماريا" ولم يكن فى وسعها التفكير فى أى شىء لتقوله. دخلت أمها إلى حجرة الرسم وأذهلت الرجال هناك، جلسوا مفتوحى الأفواه وخاضعين بينما هى تصب جام غضبها عليهم. كان من الواضح أن "جون سكوت" قد تراجع بخصوص خطة احتجاز والدها بالفعل فى منزله، ولكن "ماكينلى" وقف ثابتًا.. عيناه وفمه يفضحان فرحته. أغلق والدها النقاش بأن قال إنه سيبقى على الطريق، فقط إلى أن يتمكنوا من إحضار الحاكم من "سانت بيير" ليقوم بمهامه. سأل بلمحة من السخرية إذا ما كانوا سيحددون مبلغًا ككفالة، وكان من الواضح أن الرجال قد نسوا كل

شىء عن مثل هذا الأمر، فتح "جون سكوت" فمه ولكن لم يصدر عنه أى صوت،تنحنح "ماكينلى" وقال إنهم سيفكرون فى هذه المسألة خلال الليل ويحددون مبلغًا غدًا. كانت المشكلة أنهم يحتاجون بالفعل أن يسألوا أباها ماذا يفعلون.

فى النهاية وضع "نوكس" حدًا للأمر باقتراحه أن يذهبوا؛ حيث قال إن وقت العشاء قد حل وأنهم يتركون الطهاه ينتظرون. بالطبع كان يقصد بكلامه "مارى" فى مطبخهم، ولكن بدا وكأنه يوبخ معتقليه على تأخيره عن موعد عشائه،فعبس "ماكينلى" رغم أن والدها لم يبد عليه أنه لاحظ. كان هناك استخفاف فى سلوكه.. فكرت "ماريا": كان الأمر تقريبًا وكأنه مسرور لكونه معتقلاً، وكأنهم قد وقعوا فى فخ ما من صنعه هو. شاهدت الثلاث سيدات زوجهن وأباهن وقد قادوه الرجال الآخرون خارج المنزل، بعد أن سألهم إذا ما كانوا يريدون استعارة مظلات أو أحذية واقية. ولكن "ماكينلى" والآخرين رفضوا رغم أنها كانت تمطر بغزارة وقد كانت هناك العديد من الأحذية الواقية الاحتياطية.

***

استمع "ستاروك" لصوت خطوات الأقدام الصاعدة على درجات السلم، كان يستريح فى فراشه ويفكر فى السيدة "روس" وهل التقت بابنها ـ الذى بلا شك ـ فى ذهنه ـ قد أخذ قطعة العظم معه. جعلته الأحداث الفوضوية للأيام القلائل الماضية يعتقد أنه لا يجب أن يبقى هنا بعد الآن. فالآن... بدأ الثلج يذوب، ربما حان الوقت لهروبه. ولكن أى مكان سيذهب إليه سيكون فقط أبعد عن الشىء الذى يرغب به، وبالطبع يجب عليهم جلب الفتى عودة إلى هنا عندما يجدونه. تنهد.. أصبحت زجاجة الويسكى التى كانت خير صحبة للأيام القلائل الماضية فارغة تقريبًا. إنها قصة حياته.. أن يكون قريبًا لكن مازال بعيدًا للغاية من تحقيق أى شىء له قيمة تدوم،وأن ينفد من عنده التراب.

عند هذه النقطة من تأملاته رفع نفسه ليقوم ويكتشف ما كل هذه الضجة من حوله: جار جديد.. ربما. فتح الباب ليرى السيد "ماكينلى" من

الشركة و"جون سكوت"، بصحبة رجل لا يعرفه. جاء "سكوت" ناحيته بعد أن أغلق باب الحجرة المقابلة.

"آه.. سيد "ستاروك"، كنت على وشك المجيء لأخبرك..."

"جار جديد؟" سأل "ستاروك" بابتسامة،فاحتمال وجود بعض المحادثة الطيبة تدعو للتفاؤل.

"ليس بالضبط؟" لاحظ "ستاروك" نظرة الازدراء التى ألقاها "ماكينلى" على رأس "سكوت" من الخلف. "لا.. وجدنا أنفسنا فى هذا الموقف المريك.. إحم.. لاضطرارنا أن نحدد إقامة الحاكم.. السيد "نوكس" وطالما أننا لا نستطيع وضعه فى المخزن.. هاها.. فبدا أن هذا المنزل سيكون مناسبًا تمامًا مثل أى مكان آخر بالنسبة للوقت الحالى."

توقف "سكوت".. حبيبات خفيفة من العرق على جبهته،بدا الرجل تحت ضغط واضح،وجهه وردى اللون كما لم يكن من قبل.

"أرجو ألا يكون ذلك مقلقًا لراحتك يا سيد "ستاروك"." كانت هذه من "ماكينلى".

سأل "ستاروك" بنبرة مرحة تقريبًا: " أنت تعنى أنكم تحبسون "نوكس" فى هذه الحجرة هناك؟ ماذا فعل بحق الجحيم؟"

تبادل الرجال النظرات وكأنهم يتساءلون إذا كان من حق "ستاروك" أن يعرف مثل هذه المعلومات.

"لقد اتضح أن هروب السجين لم يكن حادثة، لقد حرره "نوكس" وبذلك أوقف مسار العدالة."

أصبح "ستاروك" واعيًا بحاجبيه وهما يحاولان الزحف صعودًا إلى جبهته لينضما إلى شعر رأسه. "يا إلهى! أهو مجنون؟"

خطر على ذهنه فجأة أن "نوكس" سيستمع إلى كل كلمة ـ حيث سيكون من الصعب ألا يفعل. "أقصد أن أقول.. يا له من شيء غير عادى."

"غير عادى.. هو كذلك."

همَّ "ماكينلى" بالابتعاد، فشعر "ستاروك" بموجة من الكراهية.

"حسنًا.. حسنًا.. "

"هذا صحيح."

قال "سكوت" بنبرة التحدث العادية: "سيكون العشاء جاهزًا قريبًا يا سيد "ستاروك"."

"شكرًا لك.. شكرًا لك."

عند إشارة "ماكينلى" اتجه الرجل الآخر لينزل الدرج.. تاركًا "ستاروك" يحدق فى الباب المغلق. عندما اختفت خطوات الأقدام بعيدًا نادى بصوت منخفض: "سيد "نوكس"؟ سيد "نوكس"؟"

"أسمعك يا سيد "ستاروك"."

"هل هذا حقيقى؟"

"نعم.. إنه حقيقى."

"حسنًا... هل أنت على ما يرام؟"

"مستريح إلى حد ما.. شكرًا لك. أعتقد أننى سأذهب للفراش الآن."

"حسنًا.. تصبح على خير، أعطنى صيحة فقط إذا.. حسنًا، إذا أردت أن تتكلم مع شخص ما."

لم تكن هناك إجابة بعد ذلك،تساءل "ستاروك" إذا كان هذا يعنى أن مصدر دخله قد نضب.

كان "ستاروك" بالدور الأسفل بجانب الموقد فى متجر "سكوت" الذى يصبح حانة بعد حلول الظلام،عندما دخلت "ماريا نوكس". حافظت الأمطار على وقعها العنيف لعدة ساعات؛ كان الثلج قد اختفى تمامًا وأصبح مواطنو "كالفيد" يمشون فى الوحل الذى يصل إلى كواحلهم. كان

الوقت متأخرًا لكنه لا يستطيع تذكر إلى أى حد كان الوقت متأخرًا، لكنها على الأرجح جاءت للتحدث إلى أبيها. إلا أنها اتجهت مباشرة إليه، إنه يعرف من تكون رغم كونهما لم يتحدثا من قبل قط.

"سيد "ستاروك".. أنا "ماريا نوكس"."

أحنى رأسه بجدية احترامًا لموقفها،وقد اتضح حزنه وجديته أكثر بالخمس كئوس أو ما إلى ذلك من الويسكى التى شربها، والذكريات التى كان غارقًا فيها على مدى الساعة الماضية.

"أعرف أن الوقت متأخر، ولكنى كنت أرجو أن أتحدث معك."

"تتحدثين معى؟" أحنى رأسه مجددًا ـ بالفعل لابد أنه سكران تمامًا ـ ولكن بأدب هذه المرة. "سيكون هذا سرورًا لا أستحقه."

"لا حاجة بك إلى النفاق، أردت التحدث على شخص ما.. حسنًا.. أنت لست واحدًا منا، ويبدو أن البلدة قد جُنت تمامًا."

كان صوتها منخفضًا، رغم أنه لم يكن هناك أحد على مرمى السمع. "هل تعنين معضلة والدك؟".

نظرت له نظرة غاضبة ومقيتة فى الوقت نفسه. "أنا لا أعرف ماذا أفعل هنا،اعتقدت أنه السيد "مودى" ـ رجل الشركة ـ تحدث عنك وبدا أنه قد كون انطباعًا حسنًا، رغم... كل شىء. السماء وحدها تعلم ماذا توقعت...."

أدرك ـ فالشراب جعله بطىء البديهة ـ أنها على حافة البكاء، وأن حنقها نابع من غضبها من نفسها. "لا أعرف مع من أستطيع التحدث، فأنا قلقة جدًا.. قلقة جدًا حقًا. أنت رجل ذو خبرة يا سيد "ستاروك"، ماذا كنت لتفعل لو كنت فى نفس ظروفى؟"

"بشأن والدك؟ هل هناك شىء يمكنك فعله غير الانتظار؟ أعتقد أنهم قد أرسلوا لإحضار الحاكم من "سانت بيير" فى الصباح، أو عندما تسمح الطرق."

"هل تعتقد أن الطرق لا تسمح؟"

"مع مثل هذا الطقس؟ أشك فى الأمر كثيرًا."

"كنت أفكر فى الذهاب الليلة لكى أكون هناك أولا، فليس هناك أية إشارة لما سيقولونه عنه."

"يا فتاتى العزيزة... لا يمكن أن تكونى تعنين ذلك، أن تتكبدى عناء الرحلة الليلة فى مثل هذه الأمطار.. سيكون هذا جنونًا، وسيصاب والدك بالرعب، سيكون هذا أسوأ شىء يمكنك فعله به."

"أتظن ذلك؟ ربما أنت على حق. فى هذه الحالة.. الحقيقة أننى جبانة جدًا لأقوم بمثل هذه الرحلة بمفردى. يا إلهى!" اخفت وجهها فى يديها ولكن لثانية واحدة، لم تنهر أو تنفجر فى الدموع، شعر "ستاروك" بالإعجاب تجاهها وطلب شرابًا لها وواحدًا آخر له.

"لقد كنت تعرف مسيو "جاميه".. أليس كذلك؟ ما الذى تعتقد أنه حدث له؟"

"لم أكن أعرفه جيدًا لهذه الدرجة، لكنه كان رجلا ذا أسرار كثيرة، والرجال ذوو الأسرار يكون لديهم ـ ربما ـ أعداء أكثر من هؤلاء الذين دون أسرار."

"ما الذى تتحدث عنه بحق السماء؟"

"فقط أن.. إحم.. حسنًا، لقد جئت إلى "كالفيلد" ـ ومازلت هنا ـ لأننى أردت شراء غرض يملكه "جاميه"، وكان هو يعرف ذلك،فقط هذا الغرض قد اختفى."

"سُرق؟"

"يبدو الأمر كذلك على الأرجح، ربما سرقه "فرانسيس روس"،لذلك فأنا أنتظر عودته."

"هل تعتقد أن "فرانسيس" قتله إذًا؟"

"أنا لم أكن أعرفه على الإطلاق لذلك لا يمكننى القول."

"أنا فعلت.. أعنى.. أنا أعرفه."

"وماذا تعتقدين؟"

صمتت "ماريا" محدقة فى كأسها - الشيء الذى فاجأها أنه كان فارغًا. "كيف يمكنك أن تعرف ما الذى بوسع الناس فعله؟ لقد اعتقدت أننى كنت أحكم على الناس بطريقة جيدة فى الماضى، فقط ليثبت أننى كنت مخطئة تمامًا."

***

فى الصباح الذى يفترض أن يغادر فيه الآخرون دخل "جاكوب" ووقف بجانب الفراش، وتحدث إلى "فرانسيس" لكنه كان ينظر إلى الحائط.

"لا أفترض أنك ستذهب إلى أى مكان، ولكن إذا فعلت فسوف أطاردك وأكسر ساقك الأخرى.. هل تفهم؟"

أومأ "فرانسيس" برأسه.. وهو يفكر فى الندبة التى فعلتها السكين التى جعلت "دونالد"يراها.

"لذلك فأنا لست بحاجة للجلوس هنا طوال اليوم."

هز "فرانسيس" رأسه.

لذلك كان متفاجئًا عندما دخل عليه "جاكوب" مرة أخرى،كان "جاكوب" قد وجد قطعة من الخشب فى المخزن.. كانت مستقيمة وقوية - جذع شجرة بتول، وكان طولها مناسبًا تمامًا. قام بتعرية الجذع من اللحاء الخارجى والأغصان الصغيرة وأى تعريجات، وأدار قمتها التى على شكل شوكة لتصبح على شكل Y . شاهد "فرانسيس" يديه بانبهار كسول، من المدهش كيف تحول الجذع وقد أخذ سريعًا مواصفات عكاز. لف "جاكوب" قمة الجذع بقطع من بطانية قديمة.. والتى لفها حول الخشب مثل الضمادة.

"يجب أن ألفها بالجلد وإلا ستبتل."

" تبتل خلال هروبى.. أنت تعنى."

فى البداية.. عندما كان "فرانسيس" يقول أشياء غبية أو لا مبالية.. غير مهتم بما سيظنه بشأنه،لم يكن "جاكوب" متأكدًا إذا ما كان "فرانسيس" يمزح أم لا، كان فقط ينظر إليه بشك.. ووجهه متأثر، هذه المرة ـ رغم ذلك ـ ابتسم،ففكر "فرانسيس" أنه ليس أكبر منه بكثير.

سيكون الأمر مريحًا ـ لكليهما على ما يعتقد ـ أن يتحررا من "مودى" المتوتر والقلق، ومريحًا له ليتحرر من أمه كذلك.. رغم أنه يشعر بالذنب عند اعترافه بذلك. فعندما تكون فى الحجرة يكون هناك ثقل من كلمات لم تقل يجثم على كليهما فبالكاد يستطيعان التنفس. قد يأخذ الأمر سنين لقول كل تلك الكلمات.. فقط لتنحيتها عن الطريق.

جاءت أمه لحجرته قبل أن تغادر مباشرة ونظرت إلى "جاكوب" الذى نهض وغادر دون أية كلمة، جلست بجانب فراشه وطبقت يديها معًا.

"نحن مغادرون، سوف نتتبع الأثر الذى سبق وتبعته أنت ـ السيد "باركر" يعرف إلى أين يؤدى، إنه لأمر مثير للشفقة أنك لا تستطيع المجىء، فى حالة أننا رأينا الرجل. ولكن على الأقل يمكننا البحث."

أومأ "فرانسيس"، كان وجه أمه مليئًا بالإصرار والعزم، لكنها بدت متعبة.. فالخطوط حول عينيها واضحة أكثر من المعتاد،شعر بموجة من الامتنان لها.. لقيامها بما كان عليه هو القيام به رغم خوفها الشديد من البرية.

"شكرًا لك.. أنت شجاعة لقيامك بهذا."

تشنج كتفاها، وكأنها متضايقة، لكنها لم تكن كذلك؛ إنها مسرورة. لمست بأيديها وجهه.. تمرر أصابعها على فكه،شخص آخر كان يفعل شيئًا مماثلا من وقت لآخر،حاول "فرانسيس" ألا يفكر فى ذلك.

"لا تكن سخيفًا، سأكون مع "باركر" و"مودى"، ليست هناك شجاعة فى الأمر."

تبادلا ابتسامات خجلة متحفظة، قاوم "فرانسيس" رغبة شديدة.. اجتاحته تقريبًا فى أن يخبرها بالحقيقة، ستكون راحة كبرى له أن يخبر شخصًا ما.. لكى يضع الحمل عن ظهره. لكن حتى فى اللحظة التى سمح فيها لنفسه أن يتخيل مثل هذه الرفاهية.. عرف أنه لن يقول شيئًا.

ثم قالت ـ لمفاجأته " – أنت تعرف أننى أحبك.. أليس كذلك؟"

شعر "فرانسيس" بالإحراج.. فأومأ برأسه.. غير قادر على لقاء عينيها لسبب ما.

"ووالدك يحبك أيضًا."

فكر "فرانسيس" لا إنه لا يحبنى.. ليس لديك فكرة عن مدى كرهه لى. لكنه لم يقل شيئًا.

"هل هناك شىء آخر فى وسعك إخبارى به؟"

تنهد "فرانسيس".. هناك أشياء كثيرة هى لا تعرفها.

"يعتقد السيد "مودى" أن قطعة العظم قد تكون مهمة، إذا كانت قيمة.. فمن الممكن أن تكون... سببًا. هلا سمحت لى أن آخذها؟"

لم يكن "فرانسيس" يريد التخلى عنها.. لكن لا يمكنه التفكير فى مبرر مقنع للاحتفاظ بها، لذلك سلم الحقيبة الجلدية وبها القطعة لأمه. أخرجتها، ونظرت إليها، كانت قد قرأت الكثير وتعرف الكثير.. لكنها حدقت عابسة فى العلامات الصغيرة المدببة وهى غير فاهمة.

غمغم قائلاً: "حافظى عليها."

حدجته بنظرة، لطالما كانت هى التى تحافظ على الأشياء.

فى الصيف الماضى.. قبل أن تنتهى الدراسة، والتى انتهت مبكرًا لتسمح للأولاد بمساعدة الآباء الذين ليس لديهم ما يكفى من العمال،

حدث له شيء غير مسبوق. لم يكن قد فكر كثيرًا في مثل هذه الأشياء قط.. كان "فرانسيس" ـ مثل أي فتى آخر على مدى عشرة أميال ـ قد وقع في حب "سوزانا نوكس".

كانت تكبره بعام في المدرسة وكانت بلا شك جميلة جميلات هذا العام؛ رشيقة ومستديرة.. فرحة ذات وجه حلو رائع. كان يحلم بـ"سوزانا" خلال الليل والنهار يتخيل نفسه معها ـ في سيناريوهات عديدة .. غامضة لكنها رومانسية، مثل التجديف بقارب في الخليج،أو هو يريها أماكن الاختباء السرية الخاصة به في الغابة. كانت رؤيتها تمشي وهي تمر بالفصل،أو سماع ضحكتها مع أصدقائها في فناء المدرسة كفيل بأن يرسل ارتعاشًا رائعًا مثيرًا خلال جسده؛ بشرته تقشعر.. نفسه يتقطع.. رأسه تنبض بالدماء. كان ليدير رأسه بعيدًا.. مدعيًا عدم اهتمامه، وحيث إنه لم يكن لديه أصدقاء مقربون.. فسره كان مخبأ جيدًا. كان يعلم جيدًا أنه ليس وحيدًا في هذه العاطفة،وأنه يمكنها أن تختار ممن هم أكبر سنًا وأكثر شهرة، لكن لم يبد أنها تعطي تفضيلاً خاصًا لأي منهم. ولم يكن ليهم على الأرجح لو فعلت.. لم يكن الأمر وكأنه يتوقع حدوث أي شيء كان يكفيه أنه يمتلكها في أحلامه.

كانت هناك مناسبة ـ النزهة الصيفية السنوية، والتي تقام كل عام في نهاية الفصل الدراسي،عندما تقوم المدرسة بأكملها بتكبد عناء السير إلى امتداد ضيق لشاطئ رملي على الخليج. تحت أعين كسولة لمدرسين ملولين يقومون بأكل الشطائر وشرب بيرة الجنزبيل والسباحة، يصيحون ويقفزون حتى حلول الظلام. انتهى الأمر بـ"فرانسيس" بالذهاب لأن "سوزانا" سوف تكون هناك،وهو الذي كان يكره عامة مثل هذه المناسبات من الفرح المفروض وكان يفكر في تجنبها، وبينما كانت على وشك مغادرة المدرسة.. ولم يكن يعرف كيف سيلتقط النظرات الحلوة السريعة منها التي تغذي عاطفته.

وجد بقعة غير بعيدة عن المكان الذي جلست فيه "سوزانا" وبعض من فتيات السنة النهائية،فقط لتنضم إليه بعد دقيقة "إيدا بريتي". كانت "إيدا

بريتى" تصغره بعامين وجارته. كان يستلطفها.. بعيدًا عن أسرتها الكبيرة؛ كانت حادة اللسان ومرحة.. ولكنها تستطيع أن تكون مصدر إزعاج حقيقى. كنت تستلطف "فرانسيس" ودائمًا ما تضايقه؛ حيث كانت تشاهده باهتمام مستمر (لكن ليس بخفاء) وهو يشاهد "سوزانا".

الآن جلست ومعها سلتها وظلت عيناها وهى تنظر فى المياه.

"أظن أنها ستمطر فيما بعد، انظر إلى السحاب، كان من الممكن أن يختاروا يومًا أفضل للنزهة.. ألا تعتقد هذا؟"

بدت مليئة بالأمل. ساخطة ومتوحدة مثله، كانت تشاركه ارتياعه مما يفترض أن يكون جماعيًا ومسليًا فى الوقت نفسه.

"لا أعلم، أظن ذلك."

كان "فرانسيس" على أمل أنه لو لم يتحدث إليها كثيرًا ستفهم تلميحه وتذهب بعيدًا، كان هذا السؤال يلعب فى ذهنه: هل سيكون الأمر أفضل أن يُرى جالسًا وحيدًا فى مزاج سيئ، أو مع إحدى طالبات المدرسة الأصغر سنًا المزعجين، ولكن من محادثة "سوزانا" العميقة الهامسة مع أصحابها الفتيات.. لم يبد أنها ـ على الأرجح ـ ستلاحظ أي شيء يفعله. وكان هناك العديد من الصبية الأكبر سنًا يحومون ويهتمون بشئونهم بتباه.. ولكن يفعلون ذلك على مرمى عين من فتيات السنة النهائية؛ يلعبون بعنف ويصيحون بمرح ويتنافسون على إلقاء الأحجار لأبعد مسافة فى الماء.

بينما الشمس تتجه لأسفل.. انحسرت مستويات الأنشطة: تم أكل الشطائر.. وتم ضرب الذباب.. تهدلت الملابس، انقسمت مجموعة "سوزانا" إلى فرق صغيرة من فردين أو ثلاثة أفراد، وهى نفسها ذهبت فى نزهة على الأقدام مع "ماريون ماكى". رقد "فرانسيس على ظهره ورأسه على صخرة مستوية وسحب قبعته فوق عينيه. اخترقت الشمس النسيج الواسع.. مغشية عينيه بلطف. كانت "إيدا" قد غرقت فى صمت متذمر،وكانت تتظاهر بقراءة "بودنهيد ويلسون".

كان "فرانسيس" يجعل ضوء الشمس يتراقص على عينيه ثم يختفى بإدارة رأسه من ناحية إلى أخرى بدقة، عندما قالت "إيدا": "ما رأيك فى "سوزانا نوكس"؟"

"ماذا؟"

كان بالطبع يفكر فيها.. حاول أن يقصيها عن ذهنه بشعور بالذنب.

" "سوزانا نوكس"،ما رأيك فيها؟"

"إنها على ما يرام على ما أعتقد."

"يبدو أن الكل فى المدرسة يعتقدون أنها أجمل فتاة رأوها."

"أيعتقدون ذلك؟"

"حسنًا... نعم."

لم يكن بوسعه معرفة ما إذا كانت "إيدا" تنظر إليه أم لا، كان قلبه ينبض بقوة، ولكن بدا ملولاً بشكل مناسب.

"إنها جميلة للغاية."

"هل تعتقد ذلك؟"

"أظن ذلك."

كان هذا الحوار مستفزًا،فسحب "فرانسيس" قبعته من على وجهه ونظر إليها من خلال عينيه شبه المغلقتين. كانت جالسة ضامة ركبتيها.. وكتفاها حول أذنيها، ووجهها الصغير متقلصًا لأعلى متجهًا إلى الشمس وبدت بائسة وغاضبة.

"لماذا؟"

"هل هذا يهم؟"

"ما الذى يهم؟ إنها جميلة؟"

"نعم."

"لا أعرف، هذا يتوقف... أفترض ذلك."

"يتوقف على ماذا؟"

"على من يتكلم معك، أظن أنه يهمها هى.. يا إلهى يا "إيدا"."

سحب القبعة على عينيه مجدداً وبعد لحظة سمعها تقوم وتمشى مبتعدة بغضب. لابد أنه غرق فى النعاس... لأنه استيقظ عندما عادت وجلست مرة أخرى، تفزز قليلا متسائلا أين يكون، ولماذا كان يشعر بالحرارة. كانت القبعة قد انزلقت من على وجهه وغشيت عينيه.. علامات حمراء تتفجر أمام عينيه،شعر ببشرة وجهه مشدودة وملتهبة،عرف أنه سيصاب بحروق من الشمس.

"هل تمانع إذا ما جلست هنا لدقيقة؟"

لم يكن هذا صوت "إيدا"، قام "فرانسيس" بسحب نفسه لأعلى ليرى "سوزان نوكس" تبتسم إليه، جرت الصدمة أسفل عموده الفقرى مثل الماء المثلج.

"لا.. على الإطلاق."

نظر حوله.. بدا الشاطئ خاليًا أكثر من ذى قبل، لم ير مجموعة الفتيات التى كانت تجلس معهن فى أى مكان على مرمى البصر.

"أظن أننى كنت نائمًا."

"آسفة.. لقد أيقظتك."

"لا عليك إنه لشىء حسن.. حيث إننى أعتقد أننى سأصاب بحروق من الشمس."

لمس جبهته بلطف، مالت "سوزانا" ناحيته.. محدقة فيه من مسافة بدت قريبة جداً، كان بوسعه رؤية كل رمش من رموشها المستديرة على حدة؛ والشعرات الرفيعة الشقراء على وجنتها.

"نعم، يبدو وجهك أحمر قليلاً، لكنه ليس سيئًا بدرجة كبيرة،إنك محظوظ لكونك لديك البشرة التى ـ حسنا إنها داكنة إلى حد ما ـ أنت تعرف ما أعنيه؟ أما أنا.. فأحظى بنمش وأبدو مثل الفجل الأحمر."

ابتسمت ابتسامتها الساحرة،كانت الشمس خلفها جزئيًا وتعكس هالة مشعة حول رأسها.. فتحول شعرها البنى الفاتح إلى خصل من الذهب والبلاتين. كان "فرانسيس" يجد صعوبة فى التنفس، لكنه على الأقل لو احمر خجلاً الآن فلن تلحظ.

"إذًا هل تستمتعين بوقتك؟" نجح فى أن يقول أخيرًا.. بعد أن فشل فى التفكير فى أى شىء أكثر مهارة.

"ماذا.. هنا؟ أظن أن الأمر على ما يرام، بعض هؤلاء الصبية مزعجون جدًا. قام " أيلين بريتى" بدفع "ماثيو" فى الماء بملابسه كاملة وضحك عليه لمدة ساعة،كان هذا فعلا لئيمًا."

"أحقًا؟"

كان "فرانسيس" فرحًا فى سره،حيث إن لديه ماضى غير سعيد مع "أيلين"، من حسن الحظ أنه لم يكن هو من تم دفعه فى الماء.

بعد ذلك.. حاول بكل ما فى وسعه لكنه لم يستطع أن يأتى بأى شىء ليقوله، حدق فى الماء لفترة طويلة.. داعيًا أن يأتيه الإلهام. لم تبد "سوزانا" أى ضيق والتقطت أطراف شعرها،وبدا عليها الانغماس فى الأفكار.

"هل "إيدا" صديقتك؟"

جاء هذا على غير المتوقع حتى أن "فرانسيس" كان بوسعه بالكاد التحدث من الدهشة،ثم ضحك.. يا لها من فكرة غير عادية،ويا له من سؤال غير عادى.

"لا! أعنى.. هى مجرد صديقة، فهى تسكن بجوارى.. أنت تعرفين.. أعلى النهر،وهى تصغرنى بعامين." قال فقط للإضافة.

"أوه.. أنت تسكن بجوار آل "بريتى".. أليس كذلك؟"

لابد أنها كانت تعرف كما يعرف الجميع أين يعيش كل شخص آخر. شغلت نفسها أكثر بشعرها، ما الذى كانت تفعله؟ لم يستطع المعرفة؛ من الواضح أنه شىء دقيق ويتطلب تركيزًا شديدًا.

"أتعلم!!" ـ أخيرًا ألقت بخصلة الشعر جانبًا بحركة حازمة، وهزت رأسها مبعدة شعرها عن وجهها " سنقوم بالذهاب فى نزهة خلوية السبت القادم، فقط البعض منا.. أعلى عند بركة السباحة، يمكنك المجىء إن أردت، ستكون هناك فقط "ماريا" ـ أختى كما تعلم " ـ و"ماريون" و"إيما" وربما "جو"... "

كانت تنظر إليه ـ أخيرًا ـ وعيناها لا يمكن قراءتهما. رآها "فرانسيس" كشكل مظلم يحجب الشمس.. كانت ملامحها مضللة وقد غشيت عينيه مثل ملاك قداس يوم الأحد.

"يوم السبت؟ إحم... " لم يكن فى وسعه تصديق ما يحدث، ولكن يبدو أن "سوزانا"" ـ سوزانا نوكس" الواحدة الوحيدة ـ تدعوه إلى نزهة خلوية؛ نزهة خلوية خاصة.. مدعو إليها أقرب أصدقائها فقط (و"جو بيل".. لكن كان معروفًا عنه أنه دومًا مع "إيما سبينس"). ثم خطر فجأة على ذهنه أن كل هذا قد يكون مزحة بشعة. ماذا لو كانت قد جاءت لتسأله الذهاب فى نزهة ليس لها وجود؟ لو أنه ذهب السبت المقبل ليجد أن لا أحد هناك، أو الأسوأ.. أن يجد حشدًا من طلاب السنة النهائية يتفرجون ويضحكون بشدة على تصرفه الساذج. لم يكن يبدو أنها تمزح رغم ذلك، كانت لا تزال تنظر إليه،ثم أطلقت ضحكة قصيرة متوترة.

"يا إلهى! تجعل فتاة تنتظر، لماذا لا تفعل!".

"آسف.. همم.. الأمر فقط أننى على التحدث مع أبى.. لأرى إذا كان يحتاجنى فى العمل.. أولاً. شكرًا لكِ على أى حال.. يبدو الأمر ممتعًا."

كان قلبه يطرق بالقلق،هل قال ذلك بالفعل لتوه؟

"حسنًا.. أخبرنى إذا كان بإمكانك الذهاب.. اتفقنا؟" قامت على قدميها وهى غير متأكدة.

"نعم.. سوف أفعل.. شكرًا."

بدت أكثر جمالاً من المعتاد فى هذه اللحظة، وجهها جاد وجميل وهى تسوى شعرها. أعطته ابتسامة صغيرة وسارت مبتعدة. أعتقد أنها بدت

حزينة. رقد على ظهره وأعاد وضع قبعته فوق عينيه، لكى يستطيع مشاهدتها سرًا وهى تتجول عائدة إلى جزء آخر من الشاطئ،حيث انضمت مرة أخرى إلى بعض طلاب السنة النهائية. فجأة اعتراه إحساس بالتعجب،لقد دعته للذهاب فى نزهة،هى التى لم تتحدث إليه بأكثر من عشر كلمات من قبل قط: هى قد دعته للذهاب فى نزهة!.

شاهد "فرانسيس" بعض الأولاد الأصغر سنًا يدفعون بقطعة من الخشب الطافى فوق الماء الضحل، وهم يحركونها على السطح بطريقة خطرة بالقرب من سيقان بعضهم البعض، يتواثبون بخفة مبتعدين عن طريق ضربات المياه البراقة. كانت صيحاتهم الضاحكة بعيدة بشكل غريب. فكر فى السبت المقبل، كان والده قد كف عن طلب مساعدته فى أيام نهاية الأسبوع؛ فلم يكن يتوقع منه ذلك بالتأكيد. فكر فى النزهة عند بركة السباحة عند النهر.. حيث أشجار البلوط والصفصاف تصبغ الشمس على الماء بلون الشاى؛ والفتيات سيجلسن فى برك من القطن الشاحب وهن يرتدين فساتين الصيف الخفيفة.

وكان هو يعرف أنه لن يذهب.

رفقاء الشتاء

كان دكتور "واطسون" من نمط الأطباء المثابرين الذين يطرحون كل جديد من الأفكار، كان يريد أن ينحت لنفسه بصمةً خاصة ومشرفةً فى التاريخ ، أن يطرح الأبحاث وأن يبعث إليه لإلقاء المحاضرات ، حيث يكون محاطًا بالشابات المعجبات، غير أنه لم يكن يوجد فى محيطه سوى الشابات اللائى أصابهن الجنون بدرجة ما أو بأخرى، وقد اختارنى من بينهن ليمضى وقته تسلية إلى أن تسنح الفرصة ليغادر هذا المكان إلى دوائر الشهرة .

كان قد مضى على وجودى فى المصح العام عدة أشهر حين وصل دكتور" واطسون"؛ حيث كان المكان ـ قبل وصوله ـ يطن بالشائعات حول المدير الجديد، فالحياة فى مصح عقلى ـ فى نهاية الأمرـ مملة للغاية، ولذا فأى طارئ فى الأمور يغدو موضع القيل والقال، مثل تغيير رقائق الشوفان على الإفطار، أوتغيير الوقت المخصص للحياكة من الساعة الثالثة إلى الساعة الرابعة فى فترة المساء، لذلك كان قدوم مشرف جديد للمصح حدثًا جليلا فى هذا المكان: بمثابة وقود لأسابيع من الشائعات والتوقعات، ولم يخيب الدكتور " واطسون" ـ لدى وصوله ـ آمال الكثيرين و توقعاتهم؛ فقد كان صغيرالسن وسيمًا، مشرق الوجه ودودًا له رنة صوت رقيقة، فهامت كل امرأة فى المكان بحبه بين ليلة وضحاها، لست أدعى بأننى كنت لا أبالى إزاء الأمر تمامًا، إذ كان من المسلى رؤية بعض النساء يزين أنفسهن بزينة الشعر والورود فى محاولات منهن لخطف انتباهه، بالمقابل

كان "واطسون" ـ دومًا ـ جريئًا وساحرًا؛ فقد كان يأخذ بأيديهن ويغمرهن بالمجاملات، فتموج على وجوههن الابتسامات وحمرة الخجل، حتى صارت ليالى الصيف ـ فى عنابر النساء ـ باحةً تتمازج فيها التنهدات الحيرى.

بينما آثرت الانسحاب من ساحات الهيام تلك،إذ بى أفاجأ باستدعائى لمكتب "واطسون"، فما كان جل همى حينها سوى التساؤل عن أى خطأ قد ارتكبت.

وجدته يحوم حول جهاز غريب ضخم الحجم منصوب فى منتصف الحجرة، افترضت على الفور أنه ماكينة موصلة بأسلاك الدوش.. مصممة لتبعث فى المريض نوعًا من الإحساس المنبه أو ما شابه ذلك، لكنى لم أستطع أن أعرف ما هو وشعرت بالقلق إلى حد ما.

"آه.. صباح الخير يا آنسة "هاى"." نظر "واطسون" لأعلى وابتسم، بدا مسرورًا جدًا من نفسه، كنت مذهولة أكثر ـ فى الواقع ـ بالتغيير الذى حدث فى الحجرة؛ فقد كانت حجرة مظلمة وكئيبة فى عهد المدير السابق، كما كانت كريهة الرائحة،أما الآن فقد غدت جميلة (كان المصح بأكمله قد أصبح رائعًا على نحو كلاسيكى مذهل)؛ ذات سقف عال ونافذة واسعة تطل على الأراضى؛ فقد تخلص "واطسون" من الستائر الثقيلة من على النوافذ، وكان الضوء المتسلل من النوافذ الجنوبية يغمر الحجرة، كانت الحوائط مطلية بلون أصفر فاتح، ثمة ورود على المنضدة، وترتيبات طبيعية جميلة من الصخور والسرخس تزين الحائط.

قلت ـ والابتسامة بادية كالشمس على قسمات وجهى: "صباح الخير."

"أيعجبك مكتبى؟"

"نعم.. كثيرًا."

"جميل.. إن ذوقك مثل ذوقى، أعتقد أنه من المهم أن يجعل المرء الأشياء المحيطة به جميلة وجذابة، إذا كان المرء محاطًا بالقبح فأنَّى له أن يكون سعيدًا؟"

ظننته غير جاد بالمرة ، وغمغمت بغير معنى كرد على سؤاله ، ظننته سعيد الحظ كونه قادرًا على تغيير الأشياء المحيطة به لتغدو جميلة وجذابة.

استطرد قائلا: "بالطبع الحجرة أكثر جاذبية وأنتِ فيها."

رغم أننى أعرف أساليبه إلا أننى شعرت بشىء من الخجل عندها، لكنى حاولت إخفاءه بالنظر خارج النافذة على بعض نزلاء المصح، الذين كانوا فى هذه اللحظة يتجولون حول الحدائق.

لم يكن لحديثنا الذى دار لبضع دقائق من هدف، وظننت أنه كان يحاول أن يكوِّن فكرة عن نقاط ضعفى العقلية وإذا ما كنت أعانى من انفعالات عنيفة، بدا أنه قد سُرَّ بما كنت أقول، إذ شرع بعدها يشرح الآلة التى بمنتصف الحجرة، كانت فى الأصل صندوقًا لالتقاط الصور؛ قال إنه يريد أن يقوم بعمل دراسات على المرضى، فهو يعتقد أن هذا قد يحدث تقدمًا فى فهم الجنون وعلاجه، ورغم أننى لم أكن قط ماهرة فى معرفة كيف يفترض أن يحدث ذلك. بالتحديد بدا أنه يريد أن يلتقط صورًا لى.

"لديك وجه مناسب جدًا للكاميرا.. واضح ومعبر، وهذا ما احتاجه بالضبط."

كنت أشعر بالزهو لفكرة أنه قد لاحظنى وميزنى باهتمامه، حيث إن الأمر مثل إلهاء طيب بعيدًا عن الروتين اليومى؛ فالحياة فى المصح العقلى ـ كما قلت ـ رتيبة إلى أقصى حدودها، بغض النظر عن نوبات الصرع الغريبة أو محاولات الانتحار.

قال شارحًا وعيناه تركزان على مكتبه: "ما كنت أفكر فيه هو سلسلة من الدراسات عن... حسنًا.. عنك، فلنقل فى أوضاع نمطية لحالات عقلية معينة. إحم... على سبيل المثال.. هناك شىء نسميه عقدة "أوفيليا"، سميت بهذا على اسم شخصية فى مسرحية شهيرة عانت منها...."

نظر إلىّ عند ذلك ليرى إذا ما كانت ثمة دلالة على معرفتى بها بدت على وجهى.

قلت: "أعرفها."

"حسنًا.. ممتاز.. إذًا.. أنت ترين أن صورة توضيحية لهذا ستكون وضعية الحزن على الحب الضائع مع تاج من الأزهار وهكذا. هل تفهمين ماذا أعنى؟"

"أحسب ذلك."

"سيكون ذلك مساعدة كبيرة لى فى البحث الذى أكتبه، فالصور ستوضح موضوع رسالتى، بالتحديد الناس الذين لم يدخلوا مصحًا عقليًا من قبل قط ، ويجدون صعوبة فى تخيل الأمر."

أومأت برأسى بأدب، وعندما لم يسترسل سألته: "وما موضوع رسالتك؟"

بدا متفاجئًا قليلاً: "أوه.. نظريتى هى.. حسنًا. إن هناك أنماطًا معينة للجنون؛ سلوكيات وحركات جسدية معينة شائعة بين مختلف المرضى، والتى تشير إلى حالاتهم الداخلية. ورغم أن كل مريض له تاريخ منفرد، فإنهم يقعون فى مجموعات تتشارك فى طباع وسلوكيات، وكذلك أنه.... " توقف وقد بدا غارقًا فى الأفكار. "... بدراسة متكررة ومركزة لتلك السلوكيات، يمكننا اكتشاف المزيد من طرق علاج مثل هؤلاء المساكين التعساء".

"أها." قلت بإشراقة وجه متسائلة ما السلوكيات التى أميل إلى توصيلها بوصفى واحدة من هؤلاء التعساء. العديد من الصور غير المناسبة قدمت نفسها.

أكمل قائلاً: "وربما يمكنك مشاركتى الغداء فى تلك الأيام حين تتكرمين وتمنحيننى من وقتك؟"

سال لعابى لمجرد الفكرة، فالطعام فى المصح كان صحيًا لكنه دون طعم ودسم ورتيب، أعتقد أن هناك نظرية (ربما حتى رسالة) أن ثمة

أطعمة معينة تعد محفزة بشكل خطير، والكثير من اللحم ـ فلنقل ـ أو أى شىء غنى أو متبل بشكل كبير قد يشعل المشاعر الرقيقة ويتسبب فى هياج. كنت بالفعل مسرورة بفكرة كونى "موديل".. ولكن الوعد بطعام راقٍ وشهى كان كفيلاً ـ بحد ذاته ـ بإقناعى.

ابتسم وأدركت أنه كان متوترًا بالفعل: "حسنًا.. أدرك من ذلك أنك موافقة؟"

كنت مفتونة بكونه متوترًا ـ بسببى؟ من مجرد احتمالية أننى قد أقول لا؟ - وأومأت برأسى. لم يكن بوسعى مهما حاولت أن أفهم كيف سينتج التحديق فى صور نساء مغطيات بالزهور علاجًا للجنون، ولكن من أكون أنا لأقول ذلك؟

إلى جانب ذلك.. كان رجلا وسيمًا وطيبًا وصغير السن نسبيًا، وكنت أنا يتيمة فى مصح عقلى لا أحد لى ليدعمنى مع احتمال واهن للرحيل. ورغم غرابة الأحداث التى جاءت فى طريقى، فلم تكن على الأرجح لتغير حياتى إلى الأسوأ.

وبذلك بدأ الأمر، بداية كنت أذهب إلى مكتبه ربما مرة أو مرتين فى الشهر، يكون "واطسون قد جمع عددًا من الأزياء والأدوات اللازمة ليصنع السيناريو المطلوب، كان السيناريو الأول يدعى ـ على ما يبدو ـ مخاوف، والذى شعرت أننى أكثر من مؤهلة لتجسيده، كان قد رتب وضع كرسى بجانب النافذة، والذى جلست عليه مرتدية ثوبًا كئيبًا وأمسك بكتاب وأنظر بشغف خارجًا وكأننى ـ كما فسرها هو ـ أحلم بحبى الضائع، كان من الممكن أن أخبره أن هناك متاعب أسوأ فى الحياة من (عريس) رجل غير مخلص، لكنى أمسكت لسانى وحدقت خارج النافذة.. وأنا أحلم ـ بدلا من ذلك ـ بلحم الغزال المطهو بصلصة النبيذ ودجاج الكارى وحلوى الترافيل مع جوز الطيب.

عندما وصل الغداء كان شهيًا تمامًا مثل الذى جاءت به مخيلتى، أخشى أننى أكلت بنهم مزارع، كان يشاهدنى مبتسمًا، وأنا أتناول القطعة

الثانية والثالثة من تورَتة الكمثرى والقرفة، حشوت نفسى بالطعام، ليس لأننى كنت أتضور جوعًا، ولكن لأننى كنت تواقة للمذاق؛ للتوابل القوية ورقائق الطعام، كان تذوق التوابل والجبن والنبيذ للمرة الأولى منذ أربع أو خمس سنوات (باستثناء أعياد الميلاد "الكريسماس") خرافيًا، أعتقد أننى تكلمت بالكثير و كان يضحك بالمقابل وبدا مسرورًا للغاية، بينما كان يمشى معى إلى باب مكتبه أمسك بيدى فى كلتا يديه وشكرنى وهو يحدق فى عينى.

كما توقعت.. تم استدعائى إلى المكتب على فترات أكثر تقاربًا، وباعتياد كل منا على الآخر أصبحت الأوضاع أقل رسمية، وأعنى بذلك أننى كنت أرتدى تدريجيًا ملابس أقل فأقل، وانتهى الأمر بى ممددة إلى حديقة صغيرة وأنا متشابكة جزئيًا فى غطاء من قماش الموسيلين الرقيق الشفاف، أعتقد أن ادعاءاته بالإسهام فى تقدم العلوم الطبية بأبحاثه قد تمت تنحيتها جانبًا؛ فقد كان "واطسون" ـ أو "بول" كما كنت أناديه ـ يقوم بالدراسات التى تترك لديه متعة خاصة عند القيام بها، فإذا ما شعر بالذنب ـ أحيانًا ـ أطبق جفنيه متجنباً نظراتى ، وكأنه محرج من كونه يطلب منى القيام بتلك الأشياء.

كان ودودًا هادئًا، وكان مهتمًا بآرائى، الشىء الذى لم يكن يهتم به الكثير من الرجال الذين عرفتهم خارج المصح. أعجبت به وكنت سعيدة عندما وضع يده على يدى وهو يرتعش ذات يوم عند نهاية الوجبة. كان لطيفًا وقلقًا.. يخشى ارتكاب خطأ، وكان يعتذر كل مرة نتقابل فيها لكونه يستغلنى ؛ متراجعًا بذلك إلى طبيعته الأساسية، لم أمانع قط.. فبالنسبة لى كان الأمر سرًا مثيرًا.. رغبة قوية عذبة، رغم أنه كان ـ دومًا ـ متوترًا وقلقًا حين نتلاقى جسديًا ـ للحظات ـ بعد غداء رائع آخر خلف باب مكتبه المغلق.

وكانت رائحته مثل رائحة الصوبات الزجاجية.. مثل أوراق الطماطم والتربة الرطبة، رائحة حادة مفعمة،حتى الآن لا يمكننى تذكر تلك الرائحة

دون التفكير كذلك فى فطائر الفواكه بالكريمة أو لحم الاستيك المغموس فى البراندى؛ حتى تلك الليلة ـ بعد مضى كل هذه السنوات ـ فى خيمة شديدة البرودة فى الغابة، سال لعابى عندما شممت تلك الرائحة من "باركر"، وجاءتنى ذكرى تورتة الشيكولاتة اللاذعة.

لا أفترض أننى سوف أعرف قط بما حدث، فبطريقة ما كُشف أمر "واطسون"، ليس عن طريقى على حد علمى، وبالتأكيد لم يقل أى شىء، ولكن ذات صباح أعلن المتعهد أن دكتور "واطسون" اضطر إلى المغادرة بشكل مفاجئ، وخلال أيام سيأخذ مكانه مشرف آخر، و اختفى " واطسون " بين عشية وضحاها . لابد أنه أخذ الجهاز معه والصور التى التقطت فى جلساتنا تلك؛ كان بعضها جميلاً؛ داكنةً.. ذات ظلال فضية على زجاج تموج ألقًا حين تحركها فى الضوء؛ وهأنا الآن أسأل ألاتزال هذه الصور موجودة، عندما أشعر بالحزن ـ وكثيرًا ما يتكرر ذلك فى هذه الأيام ـ أذكر نفسى أنه كان يرتعش عندما يلمسنى؛ إننى كنت ذات يوم مصدر إلهام لشخص ما.

سرنا عبر السهول لثلاثة أيام ليس من شىء يحد مسيرنا وليس من شىء يمثل فى المشهد جديدًا، استمرت الأمطار فى الهطول ـ جالبة معها موجة من الدفء - لمدة يومين ؛ ما جعل من تقدمنا فى المسير أمرًا عسيرًا، كانت أقدامنا تغوص حتى الكاحل فى الوحل، لم يكن الأمر عصيبًا للغاية إلا أنه بوسعى أن أصر على القول إنه كان سيئًا بما يكفى؛ إذ كانت كل قدم تزن رطلين من الطين الملتصق بها، وتنورتى تتدلى مثقلةً بالماء، أما "باركر" و"مودى" فكانا يسيران بخطوات ثقيلة للأمام مع الزلاجة؛ لا تثقلهما تنانير مثلى.

توقفت الأمطار عن الهطول فى وقت متأخر من اليوم التالى؛ كنت ممتنة لأى من الآلهة الذين مايزالون يهتمون لأمرى حين ازدادت هبات الرياح ؛ جففت الرياح الأرض وأضحى السير أكثر سهولة ويسرًا، بيد أنها كانت رياحًا تهب من الشمال الشرقى باردة لدرجة اختبرت معها ظاهرة ـ

سمعت فقط عنها فى السابق ـ تجمد الدموع فى مآقى عيونى، وما هى إلا ساعة وأصبحت عيناى حمراوين التهابًا.

ها هو الآن " باركر" برفقته الكلبان يقفان بانتظار أن نلحق بهم على ربوة عالية قليلا وعندما وصلنا إليه ونحن نترنح رأيت ما سبب انتظاره: على بعد عدة مئات من الياردات مثلت للناظر مجموعة من المبانى ـ أول شىء من صنع الإنسان نراه منذ غادرنا "هيميلفانجر".

قال "باركر": "نحن على الطريق الصحيح." رغم أننى ما كنت لأحبذ كلمة طريق هذه.

قال "مودى" وهو يحدق فى المدى خلال نظارته: "ما هذا المكان؟" كانت عيناه بحالة سيئة ؛ وقد زاد الضوء الرمادى الكئيب الذى يكافح للتخلص من بين السحاب من حالهما سوءًا على سوء.

"لقد كان ذات يوم مركزًا تجاريًا."

بوسعى أن أرى من هنا أن ثمة شيئًا غير سار حدث لهذه البناية ؛ يحيط بها شر مهدد مثل ذلك الذى يحيط بمبنى فى كابوس.

"يجب أن نذهب ونلقى نظرة، فى حالة أنه كان هناك."

مع الاقتراب.. أدركت ما حدث. كان المركز قد تم حرقه حتى أصبح هيكلاً؛ كومة هزيلة من الأخشاب تتطلع إلى السماء؛ تحطمت ألواحه البارزة من كل زاوية لا يروق للناظر مرآها، بينما كان السواد يلطخ ما تبقى من حوائطه المنهارة ،ولكن أغرب ما فى الأمر أنها كانت لا تزال لتوها مغطاة بالجليد، الذى كان يذوب خلال النهار ثم يعود ليتجمد أثناء الليل، طبقة فوق طبقة من المياه المذابة وقد تجمدت بحيث أصبحت الأخشاب العارية متورمة تلمع بالثلج. كان مشهدًا غريبًا: أسود.. ضخمًا ومستديرًا... ولامعًا، كان الثلج يغلف المبانى، وكأنها قد ابتلعها كائن ضخم ما لا شكل له. ألهمنى المشهد.. وكذلك ألهم "مودى" أيضًا ـ على ما أعتقد ـ وبنوع من الرعب.

كنت أريد أن أبتعد عن المكان أكثر من أى شىء آخر، سار "باركر" بين الحوائط.. يدرس الأرض.

"أحدهم ترك ملابس." أشار إلى كومة لا شكل لها على الأرض فى أحد الأركان، لم أسأله لماذا قد يقوم أى شخص بفعل شىء مثل هذا، كان لدى إحساس أننى لا أريد أن أعرف.

"هذا "إلبو ريدج"، هل سمعت عنه؟"

هززت رأسى وأنا متأكدة لدرجة ما أن هذا شىء آخر سيكون من الأفضل عدم معرفته.

"تم بناؤه فى القرن العاشر، لم يعجب شركة "هدسون باى" حقيقة أنهم حاولوا بناء مركز هنا، ولذلك قاموا بحرقه."

"كيف كان بإمكانك معرفة ذلك؟"

حرك "باركر" كتفيه قائلاً: "الكل يعرف، فأشياء مثل هذه تحدث." ألقيت بنظرى تجاه "مودى" الذى كان قد اختفى على بعد ثلاثين ياردة خلال باب من الأبواب، يعبث بكتلة من الخشب والتى ربما كانت ذات يوم ـ منذ وقت طويل ـ بيانو.

عدت بنظرى إلى "باركر" لأرى إن كانت لديه أية نية للشر، لكن لم يبدُ على وجهه أى تعبير، التقط القماش الجاف المتجعد وفرده ـ اعترض الثلج فى أصوات صرير وتكسير ـ ليكشف عن قميص كان أزرق ذات يوم لكنه اليوم قذر لدرجة لا تسمح للمرء الآن التأكد من لونه أصلاً، فقد كان مُبتلاً ومليئًا بالبقع ومتعفنًا لطول ما ترك هنا.

أدركت فجأة ـ ولكن متأخرًا جدًا ـ معنى هذا.

"هل هذه دماء؟"

"لا أعرف. ربما."

عبث بالأشياء بحثًا ثم خار عن رضا، هذه المرة حتى أنا فهمت السبب ـ كل هذه الآثار للنيران... سواد ورماد.. قريبة جدًا من الحائط.

"حديثة؟"

"منذ حوالى أسبوع، إذن فرجلنا قد مر من هنا وقضى الليلة، وليس فى وسعنا شىء أسوأ من تقليده.

"نبقى هنا؟ أليس الوقت مبكرًا وينبغى أن نستمر، أليس كذلك؟"

"انظرى إلى السماء."

نظرت لأعلى.. للسحب التى قطعتها الأشعة السوداء إلى أشكال رباعية.. كانت منخفضة وداكنة بلون العاصفة.

كان "مودى" متفائلاً عندما علم بالخطة. "ولكن ما هذا، يومان آخران للوصول إلى "هانوفر هاوس"؟ أعتقد أنه من الأفضل أن نستمر."

رد "باركر" بهدوء: "ستكون هناك عاصفة، وسوف نكون سعداء بوجود مأوى."

بوسعى رؤية رأس "مودى" يدور، مقررًا ما إذا كان الأمر يستحق المجادلة أم لا، وما إذا كان "باركر" سيخضع لسلطته. ولكن الرياح تهب عاليًا وهو يفقد أعصابه، فالسماء أصبحت بشعة المرأى تنذر بشؤم العاصفة، كان هذا المبنى مأوى طيبًا فى مثل هذه الحالات رغم ما يمكن أن يتركه فى نفس أحدنا من قلق واستهجان.

أقمنا معسكرًا بين الأطلال، وقام "باركر" ببناء مبنى بسيط على واحدة من الحوائط المتبقية، ودعمه بقطع خشبية صغيرة قد اسودت من الحريق. كنت منزعجة عندما رأيت كم أن هذا المأوى أقوى بكثير من أى واحد رأيته يبنيه من قبل، لكنى اتبعت تعليماته وفككت الزلاجة. كنت قد أصبحت على مدى الأيام القليلة الماضية أكثر مهارة فيما يتعلق بالمهام الضرورية للراحة والبقاء على قيد الحياة؛ كومت الطعام بالداخل (هل

يعتقد فعلا أننا سوف نظل محتجزين هنا لأيام؟)، بينما "مودى" يجمع الأخشاب ـ هناك الكثير منها فى الجوار على الأقل ـ ويقوم بكشط الثلج عن الحوائط لتجميع مياه للشرب.

ما أن انتهينا من تحضيراتنا هذه حتى كان الجليد يدوِّم من حولنا... يلسع وجوهنا مثل سرب من النحل. زحفنا داخل المأوى؛ أشعل "باركر" نارًا ووضع ماء ليغلى. جلست أنا و"مودى" فى مواجهة المدخل، والذى كان مُؤمَنًا بعروق خشبية ضخمة، لكنها بدأت فى الالتواء والاندفاع، وكأن عصبة من العتاة يحاولون اقتحامه، على صرير الرياح و اشتدت قوتها خلال الساعة التالية حتى لم يعد بوسعنا سماع حديث أى منا لصاحبه، كان صريرها مخيفًا مرعبًا؛ قويًا ومزعجًا، يصاحبه أنين قطع الخيش المتصاعد وأزيز الحوائط الخشبية والتى كنت أرتاب حيال صمودها فى وجه الرياح العواتى أو تحت وطأة الثلج المتساقط كجبال من السماء، لم يبد على "باركر" القلق فى حين أننى كنت لأراهن على أن "مودى" يشاركنى مخاوفى؛ فعيناه واسعتان خلف نظارته، يقفز عن أى تغيير فى الأصوات من حولنا.

"هل سيكون الكلبان على ما يرام بالخارج؟"

"نعم.. سيرقدان معًا ويعملان على تدفئة بعضهما البعض."

"آها.. فكرة حسنة." ضحك "مودى" قليلاً ناظرًا إلىّ.. ثم أنزل عينيه عندما لم أقم بأى جهد لمشاركته فى الضحك.

ابتلع "مودى" الشاى وخلع حذاءه ذا الرقبة وجواربه، كاشفًا عن قدمين مغطيتين بالدماء الجافة. كنت قد رأيته يعتنى بقدميه فى الأمسيات السابقة، لكنى عرضت الليلة أن أعتنى بهما له، ربما كان تفكيرى فى "فرانسيس"، ففرق العمر بينهما ليس كبيرًا؛ ربما كانت العاصفة بالخارج وفكرة أننى أحتاج كل الأصدقاء الذين يمكن أن أحصل عليهم. مال للوراء ومد إحدى قدميه لىّ.. واحدة بعد الأخرى لأنظفهما وأضمدهما بلفائف الكتان.. التى لم يكن لدينا غيرها. أنا لست لطيفة لكنه لم يصدر أى

صوت وأنا أنظف الجروح بدعكها بالكحول وربطها بإحكام. كانت عيناه مغلقتين.. ومن جانب عينى بدا أن "باركر" يشاهدنا، رغم أنه مع دخان النار ودخان غليونه أصبحت الرؤية فى الخيمة معدومة عمليًا ويمكننى أن أكون مخطئة. عندما انتهيت من تضميد قدميه أخرج "مودى" زجاجة جيب وعرضها علىّ، إنها أول مرة أراها.. قبلتها بامتنان؛إنه ويسكى.. ليس جيدًا بشكل خاص لكنه لامع وله مذاق راق بينما يشق طريقه أسفل حلقى.. جاعلا عينى تدمعان. عرض الزجاجة على "باركر" أيضًا لكنه هز رأسه رافضًا. عندما فكرت فى الأمر وجدت أننى لم أره يلمس الشراب قط. أعاد "مودى" ارتداء الجوارب الغارقة بالدماء والحذاء ـ فالجو بارد جدا للبقاء بدونهما.

"سيدة "روس" لابد أنك امرأة غابات قوية حقًا لو أنه بإمكانك البقاء بالحذاء دون الإصابة بتقيحات."

أشرت قائلة: " إنه موسكان (حذاء من الجلد الطرى)، لا يجعل القدم تلتهب بنفس الطريقة. يجب أن تحاول الحصول على واحد عندما نصل إلى "هانوفر هاوس"."

"آه.. حسنًا." ثم التفت إلى "باركر": "ومتى سيكون ذلك كما تعتقد يا سيد "باركر"؟ هل ستنتهى العاصفة نفسها الليلة؟"

هز "باركر" كتفيه: "قد تفعل، ولكن حتى مع ذلك سيكون المضى قدمًا فى الجليد أصعب، ربما يأخذ أكثر من يومين."

"هل ذهبت هناك من قبل؟"

"ليس لوقت طويل."

"يبدو أنك تعرف الطريق بشكل كافٍ."

"نعم!"

كانت هناك لحظة صمت قصيرة.. تفوح بالعداء، لا أعلم من أين أتى هذا العداء لكن كان موجودًا."

"هل تعرف الوكيل هناك؟"

"اسمه "ستيوارت"."

لاحظت أن هذه ليست الإجابة بالضبط على السؤال.

"ستيوارت".. أتعرف اسمه الأول؟"

"جيمس ستيوارت"

"أها.. أتساءل إذا ما كان هو نفس الشخص.. فلقد سمعت قصة مؤخرًا عن شخص يدعى "جيمس ستيوارت"، والذى كان مشهورًا بالقيام برحلات طويلة فى الشتاء وفى ظروف قاسية. فكرت أنه يالها من شجاعة!".

كان وجه "باركر" غير مقروء كالعادة: "لا أستطيع التأكيد."

"آه.. حسنًا.. " بدا أن "مودى" فى غاية السرور، فأنا أفترض أنك لو كنت لا تعرف أحدًا فى بلدة ما.. فكونك سمعت عن شخص قبل مقابلته مساوية لأن يكون لديك صديق قديم.

"إذًا أنت تعرفه؟" سألت "باركر".

رمانى "باركر" بنظرة قائلا: "قابلته عندما كنت أعمل لحساب الشركة.. منذ سنوات مضت."

حذرتنى نبرته بطريقة ما من القيام بأية مجاملات أخرى، ولم يلحظ "مودى" ذلك بالطبع.

"حسنًا.. حسنًا." ألن يكون هذا رائعًا.. جمع شمل."

ابتسمت.. هناك شىء محبب حقًا حول "مودى"، إنه يتحرك مثل ثور فى محل خزف صينى.. ثم تذكرت ماذا يحاول أن يفعل، وبهتت ابتسامتى.

لم يتوقف الجليد.. ولا عويل الرياح، بإجماع الرأى غير المعلن.. لم يتم ترتيب قماش الخيمة ليمثل ستارة لتعطينى خصوصية. رقدت بين

الرجلين.. ملتفة فى طبقات من البطاطين.. شاعرة بحرارة الجمر تكوى وجهى لكنى لم أرد الابتعاد. فيما بعد رقد "مودى" بجانبى، وقام "باركر" أخيرًا بإخماد الرماد ورقد.. قريبًا جدًا لدرجة أنه كان بوسعى الشعور به وشم رائحة الصوبة الزجاجية التى تفوح منه. كان الظلام دامسًا.. لكنى لم أكن أعتقد أننى سأغلق عينى طوال الليل؛ وماذا عن صفير الرياح والهجوم الفتاك الذى تتلقاه الخيمة، حيث كانت تتموج وترتعش مثل شىء حى. كنت مرتعبة من أن ندفن فى الجليد.. أو أن تنهار الحوائط علينا وتحجزنا تحتها؛ تخيلت كل أنواع المصائر الفظيعة وأنا راقدة وقلبى يدق بسرعة كبيرة وعيناى مفتوحتان على وسعهما. لكن لابد أننى نمت لأننى حلمت، رغم أننى لا أعتقد أننى حلمت منذ أسابيع.

أصحو فجأة لأجد ـ كما فكرت ـ أن الخيمة قد ذهبت، الرياح تصيح مثل آلاف النعاقات والهواء الملىء بالجليد يجعلنى عمياء. أصيح عاليًا.. على ما أظن ولكن الصوت يكون غير مسموع فى ذروة العاصفة. كان "باركر" و"مودى" على ركبتيهما.. يكافحان ليغلقا فم الخيمة حيث تفرقت متحررة، نجحا أخيرًا فى تأمينها مرة أخرى، ولكن كان الجليد قد تجمع فى كتل ثلجية بداخل الخيمة، فكان هناك جليد على ملابسنا وفى شعرنا. أشعل "مودى" المصباح.. كان غير حليق، حتى "باركر" بدا أقل هدوءًا بقليل من المعتاد.

"حسنًا." هز "مودى" رأسه ونفض الثلج عن ساقيه، كنا جميعًا فى تمام اليقظة وفى غاية البرودة. "أنا لا أعرف شعوركما ولكنى أحتاج إلى شىء لأشربه."

أخرج زجاجة شراب الجيب التى معه وشرب منها قبل أن يعطيها لىّ، أعطيتها لـ"باركر" الذى تردد ثم قبلها. ابتسم "مودى"، وكأن هذا نوع ما من الانتصار الشخصى. أشعل "باركر" نارًا لعمل الشاى، وكنا جميعًا ممتنين.. وقد جلسنا منكمشين حولها بأصابع ملتهبة. كنت أرتعش إما من البرد أو من الصدمة.. لم أكن أعرف، ولم أتوقف عن الارتعاش حتى شربت كوبًا

من الشاى المحلى. شاهدت الرجلين وهما يدخنان غليونيهما بحسد؛ فهو شىء دافئ ومهدئ وسأرحب به كما سأفعل مع عود من خشب الورد لأطبق عليه بين أسنانى المصطكة.

"لقد بدت عميقة خارجًا،" قال "مودى" عندما أجهز على زجاجة الويسكى.

أومأ "باركر" قائلاً: كلما تصبح أعمق.. كلما أصبح الجو أكثر دفئًا بالداخل هنا."

قلت: "حسنًا.. إنها لفكرة جميلة.. سوف أشعر بالدفء والراحة بينما نختنق حتى الموت."

ابتسم "باركر": "يمكننا أن نحفر طريقنا للخروج بسهولة."

ابتسمت لـ"باركر" أيضًا متفاجئة لرؤيته مبسوطًا، ثم ذكرنى شىء صغير ما بالحلم الذى جاءنى وأنا مستيقظة، فدفنت وجهى فى كوبى. إن الأمر ليس أننى تذكرت ما كنت أحلم به بالضبط؛ إنما أكثر منه إحساس به يغسلنى بدفء مفاجئ وغير معتاد وجعلنى أشيح بوجهى بعيدًا.. وأنا أدعى أننى أسعل قليلا، لكى لا يتمكن الرجلان من رؤية لون وجنتى فى الظلام.

بحلول الصباح المتأخر كانت العاصفة قد انتهت، عندما استيقظت كان الضوء فى كل مكان.. والمزيد من الجليد قد انجرف إلى أركان المأوى وفى الفراغات التى بيننا. بعد أن كافحت للخروج من الخيمة دخلت إلى نهار مازال عاصفًا ورماديًا لكنه بدا متألقًا بعد الليلة التى قضيناها هناك. كانت خيمتنا نصف متوارية فى جرف من الثلج عمقه ثلاثة أقدام، وبدا المكان كله مختلفًا تمامًا تحت بطانية من الجليد؛ كان أفضل بشكل ما وأقل إنذارًا بالشر. أخذ منى الأمر بضع دقائق لإدراك ذلك.. فرغم تأكيدات "باركر" انهار جزء من الحائط أثناء الليل وإنما دون التسبب فى أى خطر لنا. حاولت ألا أفكر بما كان سيحدث لو كنا قد أقمنا مأوانا على بعد عشرين قدمًا من الشرق، لم نفعل وهذا هو أهم شىء.

فى البداية كنت خائفة أن الكلبين قد ذهبا.. دفنا للأبد؛ حيث إننى نظرت حولى ولم يكن هناك أثر لهما.. رغم أنهما عادة ما ينبحان بشدة مطالبين بالطعام. فيما بعد عاود "باركر" الظهور من مكان ما ومعه عصا طويلة من الخشب والتى دفع بها فى جرف الثلج، مناديًا كلبيه بصيحات حادة غريبة يستخدمها ليتواصل معهما. فجأة كان هناك نوع من الانفجار حدث بسببه، واندفع "سيسكو" من جرف ثلجى عميق.. تتبعه "لوسى". قفزا لأعلى عليه وهما ينبحان بشدة ويهزان جسديهما كله، و"باركر" يداعبهما سريعًا. لابد أنه كان مرتاحًا لرؤيتهما؛ ففى العادى هو لا يلمسهما على الإطلاق، لكنه الآن يبتسم ويبدو مسرورًا حقًا، لم أره يبتسم لىّ من قبل قط بهذا الشكل، أو لأى أحد آخر بالطبع.

ذهبت إلى حيث كان "مودى" يحزم قماش الخيمة بشكل أخرق. "دعنى أقوم بهذا."

"أوه.. هل ستفعلين يا سيدة "روس"؟ شكرًا لك.. إنك تخجليننى. كيف حالك هذا الصباح؟"

"مرتاحة، شكرًا لك على سؤالك."

"أنا كذلك.. كانت ليلة مثيرة للاهتمام.. أليس كذلك؟"

ابتسم وبدا لعوبًا إلى حد ما، هو أيضًا بدا فى روح عالية هذا الصباح، ربما كنا جميعًا أكثر خوفًا الليلة الماضية مما نهتم بأن نعترف به.

فيما بعد عندما كنا نمشى إلى الشمال الشرقى مرة أخرى، نكافح حيث كنا نمشى فى ثلج عمقه قدم، مشينا متقاربين من بعضنا البعض.. ينظم "باركر" خطواته لتتماشى مع خطواتنا، وكأننا ثلاثة أشخاص وجدوا العزاء فى صحبة بعضهم البعض.

كان صوت "إسبن" متعجلاً.

" "لاين".. علىّ أن أتحدث معك."

حاولت "لاين" أن تهدئ الاضطراب العنيف فى قلبها عند سماعه ينطق باسمها، كانا لا يتبادلان أية كلمة لعدة أيام.

"ماذا؟ ظننت أن زوجتك فى غاية التشكك."

جعلتها نظرة التوسل فى عينيه على وشك البكاء من الفرح تقريبًا.

"لا يمكننى تحمل الوضع فأنت لم تنظرى حتى فى عينى منذ أيام، هل تهتمين بىّ قليلاً؟ هل فكرت فىّ على الإطلاق؟"

استسلمت "لاين" وابتسمت، فحضنها وضمها إليه ضاغطًا جسدها إلى جسده.. مقبّلا وجهها وفمها وعنقها، ثم سحبها معه وفتح بابًا ـ الذى يقود إلى دولاب التخزين ـ وأغلقه خلفهما.

بعد أن صارعا مع ملابسهما فى الظلام التام لدولاب التخزين، ضاغطين على أكوام الصابون وشىء ما له ملمس مقشة، جاءت لـ"لاين" رؤية صادمة مبهمة. كان الأمر وكأن انعدام الضوء قد أخفاهما، لا يمكنها حتى التعرف من ها هنا معها، لابد أنه الشىء نفسه بالنسبة له ـ يمكن أن يكونا أى رجل وأية امرأة.. فى أى مكان.. فى "تورنتو" على سبيل المثال، ثم عرفت أنها سوف تفعل.

انتزعت "لاين" فمها من على بشرته لفترة كافية لتقول: "لا يمكننى البقاء هنا.. سوف أغادر.. حالما أستطيع."

انسحب "إسبن" للخلف.. بوسعها سماع تنفسه.. لكنها لا يمكنها أن ترى وجهه فى هذا الظلام.

"لا.. يا "لاين".. لا يمكننى تحمل الحياة بدونك، يمكننا أن نأخذ حذرنا ولن يعلم أحد بشىء."

تحسست "لاين" لفة النقود فى جيبها، وأصبحت مليئة بالقوة النابعة منها. "لدى نقود."

"ماذا تعنين بأن لديك نقودًا؟"

لم يكن "إسبن" قد امتلك نقودًا قط فى حياته، كان ـ دوما ـ يعيش على قوت يومه حتى جاء إلى "هيميلفانجر" وبقى، ابتسمت "لاين خفية.

"لدى أربعون دولارًا.. دولارات أمريكية."

"ماذا؟"

"لا أحد يعلم بالأمر إلا أنت."

"كيف حدث وحصلتِ عليهم؟"

"إنه سر!"

انفرج وجه "إسبن" عن ابتسامة غير مصدقة، كانت تعرف ذلك بطريقة ما.. يمكنها الشعور به يهتز بالضحك تحت يديها.

"يمكننا أخذ حصانين، وسوف يأخذ الطريق منا ثلاثة أيام فقط للوصول إلى "كالفيلد" وبوسعنا ارتداء كل ملابسنا وأخذ الأطفال خلفنا، ثم يمكننا ركوب سفينة بخارية إلى "تورنتو".. أو "شيكاغو".. إلى أى مكان. لدى ما يكفى من المال لشراء منزل بينما نبحث عن عمل."

بدا "إسبن" منزعجًا قليلاً، "ولكن يا "لاين".. نحن فى منتصف الشتاء، ألن يكون من الأفضل إذا انتظرنا حتى حلول الربيع ـ وماذا عن الأطفال؟"

شعرت "لاين" بشىء من عدم الصبر: "إن الثلج حتى لا يتساقط ـ إن الجو عمليًا دافئ! ماذا تريدنى أن أنتظر؟"

تنهد "إسبن" قائلاً: "إلى جانب ذلك.. عندما تتحدثين عن الأطفال أنت تعنين "توربين" و"آنا"، أليس كذلك؟"

كانت "لاين" تنتظر هذا، إنه حقا خطأ "ميرلايت" بالكامل، لو أنها فقط تموت، فهى ليست ذات نفع على الإطلاق والكل لا يحبها، حتى "بير" الذى من المفترض أن يحب الكل.

"أعلم أن الأمر صعب يا عزيزى، ولكن لا يمكننا اصطحاب كل الأطفال معنا، ربما لاحقًا.. عندما نكون قد حصلنا على منزل، يمكنك عندها المجىء لاصطحابهم، اتفقنا؟"

بشكل شخصى هى لا تعتقد أن هذا محتمل الحدوث، فليس بوسعها تخيل أن "ميريت" أو حتى "بير" كذلك سيتركون "إسبن" يأخذ الأطفال ليعيشوا مع عاهرته. ولكن "إسبن" يعشق أطفاله الثلاثة.

"يمكننا أن نكون كلنا معًا مرة أخرى فى وقت قريب، ولكن الآن.. علىَّ أن أذهب على الفور.. لا يمكننى البقاء."

"لماذا كل هذه العجلة؟"

كان هذا الكارت الكسبان وعلى "لاين" أن تلعب به بحذر. "حسنًا.. إننى متأكدة تقريبًا.. لا.. أنا متأكدة تمامًا أننى حامل."

كان هناك صمت مطبق فى الدولاب، لأجل السماء ـ فكرت "لاين" فى نفسها ـ ليس الأمر وكأنه لا يعرف كيف تحدث هذه الأشياء.

"كيف حدث هذا؟ لقد كنا حذرين!".

"حسنًا.. لم نكن دومًا حذرين." لم يكن هو حذرًا على الإطلاق ـ كان من المؤكد أن يحدث قبل ذلك بكثير ـ فكرت ـ لو كانت تركته يفعل ما يريد. "أنت لست غاضبًا، أليس كذلك يا "إسبن"؟"

"لا.. أنا أحبك، إنه فقط من الأفضل..."

"أعرف.. ولكن لهذا السبب لا يمكننى البقاء حتى الربيع، فسريعًا سيبدأ الآخرون ملاحظة أننى حامل. هنا..." أخذت يده وأدخلتها تحت حزام وسطها.

"أوه.. "لاين".. "

"لذلك يجب أن نذهب، أليس كذلك.. قبل أن يأتى الجليد ليبقى، وإلا.."

وإلا فما سيحدث بدلا من ذلك لا يمكن التفكير به.

ذهبت "لاين" فى وقت متأخر من هذه الظهيرة إلى حجرة الفتى، وانتظرت حتى رأت "جاكوب" يخرج ويختفى فى الإسطبلات، ثم دخلت هى. كان المفتاح متروكًا فى الجانب الخارجى للباب ـ والآن ، وقد ذهب "مودى" فلا أحد يهتم بشأن إغلاق الباب بجدية.

نظر "فرانسيس" لأعلى وقد تفاجأ عندما دخلت، فهى لم تكن هناك بمفردها معه منذ أن حاولت تقبيله ـ قبل أن تأتى أمه ـ وأعطاها هو النقود. مازال الدم يندفع إلى وجنتيها كلما فكرت فى ذلك الأمر. كان "فرانسيس" مرتديًا ملابسه الداخلية وجالسًا على كرسى بجانب النافذة، كانت معه قطعة من الخشب وسكين فى يده ـ كان ينحت شيئًا ما، تراجعت "لاين"، حيث كانت قد تصورته مازال فى الفراش ضعيفًا وشاحبًا.

قالت قبل أن تتمكن من إيقاف نفسها: "أوه.. أنت خارج الفراش."

"نعم، أنا فى حال أفضل بكثير، حتى "جاكوب" وثق فى أن يترك لىّ سكينه." أشار بوجهه إليها وابتسم لها "أنت فى مأمن تمامًا."

"هل يمكنك المشى الآن؟"

"بوسعى التجول بشكل جيد، بالعكاز."

"هذا حسن."

"هل أنت على ما يرام؟ هل الأشياء على ما يرام.. أعنى.. وراء هذا الباب؟"

بدا قلقًا.

"نعم.. أعنى.. لا.. ليس حقًا، جئت لأطلب منك شيئًا، احتاج لمساعدتك، بشأن رحلتك من "كالفيلد".. هل تعدنى ألا تقول أى شىء؟ ولا حتى لـ"جاكوب"؟"

حدق بها بدهشة: "نعم.. وهو كذلك."

"سوف أغادر، علىّ الذهاب فى الوقت الحالى قبل أن يأتى الجليد مجددًا، وسنقوم بأخذ حصانين ونتجه للجنوب. أنا فى حاجة إلى أن تخبرنى بالطريق."

بدا "فرانسيس" مذهولاً. "الطريق إلى "كالفيلد"؟"

أومأت برأسها أن نعم.

"ولكن ماذا لو سقط الجليد وأنت فى الطريق؟"

"لقد فعلتها أمك فى الجليد.. وعلى ظهر الجياد لن يكون الأمر صعبًا."

"أتعنين أنت والطفلين؟"

"نعم." رفعت رأسها لأعلى.. شاعرة بالاحمرار ينتشر على عنقها وأعلى إلى شعرها. استدار "فرانسيس" باحثًا عن مكان ليضع قطعة الخشب والسكين. هأنا أحرجك مجددًا.. فكرت وهى تخرج ورقة وقلم رصاص كانت قد أحضرتهما معها. حسنًا.. بعض الأشياء لا يمكن تفاديها.. فليس الأمر وكأنك ستشعر بالغيرة.

جلس الحاكم من "سانت بيير" أمام "نوكس" فى حجرته وكذلك سجنه وتنهد، كان رجلا عجوزًا.. منحنيًا وفى السبعين من عمره على الأقل، ذا عينين غير صافيتين محبوستين خلف نظارة حجرية تبدو ثقيلة للغاية على أنفه الواهن.

ألقى نظرة على ملاحظاته ثم قال: "إذا كنت قد فهمت بطريقة صحيحة فأنت قلت إنك "لم تستطع الموافقة على محاولات "ماكينلى" الوحشية لانتزاع اعتراف من "ويليام باركر"، لذلك فقد تركته يذهب."

"لم يكن لدينا أدلة لحجزه."

"لكن السيد "ماكينلى" يقول إنه لم يستطع تبرير أين كان فى الفترة المعنية."

"لقد برر ذلك، لم يكن هناك أحد ليصدق على أقواله.. لكن هذا ليس شيئًا مفاجئًا بالنسبة لصائد."

"الأكثر من ذلك أن السيد "ماكينلى" قال إن السجين اعتدى عليه، وأن أى ضرر عانى منه السجين تم فى حالة دفاع عن النفس."

"لم يكن هناك خدش فى "ماكينلى"، ولو كان قد هوجم لكان قد أخبر الكل، لقد رأيت السجين.. كان اعتداءً وحشيًا، ولقد عرفت أنه يقول الحقيقة."

"همم.. أنا أعرف شخصًا يدعى "ويليام باركر"، ربما كنت على علم أن نفس الشخص "ويليام باركر" قد قام بالاعتداء على عمال شركة "هدسون باى"؟"

فكر "نوكس".. يا إلهى .. لا.

"كان هذا منذ وقت طويل، لكنه كان مشتبهًا فيه فى هجوم خطير إلى حد ما، إذًا أنت ترى أنك لو كنت قد انتظرت فقط لفترة أطول لكان هذا قد خرج إلى النور."

"مازلت لا أصدق أنه القاتل الذى تبحث عنه، لمجرد أن رجلا قد قام بعمل واحد خطأ ـ منذ وقت طويل ـ فإن هذا يعنى أنه قد فعل عملا آخر."

"هذا صحيح، ولكن إذا كان ذلك فى طبيعة الإنسان أن يكون عنيفًا، فمن المحتمل أن تنفجر هذه النزعة مجددًا ومجددًا. فنفس الرجل لا يكون عنيفًا ثم بعد ذلك مسالمًا."

"لست متأكدًا إذا كان بإمكانى الاتفاق معك بشأن ذلك، وخصوصًا لو كان هذا العنف قد تم القيام به فى فترة الشباب."

"لا.. حسنًا.. وهناك مشتبه فيه آخر مازال طليقًا؟"

"لا أعرف إن كنت سأصيغها بهذا الشكل، فلقد أرسلت رجلين وراء شاب محلى والذى كان مفقودًا تقريبًا وقتها ولم يعودا بعد."

وأين هم بحق الجحيم؟ سأل نفسه.. لقد مر أسبوعان تقريبًا.

"وعلى ما أعتقد أن والدة الفتى أيضًا مفقودة؟"

"لقد ذهبت لتبحث عنه."

"وهو كذلك." خلع نظارته ـ والتى تركت جزءًا غائرًا على قصبة أنفه فقام بتدليك البقعة بسبابته وإبهامه. نظر إلى "نوكس" بوضوح قائلاً: "يا لها من فوضى تلك التى فعلتها فى هذه البلدة."

"ما الذى تنوى فعله معى؟"

هز الحاكم من "سانت بيير" رأسه. "إنه الشىء الأكثر غرابة." مضى يهز رأسه بخفة من جانب إلى آخر وكأن الحركة ـ بمجرد ما بدأت ـ تحافظ على استمرارها بنفسها. "الأكثر غرابة، فأنا تحت ضغط شديد ليعرفوا رأيى يا سيد "نوكس"، ولكنى فى الوقت نفسه أفترض أنه يمكننا أن نثق بك بشكل كافٍ لنتركك تعود لبيتك، طالما أنك ـ ها ها ـ لن تغادر البلاد!".

"ها ها.. لا .. لا أفترض أننى سأحاول فعل ذلك." وقف "نوكس" رافضًا رد ابتسامة الرجل غير السعيدة. وجد أنه أطول من الحاكم الآخر بقدم على الأقل.

بعد أن أصبح حرًا ليذهب وجد "نوكس" نفسه غير راغب فى العودة للبيت ـ بشكل غريب ـ فى الحال. توقف عند الردهة فى رغبة ملحة فى الطرق على باب حجرة "ستاروك"، الذى فتح الباب بعد ثانية واحدة.

"السيد "نوكس"! سعيد أن أراك حرًا مَرة أخرى على ما أعتقد.. أو هل قمت بالهرب؟"

"لا.. لقد أطلقوا سراحى؟ فى الوقت الحالى على الأقل. أشعر وكأننى رجل جديد."

على الرغم من ابتسامته ونبرته المازحة التى يحاول التكلم بها لم يكن متأكدًا أن "ستاروك" قد أدرك أنه يمزح. لم يكن له حظ مع المزاح قط،

حتى وهو شاب ـ شىء ما له علاقة بحدة ملامحه، كان يشك فى ذلك. كمحام حديث العهد أصبح واعيًا بأن المشاعر التى يثيرها دومًا فى الناس مزعجة؛ نوع من الشعور المسبق بالذنب، وكان هذا الأمر لديه فوائده.

"تفضل بالداخل." قاده "ستاروك" للداخل وكأن "نوكس" هو أكثر شخص يريد رؤيته فى العالم، سمح "نوكس" لنفسه بأن يقبل هذا النفاق ويقبل معه كأسًا من الويسكى.

"حسنا.. فى صحتك!".

"فى صحتك! آسف أنه ليس من الشعير المخفق، ولكن هانحن... والآن أخبرنى، كيف كانت ليلتك خلف القضبان؟"

"أوه حسنًا.."

"كنت أتمنى لو كان بوسعى القول إننى لم أختبر هذا الشرف قط، ولكن من المحزن أن هذه ليست القضية. منذ وقت طويل فى "إلينوى"، ولكن حينها الكل تقريبًا كانوا مجرمين، وكان معى صحبة جيدة..."

تحدثا بسهولة لبعض الوقت مع بعضهما البعض، وانخفض مستوى الشراب فى الزجاجة بينما يزف الظلام. نظر "نوكس" إلى السماء، وكل ما تمكن من رؤيته فوق قمم الأسطح المزيد من الطقس السيئ المنذر بالشر؛ مظلم وثقيل. فى الأسفل.. أسرع جسد صغير يعبر الشارع فى خط قطرى (ملتوى) إلى المتجر بالأسفل. لم يستطع تحديد من يكون. ظن أن الجليد سيتساقط مجددًا على الأرجح.

"ستبقى هنا إذًا.. منتظرًا عودة الفتى؟"

"أفترض أننى سأبقى.. نعم."

كان هناك صمت طويل؛ انتهى الويسكى وكلاهما يفكر فى الشىء نفسه.

"لابد أنك تضع أهمية كبيرة على هذه... قطعة العظم هذه."

نظر "ستاروك له نظرة جانبية، نظرة مقيمة ثم قال: "أفترض ذلك."

كان أول مشهد ترونه من واجهتهم فى مساء اليوم الثالث؛ تلكأ "دونالد" وراءهما ـ حتى السيدة "روس" تمكنت من السير أسرع مما يستطيع هو مع قدمه المجروحة، كان من المستحيل التخلى عن الحذاء التعذيبى ذى الرقبة كلية، ولكن حتى مع قدمه المضمدة بالكامل كانت كل خطوة هى الألم بعينه. كانت ندبته قد بدأت تؤلمه أيضًا ـ وهذا سر كان يخفيه عن الآخرين، وكانت لديه قناعة بالأمس بأن جرحه قد فُتح مجددًا، وتحت مبرر توقف شخصى قام بفك أزرار قميصه ليلقى نظرة. كانت الندبة سليمة لكنها متورمة قليلاً وتفرز القليل من سائل شفاف،لمسها بقلق ليرى من أين تأتى السوائل، ربما كان هذا فقط من جراء مشقة الرحلة التى أرهقته؛ ولذلك عندما يتوقفون ستتحسن حالته.

ولذلك كانت رؤية المركز التجارى عن بعد ـ والذى شك فى وجوده من الأصل فى لحظات ضغط ـ سببًا لفرح كبير. فى هذه اللحظة لم يكن بوسع "دونالد" أن يفكر فى شىء أكثر بهاء من الرقود على فراش لوقت طويل جدًا. من الواضح أن سر السعادة ـ فكر بمرح ـ هو الاختلاف على المبدأ العام لضرب رأسك فى حائط.. ثم التوقف عن ذلك.

كان "هانوفر هاوس" يقف فوق أرض مرتفعة محاطة من ثلاثة جوانب بنهر، ومن ورائه هناك بعض الأشجار المتقاربة؛ أول أشجار يرونها منذ أيام: أشجار بتول وطمراق منحنية ومتوقف نموها.. أطول بالكاد من طول رجل فى حقيقة الأمر ولكنها مازالت أشجارًا. كان النهر مسطحًا وبطيئًا لكنه لم يتجمد بعد ـ فالجو ليس باردًا بشكل كافٍ ليتجمد بعد ـ وأسود اللون مقارنة بشواطئه الجليدية.

عندما أصبحوا قريبين تمامًا ولاتوجد علامة بَعْدُ على أن أى شخص قد رآهم، اعترى "دونالد" خوف ملح ألا يوجد أحد هناك على الإطلاق.

كان المركز قد تم بناؤه على غرار "فورت إدجار"، لكن من الواضح أنه أقدم بكثير، حيث كان السور الحديدى مائلا والمبانى نفسها رمادية وناعمة الأسطح من جراء هجمات الطقس المتكررة، فى المجمل كان يحيط به طابع متهالك ورغم محاولات ترميمه فكان مظهره ينضح بالإهمال. بشكل غامض كان "دونالد" على علم بالسبب وراء ذلك. كانوا الآن فى قلب بلدة "شيلد" جنوب "هدسون باى"، كانت هذه المنطقة ذات يوم مصدر غنى للفراء بالنسبة للشركة، ولكن كان هذا منذ وقت طويل، فـ"هانوفر هاوس" أثر للأمجاد السابقة.. طرف أثرى باق. ولكن خارج السور ظهرت فى السهل دائرة من الأسلحة الصغيرة، وشخص ما قد أخذ على عاتقه عناء ـ مع وجود العاصفة الثلجية ـ الخروج ونفض الثلج من عليها، كانت أشكال الأسلحة السمينة القصيرة السوداء اللون الفاقدة للحيوية على الجليد هى العلامة الوحيدة على النشاط الإنسانى.

كانت البوابة التى فى السور الحديدى مفتوحة قليلا، وهناك آثار لبشر هنا وهناك، ورغم أنه لابد أن ثلاثتهم وزلاجة الكلاب كانوا مرئيين على الجليد منذ ساعة على الأقل إلا أن أحدًا لم يأت ليحييهم.

"يبدو مهجورًا." قال "دونالد" ناظرًا إلى "باركر" للتأكيد، ولكن "باركر" لم يرد لكنه دفع البوابة، وزن الجليد المنجرف خلفها جعلها تعلق بعد عدة بوصات. كانت الباحة بالداخل غير نظيفة.. الشىء الذى يعد جريمة فى "فورت إدجار".

"هل أنت متأكد أنه المكان الصحيح؟" قال "دونالد"، ثم وجد أنه غير قادر على إيقاف نفسه من الغوص فى الأرض وخلع حذاءه.. الفردة الأولى ثم الثانية، لم يستطع تحمل الألم لدقيقة أخرى.

"نعم." قال "باركر".

"ربما تم تركه." قال "دونالد" ناظرًا حوله على الباحة المهجورة.

"لا ليس مهجورًا." نظر "باركر" على خيوط رفيعة من الدخان ترتفع

من خلف مخزن منخفض، لون الدخان كان هو لون السماء نفسها. رفع "دونالد" نفسه بصعوبة ليقف على قدميه ـ جهد يفوق قدرة الإنسان العادى ـ وعرج لعدة ياردات.

ثم مشى رجل حول ركن أحد المبانى ثم تجمد فى مكانه: كان رجلاً طويلاً داكن البشرة وذا كتفين قويتين وشعر طويل جامح، ورغم الرياح الثلجية كان يرتدى فقط فانلة داخلية من قماش الصوف الناعم مفتوحة حتى وسطه. حدق فيهم بفم مفتوح وعدم فهم متذمر، كان جسده ضخمًا ومترهلا وعلى ما يبدو خَدِر من البرد. حدقت السيدة "روس" فيه وكأنها قد رأت شبحًا، وبدأ "باركر" فى إخباره أنهم قطعوا طريقًا طويلاً وأن "دونالد" هو أحد رجال الشركة، لكن قبل أن ينهى جملته استدار الرجل وسار عائدًا من الطريق الذى أتى منه.. تاركًا "باركر" فى منتصف جملته. نظر "باركر" للسيدة "روس" وهز كتفيه، سمعها "دونالد" تهمس له: "أعتقد أن هذا الرجل ثمل. "وابتسم لنفسه بقلق، من الواضح أن لديها خبرة قليلة بطرق شغل الوقت فى مركز هادئ.

"هل يفترض أن نتبعه؟" قالت السيدة "روس" وكالعادة توجه كلامها لـ"باركر"، ولكن "دونالد" عرج إليها.. قدماه متجمدتان لكن متحررتين من الألم بشكل جميل، إن هذا أحد مراكز الشركة ولذلك هو يشعر بأن القيادة يجب أن تكون له الآن.

"أنا واثق أن أحدهم سيخرج فى دقيقة، أنت تعلمين يا سيدة "روس" أن فى أى مركز فى الشتاء ـ خاصة مركز معزول مثل هذا ـ يضطر الرجال لأخذ أى شيء كعزاء يمكنهم من تمضية الوقت."

تم ترك الكلبين مع بعضهما خارج البوابة.. ينبحان ويدفعان بأنفسهما إلى حالة من الهياج، بديا غير قادرين على الوقوف بثبات دون النباح والدخول فى مشاجرات، الآن ـ على سبيل المثال ـ كان يبدو أنهما يحاولان قتل بعضهما البعض. ذهب "باركر" إليهما وصاح فيهما ملوحًا بعصا؛ طريقة غير لطيفة لكنها مؤثرة. بعد عدة دقائق كانت هناك خطوات على

الجليد وجاء رجل آخر من حول الركن. كان هذا ـ لراحة "دونالد" ـ رجلا أبيض، ربما أكبر سنًا قليلا من "دونالد".. ذا وجه شاحب قلق وشعر أحمر أشعث.. بدا منزعجًا لكنه ليس ثملا.

"يا إله السماوات." قال بانزعاج واضح.. "إذًا فالأمر حقيقى..."

"أهلا!" كان "دونالد" أكثر سعادة لسماعه لكنة أسكتلندية.

"حسنا.. أهلا بكم." رجع الرجل الآخر إلى وعيه. "أعذرونى.. فلقد مر وقت طويل منذ جاءنا زوار، وفى الشتاء.. هذا أمر غير عادى، مما جعلنى أنسى آداب التعامل إلى حد ما..."

قدم "دونالد" نفسه.. وهو يمد يده ويتأرجح فى وقفته: " "دونالد مودى" محاسب بالشركة فى "فورت إدجار". "

"السيد "مودى".. إحم.. أنا "نسبيت".. "فرانك نسبيت" مساعد الوكيل."

اضطرب "دونالد" للحظة من عبارة "مساعد الوكيل"، والذى كان منصبًا لم يسمع عنه قط، لكنه تمالك نفسه ليقوم بإشارة تجاه السيدة "روس". "هذه السيدة "روس" وهذا... " عاود "باركر" الظهور عند البوابة، رجل يوحى بالتهديد ومعه عصا ضخمة. "إحم.. "باركر" الذى أرشدنا إلى هنا."

صافحهم "نسبيت" ثم ألقى نظرة لأسفل على قدمىّ "دونالد" برعب. "يا إلهى.. قدميك.. أليس لديك حذاء؟"

"نعم.. لكنى كنت أعانى من عدم الراحة لذلك قمت بخلعه، إنه هناك.. إن هذا لا شىء حقًا، مجرد تقيحات.. كما تعلم.."

اختبر "دونالد" شعورًا رائعًا بالدوار، وتساءل إذا ما كان سيسقط، لم يظهر "نسبيت" أية نية لأن يصطحبهم للداخل، رغم الجو المتجمد وحلول الظلام تقريبًا. بدا متوترًا وهلوعًا، متسائلا بصوت عالٍ إذا ما كان يتوقع

أن يستخدموا حجرات الضيوف المهملة بشكل بشع، أو إذا ما كان يجب أن يخرج نفسه من مكان إقامته... أخيرًا بعد تردد بدا لـ"دونالد" أنه دام ساعات والتى فيها فقدت قدماه الإحساس كلية ـ والتى كانت باردة بالفعل، قادهم حول الركن وخلال الباب.. ثم إلى طرقة غير مضاءة وفتح باب حجرة كبيرة وغير دافئة.

"ربما سيكون من الأفضل أن تنتظروا هنا لبرهة قصيرة، سوف أجلب أحدهم ليشعل نارًا ويحضر لكم شيئًا ساخنًا، بعد إذنكم..."

انسحب "نسبيت" مغلقًا الباب خلفه بعنف، مشى "دونالد" وهو يعرج حتى وصل إلى مكان النار الفارغ وغاص فى كرسى بجانبه.

اختفى "باركر" مدعيًا أنه ذاهب ليرى الكلبين، فكر "دونالد" فى "فورت إدجار"... حيث الزوار دومًا سبب للاحتفال ويُعاملون معاملة الملوك. ربما كان نصف العاملين قد رحلوا من هنا؛ لاحظ أن مكان النار متسخ للغاية، قبل أن يستسلم للتعب الذى كان منتظرًا ليستحوذ عليه ويغلق عينيه مثل يد مخملية.

"سيد "مودى"!".

كان صوتها حادًا.. جعله يفتح عينيه مجددًا.

"همم؟ نعم.. سيدة "روس"؟"

"دعنا لا نتكلم عن أى شىء بشأن سبب وجودنا هنا.. ليس الليلة، دعنا نرى أولا كيف ستجرى الأمور، فنحن لا نريدهم أن يأخذوا حذرهم."

"كما ترغبين." قال ذلك وأغلق عينيه مجددًا، لم يستطع تصور أن يقوم بمحادثة مترابطة قبل أن يحظى بقسط من الراحة، فمجرد كونك بمنأى عن البرد القارس يعد نعمة.

أغلق عينيه لما بدا دقيقة واحدة، لكن عندما فتحهما مجددًا كانت النار قد أُشعلت والسيدة "روس" ليست فى مجال بصره. كانت الظلمة قد

حلت خارج النافذة ولم يكن لديه أية فكرة عن الوقت، لكن يا لها من رفاهية أن يجلس فى هذا الدفء لدرجة أنه لا يمكنه التحرك. فقط لو كان هناك فراش.. لجعله هذا يتمادى على الأرجح، ثم أثناء حالة الإرهاق الشديد التى هو فيها أدرك أن هناك أحدهم فى الحجرة، التفت ليرى امرأة مختلطة الأعراق (من عرقين مختلفين) وقد أحضرت وعاء من الماء وبعض الضمادات. أومأت برأسها وجلست على الأرض عند قدميه، حيث بدأت تفك لفائف الكتان الملطخة بالدماء.

"أوه.. شكرًا لك." شعر "دونالد" بالإحراج بشكل ما من هذا الاهتمام والحالة المثيرة للاشمئزاز التى كانت عليها الضمادات، حاول وفشل فى أن يخمد تثاؤبًا جعل فكيه يصدران أصواتًا. "اسمى "دونالد مودى"... محاسب الشركة فى "فورت إدجار"... ما اسمك؟"

"إليزابيث بيرد."

نظرت له بالكاد، لكنها جلست تنظف الجروح التى فى قدميه، ترك "دونالد" رأسه يتأرجح على الكرسى.. سعيدًا لعدم اضطراره للتحدث.. أو حتى التفكير، يمكن لمهامه أن تنتظر للغد، وقبلها يمكنه النوم والنوم والنوم على إيقاع يدىّ المرأة السمراء وهى تنظف قدميه.

***

كانت الباحة الأمامية مظلمة تمامًا، ولم يكن بوسعى سماع الكلبين فى أى مكان؛ الشىء الذى يعد غريبًا. فبطبيعة الحال.. عندما تصل كلاب إلى مكان ما يكون هناك مسابقة هياجية من النباح والزمجرة، لكن عندما جئنا كان هناك صمت. ناديت على "باركر"، فتحركت الرياح من حولى ولسعت نتف الثلج وجهى، لم يرد أحد واختبرت شعورًا مفاجئًا بالخوف؛ ربما الآن وقد وصلنا، أكمل هو طريقه لأى مكان يأخذه إليه عمله. فقط عندما شعرت بالدموع توخز ركنى عينى فتح شخص ما بابًا على يسارى وتسرب مستطيل من الضوء على الثلج. كان هناك جدال متسرع وعاجل وسمعت صوت "نسبيت".

"من الأفضل ألا تقولى أى شىء بشأنه إذا كنت لا تريدين اختبار يدى، فى الواقع سيكون من الأفضل إذا ما بقيت بعيدًا عن الطريق كليةً!".

كان الصوت الآخر غير واضح، لكنه كان صوت امرأة يتجادل معه، وبدون التفكير بوضوح قمت بالتحرك أعمق فى ظل حواف الأسطح المعلقة بالأعلى، لكن لم يكن هناك شىء آخر مسموع.. حتى أنهى "نسبيت" المجادلة ـ إذا ما كانت مجادلة ـ بعبارة شكوى: "أوه.. بحق السماء افعلى ما يحلو لك، فقط انتظرى حتى يعود!".

أغلق الباب بشدة وبدأ يعبر الساحة وهو يحك شعر رأسه بيده، الشىء الذى لم يجعله بأى حال أكثر هندامًا. فتحت وأغلقت الباب خلفى وخطوت خارجة إلى الباحة لأقابله وكأننى قد خرجت لتوى فى هذه اللحظة.

"أوه.. سيد "نسبيت".. هأنت هنا."

"آه.. سيدة..." توقف تمامًا.. باحثًا بيده فى الهواء."

"روس".

"سيدة "روس".. بالطبع، سامحينى.. كنت فقط.." أطلق ضحكة قصيرة. "أعتذر عن تركك، هل قام أحدهم بإشعال النار؟ يجب أن تسامحينى فى هذه اللحظة.. أخشى أننا نعانى من نقص فى الأيدى العاملة، وفى هذا الوقت من العام.."

"ليس هناك داع للاعتذار، فنحن قد فرضنا أنفسنا عليكم فجأة."

"ليس فرضًا.. ليس فرضًا على الإطلاق، فالشركة تفخر بكرم ضيافتها وما إلى ذلك... أنتم أكثر من مُرحب بكم.. أؤكد لك." ابتسم لىّ.. رغم أن هذا بدا كشىء يفعله بجهد. "يجب أن تنضمى إلىّ على العشاء، وكذلك السيد "مودى" والسيد "باركر" بالطبع."

"كان السيد "مودى" نائمًا عندما خرجت، أخشى أنه يعانى من تقيحات قدميه كثيرًا.

"وأنت لا تعانين؟ لابد وأن أقول إن هذا مثير للإعجاب، من أين قلت إنكِ جئتِ؟"

"لم لا ندخل؟ إن الجو بارد هنا.."

لم أكن متأكدة كيف سأتطرق لهذه النقطة، كنت أريد التحدث مع "باركر" حول هذا الأمر.. ولكنه لم يكن فى أى مكان مرئى. تبعت "نسبيت" فى ردهة أخرى ـ بدا وكأن أى عدد من الأبواب يتفرع منها ـ إلى حجرة صغيرة دافئة حيث هناك نار تشتعل فى المدفأة. وقفت طاولة فى وسط الحجرة وحولها كرسيان، هناك صور ملونة مثبتة إلى الحوائط تظهر سباقات الخيول والمصارعين مقصوصة من مجلات.

"من فضلك اجلسى.. من فضلك.. نعم، أكثر دفئًا قليلاً هنا.. أليس كذلك؟ لا شىء مثل نار جيدة فى هذا المكان الملعون..."

غادر الحجرة فجأة وبلا إنذار، تاركًا إياى أتساءل ما الذى حدث لتوه، لم أكن قد فتحت فمى بعد.

كان ضمن المصارعين والأحصنة زوج من الرسومات الجيدة، ورأيت أن الأثاث كان جيدًا أيضًا؛ مستوردًا... ليس من صنع البلاد. كانت الطاولة من خشب الماهوجنى وقد اعتراها الزمن وكثرة الاستخدام؛ الكراسى من خشب أشجار الفاكهة وظهورها مثل القيثارة.. ربما إيطالية. فوق المدفأة عُلق مشهد صيد صغير فى إطار غنى مزين، مظلم ويلمع بمعاطف الصيادين الحمراء، كانت هناك كئوس على الطاولة من الكريستال الصلب، محفور عليها بشكل جميل أشكال طيور، وهناك رجل ذو حضارة وأشك أن هذا الرجل ليس "نسبيت".

اندفع "نسبيت" عائدًا إلى الحجرة ومعه كرسى آخر. "بطبيعة الحال.. أنت ترين أن... " تكلم وكأنه لم يغادر الحجرة قط. ".. هناك اثنان فقط هنا -أعنى الموظفين.. لذلك فنحن هادئون جدًا. لقد طلبت عشاءً... لذلك.. آها.. بالطبع!" ارتد واقفًا وكان قد جلس لتوه. "لابد وأنك ترغبين

فى كأس من البراندى كما أتوقع، لدينا بعض من نوع جيد إلى حد ما، لقد أحضرته بنفسى من "كينجستون" الصيف قبل الماضى."

"فقط كأس صغيرة، أخشى لو شربت أكثر من ذلك سوف أسقط نائمة على الفور." كانت هذه هى الحقيقة.. كان الدفء يتسرب إلى أطرافى للمرة الأولى منذ أيام جاعلاً عينى ثقيلتين.

قام بصب كأسين.. مراعيًا بدقة أن يكون مستوى الشراب واحدًا فى كل كاس وقدم لىّ واحدًا منهما.

"حسنًا.. فى صحتك، وما الذى جاء بكم أنتِ وأصدقائك إلى هنا - فمجيئكم غير متوقع لكنه سرور مرحب به."

وضعت كأسى بحرص، من المزعج أنه لم يكن لدينا وقت لنناقش قصتنا قبل الوصول؛ أو الأمر ليس أننا لم يكن لدينا وقت.. حيث كان أمامنا ستة أيام، ولكن بشكل ما لم يبد أنه الوقت المناسب قط لإثارة هذا الموضوع. راجعت قصتى مرة أخرى.. مختبرة إياها ضد نقاط الضعف على أمل ألا يستيقظ "مودى" لوقت طويل.

"لقد جئنا من "هيميلفانجر" ـ هل تعرفها؟"

حدق "نسبيت" فىّ بعينين بنيتين قويتين. "لا.. لا.. لا أعتقد أننى سمعت عنها."

"إنه بيت لجماعة من اللوثريين.. نروجيين، يحاولون بجد بناء مجتمع حيث يمكنهم أن يحظوا بحياة طيبة تحت رعاية الرب."

"شىء مثير للإعجاب."

عبثت أصابع يدى اليمنى بلا توقف بعُقب قلم رصاص، محركًا إياه للأمام وللخلف.. ويلفه حول نفسه وينقر به بخفوت على المائدة؛ ثم أصدر شىء ما صوتًا عائدًا إلى مكانه. "لادانم" أو ربما "ستركنين".. الله وحده يعلم أى حظ تعس جلبه كل هذا الطريق إلى هنا... بعيدًا عن الصيادلة والأطباء.

"لقد قمنا بهذه الرحلة لأن.." توقفت وتنهدت بثقل. "إن استرجاع هذا مؤلم.. هرب ابنى من المنزل وشوهد آخر مرة فى "هيميلفانجر"، ومن هناك وجدنا أثرًا يقود فى هذا الاتجاه."

استرخى وجه "نسبيت"، عيناه علىّ عن قصد جعلت بشرتى تقشعر؛ ربما كان ينتظر شيئًا آخر على كل حال.

"أثر يقود فى هذا الاتجاه؟ طوال الطريق إلى هنا؟"

"لقد بدا كذلك.. إلا أنه بعد العاصفة الثلجية لم يعد بوسعنا التأكد."

"لا! أومأ برأسه بتفهم.

"ولكن السيد "باركر" اعتقد أن هذا هو المكان الأرجح، فليس هناك العديد من القرى الصغيرة فى هذا الجزء من البلاد، على ما أعتقد عددهم قليل جدًا فى الواقع."

"لا.. فنحن معزولون إلى حد ما، هل هو صغير.. أعنى ابنك؟"

"فى السابعة عشرة." أخفضت عينى. "بإمكانك أن تفهم كم أنا قلقة."

"نعم بالطبع.. والسيد "مودى"...؟"

"لقد عرض السيد "مودى" أن يصحبنا مشكورًا؛ حيث إننا قادمون إلى مركز للشركة، أظن أنه مهتم بمقابلة وكيلكم."

"آه.. نعم.. أنا متأكد.. حسنًا، السيد "ستيوارت" قد ذهب فى رحلة قصيرة، لكنه يجب أن يعود اليوم التالى أو ما إلى ذلك."

"هل لديكم جيران؟"

"لا.. لقد ذهب فى رحلة صيد، إن هذا من اهتماماته المولع بها."

كان "نسبيت" قد أفرغ كأسه بالفعل وأعاد ملئه، رشفت من كأسى ببطء." إذًا.. أنت لم تر أو تسمع عن أى غريب؟"

"للأسف لا.. على الإطلاق، لكن ربما كان قد قابل عصابة هندية، أو

بعض الصيادين.. فكل أنواع البشر تأتى وتذهب، ستندهشين من كيف يتجول الناس هنا وهناك حتى فى الشتاء."

تنهدت مجددًا وقد بدا علىّ اليأس.. الشيء الذى لم يكن صعبًا. أخذ كأسى وأعاد ملئه.

انفتح الباب ودخلت امرأة هندية عريضة ومعها صينية.. لم أتمكن من تحديد سنها.

"الرجل الآخر.. يريد أن ينام." قالت ووجهت نظرة شيطانية إلى "نسبيت".

"نعم.. وهو كذلك يا "نورا".. حسنًا، ضعيها على الطاولة شكرًا لك. هل بإمكانك رؤية إذا ما كان يمكنك تحديد مكان الزائر الآخر؟"

كانت هناك لمحة من السخرية فى صوته، تركت المرأة الصينية على الطاولة واضعة إياها بصوت مسموع.

قام "نسبيت" بكشف الصينية بأسلوب أخرق وقدم لىّ طبقًا من اللحم والذرة المطبوخ، كان الطبق نفسه جيدًا.. طبق إنجليزى لكن اللحم كان قديمًا وصعب المضغ؛ ليس أفضل كثيرًا من الأشياء التى كنا نأكلها فى رحلتنا. كنت أكافح لأبقى عينى مفتوحتين وذهنى حاضر أكل "نسبيت" قليلا لكنه كان يشرب بمعدل ثابت، لذلك ولحسن الحظ لم تكن استجابته الأكثر حدة، شعرت بحاجة ملحة لأن أجعله يتكلم الآن.. الليلة.. بينما ليس لديه أى مبرر للشك بعد.

"إذًا.. من يعيش هنا؟ هل أنتم شركة كبيرة؟"

"يا إلهى.. لا! نحن شركة صغيرة، لسنا بالتحديد قلب بلدة الفراء، ليس بعد الآن." ابتسم بمرارة.. لكن ليس ـ على حد اعتقادى ـ بسبب طموح شخصى تم تحطيمه. "هناك السيد "ستيوارت" الوكيل.. وهو واحد من أرقى الرجال الذين تحظين بمقابلتهم، ثم هناك خادمك المتواضع الذى

يقوم بكل الأعمال التافهة...!" قام بأداء انحناءة تهكمية." "... وكذلك هناك العديد من عائلات السكان الأصليين وذوى الأعراق المختلطة حول المكان."

"إذًا فالمرأة التى جاءت.. "نورا" ـ هى زوجة واحد من رجالك؟"

هذا صحيح!" أخذ "نسبيت" رشفة من البراندى.

"وما الذى يفعله الرحالة فى الشتاء؟" فكرت فى الرجل مختلط الأعراق الذى رأيته فى الباحة، كان قادرًا بالكاد على الوقوف، وبدا أن "نسبيت" يقرأ أفكارى.

"حسنًا.. عندما يكون هناك القليل من العمل.. مثل الآن أخشى أنهم يصبحون فريسة للإغراءات، ففصول الشتاء طويلة جدًا."

كانت عيناه قد فقدتا تركيزها وبدت زجاجية وملتهبة.. وذلك من تأثير الكحول أو شىء آخر.. لم أكن أعرف.

"لكن الناس يسافرون هنا وهناك.. حتى بالرغم من ذلك..."

"نعم.. هناك الصيد وما إلى ذلك، بالنسبة إلى الرجال والسيد "ستيوارت"... لكنه ليس من أشيائى المفضلة." ظهر على وجهه تعبير راق للاشمئزاز. "القليل من الصيد بالأفخاخ بالطبع، فنحن نأخذ ما يمكننا الحصول عليه."

"وهل جاء أى شخص هنا من الجنوب الغربى مؤخرًا؟ أتساءل فقط إذا ما كان الأثر الذى رأيناه قد يكون لأحد رجالك، وليس ابنى. لنعلم ونبحث حينها فى مكان آخر." حاولت أن أبقى صوتى محايدًا بقدر الإمكان لكن مغلفًا بالحزن.

"واحد من رجالنا...؟" اتخذ نظرة من الغموض التام.. انعقدت حاجباه بطريقة كوميدية ولكنه كان ثملاً. "لا يمكننى التفكير.... لا.. ليس على قدر علمى، بوسعى أن أسأل..."

ابتسم لىّ بصدق، فكرت أنه كان يكذب لكنى كنت قد بلغت درجة من الإرهاق من الصعب معها التأكد من أى شىء. فجأة أصبح الاشتياق لأرقد

وأنام ملحًا ومهمًا وكأنه ألم جسدى، بعد دقيقة أخرى لم أعد استطيع محاربته أكثر من ذلك.

"أعذرنى سيد "نسبيت" لكنى... يجب أن أذهب."

وقف "نسبيت" وأمسك بذراعى وكأنه يظن أننى على وشك السقوط أو الهرب، حتى البرد المفاجئ فى الردهة لم يستطع إفاقتى.

أيقظنى شيء ما.. هناك ظلام تقريبًا وصمت إلا من صوت الرياح.. للحظة اعتقدت أن هناك شخصًا آخر فى الحجرة وجلست فى الفراش بتعجب لم أستطع التحكم به. عندما اعتادت عيناى على الظلام أدركت أنه لم يكن هناك أحد، لم يكن الفجر قد حل بعد.. ولكن شيئًا ما أيقظنى وأصبحت منتبهة.. قلبى يطرق.. أذناى حساستان لأخفت الأصوات. انزلقت مغادرة الفراش وضعت الملابس القليلة التى كنت قد خلعتها قبل الاستسلام للنوم.. التقطت المصباح لكنى لسبب ما لم أرد إشعاله، مشيت على أطراف أصابعى إلى الباب.. لم يكن هناك أحد بالخارج كذلك.

جاءت أصوات صرير وعويل من ألواح خشب السقف.. صوت الرياح تزوم تحت ألواح الخشب، وصوت طقطقة مزعج وغريب.. خفيف جدًا ومبهم. استمعت لكل باب لبرهة طويلة قبل أن أدير المقبض وألقى نظرة متلصصة بالداخل. واحد مغلق؛ ومعظمهم فارغون ولكن خلال نافذة إحدى الحجرات الفارغة رأيت لمعانًا أخضر بالخارج.. ستارة من الضوء تلألأت فى الشمال وثقبت الظلام ومنحتنى هذه الرؤية غير الواضحة.

فتحت بابا ورأيت "مودى".. وجهه الشاب الضعيف بدون نظارته. أغلقته سريعًا ثم فكرت فى "باركر".. لابد أن أجد "باركر"، كنت فى حاجة للتحدث معه.. عما أقوم به وقبل أن أقوم بشيء غبى بشكل لا يصدق. لكن خلف أحد الأبواب القليلة التالية لم أجد شيئًا، ثم أعطانى ما رأيت خلف واحد منها رعشة من الصدمة. كان "نسبيت" راقدًا فى نوم غير مفهوم أو حالة إغماء، وبجانبه ترقد السيدة الهندية التى قدمت لنا العشاء.. وقد طوحت إحدى ذراعيها العريضتين فوق صدره.. داكنًا فوق بشرته البيضاء

كالحليب. كان صوت تنفسهما عاليًا، كنت قد كونت انطباعًا أنها تكرهه.. ولكن هاهما.. وهناك براءة مؤثرة حول وضع نومهما المشين. نظرت لفترة أطول مما قصدت ثم - ليس لأنهما سيستيقظان فجأة هكذا - أغلقت الباب بعناية خاصة.

أخيرًا وجدت "باركر" حيث كنت نصف متوقعة أن أجده.. فى الأسطبلات بالقرب من الكلبين. كان ملتفًا ببطانية ونائمًا مواجهًا للباب. فجأة وأنا مرتبكة قمت بإشعال المصباح وجلست أنتظر. رغم أننا كنا ننام تحت الخيمة نفسها التى لا تزيد مساحتها عن عدة ياردات لليالٍ عديدة، فلقد بدا تحت سطح خشبى أنه ليس مناسبًا أن أراقبه وهو نائم، وأنا متكورة بجانبه على التبن هكذا... مثل لص.

بعد عدة لحظات أيقظه الضوء.

"سيد "باركر" هذا أنا.. السيدة "روس"."

بدا أنه يفيق سريعًا، دون أن يختبر الضباب الكثيف الذى يحيط بى عند الاستيقاظ. كان وجهه غير مقروء تمامًا؛ من الواضح أنه ليس غاضبًا ولا متفاجئًا لرؤيتى هنا.

"هل حدث شىء ما؟"

هززت رأسى. "شىء ما أيقظنى.. لكنى لم أستطع أن أجد أى شىء، أين ذهبت الليلة الماضية؟"

"كنت أعتنى بالكلبين."

انتظرت أن يقول شيئًا آخر لكن لم يصدر عنه أى شىء.

"تناولت العشاء مع "نسبيت" وقد سألنى عن سبب وجودنا هنا، فقلت إننا نبحث عن ابنى الذى هرب وقد تمت رؤيته آخر مرة فى "هيميلفانجر"، ثم سألته إذا كان هناك أى أحد قد عاد مؤخرًا من رحلة، فقال إنه لا يعلم، لكنى لا أعتقد أنه صادق كليًا."

مال "باركر" إلى حائط الإسطبل ونظر إلىّ بتفهم. "لقد تحدثت إلى رجل وزوجته، قالا إن لا أحد ذهب بعيدًا مؤخرًا، لكنهما بديا غير سعداء. عندما كانا يتحدثان كانا ينظران بعيدًا أو فوق كتفى."

انتظرت لدقيقة ولكن كانت مبرراتى للبقاء قد نفدت، وبينما أقوم واقفة احتك ذراعى بساقه التى كانت فى التبن. لم أكن أعلم أن ساقه هناك.. أقسم بذلك، أو إذا كان هو قد حركها لتحتك بى. قفزت على قدمى وكأنى قد احترقت، والتقط المصباح. لم يكن بوسعى معرفة ما على وجهه وسط تمايل الضوء والظلال.

"حسنًا.. تصبح على خير إذًا."

سرت خارجة إلى الباحة سريعًا.. واعية ومتأذية إن لم يرد. هدأ الجو البارد من حرارة بشرتى لكن لم يكن بإمكانه فعل شىء لأفكارى الهائجة؛ كانت بشكل أساسى رغبة قوية فى العودة إلى الإسطبل والرقود على التبن بجانبه.. أن أفقد نفسى فى عطره ودفئه. ما هذا ـ هل غلبنى خوفى وقلة حيلتى؟ احتكاك جسده بجسدى فى التبن كان خطأً.. خطأ. لقد لقى رجل حتفه و"فرانسيس" يحتاج لمساعدتى؛ لهذا السبب أنا هنا.. ليس لأى سبب آخر.

تلألأ نور الشفق فى الشمال مثل حلم جميل، والرياح قد ذهبت، والسماء عالية وصافية إلى حد يسبب الدوار، والبرد العميق قد عاد.. برد قارس رنان يقول إن لا شىء بينى وبين أعماق الفضاء اللانهائية. أرجعت رأسى للوراء وباتجاه السماء بعد أن جعلتنى أشعر بالدوار لوقت طويل.. على علم أننى أسير فى ممر غير آمن.. محاطة من كل الجهات بالشك والكوارث المحتملة.. لا شىء تحت سيطرتى. تثاءبت السماء فوقى مثل هوة بلا قرار ولم يكن هناك أى شىء على الإطلاق ليمنعنى من السقوط.. لا شىء ماعدا متاهة النجوم الجامحة.

***

استيقظ "دونالد" على ضوء النهارخارج النافذة، لعدة لحظات لم يستطع تذكر أين كان، ثم هبط عليه كل شيء: نهاية آثار الأقدام، فترة راحة من هذه الرحلة الجهنمية، كان كل جزء من جسده يؤلمه وكأنه قد تعرض للضرب المبرح.

يا الله.. لقد سقط مغشيًا عليه الليلة الماضية بالفعل ـ أم سقط فى سبات عميق؟ هذه المرأة التى ضمدت له قدميه.. مد قدمًا من تحت الأغطية ورأى أنها مضمدة بضمادات نظيفة، إذًا فلقد كانت حقيقية وليست حلمًا. هل قامت بخلع ملابسه كذلك؟ لم يتذكر أى شىء لكنه شعر بالخجل يوخزه. لقد كان بلا شك عاريًا تمامًا، وكان قد تم وضع مرهم على جرحه وضُمد. عبث باحثًا حول الفراش حتى وجد نظارته، شعر أنه أكثر هدوءًا عندما وضعها على أنفه.. أكثر سيطرة على الأشياء. بالداخل كانت الحجرة صغيرة مفروشة بقطع من الأثاث هنا وهناك مثل غرف الضيوف فى "فورت إدجار"، أما بالخارج فكان الجو باردًا وليس هناك ثلج.. لكنه سيبدأ فى التساقط قريبًا. وفى مكان ماخلال هذه المجموعات من المبانى يقوم "باركر" والسيدة "روس" بطرح الأسئلة من دونه. السماء فقط تعلم ما الذى يقولانه للسيد "ستيوارت" وقد تم تركهما وحيدين. كافح لينهض من الفراش ويلتقط ملابسه التى كانت موضوعة بعناية على كرسى، ارتدى ملابسه وهو يتحرك لاهثًا مثل رجل عجوز. كان غريبًا (ولكن لحسن الحظ بطريقة ما) كم كان يشعر بشعور أسوأ الآن أنهم وصلوا أخيرًا.

جر قدميه للخارج فى الطرقة وشق طريقه إلى جانبى الباحة الداخلية دون رؤية روح حية. إنه أغرب مركز من مراكز الشركة على الإطلاق؛ لم يكن هناك أى من ضجيج العمل الذى اعتاد عليه فى "فورت إدجار". تعجب أين "ستيوارت"... وما نوع النظام الذى يتبعه، كانت ساعته قد توقفت ولم يكن يدرك كم الوقت الآن، متأخرًا أم باكرًا. أخيرًا انفتح باب فى الطرقة وظهر منه "نسبيت".. مغلقًا إياه خلفه بشدة، كان غير حليق وغائر العينين لكنه مرتدى ملابسه.

" آه.. سيد "مودى"! أرجو أن تكون قد نلت قسطًا من الراحة، كيف حال قدميك؟"

"أفضل بكثير، الـ... قامت "إليزابيث" بتضميدهما لى.. كان هذا كرمًا منها، أخشى أننى كنت متعبًا جدًا لدرجة أننى لم أشكرها."

"تعال وتناول الإفطار، فلابد أنهم نجحوا فى إشعال نار وتمكنوا من أن يحضروا شيئًا. الله وحده يعلم كم من الصعب أن تجعل الشياطين نفسها تفعل أى شىء فى الشتاء، هل لديكم هذه المشاكل حيث تعمل؟"

"فورت إدجار؟"

"نعم.. أين هذا؟"

تفاجأ "دونالد" أنه لا يعرف. "على خليج جورجيا."

"ياللتحضر! أحلم بأن يتم إرسالى إلى مكان على مقربة من... حسنًا، مكان ما حيث يعيش بشر، لابد أنك تجدنا فقراء جدًا بالمقارنة."

قاد "نسبيت" "دونالد" إلى الحجرة حيث تم إحضارهم أول مرة، لكن كانت النار الآن متقدة وتم جلب طاولة وكراس من مكان ما؛ بوسع "دونالد" رؤية علامات جر على الغبار الذى على الأرض، يبدو أن الاعتناء بالنظافة ليس من الأولويات هنا، ولم يكن يعرفها على أى حال.

"هل السيدة "روس" والسيد "باركر" فى الجوار؟"

بينما "نسبيت" يذهب إلى الباب.. دخلت السيدة "روس"، كانت قد استطاعت أن تفعل شيئًا ما لملابسها جعلها تبدو مناسبة إلى حد ما وصففت شعرها بعناية أيضًا، كان الذوبان الذى لاحظه بعد العاصفة الثلجية قد انتهى.

"السيد "مودى"."

"ممتاز! أنت هنا... والسيد "باركر"؟"

"لست متأكدة." خفضت بصرها وخرج "نسبيت" مناديًا المرأة الهندية، جاءت السيدة "روس" بخفة إلى "دونالد" ووجهها متوتر.

"يجب أن نتحدث قبل أن يعود "نسبيت"، قمت بإخباره الليلة الماضية أننا هنا من أجل البحث عن ابنى الذى لاذ بالهرب، ليس من أجل البحث عن قاتل. ليس من الضرورى أن نجعلهم يحتاطون."

فغر "دونالد" فاهه فى دهشة. "سيدتى العزيزة... أتمنى لو كنت قد استشرتينى أولا قبل تأليف قصة غير..."

"لم يكن هناك وقت، لا تقل أى شىء آخر وإلا سيصبح متشككًا، سيكون من الأفضل لنا ألا يشكوا فى أى شىء، ويجب أن توافق على ذلك؟" كان فكها متشنجًا وعيناها صلبتين كالحجر.

"وماذا لو....؟" قطع همسه عندما عاد "نسبيت"، وتبعته "نورا" ومعها صينية. ابتسم كلاهما له فشعر "دونالد" أن همسهما لابد وأنه سر كان واضحًا. بقدر من الحظ سيفترض "نسبيت" أن سرهما ذو طبيعة رومانسية... وجد نفسه يحمر خجلا من الفكرة.. ربما لديه لمسة من الحمى. بينما يجلس على الطاولة ذكر نفسه بـ"سوزانا" وهو واع بجهد إرادته، من الغريب أنه لم يفكر فيها منذ فترة.

وصل "باركر" وبينما هم جميعًا يأكلون اللحم المشوى وعيش الذرة ـ دونالد" وكأنه لم يأكل منذ أيام ـ شرح "نسبيت" أن "ستيوارت" قد ذهب فى رحلة صيد مع واحد من الرجال، واعتذر عن قلة كرم الضيافة. إلا أنه كان فخورًا بشىء واحد: تحدث بحدة إلى "نورا" بسبب القهوة التى أحضرتها، فقامت بأخذها فى صمت وعادت ومعها إناء به شىء مختلف تمامًا، سبقتها الرائحة إلى داخل الحجرة.. رائحة حبوب قهوة حقيقية، والتى لم يشم أحد منهم مثلها منذ أسابيع. عندما تذوقها "دونالد" أدرك أنه ربما لم يشرب أى شىء مثل هذا قط من قبل، مال "نسبيت" فى كرسيه وهو يبتسم ابتسامة واسعة.

"حبوب قهوة من أمريكا الجنوبية، اشتريتها من "نيويورك" عندما كنت فى طريقى إلى هناك. أطحن منها فقط للمناسبات الخاصة."

"كم من الوقت أمضيت هنا يا سيد "نسبيت"؟" كانت هذه من السيدة "روس".

"أربع سنوات وخمسة أشهر، أنت من "أيدنبرج".. أليس كذلك؟"

"نعم مسقط رأسى." بطريقة ما جعلت كلمة واحدة تبدو مثل تأنيب شديد.

"وأنت من "برث" إذا لم أكن مخطئًا؟" ابتسم "دونالد" له، قلقًا من أن يقوم بأى تعديلات، ثم حدق فى السيدة "روس"؛ إذا لم تكن تريد إثارة الشكوك فعليها أن تكون أكثر أدبًا.

"كينكارداين".

ساد الصمت، وأرجعت السيدة "روس" نظرة "دونالد" بهدوء.

"آسف لأنه ليس بوسعنا مساعدتكم بشأن ابن السيدة "روس" التائه، لابد أنه أمر مقلق للغاية."

"آه.. نعم." أومأ "دونالد" وهو محرج.. فلم يكن التمثيل من نقاط قوته، وكان غاضبًا منها لأخذها المبادرة بعيدًا عنه، هو الذى يجب أن يمسك بزمام الأمور فى مسألة لها علاقة بالشركة، شعر بالتخبط بشأن الطريقة التى سيكمل بها.

"إذًا أنت تعتقد... " بدأ "دونالد" يقول، لكن قاطعه فى لحظتها صوت مكتوم سريع فى الطرقة وصرخة من الخارج. أصبح "نسبيت" متنبهًا فجأة مثل حيوان.. احتدت حواسه وقام من مكانه بحركة سريعة. التفت إليهم بنصف ابتسامة.. رغم أنها بدت أكثر منها تشنجًا وليست ابتسامة.

"أعتقد يا أعزائى ربما يكون السيد "ستيوارت" قد عاد الآن."

ركض تقريبًا خارجًا من الحجرة، وترك "دونالد" والآخرين ينظرون

إلى بعضهم البعض. أحس "دونالد" أنه عومل دون احترام ـ لماذا لم يدعوهم "نسبيت" للخارج، أو على الأقل هو؟ أصبح واعيًا بشعور ملح بالخطأ، والذى تركه يتخبط دون قواعد، بعد لحظة صمت انسحب "دونالد" مستئذنًا بغمغمة وتبع "نسبيت" مترددًا إلى الباحة.

تجمع أربعة أو خمسة رجال ونساء فى حلقة حول رجل معه زلاجة ومجموعة متشابكة من الكلاب. المزيد من الأشخاص ظهروا من اتجاهات مختلفة وتسكع البعض قرب المبانى، والبعض ذهب مباشرة إلى القادم الجديد. كان لدى "دونالد" الوقت ليتساءل من أين جاء كل هؤلاء؛ لم يكن قد رأى معظمهم من قبل، رغم أنه تعرف على المرأة الطويلة التى غسلت له قدميه الليلة الماضية. كان القادم الجديد مثقلا بالفراء، وكان وجهه مختفيًا تحت غطاء رأس من الفراء.. يتحدث إلى مجموعة.. ثم سقط عليهم الصمت. تقدم "دونالد" بمفرده باتجاههم، والتفت القليل من الوجوه تجاهه محدقين فيه وكأنه شىء غريب. توقف مرتبكًا، ثم صدر عن المرأة الطويلة ـ التى كانت فى المجموعة الأولى طوال الوقت ـ عويلاً طويلاً عاليًا وغاصت لأسفل فى كومة على الجليد.. مصدرة صوتًا عاليًا رفيعًا لا ينتمى لهذا العالم.. ليس صراخًا ولا بكاء.. استمر واستمر ولم يحاول أحد أن يهدئها.

بدا أن واحدًا من الرجال يشتكى لـ"ستيوارت" الذى هز كتفيه وسار باتجاه المبانى، تحدث "نسبيت" بحدة إلى الرجل وتبع زعيمه، وعندما رأى "دونالد" حدق فيه للحظة، ثم عاد إلى رشده ونادى عليه ليعود معه إلى الداخل، كان لون وجهه من نفس لون الجليد القذر.

"ما الذى يجرى؟" غمغم "دونالد" عندما أصبحا بعيدًا عن مسامع الرجال فى الباحة.

كان فم "نسبيت" مضغوطًا فى خط صلب. "لقد حدث شىء تعس الحظ.. لقد تعرض "نيبابانيز" إلى حادث قاتل، زوجته كانت فى الخارج هناك."

بدا غاضبًا أكثر من أى شىء آخر، وكأنه يفكر: وماذا الآن؟

"هل تقصد المرأة التى على الأرض.. "إليزابيث"؟ هل مات زوجها؟"

أومأ "نسبيت" أن نعم: "أحيانا أشعر أننا علينا لعنة."

صدرت هذه بهمهمة.. نصفها وكأنه يحدث نفسه، ثم استدار فجأة وقد سد الطريق إلى الطرقة بإحكام على "دونالد".. إلا أنه كان يحاول الابتسام.

"إن هذا سوء حظ عظيم، ولكن.. لماذا لا تعاود الانضمام للآخرين؟ استمتع بإفطارك... فأنا فى حاجة للتحدث إلى السيد "ستيوارت" الآن.. أثر الظروف الراهنة، سوف ننضم إليكم فيما بعد."

شعر "دونالد" أنه ليس لديه أى اختيار إلا أن يومئ ويراقب ظهر "نسبيت"، وهو يختفى حول الركن. حام فى الطرقة وهو فى حيرة وانزعاج. كان هناك شىء ما مشين إلى حد ما فى الطريقة التى أزاح بها "نسبيت" - و"ستيوارت" نفسه - حزن الآخران جانبًا وكأنهما لا يريدان أى شىء يتعلق بهذا الأمر.

بدلا من العودة إلى حجرة الإفطار، رجع إلى الفناء حيث بدأ الثلج فى التساقط فى صمت مركز، وكأنه يقول: إنه الشتاء الآن.. هذه ليست بمزحة. كانت نتفه صغيرة وسريعة وبدت وكأنها تأتى من كل اتجاه، مشوشة الرؤية على بعد عدة ياردات. فقط المرأة الأرملة هى التى بقيت فى الخارج حيث جلست تهتز للأمام والخلف، لم ير الآخرين فى أى مكان، كان غاضبًا منهم لأنهم تركوها وحيدة، فلم تكن المرأة حتى ترتدى ملابس خروج لأجل السماء؛ فقط ثوبها المنزلى الذى يترك ذراعيها عاريتين تحت الكوعين. مشى ذاهبًا إليها.

كانت الآن نصف مائلة على ركبتيها وتهتز بصمت، عيناها واسعتان لكنهما مثبتتان على لا شىء.. تقوم بتمزيق شعرها، لم تنظر إليه، وقد

اعتراه الرعب لرؤية لحمها العارى فوق حذائها الخفيف وقد تناثر عليه الجليد.

"معذرة.. سيدة "بيرد"." شعر بالارتباك، ولكنه لم يستطع التفكير فى أية طريقة أخرى ليتوجه إليها بالحديث. "سوف تتجمدين هنا.. من فضلك تعالى للداخل."

لم تقم بأية إشارة توضح أنها سمعته.

" "إليزابيث".. لقد كنت طيبة معى الليلة الماضية... من فضلك تعالى للداخل، أعلم أنك منكوبة دعينى أساعدك."

مد يدًا على أمل أن تأخذ بيده، لكن لم يحدث شىء. علقت نتف الثلج برموشها وشعرها، وذابت على ذراعيها ولم تقم هى بنفضها. كان "دونالد" متأثرًا ـ وهو ينظر إليها ـ بوجهها النحيل وملامحها الجميلة الإنجليزية تقريبًا، ولكن بعضًا من ذوى الأعراق المختلطة يكونون مثل ذلك.. بيض أكثر منهم هنودًا.

"أرجوك..." وضع يدًا على ذراعها وفجأة ارتفع العويل الحاد مجددًا.

انسحب وهو منزعج؛ مثل هذا الصوت الغريب الجدير بالأشباح.. مثل صوت حيوان. فقد شجاعته.. فرغم كل شىء ما الذى يعرفه عنها، أو عن زوجها الراحل؟ ما الذى بوسعه أن يقول ليخفف من ألمها؟

نظر "دونالد" حوله باحثًا عن مساعدة أو شهود، لم يكن هناك أية علامة على أية حركة خلال الجليد الذى يسبب الدوار، رغم أنه رأى فى نافذة مقابلة شخصًا ما بدا وأنه يراقبهما.

وقف ـ حيث كان يجلس القرفصاء ـ وقرر أن يجد شخصًا آخر، وربما امرأة صديقة يمكن أن تقنعها بالدخول؛ فهو لا يشعر أنه من المناسب أن يجبرها أو يحملها. إنه واثق أن "جاكوب" كان ليعرف ماذا يفعل.. ولكن "جاكوب" ليس هنا. نفض الثلج عن سراويله ومشى مبتعدًا

عن النافذة، رغم أنه لم يستطع الذهاب دون إلقاء نظرة أخيرة عليها. كانت شكلا أسود نصف مختف فى الجليد مثل شخص مجنون فى لوحة يابانية. كانت لديه فكرة سعيدة: سوف يحضر لها بعض القهوة -إن هذا أقل شىء يمكن لـ"نسبيت" أن يفعله، إنه واثق أنها لن تشربه ولكنها ربما تفرح قليلاً لأنه فعل ذلك.

***

رقدت "لاين" مستيقظة ومرتدية ملابسها بالكامل، تحدق فى النافذة التى بلا ستائر. كان "توربين" و"آنا" نائمين بجانبها، لم تكن قد قالت لهما أى شىء، غير واثقة أنهما سيحفظان سرًا مثل هذا. بعد وقت قصير سوف توقظهما وتلبسهما وتجعل الأمر يبدو كمغامرة. إنهما لا يعلمان أى شىء عن خططها، لن تخبرهما حتى يصبحا بعيدًا عن "هيميلفانجر"، تتمنى لو أنهم جعلوا الموعد فى وقت أبكر من ذلك ـ فالجميع قد ناموا منذ ساعة، ساعة من السفر تتم إضاعتها. كانت تشعر بالحر بشكل غير مريح، حيث إنها ارتدت طبقات من التنانير الداخلية تحت تنورتين خارجيتين وكذلك كل قمصانها فوق بعضهم البعض، حتى بدا ذراعاها مثل سجق محشو بإحكام. سوف يفعل "إسبن" الشىء نفسه، فمن الجيد أن الوقت شتاءً. ألقت نظرة على الساعة مرة أخرى وأدارت عقارب الساعة لتناسبها هى؛ حيث لا تستطيع الانتظار أكثر من ذلك، مالت وبدأت توقظ طفليها.

"اسمعا، نحن ذاهبون فى رحلة، ولكن من المهم جدًا أن نبقى هادئين جدًا.. جدًا.. اتفقنا؟"

رمشت "آنا" وقالت بتذمر: "أريد النوم."

"يمكنك النوم فيما بعد، الآن لدينا مغامرة لنقوم بها، هيا.. ارتدِ هذه الأشياء.. بأسرع ما يمكنك."

"إلى أين نحن ذاهبون؟" بدا "توربين" أكثر تحمسًا. "الظلام بالخارج."

"إنه الفجر تقريبًا، انظر ـ إنها الخامسة صباحًا، لقد كنتما نائمين لساعات وساعات، يجب علينا بدء الرحلة مبكرًا إذا كنا سوف نصل هناك اليوم."

حشرت ثوب "آنا" فوق رأسها.

"أريد البقاء."

لابد أنه مرت ساعة منذ جاءوا ولم يدخل أحد إلى الإسطبل، فى البداية قالت لنفسها: إنه دائم التأخر، ليس بوسعه فعل شىء حيال ذلك. ثم بدأت تفكر.. ربما ظن أن ميعادهم فى الثانية.. لابد أنه وقع فى خطأ. ثم بينما الوقت يزحف مارًا ومازال لم يأت أحد.. تخيلت أن "ميريت" لم يكن بإمكانها النوم ومما ـ ربما حدث شىء ما للرضيع أو مرض أو شىء ما ـ جعل الأمر مستحيلا عليه أن يغادر . ربما هو يرقد الآن مستيقظًا، يلعن ويتساءل عن حالها.

ثم.. ربما لم يكن ينوى أن يأتى على الإطلاق.

تفكرت بعمق فى هذه الاحتمالية الكئيبة، لا.. هو لن يخذلها هكذا لن يفعل.. لن يفعل.

سوف تمنحه فرصة أخرى، أو ستجلب له العار أمامهم كلهم، هزت الطفلين لتوقظهما بعنف أكثر مما كان ضروريًا.

"اسمعا.. لقد حدث تأجيل.. اتضح أننا لا يمكننا المغادرة الليلة رغم كل شىء، سوف يكون علينا الذهاب ليلا، آسفة..." قطعت عليهما شكواهما المتوقعة. "آسفة ولكن هذا هو ما الوضع عليه."

تذكرت أنها استخدمت الجملة نفسها، وهى تخبرهما أن والدهما لن يعود قط ويجب عليهم أن يذهبوا ويعيشوا وسط المجهول. "ليس هناك فائدة من الشكوى، هذا هو ما عليه الوضع."

جعلتهما يقسمان على السرية، إذا قاما بإخبار أى شخص عن هذا فلن يكون بإمكانهما الذهاب فى إجازة على الإطلاق، ورسمت صورة

للجنوب الدافئ الذى يجذب كليهما، على أمل أن يكون بإمكانهما الذهاب فى يوم ما هناك.

بينما تقف وتبدأ فى إرشادهما عودة إلى حجرة نومهم ـ على الأقل مازال الوقت ظلامًا ـ كان هناك حركة بالقرب من الباب، تجمدت فى مكانها وتجمد الطفلان كذلك، وقد وصلتهما عدوى خوفها المفاجئ، ثم صوت يقول:

"هل هناك أحد؟"

للحظة ـ أقل جزء من الثانية ـ اعتقدت أنه "إسبن" وهوى قلبها، ثم أدركت أنه ليس صوته، لقد كُشف أمرهم.

مشى الرجل نحوهم، شلت حركة "لاين" من الصدمة، ما الذى يمكنها أن تقوله؟ أخذ منها الأمر ثانية أخرى لتدرك أنه تحدث بالإنجليزية وليس بالنرويجية. إنه الرجل مختلط الأعراق "جاكوب"، لم تضع بعد.. ليس بعد، أضاء مصباحًا وأمسك به فى الهواء بينهم وبينه.

"أوه.. سيدة.." ثم أدرك أنه لا يعرف أو لا يمكنه نطق اسمها. "أهلا "توربين"... أهلا "آنا"."

"أنا آسفة لو كنا أزعجناك." قالت "لاين" بحدة، ما الذى يفعله هنا؟ هل ينام فى الإسطبل؟

"لا.. على الإطلاق."

"حسنًا إذًا، طابت ليلتك." ابتسمت ومشت من أمامه، ثم عندما سار الطفلان أمامها عبر الباحة استدارت للخلف وقالت:

"أرجوك من المهم جدًا ألا تقول اى شىء عن هذا، لأى شخص.. لأى شخص على الإطلاق، أتوسل إليك.. أو لن تكون حياتى تستحق العيش، ليس باستطاعتى التعبير عن هذا كثيرًا.. هل يمكننى الوثوق بك؟"

أطفأ "جاكوب" المصباح، وكأنه قد قدر حاجتها إلى السرية. قال ببساطة: "نعم، يمكنك الوثوق بى." ولم يبد عليه الفضول حتى.

ساعدت "لاين" الطفلين على خلع ملابسهما وراقبتهما وهما يغرقان فى النعاس، كانت متوترة لدرجة منعتها من النوم، دفعت بالحقيبة خلف كرسى، لم تقو على فك الحقائب، كان ذلك يبدو وكأنه اعتراف بالفشل. فى الصباح سيكون عليها إلقاء بعض الملابس هنا وهناك كتمويه؛ أملا فى أن يخدع هذا أى شخص يختار أن ينظر بالداخل، أوه.. ما أجمل أن تذهب إلى مكان ما حيث يكون لديها مكانها الخاص بأبواب يمكن إغلاقها. إنها تبغض عدم وجود خصوصية هنا، إنها تلهب مثل اللجام.

على الإفطار كانت حذرة، وهى تظهر قناعها المحايد والمرح للمجتمع، لم تنظر تجاه "إسبن" حتى منتصف الوجبة، ثم انحنت رأسه. لم ينظر فى اتجاهها. حاولت أن تستشف إذا ما كان هو أو "ميريت" يبدو عليهما التعب بطريقة ما، ولكن كان من الصعب تحديد ذلك، كان الرضيع يبكى ربما كان لديه مغص، عليها أن تأخذ وقتها.

كان وقت الظهيرة عندما أتيحت لها الفرصة، جاءها عندما كانت تطعم الدجاجات، لدقيقة واحدة ظل هناك، ورغم أنها لم تره يصل فقد انتظرته أن يتحدث.

" "لاين"... أنا آسف.. آسف جدًا، لا أعلم ماذا أقول لك.. لم يكن بوسع "ميريت" النوم لساعات ولم أعرف ماذا أفعل." إنه يدعى.. يمثل بلا توقف، فعيناه فى كل مكان ماعدا فى عينيها، تنهدت "لاين".

"حسنًا.. إن الأمر على ما يرام، لقد لفقت قصة للطفلين، وسوف نذهب الليلة فى الساعة الواحدة."

صمت للحظة.

"هل غيرت رأيك؟"

تنهد، فوجدت أنها ترتعش.

"لأنك لو فعلت، فلن أذهب من دونك، سوف أبقى وأخبر الجميع أننى أحمل طفلك، سوف أجلب عليك العار أمام الكل، أمام زوجتك وأطفالك.

وإذا قام "بير" بطردى فلن يهمنى.. قد أتجمد حتى الموت.. وطفلك سوف يموت وكذلك أنا، وسوف تكون أنت المسئول. هل أنت مستعد لذلك؟"

شحب وجه "إسبن" وقال: " "لاين".. لا تقولى مثل هذه الأشياء! هذا شنيع.. لم أكن سأقول إننى لن أذهب، إن الأمر صعب فحسب.. هذا كل شىء. انظرى إلى ما سأتركه خلفى.. أنت لن تتركى أى شىء."

"هل تحبها؟"

"مَنْ؟ "ميريت"؟ أنت تعرفين أننى لا أحبها، أنا أحبك أنتِ."

"إذًا الليلة فى الساعة الواحدة، لو لم تستطع "ميريت" النوم فسوف يكون عليك أن تفكر فى عذر."

استسلم وجهه، كل شىء سيكون على ما يرام، إنه رجل فحسب.. رجل يحتاج لمن يقوده.. مثلما هو الحال مع الكثيرين.

مع ذلك.. لم تعرف "لاين" كيف اجتازت الساعات المتبقية من اليوم، لم يكن بوسعها الجلوس ثابتة، واكتشفت "بريتا" حركتها التى لا تتوقف وهن يحكن الألحفة وقالت: "ما الأمر يا فتاة؟ أهناك نمل فى سراويلك؟" وكان كل ما استطاعت "لاين" فعله هو الابتسام.

ولكن أخيرًا.. بالطبع أخيرًا إنها الواحدة وهم فى طريقهم إلى الإسطبلات، وبمجرد أن دفعوا الباب، كان باستطاعتها الشعور بأن "إسبن" هناك، همس صوته باسمها فى الظلام.

فأجابت: "هذا نحن."

أشعل مصباحًا وابتسم للطفلين اللذين نظرا له بخجل متشكك.

"هل تتطلعان لإجازتكما؟"

"لماذا علينا الذهاب فى منتصف الليل؟ هل نحن هاربون؟" كانت هذه من "توربين" الحاد.

"بالطبع لا، نحن فى حاجة للذهاب مبكرًا لكى نتمكن من قطع مسافة كافية قبل حلول الظلام مجددًا. هذه هى الطريقة التى يسافر بها الناس فى الشتاء."

"أسرعوا.. لا مزيد من الثرثرة، سوف تريان عندما نصل إلى هناك." كانت "لاين" قلقة وصوتها حاد.

وضع "إسبن" حقائبهم على الجانبين خلف السرج ـ كان قد أعد الأحصنة. شعرت "لاين" بموجة من الولع بالمخلوقات الممتلئة القوية البطيئة الحركة؛ إنها تفعل ما يُطلب منها دون ضجيج أو مجادلة، حتى فى الساعة الواحدة صباحًا. قادوهم للخارج.. حيث كانت الباحة مليئة بالوحل فلم يكن هناك صوت لحوافرها. ليس هناك ولا ضوء فى "هيميلفانجر"، ولكنهم قادوا الأحصنة إلى غابة صغيرة من شجيرات البتول، بعيدًا عن مجال رؤية من خلف النوافذ، ساعد "إسبن" الطفلين فى اعتلاء ظهر الحصانين ثم وثب هو على السرج وراء "توربين"، كانت مع "لاين" بوصلة مسروقة فى يدها.

"سنذهب فى اتجاه الجنوب الشرقى كبداية." نظرت إلى السماء. "انظر.. هناك نجوم.. سوف تساعدنا، سوف نذهب باتجاه هذه النجمة هناك، أترون؟"

"ألن تسألا الرب أن يبارك رحلتنا؟" التوى حوله لينظر إلى أمه، يمكنه أن يكون فتى متزنًا فى بعض الأوقات، دومًا يريد أن يكون صحيحًا، ولقد عاش فى "هيميلفانجر" لثلاث سنوات، حيث لا تتحرك دون قول صلاة سريعة.

"بالطبع.. لقد كنت على وشك فعل ذلك."

شد "إسبن" لجام دابته وأحنى رأسه، غمغم بسرعة وكأن أذنى "بير" الورعتين يمكنهما التقاط الصلاة من على بعد أميال، "يا إله السماوات مالك كل ما فى السماوات والأرض، الذى يرى ويحمى الجميع، فلتراقبنا

فى رحلتنا وترشدنا سالمين من كل الشرور، واهدنا للطريق الصحيح... آمين."

غرست "لاين" كعبيها فى جانبى الحصان، أخذت الكتلة المظلمة لـ"هيميلفانجر" تصغر وتصغر خلفهم. مع صفاء السماء أصبح الجو باردًا... أكثر برودة من الليلة التى قبلها، لقد غادروا فى الوقت المناسب بالضبط.

***

منذ أن عاد والدها للبيت بعد حبسه وهو يبدو كرجل مختلف، كان يجلس بمفرده فى مكتبه.. لا يقرأ أو يكتب خطابات أو يقوم بأى طرق أخرى لشغل نفسه، غير التحديق خارج النافذة لفترات طويلة دون أن يتحرك. عرفت "ماريا" هذا لأنها قامت باختلاس النظر خلال ثقب باب مكتبه بعد أن تم منعها من إزعاجه، لم يكن من عادته أن يقطع نفسه عنها.. فكانت هى قلقة.

كانت "سوزانا" قلقة كذلك ولكن لأسباب أخرى، بالطبع هى معنية بوالدها وسلوكه غير المعتاد، لكنه مازال يتناول وجباته كلها مع الأسرة ويبدو مرحًا بشكل كاف. إن الأمر ليس وكأنه ـ مثلما قالت لأختها ـ يستطيع الاستمرار فى مهامه كحاكم فى الوقت الحالى؛ لذلك ما الذى يجب أن يفعله غير ذلك؟ لا.. لقد قررت "سوزانا" أن تصبح مهتمة عاطفياً بـ"دونالد" لقد ذهب هو و"جاكوب" لثلاثة أسابيع، والذى لم يكن بوقت طويل بالتحديد، رغم أنه كان من المتوقع أن يعودا قبل ذلك. قامت "سوزانا" و"ماريا" بالتفكير فى السبب، وكانت أكثر إجابة واضحة هى أنهما لم يجدا "فرانسيس روس". فلو كان قد مات لكانا رجعا، وكذلك الشىء نفسه لو كانا وجداه فى مكان قريب.

"ولكن ماذا لو كانا قد وجدا "فرانسيس" وقام بقتلهما ليهرب من العدالة؟" سألت "سوزانا" بعينيها المستديرتين وهى على حافة الدموع.

قالت "ماريا" باحتقار: "هل يمكنك فعلاً تخيل "فرانسيس روس" يقتل السيد "مودى" و"جاكوب"، عندما يكون كلاهما مسلحًا؟ إلى جانب ذلك.. هل لديه القوة لفعل ذلك، إنه ليس بأطول منك.. فى الواقع هذا أكثر الأشياء سخافة التى سمعتها على الإطلاق."

" "ماريا"!" اعترضت أمها وهى جالسة على كرسى تقوم بالحياكة.

حركت "سوزانا" كتفيها فى لامبالاة وهى غاضبة: "أعتقد فقط أنه كان لابد أن يبعث برسالة قبل الآن."

"لو لم يكن هناك أشخاص لحمل الرسائل.. فإن هذا غير ممكن."

"أوه.. ليس الأمر وكأنهما فى وسط... "مانغوليا"."

"فى الواقع.. "مانغوليا" مكتظة بالسكان أكثر بكثير من "كندا"." لم تستطع "ماريا" منع نفسها من أن تقول ذلك.

"لو كان من المفترض أن يجعلنى هذا أطمئن، حسنًا.. إنه لا يساعد!" نهضت "سوزانا" ومشت خارجة من حجرة المعيشة وهى تغلق الباب بعنف وراءها.

قالت السيدة "نوكس": "كان بمكنك أن تكون أطيب من ذلك، فهى قلقة."

ابتلعت "ماريا" إجابتها الحادة،ربما كانت قلقة هى الأخرى أيضًا، ولكن كالعادة الكل يهتم بحالة "سوزانا" العاطفية أكثر من حالتها هى.

"الحقيقة هى أن الأمر مقلق، فلقد كنا نتوقع تلقى رسالة ما قبل الآن، بطريقة ما أنا متفاجئة أن الشركة لم ترسل أحدًا ليبحث عنهما."

"حسنًا.. طبقًا لخبرتى..." قالت السيدة "نوكس" وهى تقطع خيطًا بصوت حاد بأسنانها... "الأخبار السيئة هى الأسرع فى الوصول."

كان الجو العام فى المنزل خانقًا، فمن ناحية يجلس والدها كأبى الهول فى مكتبه ودموع "سوزانا" وهدوء أمها الغريب، فقررت "ماريا" أنها تريد

الابتعاد عنهم كلهم. الحقيقة أنها كانت منزعجة من رد فعلها هى للمناقشة التى دارت حول "مودى"،فهى أيضًا كانت قد تساءلت ما الذى حدث لهما وكانت تأمل أن يكون بخير؛ كما تكون قلقًا بشأن صديق لم تسمع أخباره منذ فترة. إن هذا لا يعنى شيئًا.. لكنها كانت تفكر فى وجهه.. متفاجئة من التفاصيل التى بقت فى ذهنها: النمش الذى يعلو عظمتى وجنتيه، الطريقة التى تنزلق بها نظارته على أنفه،والابتسامة خفيفة الظل عندما يُطرح عليه سؤال، وكأنه يشك فى قدرته على الإجابة عليه، لكنه على استعداد للمحاولة على كل حال.

وصلت المتجر وقد التصق بحذائها وتنورتها عدة بوصات من الثلج الموحل؛ كانت السيدة "سكوت" وراء المكتب الأمامى ورفعت رأسها قليلاً عندما دخلت "ماريا". عندما حيتها.. لاحظت "ماريا" وجود كدمة صفراء متورمة أعلى وجنتها اليسرى.. مفسدة تناسق أسارير وجهها. لعبت السيدة "سكوت" ـ أو "ريتشل سبنسر" مثلما كانت تُعرف يومًا ـ دور العذراء مريم فى قصة ميلاد المسيح فى المدرسة، وسكان البلدة الكبار فى السن مازالوا يذكرونها بهذا الأمر.. لكن مضى وقت طويل منذ أن تقصوا عن واحدة من الحوادث المتكررة التى يبدو أنها تعانى منها هذه الأيام.

كان السيد "ستاروك" فى حجرته،انتظرت "ماريا" بجوار الموقد بالأسفل.. ليست متأكدة إذا كان سيقابلها لكنه نزل إليها بعد دقيقة.

"آنسة "نوكس".. إلى من أدين بهذا السرور؟"

"أخشى أنك تدين للملل يا سيد "ستاروك"."

رفع كتفيه لامباليًا بأناقة،متقبلاً ما فى الجملة من روح للدعابة. "إننى مسرور بالملل إذا كان هو الذى جاء بك هنا."

كان هناك شىء حول تعبيراته جعلها قلقة قليلا على نفسها، فلو كان أصغر سنًا لشكت فى أنه يغازلها. ربما كان يفعل ذلك، اعتقدت أن الأمر سيكون نمطيًا لو أن الاهتمام الذكورى الوحيد الذى تستقطبه يكون من رجل أكبر سنًا من والدها.

طلب "ستاروك" القهوة ثم قال: "هل تعتقدين أنه من غير المناسب أن أدعوكِ إلى غرفتى بأعلى؟ الأمر فقط أن هناك شيئًا أود كثيرًا أن أريه لك."

"لا.. لن يكون الأمر غير مناسب." والشىء الغريب أنها ـ رغم شكوتها – لا تعتقد ذلك.

كانت حجرته ذات رائحة عطنة لكنها نظيفة، قام بإخلاء المنضدة التى عند النافذة من كومة الأوراق وقام بترتيب وضع كرسيين. جلست "ماريا" مستمتعة باهتمامه، لابد أن يكون رجلاً وسيمًا بشكل ملحوظ عندما كان صغيرًا، وفى الحقيقة لقد ظل كذلك.. بشعره الفضى الكثيف وعينيه الزرقاوين الرائعتين. ابتسمت ساخرة من نفسها على حماقتها.

كانت النافذة تطل على الشارع أمام المتجر؛ مكان ممتاز لمراقبة المارة، الكل فى "كاليفيلد" يأتى إلى المتجر آجلاً أو عاجلاً، حتى منزلها كان مرئيًا بشكل جزئى من على بعد ـ بزاوية حادة فى الخلف ـ امتداد المياه الرمادية التى تقبع تفكر وهى حزينة تحت السحب المنخفضة.

"لا تكاد تكون فخمة، لكنى أجدها مناسبة."

"هل تعمل هنا؟"

"نعم، إذا نظرت للأمور بشكل معين." جلس ودفع بقطعة من الورق باتجاهها. "ما الذى تعتقدين أن يكون ذلك؟"

التقطت "ماريا" الصفحة التى كانت مقطوعة ـ ليس حديثًا ـ من دفتر؛ كانت هناك علامات بالقلم الرصاص عليها،فى البداية لم تستطع تحديد فى أى اتجاه عليها أن تذهب. كانت هناك علامات حادة صغيرة ـ عبارة عن خطوط فى ترتيبات عديدة: بالورب ومتوازية وما إلى ذلك. حول هذه العلامات رُسم أشخاص بالخطوط صغيرة، لكنها ليست ذات شكل متعارف عليه.. تفحصتها بعناية.

"أنا آسفة أن أخيب أملك،لكنى لم أستطع فهم أى شىء منها،هل هى كاملة؟"

"نعم، على حد علمى،إنها منقولة من قطعة كاملة، لكن ربما تكون هناك قطع أخرى بالطبع."

"منقولة من ماذا؟ إنها ليست بابليونية.. أليس كذلك؟ رغم أنها بشكل ما تبدو مثل كتابة".

"كان هذا أول شىء يخطر على بالى أيضًا، لكنها ليست بابليونية أو هيروغليفية، أو يونانية. ولا حتى السنسكرينية ولا العبرية ولا الآرامية ولا العربية."

ابتسمت "ماريا".. إنه يضع أمامها أحجية وهى تحب الأحاجى. "حسنا إنها ليست الصينية ولا اليابانية، أنا لا أعرف.. لا أستطيع التعرف عليها ـ هذه الرسومات... هل هى لغة ما من اللغات الإفريقية؟"

هز رأسه. "سوف أكون منبهرًا لو أمكنك. هذا الشىء قمت بأخذه إلى المتاحف والجامعات وعرضته على الكثير من خبراء اللغات،ولم يكن لدى أى منهم أية فكرة عن كنهها."

"وشىء ما يجعلك تعتقد أنها أكثر من....... مجرد؟ أعنى.. تلك الأشكال تبدو طفولية إلى حد ما."

"أخشى أن هذا يعود أكثر إلى قلة المهارة فى نقلهم، فالأصلية لها حضور محدد. كما قلت.. هذا فقط جزء منها. ولكن نعم.. أنا أعتقد أنها أكثر من مجرد شخبطة."

"شخبطة؟"

"الأصلية محفورة على قطعة من العظم، وملونة بصبغة طبيعية سوداء، ربما مزيج من الفحم. إنها مصنوعة بعناية. وهناك تلك الأشكال حول كل الحواف الخارجية.. فى شكل سلسلة. أعتقد أن العلامات تعبر عن لغة وتسجيل لحدث ما وهذه الأشكال تحكى عنه."

"حقًا؟ هل استنتجت كل هذا؟، أين القطعة الأصلية؟"

"أتمنى لو كنت أعرف،لقد وعدنى بها الرجل الذى كان يملكها،لكنه..." حرك كتفيه.. راقبته "ماريا" عن كثب.

"هذا الرجل.... كان "جاميه"؟"

"أحسنت."

شعرتْ بموجة من الرضا. "إذًا فسوف تكون مع أشيائه.. أليس كذلك؟"

"لقد ذهبت."

"ذهبت؟ تعنى أنها سرقت؟"

"لا يمكننى القول، إنها إما سُرقت.. أو هو قد باعها أو أعطاها لشخص آخر، لكنى أعتقد أن الاحتمالين الآخرين غير محتمل الحدوث؛ لقد قال إنه سيحتفظ بها لى."

"إذًا... أنت منتظر لترى إذا كان السيد "مودى" سيجلبها وهو عائد؟"

"قد يكون أملاً واهيًا.. ولكن هذه هى الحقيقة."

نظرت "ماريا" إلى الورقة مجددًا. "أنت تعرف.. إنها تذكرنى بشىء ما... أو بالأخص هذه الأشكال تذكرنى، أنا لست متأكدة بماذا رغم ذلك،لا أستطيع التذكر."

"سأكون ممتنًا إذا حاولت التذكر."

"أرجوك سيد "ستاروك" ارحمنى من مأساتى وأخبرنى ماذا تكون؟"

"للأسف ليس بإمكانى، فأنا لا أعرف."

"لكنك لديك فكرة."

"نعم.. قد يبدو هذا خياليًا ولكن... لدى ـ حسنًا.. أفترض أن أمل هى أفضل كلمة، لدى أمل فى أن تكون لغة هندية."

"هل تعنى... هندية أمريكية؟ لكن ليست هناك لغات هندية مكتوبة... والكل يعرف ذلك."

"ربما كانت هناك ذات يوم."

"استوعبت "ماريا" ما قاله، كان يبدو عليه الجد تماماً.

"كم يبلغ عمر القطعة الأصلية؟"

"حسنًا.. سيكون علىّ الحصول عليها لأعرف."

"هل تعرف من أين أتت؟"

"لا، وسيكون من الصعب اكتشاف ذلك.. فى الوقت الحالى."

"إذًا..." انتقت كلماتها بعناية.. غير راغبة فى إهانته. "بالطبع.. أنت قد فكرت فى احتمال أن تكون مزيفة؟"

"لقد فعلت، ولكن القطع المزيفة تصنع عادة فقط حيث يكون هناك فائدة ستجىء منها، حيث تكون هناك سوق لمثل هذه القطع الأثرية. لماذا قد يقوم أى شخص بتكبد العناء الكبير لصنع شىء لاقيمة له؟"

"لكنها السبب فى وجودك هنا.. فى "كالفيلد".. أليس كذلك؟ لذلك لابد أنك تؤمن بها."

"أنا لست ثريا" ابتسم ساخرًا من نفسه. "لكن هناك دوما الاحتمال ـ رغم كونه واهيًا ـ إنها أصلية."

ابتسمت "ماريا" مجددًا .. غير واثقة بما تعتقد. فشكها الطبيعى يمثل حاجزًا يقف ليحميها من السخافة، وهو طريقتها للعب دور نائب الشيطان، لكنها تخشى أن يكون متبعاً لأثر مزيف.

"تلك الأشكال... إنها تذكرنى بالفعل برسومات هندية رأيتها على روزنامه وما إلى ذلك.. أنت تعرف."

"أنتِ لست مقتنعة."

"لا أعرف،ربما لو رأيت الأصلية..."

"بالطبع.. سوف تحتاجين لذلك. أنت على حق، ولهذا السبب أنا هنا. إنها من أحد اهتماماتى.. شئون الهنود وتاريخهم. لقد اعتدت أن أكتب مقالات،كنت معروفًا بهذا بشكل غير كبير. أؤمن بالفعل..." توقف وألقى نظرة خارج النافذة. "... أؤمن بالفعل أنه لو أن الهنود كانت لديهم حضارة مكتوبة، لاختلفت معاملتنا لهم كثيراً."

"قد تكون على حق."

"كان لدى صديق.. صديق هندى.. والذى اعتاد أن يتحدث بمثل هذه الاحتمالية. أنت ترين.. إن الأمر ليس كأنه لم يسمع عنه قط."

إذا كان "ستاروك" محبطًا من رد فعلها فإنه لم يكن يظهر هذا. بعد أن شعرت وكأنها كانت قاسية،مدت يدها إليه.

"هل تسمح لى بنقلها؟ إذا كنت تسمح ـ يمكننى أخذها و... أحاول بعض الأشياء."

"أى نوع من الأشياء؟"

"إن الكتابة شفرة أليست كذلك؟ وأى شفرة قد تفك." هزت كتفيها غير مدعية أية خبرة فى هذا المجال. ابتسم "ستاروك" ودفعها إليها.

"بالطبع.. أنت أكثر من مرحب بك،لقد حاولت بنفسى ولكن دون أى نجاح لأتحدث عنه."

كانت "ماريا" تشك أنها ستكون ذات أى نفع،ولكن هذا ـ على الأقل ـ شىء سيخرج عقلها من الإحباطات والقلق الذى يحيط بها من كل ناحية.

***

كان رجلاً فى منتصف العمر والطول، ذا عينين زرقاوين براقتين فى وجه متأثر بالطقس،وشعره المقصوص قصير فى طريقه ليتحول من اللون

الأشقر للون الرمادى، بخلاف عينيه كان مظهره غير مميز، ولكن الانطباع العام أنه رجل متواضع وجذاب وموثوق به. أستطيع تخيله كمحامى بلدة أو طبيب.. موظف عام من نوع ما والذى قام بتوجيه ذكائه إلى خدمة المجتمع ـ ربما ما عدا تلك العينين الخارقتين حادتى البصر واللامعتين إلا أنهما حالمتان.. عينا نبىّ. كنت متفاجئة.. أو حتى مفتونة. لسبب ما كنت أتوقع وحشاً.

"سيدة "روس".. مسرور لمقابلتك." أخذ "ستيوارت" يدى وانحنى قليلا.. فأومأت برأسى.

"ولابد أن "مودى"، مسرور لمعرفتك،لقد أخبرنى "فرانك" أنك تقطن فى "جورجيان باى".. إنه لجزء رائع من البلاد."

"نعم.. إنه كذلك!" قال "مودى" وهو يبتسم ويهز يده مصافحًا. "وأنا مسرور لمقابلتك يا سيدى فلقد سمعت الكثير عنك."

"حسنًا..." صافح "ستيوارت" يده بابتسامة وهو يبدو محرجاً. "سيد "باركر" أعتقد أنه لابد من تقديم الشكر لك لإرشاد هذين الشخصين فى مثل هذه الرحلة الشاقة."

تردد "باركر" لجزء من الثانية ثم صافح اليد الممدودة. على حد ما رأيت لم يكن هناك أى أثر على وجه "ستيوارت" أنه تعرف عليه.

"سيد "ستيوارت" أنا مسرور لمقابلتك مرة أخرى."

"مرة أخرى؟" اعتلت وجه "ستيوارت" نظرة من الارتباك المعتذر قليلا. "أنا آسف.. أنا لا أتذكر..."

""وليام باركر".. بحيرة "كلير".. منذ خمس عشرة سنة مضت."

"بحيرة "كلير"؟ سيكون عليك أن تسامحنى يا سيد "باركر" فذاكرتى ليست على ما اعتادت أن تكون." ابتسم وجهه بسرور، ولكن "باركر" لم يبتسم.

"ربما إذا رفعت كم سترتك الأيسر،فسوف يساعدك على التذكر."

تغير وجه "ستيوارت" وللحظة لم أستطع قراءته، ثم انفجر فى الضحك وربت على كتف "باركر".

"يا إلهى! كيف أمكننى النسيان؟ "وليام"! نعم بالطبع. حسنًا.. وقت طويل مضى كما قلت." ثم اكتسى وجهه بالجد مرة أخرى. "أعتذر عن عدم تمكنى من المجىء لمقابلتكم بمجرد وصوله. كان هناك حادث مأسوى.. فأنا واثق أنكم سمعتم به."

أومأنا برءوسنا مثل أطفال مع مدرسهم.

"كان "نيبابانيس" واحداً من أفضل رجالى،كنا نصطاد على نهر ليس ببعيد عن هنا." خفت صوته تدريجيًا وأعتقد ـ رغم كونى لست متأكدة ـ أننى رأيت لمعان الدموع فى عينيه. "كنا نتتبع بعض الآثار و... أكاد ما أزال لا أصدق ما حدث، كان "نيبابانيس" مقتفى آثر محنك وصائدًا ماهرًا، لم يكن أحد يعرف أكثر مما يعرف هو عن البرية. لكن بينما كان يتتبع أثرًا يقود خارجًا بطول النهر، خطى على بقعة من الثلج الضعيف ووقع من خلاله.

توقف وركز عينيه على شىء ما فى الحجرة،لاحظت أن وجهه ـ الذى عند الانطباع الأول يوحى بالثقة ـ أيضًا مجعد ومتعب، يمكن أن يكون فى الأربعين. يمكن أن يكون أكبر من ذلك بخمسة عشر عامًا.. لا يمكننى التحديد.

"فى دقيقة كان هناك والدقيقة التالية ذهب بلا عودة.. سقط، ورغم أننى زحفت لأبعد ما أستطيع فلم أر أى أثر له، حتى أننى وضعت رأسى بالأسفل ولكن بلا أية فائدة، وظللت أسأل نفسى ـ ربما كان بإمكانى فعل المزيد؟"

هز رأسه. "يمكنك فعل الشىء نفسه ألف مرة ولا تفكر به على الإطلاق. مثل المشى على الثلج.. تأتى على معرفته.. كم يبلغ سمكه.. إذا

ما كان التيار قويًا أم ضعيفًا، ثم المرة التالية عندما تضع قدمك عليه ـ بعد كل تلك المرات عندما كنت تعرف أنه آمن ـ ترتكب خطأ،ولا يتحمل وزنك."

هز "مودى" رأسه فى تعاطف، و"باركر" يراقب "ستيوارت" باهتمام مفصل، متفحصًا إياه بنفس النظرة التى رأيتها على وجهه عندما كان يدرس الأرض وهو يبحث عن الأثر. لا أعرف ما الذى يجده مستعصياً الفهم؛ فلم يكن "ستيوارت" يعرض سوى الندم والحزن.

سألت: "هل كانت هذه زوجته بالخارج؟"

"المسكينة "إليزابيث"، نعم.. لديهم أربعة أطفال كذلك؛ أربعة أطفال دون أب، إنه لأمر فظيع. لقد رأيتك تخرج لها." تحدث إلى "مودى" الآن. "ربما فكرت أننا عديمو الإحساس أن نتركها وحيدة، ولكن هذه هى طريقة هؤلاء القوم، يؤمنون ألا أحد يمكن أن يقول أى شىء فى مثل هذا الوقت، وعليهم أن يحزنوا على طريقتهم الخاصة."

"ولكن بالطبع.. كان من الممكن أن يخبروها أنها ليست بمفردها؟ وفى مثل هذا الطقس..."

"لكن فى حزنها بالذات هى بمفردها، أليس كذلك؟ لقد كانت له زوجة واحدة، وكان لها زوج واحد." أدار عينيه الزرقاوين البراقتين إلىَّ ولم أستطع المعارضة. "إنه صعب علىّ بشكل خاص أننى لم أستطع العودة بجثته. فبالنسبة للهنود ـ أنت تعرف ـ يعد الغرق من سوء الحظ، فهم يؤمنون بأن الروح لا يمكنها التحرر. على الأقل هى مسيحية (معمدة) لذلك ربما تجد بعض الراحة،والأطفال كذلك.. إنهم نعمة."

أصر "ستيوارت" على أن يرينا المكان رغم الجو العام من الصدمة. كان للجولة ـ والتى كانت شيئًا مضمونًا لكل الزوار كنوع من حسن الضيافة ـ طابع مصطنع وغير حقيقى، وكأننا نمثل أدوارنا كضيوف يغمغمون باستحسانهم.

أرانا أولاً المبنى الرئيسى؛ وهو على شكل مربع له ثلاث نواح، دور خشبى واحد ذو ردهة تعمل كعموده الفقرى والحجرات على الجانبين. وبينما نمشى يصبح الفرق بين ماضى "هانوفر" وحاضرها واضحًا بتزايد. هناك جناح بأكمله مخصص للضيوف.. ستة منهم على الأقل. كانت الحجرات التى تم إعطاؤها لنا تطل على الخارج.. على النهر والسهل. الآن المشهد كله خطوط أفقية تتمازج مع بعضها قليلا، مقسمة إلى نصفين بسور خشبى بنى اللون قذر. لكن لابد أن يكون المشهد جميلا فى الصيف. ثم هناك حجرة الطعام والتى بدت دون مائدة ممتدة فارغة ومهجورة. أخبرنا "ستيوارت" أنه فى الأيام الخوالى عندما كانت "هانوفر" فى مركز بلد غنى بالفراء.. كانت حجرة الطعام تتسع لمائة رجل وعائلاتهم ويحتفل فيها بالأرباح الوفيرة بالولائم التى كانت تدوم طوال الليل، ولكن كل هذا كان منذ سنوات.. قبل عهد خدمة "ستيوارت" بوقت طويل، للعشرين سنة الماضية تقريباً أصبح المكان يدار بأصغر فريق عمل ممكن.. محافظًا على قبضة الشركة الهشة على البرية، والذى يعد تكريمًا للماضى أكثر منه لأى سبب مادى معقول. الجناح الأيمن فارغ تمامًا؛ وكان يمثل مقر الموظفين فيما سبق، الآن هو بيت للعناكب والفئران. بدلا من وجود دستة من موظفى الشركة.. هناك فقط "ستيوارت" و "نسبيت". كان عضو فريق العمل الوحيد الآخر الذى يعيش فى هذا المبنى هو المترجم الأساسى.. "أوليفر".. فتى ليس بأكبر من "فرانسيس". نادى عليه "ستيوارت" ليقابلنا وإن كان غارقًا فى الحزن فإنه قد أخفاه جيداً. كان فتى سريع البديهة ويبدو متحمسًا لإرضاء الآخرين، وأخبرنا "ستيوارت" بفخر أن الفتى بارع فى أربع لغات حيث كانت لديه الميزة الطبيعية لكون أحد والديه يتحدث الفرنسية والآخر يتحدث الإنجليزية.. وكل واحد منهما من قبيلة مختلفة من السكان الأصليين.

قال "ستيوارت": "إن "أوليفر" سيكون له مستقبل فى الشركة." فأشرق "أوليفر" بابتسامة ممزوجة بالسرور الخجل. تساءلت إذا ما كان هذا

حقيقيًا؛ إلى أى مدى يمكن لفتى بنى البشرة أن يعمل فى شركة يملكها الأجانب؟ ولكن.. ربما هو ليس فقيرًا إلى هذا الحد، فلديه وظيفة وموهبة، وهو بالنسبة لـ"ستيوارت" مراقب من نوع ما.

أخذنا "ستيوارت" من الجناح الثالث ـ والذى يتكون من مكاتب ـ إلى المخزن حيث توضع البضائع. كانوا قد شحنوا معظم الفراء خلال الصيف.. شرح هو ذلك.. لذلك فالبضائع قليلة. يقضى الصائدون الشتاء فى الصيد وفى الربيع يأتون بحصيلتهم للمركز لبيعها. كان "دونالد" يطرح أسئلة بخصوص الأطقم والنتائج، و"ستيوارت" يجيبه باهتمام وهو ينافقه. ألقيت بنظرة على "باركر" لأختبر رد فعله، لكنه لم يرد نظرتى. شعرت بالتجاهل. وبينما تجاهلنى الآخرون.. شىء ما لفت انتباهى، فانحنيت لأسفل والتقط ورقة مربعة، مكتوبًا عليها بعض الحروف والأرقام: 66HBPH متبوعة بأسماء حيوانات. ذكرتنى أننى مازال لدى قصاصة ورق كان "جاميه" قد خبأها ـ ربما ـ بحرص شديد فى كابينته.

"ما هذه؟" مررت الورقة إلى "ستيوارت".

"هذه علامة التعبئة،عندما نقوم بتعبئة الفراء..." كان يتوجه بالحديث إلىّ فقط،الشخص الوحيد الذى لا يعرف نشاط الشركة. "يكون هناك قائمة بالمحتويات على القمة وبذلك نعرف إذا كنا قد فقدنا أى شىء. يرجع الكود فى الأعلى إلى الطاقم ـ هنا العام يرجع إلى مايو الماضى، الشركة بالطبع ـ الجهة والتى هى هنا "ميسينابى" ويشار إليها بالحرف "p" ،والمركز "هانوفر" "H" ، وبذلك يحدد كل عبوة من أين جاءت ومتى."

أومأت برأسى، لم أستطع تذكر الحروف على قصاصة "جاميه"، فقط أنها كانت منذ عدة سنوات؛ ربما عندما كان يعمل هناك آخر مرة. كتفسير كان هذا يترك الكثير ليكون مرغوبًا به.

وراء المخازن هناك الإسطبلات والتى كانت فارغة إلا من الكلبين وزوج من الأحصنة الصغيرة المكتنزة. ووراء ذلك يوجد سبعة أو ثمانية أكواخ خشبية حيث يعيش الرحالة مع عائلاتهم، وكنيسة صغيرة.

"فى العادى كنت لأصحبكم لمقابلة الكل ولكن اليوم... إنه مجتمع مغلق، خاصة الآن ونحن لسنا كثيرين. هناك الكثير من الحزن. رجاء خذوا راحتكم." استدار ومرة أخرى بدا أنه يتوجه لى بالحديث أكثر من الآخرين. "لكم الحرية فى الذهاب إلى داخل الكنيسة حينما تريدون.. إنها دومًا مفتوحة."

"سيد "ستيوارت".. أعرف أن لديك الكثير من الأشياء فى ذهنك فى الوقت الحالى، ولكن أنت تعلم أننا هنا لسبب؟" لم يكن يهمنى إذا لم يكن الوقت مناسبًا لإثارة الموضوع، فأنا لا أريد أن يتطرق له "مودى" أولاً.

"بالطبع.. نعم.. لقد أتى "فرانك" على ذكر شىء ما... أنت تبحثين عن شخص ما، أليس هذا صحيحًا؟"

"ابنى.. لقد تتبعنا أثره، وقادنا إلى هنا... أو بالقرب من هنا على الأقل. ألم تر أى غرباء مؤخرًا؟ إنه شاب فى السابعة عشرة.. ذو شعر أسود..."

"لا... آسف للغاية، لم يكن لدينا أى شخص هنا حتى أتيتم. أخشى أن الأمر قد ذهب تمامًا من عقلى، مع كل هذه الأمور... فسوف أسأل الآخرين، لكن لم يكن هناك أحد هنا على حد علمى."

إذًا هو كذلك فى الوقت الحالى. بدا "مودى" غير مسرور منى على الإطلاق، ولكن كان هذا أقل مشاكلى شأنًا. تركنا "ستيوارت" يهتم بشئون الشركة، والتفت أنا إلى "باركر" و"مودى"،كنا قد تُركنا فى حجرة جلوس "ستيوارت" حيث جعلت النار الأمر مريحًا نسبيًا، وكانت هناك لوحة زيتية فوق المدفأة.. لوحة للملائكة.

"الليلة الماضية بعد أن جئنا هنا مباشرة،سمعت "نسبيت" يهدد امرأة، قال إنها ستختبر يده لو أنها لم تصمت "بشأنه". هذا ما قاله" ـ بشأنه"، كانت تجادله.. ورفضت على ما أعتقد. ثم قال شيئًا ما سيحدث لها عندما يعود "هو". لابد أن هذا هو "ستيوارت"."

"من كانت هذه المرأة؟" سأل "مودى"

"لا أعرف.. فأنا لم أرها، وكانت تتحدث بصوت أكثر انخفاضًا منه."

ترددت فى أن أخبر "مودى" بشأن "نسبيت" و"تورا"، شىء ما جعلنى أفكر أنها كانت هى؛ بدت من النوع الذى يجادل. لكن عند ذلك انفتح الباب ودخل المترجم الصغير "أوليفر"، بدا أنه قد أرسل ليسلينا، ولكن شعرت وكأن أحدهم يريد وضع رقيب علينا.

***

كانت قد سمعت ذات مرة عن امرأة وقعت فى محنة؛ لأن زوجها هدد بقتلها، فذهبت إلى أقرب مركز للشركة ووقفت خارج البوابة، ومعها كل متعلقاتها فى كومة أمامها. أولاً قامت بإشعال النيران فى متعلقاتها، ثم وضعت عود الكبريت فى حقيبة معلقة حول رقبتها، وكانت مليئة بالبارود فانفجرت.. وأفقدتها بصرها وأحرقت وجهها وصدرها. بعد أن ظلت حية بشكل غير مفسر أخذت حبلاً وحاولت شنق نفسها من فرع شجرة، مازالت حية.. فبعد ذلك أخذت إبرة طويلة وغرستها فى أذنها اليمنى. حتى والإبرة داخل رأسها بالكامل، لم تمت. لم يكن وقتها قد حان ولم تكن روحها لتتركها. لذلك استسلمت ورحلت لتبدأ حياة جديدة فى مكان آخر.. حيث كتب لها النجاح. كان اسمها "الطائر الذى يطير فى الشمس".

كان من الغريب أن تتذكر هذه القصة بمثل هذه التفاصيل، اسم المرأة.. أذنها اليمنى، ربما تذكرت اسمها لأنه يشبه اسمها هى قليلا: "بيرد"،لم تكن تعرف شيئًا آخر عن المرأة إلا أنها هى أيضًا تعرف ما معنى أن ترغب فى الموت. لو لم يكن من أجل أطفالها لفكرت فى أنها قد تحاول شنق نفسها. سيكون "أليك" على ما يرام.. فهو فى الثالثة عشرة وماهر ويعمل بالفعل.. يتدرب عند "أوليفر" ليصبح مترجمًا، أما "جوش" و"وليام" فأصغر لكنهما ذو خيال أقل ليخيفها أو يربكها. لكن "أيمى" صغيرة فحسب، والفتيات يحتجن إلى مساعدة أكثر فى هذا العالم، لذلك سيكون عليها البقاء لفترة أطول على الأقل، حتى يحين وقتها. لكن دون زوجها بجانبها سيكون الوقت دومًا شتاءً.

دون أن تعى أنها تنظر خارج النافذة.. ترى الزوار يأتون ويقفون على بعد ياردات من المنزل، وينظرون فى اتجاهها. تستطيع الشعور بهم يتكلمون عنها؛ سوف يتحدثون عن زوجها وينشرون قصته عن كيف لقى حتفه. إنها لا تثق به بعد الآن؛ فهو عندما يتحدث إليك يجعلك تحتفظ بأسرار، لقد جعل زوجها يحتفظ بأسرار، الشىء الذى لم يعجبه،رغم أنه كان ينفضها جميعًا ويسقطها خارج المنزل عندما يعود من رحلات الصيد معه.

هذا الصباح ـ كانت تتوقع أن يعود بمجرد أن استيقظت وسألتها "أيمى" إذا كان أبوها سيعود اليوم وقالت لها نعم ـ مشت خارجة إلى البوابة الغربية وهى تسمع أصوات نباح كلاب بعيدة وتبتسم لنفسها. كان بإمكانها السماع جيد جدًا حتى أمكنها سماع صوت العجلات على الجليد. لا تزال تبتسم عندما يعود من رحلة، حتى رغم أنهما متزوجان من وقت طويل. سمعت الكلاب وسارت حتى المرتفع حيث يمكنها الرؤية من فوق السور. ورأت أن هناك رجلا واحدًا فقط مع الزلاجة، بقيت هناك تراقب حتى وصل إلى السور، ثم نزلت إلى الباحة لتسمع ما عليه قوله رغم أنها عرفت بالفعل. الآخرون.. "ويليام" و"جورج" و"كينواس" و"مارى" قد رأوا أنه بمفرده وجاءوا ليتحروا عن الأمر، لكنه تحدث مباشرة إليها.. موجهًا عينيه عليها مثل تعويذة سحر أزرق، بحيث لم تستطع التحدث. لم تذكر أى شىء آخر حتى جاء الزائر ـ الرجل الأبيض ذو جرح السكين والقدمين المصابتين ـ خرج وحاول التحدث إليها، لكن صوته بدا مثل طنين النحل ولم تعرف ما الذى قاله. ثم بعد برهة قصيرة أحضر لها كوبًا من القهوة ووضعه على الجليد بجانبها. لم تتذكر أنها طلبته.. لكن ربما فعلت ذلك؛ كانت رائحته جيدة.. أفضل من أى قهوة قد تناولتها من قبل، وشاهدت نتف الثلج الضئيلة تهبط وتختفى فى سطحها الأسود الزيتى، تهبط وتذوب بحيث تذهب للأبد. ثم كل ما أمكنها التفكير فيه كان وجه زوجها يحاول التحدث إليها، لكن لم تستطع سماعه؛ لأنه كان محجوزًا تحت طبقة سميكة من ثلج النهر، وكاد يغرق.

التقطت كوب القهوة وصبته على البشرة الداخلية لذراعها. كانت ساخنة.. ولكن ليس بشكل كافٍ،أصبحت البشرة وردية اللون.. هذا كل شيء.. وتصاعد الدخان من ذراعها مثل لحم فى الهواء البارد.

أعادوها إلى المنزل وظلت "مارى" معها، تشعل النار وتحضر الطعام للأطفال، ظلت موجودة وكأنها خائفة من أن تلقى "إليزابيث" نفسها فى النار لو تركتها وحيدة. جاء "إليك" ووضع ذراعيه حولها وقال لها ألا تبكين.. رغم أنها لم تكن تبكى، كانت عيناها جافتين كعود خشب، لم تبك "إيمى" كذلك.. ولكن لأنها صغيرة جدًا لتفهم، بقى الولدان الآخران حتى سقطا نائمين من التعب.. جلست "مارى" بجانبها ولم تقل أى شيء؛ كانت تفهم الموقف بشكل أفضل. دخل "جورج" مرة، وقال إنه سيصلى لروح زوجها، فـ"جورج" مسيحى ومتدين، ابعدته "مارى"؛ فلقد كانت هى و"إليزابيث" مسيحيتين ولكن "نيبابانيز" لم يكن، لقد كان "شيبيوا" دون أى نقطة من دماء البيض فى عروقه. ذهب إلى الكنيسة واستمع إلى القس مرتين، لكنه قال إنها لم تكن له. أومأت "إليزابيث" لـ"جورج".. كانت تعرف أنه عنىّ المساعدة. وربما تساعد؛ من يقول إن آبانا الذى فى السماوات لا يستطيع التدخل فى مصير زوجها؟ ربما هناك اتفاقية مشتركة.

قالت "إليزابيث" الآن وصوتها يتحشرج مثل مفتاح فى قفل صدئ: ""مارى"... أخبرينى إذا ما كانت تمطر ثلجًا."

نظرت "مارى" لأعلى، كانت تحتضن "إيمى" فى حجرتها وللحظة جاء لـ"إليزابيث" تخيل أن "مارى" هى الأم و"إيمى" طفلة لا تعرفها.

"لا.. لقد توقف الجليد منذ ساعة، إنها تظلم الآن، لابد أن يسقط الجليد غدًا."

أومأت "إليزابيث".. لقد توقف الجليد لسبب واحد فقط وهى تعرف ماذا ستفعل فى الصباح. كانت لتفعله قبل ذلك لكن بسبب الجليد الذى سقط وجعلهم يتوقفون ويفكرون لفترة، لكى يتصرفوا بمراعاة. فى الصباح سينطلقون عائدين إلى النهر ويجدونه ويجلبونه معهم.

استيقظت "إيمى" وحدقت فى أمها، كانت تنتمى إليها ـ رغم كل شىء ـ بعينيها الرماديتين البنيتين وبشرتها الشاحبة. كانا يريدان ابنة أخرى. كان "نيبابانيز" يمزح قائلاً إنه يريد فتاة تشبهه هو بدلاً من أن تكون شبهها هى.

لن يكون هناك ابنة أخرى الآن، سيكون على روحها ـ إذا ما كان ما يؤمن به "نيبابانيز" حقيقيًا ـ أن تنتظر لتولد فى مكان آخر.. فى وقت آخر.

المشكلة أنها.. لم تعد تؤمن بأى شىء بعد الآن.

***

دخل "دونالد" إلى غرفته بعد العشاء ليكتب لـ"سوزانا". تساقط المزيد من الجليد وهم يأكلون؛ لو كان "ستيوارت" محقًا.. فقد تستمر هذه العاصفة لأيام، ولن تكون هناك أية فرصة للسفر قبل أن تنتهى. لكن لديه أكثر من مبرر ليكون ممتنًا لهذا، فهو متعب بشكل مزعج، فقدماه حتى وهى فى الحذاء الخفيف تؤلمانه كالجحيم والجرح الذى فى بطنه أحمر وينبض بالألم. انتظر لدقيقة فى حجرة الطعام عندما تمكن من جذب "ستيوارت" جانبًا وذكر بهدوء أنه قد يكون فى حاجة لعناية طبية، أومأ له "ستيوارت" ووعده بأن يرسل إليه أحدًا عنده بعض الخبرة، ثم ـ على غير المتوقع ـ غمز له.

على أى حال.. لم يكن يشعر أنه بهذا السوء الآن وهو جالس إلى الطاولة المخلخلة التى طلبها ومعه أوراقه وحبره السائل. حاول قبل أن يبدأ استعادة وجه "سوزانا" البيضوى فى ذهنه، لكن مرة أخرى وجد صعوبة فى تجميعه، ومجددًا جاءه وجه "ماريا" بوضوح تام،وفكر فى أنه سيكون من الممتع أن يكتب لها ويناقش معها تعقيدات موقفهم، والذى يشعر أنه سيجعل أختها بالمثل. ذلك بغير ذكر الشأن المحزن للأرملة،بطريقة ما فكر أنه يجب أن يعرف ماذا قد تقول عن الأمر. غدًا أو اليوم الذى يليه ـ ليس هناك داع للعجلة ـ سيكون عليه القيام ببعض التحريات على ما يظن. ولكن الآن يمكنه وضع مهامه خارج عقله.

"عزيزتى "سوزانا" .. " كتب بثقة كافية، لكن بعد ذلك... توقف. لماذا لا يكتب للأختين؟ فرغم كل شىء هو يعرف كلتيهما. طرق بالقلم على الطاولة عدة مرات، ثم أخذ ورقة جديدة وكتب: "عزيزتى "ماريا" .. ".

بعد ساعة تقريبًا سمع طرقة خفيفة على الباب،فقال وهو مازال يكتب: "ادخل."

فتح الباب وانسلت للداخل دون صوت فتاة هندية صغيرة،كانت قد قُدمت له من قبل؛ اسمها "نانسى إيجلز" زوجة أصغر رحالة، لا يمكن أن تكون أكبر من عشرين عامًا، كان لديها وجه ذو جمال أخاذ وصوت ناعم للغاية حتى أنه أرهف أذنيه ليتمكن من سماعها.

""نانسى" أليس كذلك؟ شكرًا لك... " قال وهو مندهش ومسرور.

"لقد قال السيد "ستيوارت" إنك مجروح." كان صوتها هادئًا وبلا نبرة وكأنها تتحدث مع نفسها. أمسكت بوعاء من الماء وبعض شرائط من القماش ـ من الواضح أنها جاءت لتعتنى به. دون أن تتحدث مرة أخرى أشارت له أن يخلع قميصه ثم وضعت الوعاء على الأرض. غطى "دونالد" الخطاب بورق نشاف ثم بدأ بفك أزرار قميصه، وقد أصبح فجأة واعيًا بوجود جسده الأبيض الهزيل.

"إن الأمر ليس شيئًا خطيرًا لكن أنت ترين هنا.. أننى أصبت بجرح منذ شهرين... أو ثلاثة أشهر، ولم يشف بشكل ملائم." نزع الضمادة برفق.. وردية اللون ورطبة من الإفرازات.

مدت "نانسى" يدًا ودفعت صدره بخفة جاعلة إياه يجلس على الفراش. "كانت هذه سكينًا." قالت بصوت مسطح ولم تكن تسأل.

"نعم.. لكنها كانت حادثة... " ضحك "دونالد" وبدأ يخبرها بالقصة الطويلة والمتناثرة لمباراة "الرجبى".

انحنت "نانسى" على ركبتيها أمامه.. غير مهتمة بأصل الجرح. عندما نظفت الجرح بالأسفنجة أخذ نفسًا حادًا للداخل وتوقف عن الكلام، وبقى

تفسيره للهجوم العميق معلقًا ولم يقل. انحنت "نانسى" للأمام واشتمت الجرح. شعر "دونالد" بالحرارة فى وجنتيه وحبس أنفاسه، واعيًا جدًا أن رأسها تقريبًا فى حجره. كان شعرها حالك السواد.. جميلاً ناعمًا، وليس خشنًا كما افترض، وبشرتها حريرية أيضًا.. ذات لون بنى كريمى شاحب جدًا،فتاة ناعمة.. بضة وبريئة من أية حيلة. تساءل إذا كانت واعية بجمالها،تخيل زوجها "بيتر" ـ رحالة طويل قوى البنية ـ وهو يدخل عليهما فى هذه اللحظة، وشحب وجهه لهذا الخاطر. بدت "نانسى" غير قلقة، قامت بعمل ضمادة نظيفة ووضعت بعضًا من مرهم عشبى ذى رائحة قبل أن تشير أن عليه أن يرفع ذراعيه،ثم لفت الضمادة بشدة حتى خشى "دونالد" أنه قد يختنق أثناء الليل.

"شكرًا لك: هذا لطف منك... " تساءل إذا ما كان هناك شىء يمكنه منحه لها ومر بعقله خلال المتعلقات القليلة التى أحضرها معه، ولم يستطع التفكير بأى شىء مناسب.

منحته "نانسى" شبح ابتسامة، نظرت عيناها السوداوان الجميلتان فى عينيه لأول مرة، فلاحظ كيف أن لحاجبيها القوس الأنيق لجناح النورس، ثم... لدهشته الكاملة والتامة قامت بالتقاط يده وضغطتها إلى صدرها،وقبل أن يتمكن من أن يتفوه بكلمة أو يسحب يده بعيدًا.. قامت بضغط شفتيها على شفتيه بينما يدها الأخرى تمسك بالعضو الذى لم يكن يرقد لامباليًا بين ساقيه. شهق بشىء ما ـ لم يكن بإمكانه التأكد ما هو ـ وبعد لحظة كانت فيها حواسه مشحونة ولم يكن يعرف ما الذى يحدث دفعها بعيدًا بحزم.

(كن صريحًا "مودى" ـ كم استغرقت هذه اللحظة؟ كانت طويلة كفاية.)

"لا.. أنا آسف،ليس هذا.. لا."

كان قلبه يرتعد وصوت نبضه يصطدم مثل الألواح بطبلة أذنه. نظرت "نانسى" إليه وتفرقت شفتاها الوقحتان اللتان فى لون اللوز. لم يخطر على باله من قبل قط أنه يمكن لنساء الهنود أن يكنّ فى جمال النساء

البيضاوات، لكنه ليس بوسعه تخيل أى شىء أكثر جمالاً من الفتاة التى أمامه. أغلق "دونالد" عينيه ليبعد صورتها عن نظره. كانت أصابعها لا تزال على ذراعيه حيث دفعهم بعيدًا عنه وكأنهما رفقاء فى الرقص تجمدا فى منتصف خطوة.

"لا أستطيع،أنت جميلة ولكن... لا.. لا أستطيع."

ألقت نظرة على سراويله الذى يبدو أنه لا يتفق معه.

"زوجك... "

حركت كتفيها قائلة: "لا يهم."

"إن هذا يهمنى أنا.. أنا آسف."

نجح فى الالتفات بعيدًا وهو شبه متوقع أن تبدأ فى هجوم آخر، ولكن لم يحدث شىء. عندما عاد بنظره إليها كانت تجمع حاجاتها: وعاء الماء القذر وقطع القماش والضمادة المستعملة.

"شكرًا لكِ يا "نانسى"، ورجاءً لا تشعرى... بالإهانة."

نظرت "نانسى" إليه سريعًا لكن لم تقل شيئًا،تنهد "دونالد" فخرجت هى بهدوء كما جاءت. نظر إلى الباب المغلق وهو يلعن، يلعن نفسه ويلعنها ويلعن المكان المتهالك المنعزل بأكمله. كان الخطاب الذى على الطاولة يؤنبه، الجمل اللطيفة المحكمة؛ الملاحظات خفيفة الظل... لماذا كان يكتب لـ"ماريا" على أى حال؟ أخذ الخطاب وكرمشه فى كرة، ثم ندم على ذلك فى لحظتها. ثم التقط قميصه الاحتياطى وطوحه على الأرض، فقط لمجرد أن يرمى بشىء (لكنه لا ينكسر). كانت الأرضية قذرة، لماذا هو غاضب لهذه الدرجة فى حين أنه فعل الصواب؟ (الندم،من الممكن؟ لأنه ضعيف كاللبن والماء.. جبان ليست لديه الشجاعة أن يأخذ ما يريد عندما يعرض عليه؟)

اللعنة.. اللعنة.. اللعنة.

***

بعد أن استأذن "مودى" وغادر المائدة بوقت قصير،نهض "باركر" أيضًا وطلب منهم السماح له بالمغادرة. بعد أن ذهب تساءلت إذا كان كلاهما ينويان على شىء، رغم أن "مودى" بدا مرهقًا جدًا فمن الممكن أن يكون ذهب فعلاً لينام. أما عن "باركر" فكنت أقل تأكدًا، أملت أن يعمل على معجزة غامضة ما للاستنتاج، والتى لم يكن بإمكانى تخمينها. اقترح "ستيوارت" أن يأخذنى "نسبيت" إلى حجرة الجلوس لتناول كأس من مشروب ما، وهو ـ كما قال ـ سينضم إليهم فى غضون دقائق ـ بطريقة جعلتنى أتساءل فورًا ماذا سيفعل إنه من الجيد أن يكون لديك قالب عملى متشكك،لكنى لم أكن أستطيع القول إنه حتى الآن قاد إلى أى اكتشافات مفيدة.

صب "نسبيت" كأسين من ويسكى الشعير وأعطانى واحدًا. لامسنا كأسينا. كان غير طبيعى وقلقًا ومنفعلاً؛ عيناه متقدتان.. يداه تلتويان باستمرار أو تطرقان على المائدة. لم يكن قد أكل شيئًا على الإطلاق، ثم قبل القهوة استأذن. رد عليه "ستيوارت" بطريقة ملائمة ولكن عينيه كانتا حادتين. فكرت أنه كان يعرف. قامت "نورا" على خدمتنا طوال الوقت، ورغم أننى راقبتها بعناية فلم أستطع لمس أى من التوتر نفسه فيها. الآن و"ستيوارت" هنا كانت أكثر خضوعًا بكثير.. لا تظهر أى من الامتعاض كما فى أول ليلة. عندما عاد "نسبيت" بعد عشر أو خمس عشرة دقيقة تغير سلوكه.. فأصبحت حركاته متراخية وعيناه ناعستين، ولم يظهر "باركر" أو "مودى" أية علامة على أنهما لاحظا أى شىء خاطئ.

ذهبت إلى النافذة وفتحت الستائر، لم يكن الجليد يتساقط.. لكنه كان يرقد بعمق عدة إنشات.

"هل تعتقد أن المزيد من الجليد فى طريقه للسقوط،يا سيد "نسبيت"؟"

"لا أدعى أننى أفهم الطقس هنا،ولكن يبدو أن هذا محتمل،أليس كذلك؟"

"كنت أتساءل متى يمكننا المغادرة مرة أخرى،لو كان علينا أن نكمل البحث... ".

"آه.. بالطبع.. ليس هذا أفضل وقت فى العام لمثل هذا الشىء." بدا غير قلق بشأن مصير ابنى ذى السبعة عشر عامًا فى البرية وحيدًا. أو ربما هو أكثر ذكاء مما حسبته.

"مكان مخيف مثل هذا،مثالى للمدانين،لقد اعتقدت دومًا، بدلاً من إرسالهم لـ"تاسمانيا"، والتى على حد علمى مكان مبهج جدًا، يشبه إلى حد ما "مقاطعة البحيرة"."

"ولكن هنا ليس معزولاً تمامًا.. أو بعيدًا جدًا عن الوطن."

"يبدو معزولاً بشكل كافٍ، هل تعرفين منذ عدة سنوات حاولت رزمة من الموظفين ـ أجانب كما أعتقد ـ أن يهربوا من مصنع "مووس" فى يناير! بالطبع لم يُر أحد فيهم مرة أخرى، تجمدوا حتى الموت فى وسط المجهول.. الأوغاد المساكين!" ضحك بخفة ومرارة. "اعذرى لغتى يا سيدة "روس"،لقد مضى وقت طويل منذ أن كنت فى صحبة سيدة حتى نسيت كيف أتكلم."

اعترضت بشىء معناه أننى سمعت ما هو أسوأ بين السطور.

نظر إلىّ بطريقة متفحصة يحاول فهمى والتى لم تعجبنى، لم يكن ثملاً الليلة، ولكن حدقتى عينيه كانتا صغيرتين للغاية حتى فى الضوء المعتم. كانت يداه هادئتين ومسترخيتين الآن؛ وقد أراحهما. أنا أعرفك.. أعرف كيف يبدو الأمر.

"اختفوا كما تقول؟ كم أن هذا بشع!".

"نعم، لا تنزعجى كثيرًا ـ فكما قلت لقد كانوا أجانب، ألمانًا ملعونين أو ما شابه ذلك."

"ألا تحب الأجانب؟"

"ليس تحديدًا.. أُعطني اسكتلندى أى يوم."

"مثل السيد "ستيوارت"؟"

"بالضبط. مثل السيد "ستيوارت"."

أفرغت كأسى.. شجاعة مزيفة من تأثير الشراب.. ولكنها أفضل من لا شىء على الإطلاق.

عندما دخل "ستيوارت" كان وجهى دافئًا من تأثير الويسكى لكن رأسى مازال فارغًا، صب "نسبيت" كأسًا لـ"ستيوارت" وتحدثنا بسلاسة لعدة دقائق، ثم التفت "ستيوارت" ناحيتى.

"كنت أفكر بشأن السيد "باركر"، أنت تعرفين أننى لم أستطع تذكر الاسم على الفور، لكن كان هذا منذ وقت طويل.. أخبرينى كيف تقابلتما؟"

"تقابلنا منذ وقت قريب، كان فى "كالفيلد" وعندما احتجنا مرشدًا اقترحه شخص ما علينا."

"إذًا أنت لا تعرفينه جيدًا؟"

"ليس جيدًا تمامًا.. لماذا؟"

ابتسم "ستيوارت" ابتسامة شخص لديه أخبار ممتعة لينشرها. "أوه... أنه ـ أو على الأقل كان ـ ذو شخصية متنوعة، كانت هناك حوادث معينة عند بحيرة "كلير"... فلنقل إن بعضًا من رحالتنا كانوا جامحين إلى حد ما و... لقد كان هو كذلك."

"يا للعجب! أكمل قصتك رجاء." ابتسمت وكأنها ليست أكثر من شائعة.

"إن الأمر لا يثير العجب،وبعضها حوادث قبيحة إلى حد ما، كان "وليام" يعانى من ميل للعراك عندما كان أصغر سنًا، ذهبنا إلى رحلة ما ـ أنا أتحدث عن أكثر من خمسة عشر عامًا مضت.. أنت تفهمين ـ رحلة فى الشتاء. كان هناك رجال آخرون أيضًا، ولكن... كانت رحلة شاقة وبدأت

المشاحنات فى الانفجار،بشأن إذا ما كنا سنكمل أو نستدير عائدين.. هذا النوع من المشاحنات. كان الطعام قد أوشك على النفاد وما إلى ذلك. على أى حال... وصلنا إلى حد المشاجرات."

"مشاجرات! يا إله السماوات!" ملت للأمام فى مقعدى.. مانحة إياه ابتسامة مشجعة.

"قد تسترجعين ما قال وبالفعل.. لقد أعطانى شيئًا لأتذكره به." شمر "ستيوارت" كمه الأيسر. كانت تمتد بطول ذراعه ندبة بيضاء طويلة وعمقها ربع بوصة للداخل.

لم يكن هناك أى إدعاء فى صدمتى.

"فى بعض الأحيان مختلطو الأعراق هؤلاء... فقط أعطهم نصف زجاجة من الروم ويتحولون إلى دراويش. قامت بيننا مجادلة وهجم علىّ بسكين،ونحن فى مكان مجهول أيضًا.. هذه ليست مزحة يمكننى أن أقول لك."

أنزل كمه لأسفل مرة أخرى، فى هذه اللحظة لم يعد بوسعى التفكير فى أى شىء لأقوله.

"آسف.. ربما لم يكن يجب أن أريك ذلك، بعض السيدات تجد الندبات مثيرة للاشمئزاز."

"أوه.. لا... " هززت رأسى، وأعاد "نسبيت" ملء كأسى، إنها ليست الندبة هى ما أزعجنى، ولكن الصورة الأخيرة لـ"جاميه" التى ستقفز إلى ذهنى للأبد،والرؤية الأولى لـ"باركر": الرجل الصناعى الذى يفتش فى الكابينة.. جسده المتوحش الغريب المخيف.

قال "نسبيت" بسعادة: "إنه ليس رؤية ندبتك.. أكثر منه فكرة أن مرشدها مثل هذا الرجل الماهر معه سكين!".

"لم يبد عليه أى شىء من هذا النوع طوال الأسابيع الماضية. إنه

المرشد المثالى، ربما ـ كما تقول ـ كان عنفه نتيجة لمشروب الروم، وهو لايشرب الآن."

قلت لنفسى قد يكون "ستيوارت" يكذب،نظرت فى عينيه محاولة أن أقرأ روحه، لكنه بدا فقط طيبًا وصادقًا وحزينًا على ما فقده قليلاً.. وكأنه يفكر فى الأيام الخوالى.

"من الجيد أن يصلنى أن بعض الرجال يمكنهم أن يتعلموا من أخطائهم.. ها.. "فرانك؟"

همهمت قائلة: "بالفعل هو كذلك.. لو أن المزيد منهم فعل ذلك هنا."

فيما بعد فى حجرتى ظللت مرتدية ملابسى وجلست على الكرسى لأمنع نفسى من السقوط فى النوم. لم أكن أرغب فى شىء أكثر من أن أرقد وأغيب فى اللاوعى لكن لم يكن بوسعى، حيث كنت أعلم أن النوم سيأخذنى،فمن العدل أن أقول إننى كنت متعبة. أردت أن أسأل "باركر" بشأن "ستيوارت".. بشأن ماضيهما،لكنى كنت متقاعسة عن أن أذهب وأوقظه مرة أخرى. متقاعسة أم خائفة. الصورة التى قفزت إلى ذهنى فى وقت مبكر صدمتنى. لقد كنت قد نسيت كيف أن رؤية "باركر" كانت ترسل رعشات فى عمودى الفقرى وكم يبدو قاسيًا وغريبًا، لم أكن قد نسيت مظهره بالطبع.. لكنى كنت قد نسيت التأثير الأول الذى كان له علىّ. من الغريب كيف يمكن لهذا أن يحدث عندما تعرف شخصًا ما.

لكنى لا أعرفه، يحسب له أنه لم يحاول إخفاء حقيقة أنهما تقابلا من قبل، ولكن ربما كان فقط يسبق بقول ما لا يمكن تفاديه.. خدعة مزدوجة.

كانت عيناى قد تعودتا على الظلام،وقد سطع الثلج بضوئه الكئيب الذى بلا اتجاه، كنت أحاول تبين طريقى عندما خرجت إلى الردهة مجددًا. طرقت على بابه برقة ثم سمحت لنفسى بالدخول. بعد إغلاق الباب خلفى، اعتقدت أننى كنت هادئة جدًا لكنه جلس مستقيمًا فى الفراش بتعجب.

"يا إلهى... لا! اذهبى بعيدًا." بدا صوته مرعوبًا وغاضبًا.

"سيد "مودى".. إنه أنا السيدة "روس"."

"ماذا؟ يا للشيطان!" عبث فى أعواد الكبريت وأشعل الشمعة التى بجانب فراشه. عندما ظهر وجهه وسط الظلام كان يضع نظارته بالفعل وعيناه تطلان محدقتين من العوينات.

"آسفة لم أقصد إزعاجك."

"ماذا تقصدين إذًا بحق الشيطان بمجيئك هنا فى منتصف الليل؟"

كنت أتوقع المفاجأة والحنق ولكن ليس الغضب الشديد. "كان يجب أن أتحدث مع شخص ما، من فضلك.. لن يأخذ الأمر كثيرًا."

"لقد اعتقدت أنك تحدثت مع "باركر"."

كان هناك شىء ما فى نبرته، لكنى لم أكن أعرف ما هو،جلست على الكرسى الوحيد.. جالسة على بعض من ملابسه بهذه العملية.

"لا أعرف بماذا أفكر ويجب أن نناقش الأمر."

"ألا يمكن أن ينتظر هذا الأمر للصباح؟"

"إنهم لا يريدوننا أن نكون بمفردنا تمامًا،ألم تشعر بذلك؟"

"لا."

"حسنًا.. كنت أخبرك بما سمعته من حديث "نسبيت"، ثم دخل "أوليفر" ولم نستطع التحدث بعد ذلك."

"إذًا؟" كان صوته مازال غاضبًا لكنه كان أقل خوفًا عن حالته عندما دخلت، وكأنه كان خائفًا أن أكون شخصًا آخر.

"ألا يبدو أن هذا يشير إلى أن هناك أشياء تحدث هنا وهم لا يريدوننا أن نعرفها؟ وبما أننا فى أثر قاتل،فقد تكون هذه الأشياء متعلقة بالأمر."

نظر إلىّ.. وهو مشمئز، لكنه لم يلقنى بالخارج. "لقد قال "ستيوارت" إنه لم يأت أى غريب إلى القلعة مؤخرًا."

"ربما لم يكن شخصًا غريبًا."

"أنت تقترحين أنه شخص يعيش هنا؟" بان أثر الصدمة على صوته من أننى أثير الشكوك حول عضو من أعضاء الشركة.

"من الممكن! شخص ما يعرفه "نسبيت" وربما لا يعرف "ستيوارت" عنه شيئًا."

حدق "مودى" فى الركن خلف أذنى اليسرى. "أعتقد أنه كان من الممكن أن يتم التعامل مع الأمر بشكل أفضل لو كنا مباشرين، لو كنا أخبرناهم الحقيقة عن السبب أننا هنا.. وليست قصتك السخيفة."

"لكن هناك شخصًا يشك فينا بالفعل، أعتقد أن مجرد حقيقة أننا ذكرنا أننا كنا نتبع أثرًا جعلتهم حذرين،"نسبيت" كان يهدد امرأة" ـ نورا" على ما أعتقد ـ بألا تتحدث عن شخص ما،لماذا قد يفعل ذلك؟"

"يمكن أن يكون هناك أى عدد من المبررات، اعتقدت أنه ليس لديك فكرة من كانت هى."

"هذا صحيح فأنا لم أرها، ولكن "نورا"... "نورا" و"نسبيت" على علاقة جسدية."

"ماذا؟ المرأة التى تقوم على الخدمة؟" بدا "مودى" مشتتًا، ولكن بسبب أنها "نورا" المكتنزة غير اللطيفة أكثر منه بسبب أن "نسبيت" كان يرتكب الفاحشة، فمثل هذه الأشياء تحدث طوال الوقت، كان يطبق فمه؛ ربما كان يفكر فى كتابة تقرير. "كيف عرفت؟"

"رأيتهما." لم أكن أريد أن أقول إننى رأيتهما عندما كنت أتلصص حول القاعة بالليل ومن حسن الحظ أنه لم يسأل.

حسنًا.. إنها أرملة."

"هل هى؟"

"واحد من الرحالة هنا، شىء محزن."

"لم أكن أعرف." فكرت طويلاً وبعمق أن كونك موظفًا بالشركة يعد وظيفة خطيرة. "ما كنت سأقول.. هو أنه سيكون علينا أن نطرح على الناس أسئلة... دون أن يعرفوا."

حتى وأنا أقول ذلك.. تساءلت كيف بحق السماء سننجح فى فعل ذلك. بدا "مودى" أقل تأثرًا، يجب أن أعترف أنها ليست خطة عبقرية، لكنها أفضل ما يمكننى فعله.

"حسنًا.. فلو لم يكن هناك شىء آخر... " وجه نظرة ذات معنى إلى الباب، فكرت فى ذراع "ستيوارت" وفى أن أخبر "مودى" بشأنه، لكنه لم يكن يثق بـ"باركر" فى الحقيقة، وقد يبدأ فى طرح الأسئلة حول كيف حدث وكان "باركر" فى "دوف ريفر". أسئلة لا أعتقد أننى أريد الإجابة عليها فى الوقت الحالى. "يجب أن أحصل فعلاً على قسط من الراحة إن لم يكن عندك مانع."

"بالطبع.. شكرًا لك." وقفت وبدا هو بشكل ما أصغر وهو مكوم تحت أغطية الفراش؛ أصغر سنًا وأكثر ضعفًا. "أنت تبدو مرهقًا.. هل طلبت شخصًا ما ليعتنى بتقيحات قدميك؟ أنا متأكدة أن هناك شخصًا ما ذا معرفة طبية هنا."

أمسك "مودى" بالأغطية وجذبها حول ذقنه، وكأننى أتقدم منه ومعى فأس. "نعم! من فضلك اذهبى فقط! كل ما أحتاجه هو بعض النوم.. من أجل السماء... "

وبينما أنا أستدير خارجة قمت بتأجيل كل الخطط للتحدث مع فريق العمل فى اليوم التالى، لأنه بحلول الوقت الذى قمنا فيه كان معظمهم قد رحل. "جورج كمينجز"، و"بيتر إيجلز" و"وليام بلادوزير" و"كينوواس" ـ بكلمات أخرى.. كل الذكور البالغين غير البيض الذين يعيشون ويعملون فى

"هانوفرهاوس"، مع استثناء وحيد وهو "أوليفر" ـ كانوا قد ذهبوا للبحث عن جثة "نيبابانيز"، غادروا قبل الفجر بهدوء.. على الأقدام، حتى الرجل الذى رأيناه فى ظهر أول يوم لنا هنا، "آرنود" السكير (الذى اتضح أنه الحارس)،حتى هو أصبح فائقًا من الحزن وانضم لفريق البحث.

والأرملة وابنها ذو السبعة عشر عامًا كانا قد ذهبا معهم.

***

بعد أسبوع من رفض "فرانسيس" لعرض "سوزانا" ذهب إلى كابينة "جاميه" فى مهمة كلفه بها والده،مازال يفكر فى "سوزانا نوكس"، ولكن الآن وقد أغلقت المدرسة أبوابها لعطلة الصيف وقد بدا ذلك اليوم على الشاطئ مثل ذكرى مبهمة وغير مستقرة. لم يذهب إلى النزهة.. ولا حتى بعث برسالة لم يكن يعرف ماذا يقول. لو أنه تعجب من نفسه لرفضه ما كان يحلم به منذ وقت طويل.. فلم يكن يفعل هذا كثيرًا.. أو لم يكن يفعله مع أى لوم للنفس. لقد كان الأمر أنه قد اعتبر الحصول عليها شيئًا مثاليًا بعيد المنال.. لدرجة لم يستطع تخيل أنها يمكن أن تكون أى شىء آخر.

هذا اليوم.. كان فى وقت متأخر من بعد الظهيرة، وكان "لوران" بالداخل يعد الشاى عندما صفر "فرانسيس" من الخارج أمام الباب.

"أهلاً.. "فرانسيس"!" دعاه،فدفع "فرانسيس" الباب ليفتحه. "هل تريد بعض الشاى؟"

أومأ "فرانسيس"،كان يحب كابينة الرجل الفرنسى، والتى كانت غير مهندمة وليست مثل منزل والديه على الإطلاق. كانت الأشياء مربوطة ببعضها بالخيوط والمسامير؛ لم يكن لبراد الشاى غطاء ولكن تم الإبقاء عليه لأنه مازال يقوم بمهمته وهى الاحتفاظ بالشاى؛ كان يضع ملابسه فى صناديق الشاى. عندما سأله "فرانسيس" لماذا لا يصنع لنفسه مجموعة أدراج، حيث إنه قادر تمامًا على فعل ذلك.. فأجاب أن الصندوق الخشبى كان جيدًا مثل غيره.. أليس كذلك؟

جلسا على كرسيين بداخل الكابينة وراء الباب.. الذى فتحه "لوران" بوتد،وشم "فرانسيس" رائحة البراندى فى نفس الرجل الفرنسى. أحيانًا كان يشرب خلال النهار،رغم أن "فرانسيس" لم يره قط فى أسوأ حالات الشراب. كانت الكابينة تواجه الغرب تمامًا وكانت الشمس المنخفضة مسلطة على وجهيهما.. مجبرة "فرانسيس" على إغلاق عينيه وإلقاء رأسه للوراء. عندما نظر لـ"لوران" مرة أخرى وجد الرجل الأكبر سنًا ينظر إليه والشمس تشتعل بأضواء ذهبية فى أعماق عينيه.

"يا له من وجه!" همهم بالفرنسية بذلك وكأنه يقولها لنفسه، ولم يسأله "فرانسيس" عما يعنى حيث إنه لم يعتقد أنها كانت له.

كان هناك صمت رائع فى الأجواء.. فكان صوت حشرات الجُدجُد أعلى شىء، أخرج "لوران" زجاجة البراندى وصب بعضًا منه دون أن يسأل فى شاى "فرانسيس". شربه "فرانسيس" شاعرًا بلامبالاة مبهجة وقال: سيعنفه والداه إذا ما اكتشفا الأمر.

"آه حسنًا،لا يمكننا إرضاء والدينا طوال حياتنا."

"أنا لا أعتقد أننى أرضيهما على الإطلاق فى أى وقت."

"أنت تنمو الآن، وقريبًا سوف تغادر، أليس كذلك؟ تتزوج ويكون لك مكانك الخاص وكل شىء آخر."

"لا أعرف." بدا هذا بعيدًا بشكل كبير ومشوش.. بعكس حشرات الجدجد والبرادى والشمس المنخفضة الغاشية للبصر.

"هل لديك حبيبة؟ هذه الفتاة الصغيرة السمراء -هل هى حبيبتك؟"

"أوه "إيدا"؟ لا.. إنها مجرد صديقة ـ نحن نمشى من المدرسة للبيت معًا فى بعض الأيام." يا إلهى! هل كل شخص فى البلدة يعتقد أن "إيدا" حبيبتى؟ "لا... أنا.."

لسبب ما.. وجد أنه يريد التحدث إلى "لوران" حول الأمر. "هناك فتاة تعجبنى، الكل معجب بها فى الواقع، إنها جميلة حقًا ولطيفة حقًا أيضًا...

عند نهاية الفصل الدراسى طلبت منى الذهاب فى نزهة، لم تكن قد تحدثت إلى من قبل قط... وكنت أشعر بالزهو حقًا،لكنى لم أذهب."

سادت أطول فترة صمت بعد ذلك،شعر "فرانسيس" بعدم الراحة وبدأ يتمنى لو لم يتحدث عن الأمر.

"لا أعرف ما خطبى!" حاول أن يضحك عاليًا.. لكن لم ينجح تمامًا، وضع "لوران" يدًا وربت على ساقه.

"لا شىء ليس على ما يرام بك.. يا صديقى، يا إلهى! لا شىء على الإطلاق."

ثم نظر "فرانسيس" إلى "لوران"، بدت على وجه الرجل الفرنسى الجدية الشديدة... لدرجة الحزن تقريبًا، هل كان هو السبب؟ هل هو يجعل الناس يحزنون؟ ربما كان هذا ما عليه الأمر، فـ"إيدا" تبدو دومًا حزينة وهى برفقته مؤخرًا، ووالداه.. حسنًا.. تبدو عليهما الكآبة بشكل يفوق الوصف. حاول "فرانسيس" أن يبتسم.. ليجعله فرحًا، ثم تغيرت الأمور.. أصبحت بطيئة جدًا ـ أو كانت سريعة جدًا؟ أدرك أن يد "لوران" لا تزال على ساقه.. لا تربت عليه فقط الآن؛ وإنما تدلك فخده بحركات قوية ذات رتم. لم يستطع التوقف عن النظر فى العينين الذهبيتين البنيتين، هناك مزيج من رائحة البراندى والتبغ والعرق، وبدا وكأنه التصق بكرسيه.. أطرافه ثقيلة ولا تتحرك وكأنها مليئة بسائل دافئ لزج. والأكثر من ذلك... أنه كان يُجذب تجاه "لوران" ولا قوة على الأرض قد توقفه.

عند نقطة ما نهض "لوران وذهب إلى الباب الذى كان مازال مفتوحًا ليغلقه،ثم التفت إلى "فرانسيس" قائلاً: "أنت تعرف.. يمكنك الرحيل إذا كنت تريد ذلك."

حدق "فرانسيس" فيه وهو مبهور الأنفاس ومرتعب بشكل مفاجئ، لم يكن يعتقد أن بإمكانه التحدث،لذلك هز رأسه.. مرة واحدة فقط،فركل "لوران" الباب ليغلقه.

فيما بعد.. أدرك "فرانسيس" أن عليه ـ عند نقطة ما ـ أن يذهب للبيت مرة أخرى. حتى أنه تذكر الأداة التى جاء من أجلها،رغم أن هذا بدا منذ مدة مستحيلة من الوقت. كان خائفًا من المغادرة فى حالة رجعت الأشياء لمسارها الطبيعى، ماذا لو أنه فى المرة القادمة التى يرى فيها "لوران" تصرف وكأن شيئًا لم يكن؟ بدا مسترخيًا تمامًا الآن وقد ارتدى قميصه وغليونه مثبت بين أسنانه وسحب الدخان تتلوى حول رأسه،وكأن ما حدث شىء طبيعى يحدث كل يوم، وكأن الأرض لم تدر حول محاورها. كان "فرانسيس" خائفًا من الذهاب للبيت.. من أن يضطر لأن ينظر إلى والديه بهاتين العينين متسائلاً ـ من الآن فصاعدًا ـ إن كانا يعرفان.

وقف عند الباب ومعه أداة السلخ، غير متأكد من الطريقة التى سيغادر بها،جاء "لوران" إليه وهو يبتسم ابتسامته الخبيثة.

"إذًا.. إذًا... " قال "فرانسيس" متلجلجًا. لم يتعثر فى حياته قط. "هل آتى... غدًا؟"

وضع "لوران" يديه على وجه "فرانسيس".. خشنة وحنونة.. تتبع إبهاماه عظمتى وجنتيه، كانت عيناهما على مستوى واحد تمامًا، قبله... وكان فمه مثل مصدر الحياة نفسه.

"إذا أحببت."

مشى "فرانسيس" أعلى الممر باتجاه بيته.. فى شعور بالسعادة والنشوة والرعب فى الوقت نفسه. كم بدت سخيفة: الممر.. الأشجار وحشرات الجدجد والسماء الباهتة والقمر الآخذ فى السطوع، كل شىء بدا مثلما كان من قبل،وكأنه لا يعرف وكأنه لا يهم. وفكر بينما يمشى: "يا إلهى! هل هذا ما أنا عليه؟"

فى نشوة ورعب: "هل هذا ما أنا عليه؟"

تم نسيان "سوزانا"، ذبلت المدرسة والأمور التى تهم فتية المدرسة لتصبح ماضيًا بعيدًا. هذا الصيف ـ لعدة أسابيع ـ كان سعيدًا، مشى

خلال الغابة قويًا وقادرًا.. رجل ذو أسرار. ذهب مع "لوران" فى رحلات صيد برى وصيد أسماك رغم أنه لم يكن يصطاد فى البر أو فى البحر. عندما كانا يقابلان أى شخص فى الغابة كان "فرانسيس" يومئ إليه وهو يخور بإيجاز، عيناه على نهاية الصنارة أو تمسحان الأشجار بحثًا عن علامات على أية حركة، و"لوران" يلّمح أنه قد أصبح صائدًا ماهرًا.. ذا عينى نسر.. لا يعرف الرحمة. لكن أحلى الأوقات عندما يكونان بمفردهما فى نهاية اليوم، فى الغابة أو فى الكابينة ويصبح "لوران" جادًا، كان عادة ثملاً كذلك.. وكان ليأخذ وجه "فرانسيس" بين يديه.. ينظر وينظر وكأنه لا يستطيع الاكتفاء.

بالرجوع للوراء.. لم يكن هناك أوقات كثيرة مثل هذه ـ فكان "لوران" يصر على أن "فرانسيس" يجب ألا يبقى فى الكابينة كثيرًا، أو قد يشك الناس. كان عليه أن يقضى مدة مناسبة من الوقت فى البيت أيضًا مع والديه. كان يجد هذا صعبًا، فمنذ ذلك المساء الأول عندما عاد ودخل ليجدهما جالسين على مائدة العشاء، أمسك بالأداة لأعلى.

"اضطررت للانتظار حتى يعود."

أومأ والده سريعًا، والتفتت أمه حولها قائلة: "لقد أخذ منك الأمر وقتًا طويلاً، أراد أبوك أن ينتهى من الأمر قبل العشاء، ماذا كنت تفعل؟"

"لقد أخبرتك، اضطررت للانتظار." وضع الأداة على المائدة وصعد لأعلى.. متجاهلاً صيحات أمه المنهكة بشأن عشائه.

كان يرتعش بفرح أرسل رعشات فى جسده.

طالما أن علاقته بوالديه كانت فى أبسط مستوى لها فى أفضل الأوقات، فلم يبد أنهما لاحظا أى فرق إذا ما كان صامتًا أو مشتتًا،كان يقضى الوقت بين زياراته لـ"لوران" وهو ذاهب فى نزهات على الأقدام، والرقود على فراشه،والقيام بمهامه المنزلية بفراغ صبر وبشكل سيئ. ينتظر.. ثم تكون هناك ليلة أخرى فى الكابينة أو رحلة صيد على البحيرة،

عندما يمكنه أن يكون نفسه حقًا. لحظات مختلسة.. مركزة وذات مذاق حاد، عندما يمكن للوقت أن يتلكأ مثل ظهيرة يوم أحد، أو يتلاحق مثل سيل مياه مسرع. لو أنه قام بعدّ الليالى التى قضاها فى كابينة "لوران"،فكم سيكون عددها؟

ربما عشرون.. خمسة وعشرون

قليل جدًا.

انتفض "فرانسيس" من ماضيه عندما دخل "جاكوب" إلى الحجرة،كان ممتنًا للمقاطعة.،بدا "جاكوب" أكثر توترًا من أى وقت آخر. فرك "فرانسيس" يده فوق وجهه وكأنه كان نائمًا.. على أمل ألا يرى "جاكوب" الدموع.

"ما الأمر؟" فتح "جاكوب" فمه لكن لم يخرج منه شىء بعد.

"أمر غريب! المرأة التى تدعى "لاين" وأطفالها والنجار غادروا أثناء الليل، وزوجة النجار تهدد بقتل نفسها."

اتسعت عينا "فرانسيس"،قامت ممرضته بأخذ النجار -الذى لم يره من قبل قط ـ بعيدًا. (إذًا لماذا قامت بتقبيله؟)

أخذ "جاكوب" يذرع الحجرة،"سوف يتساقط الثلج، إنه ليس الوقت المناسب للسفر،ليس ومعهما أطفال. لقد رأيتها فى الإسطبلات الليلة قبل الماضية،وطلبت منى ألا أقول أى شىء ولذلك لم أفعل."

أخذ "فرانسيس" نفسًا عميقًا. "إنهم بالغون ويمكنهم القيام بما يحلو لهم."

"لكن إذا كانوا لا يعرفون البلد... إنهم لا يعرفون كيف يسافرون فى الشتاء..."

"كم بقى من الوقت قبل أن يسقط الثلج؟"

"ماذا؟"

"كم بقى على نزول الثلج؟ يوم؟ أسبوع؟"

"يوم أو يومان.. قريبًا،لماذا؟"

"أعتقد أننى أعرف إلى أين قد يكونون قد ذهبوا. لقد تحدثت إلىّ؛ لقد سألت عن "كالفيلد"."

تتبع "جاكوب" تفكيره. "حسنًا قد يتمكنون من الوصول.. إن حالفهم الحظ."

***

كانوا قد وصلوا منذ ساعة إلى أول الأشجار.. التى كانت صغيرة ومتفرقة بالتأكيد لكنها مازالت أشجارًا، وشعرت "لاين" بموجة من الفرح، إنهم بالفعل راحلون،ها هى الغابة، والغابة تمتد طوال الطريق حتى شاطئ البحيرة، إن الأمرتقريبًا وكأنهم قد وصلوا هناك بالفعل. أخبرتهم قصاصة الورق التى معها أن يذهبوا للجنوب الشرقى حتى يقطعهم نهر صغير ومن ثم يتبعون اندفاعه للأسفل. كان "توربين" جالسًا على السرج أمامها وكانت هى تقص عليه قصة عن كلب اعتادت أن يكون لديها وهى طفلة فى النرويج. جعلته يبدو مثل الكلب فى القصة الخيالية التى فيها الجنود.. ذا عينين كبيرتين فى حجم أطباق العشاء.

"يمكنك أن تحصل على كلب أيضًا عندما نجد مكانًا لنعيش فيه، كيف يروق لك هذا، هاه؟" انزلق هذا الكلام خارجًا من فمها قبل أن تتمكن من عض لسانها.

"مكان نعيش فيه؟" كرر "توربين". "لقد قلت إننا ذاهبون فى إجازة، والأمر ليس هكذا، أليس كذلك؟"

تنهدت "لاين" قائلة: "لا.. نحن ذاهبون لنعيش فى مكان آخر،مكان أفضل.. حيث الجو دافئ."

تلوى "توربين" حوله على السرج لينظر إليها فى عينيها، نظرة خطرة على وجهه.. نظرة متشنجة وغير قابلة للنقاش: "لماذا كذبت؟"

"لم تكن كذبة فعلاً يا عزيزى، الأمر كان معقدًا ولم نستطع شرحه كله لك.. ليس فى "هيميلفانجر"، كان من المهم ألا يعرف أحد هناك أو كانوا سيمنعوننا من الرحيل."

"لقد كذبت علينا." كانت عيناه جامدتين ومرتبكتين ، لقد حوله "بير" والكنيسة ذات السقف الأحمر إلى ولد صغير ومتحذلق. "الكذب يعد خطيئة."

"لم يكن خطيئة فى هذه الحالة، لا تجادل يا "توربين"،هناك أشياء لا يمكنك فهمها، أنت صغير جدًا، آسفة لاضطرارنا لفعل ذلك بهذه الطريقة لكن هكذا هى الأمور."

"أنا لست صغيرًا جدًا!" كان غاضبًا ووجنتاه حمراوين من البرد والإثارة. كان يتململ حول نفسه الآن.

"اجلس ثابتًا.. أيها الفتى الصغير، وإلا ضربتك، صدقنى إن هذا ليس وقت الجدال!".

ولكن بطريقة ما خلال تململه نجح فى غرس كوعه بشدة فى بطنها مما جعلها تشهق وتشعر بموجة غضب تجتاحها. "هذا يكفى!" رفعت يدها عن اللجام وضربته على ساقيه.

"أنت كاذبة! كاذبة! لن آتى معك!" صرخ وتململ منسلاً من بين ذراعيها وانزلق إلى الأرض،انثنى كاحلاه لحظيًا من تحته، ثم رفع نفسه واقفًا وبدأ يجرى، عائدًا فى الاتجاه الذى جاءوا منه.

"توربين! توربين!" صاحت "لاين".. صرخة صوتها الحاد وقد شدت اللجام لتحاول أن تجعل حصانها يستدير، والذى لم يبد أنه فهم،فوقف بلا حراك ولم يتحرك مثل قطار وصل إلى محطته الأخيرة. شد "إسبن" ـ الذى كان متقدمًا مع "أنا" ـ دابته لتستدير ورأى "توربين" الذى كان يتواثب راكضًا بين الأشجار.

"توربين!" قفز من على حصانه و"أنا" بين ذراعيه وأعطاها إلى "لاين"، التى كانت قد نزلت من على ظهر دابتها تاركة إياه حيث هى.

"ابقى هنا، سوف أحضره! لا تتحركى!".

ركض وراء "توربين" يراوغه حول الأشجار ويتعثر فوق جذوع الأشجار الساقطة على الأرض، وخلال وقت قصير بشكل مخيف اختفى كلاهما عن مرمى البصر. نظرت "أنا" إلى "لاين" بعينيها الزرقاوين المليئتين بالحزن وبدأت تبكى.

"لا تقلقى عزيزتى، إن أخاك يحاول أن يكون سخيفًا فحسب، سوف يعودان بعد قليل." وفى لحظة مفاجئة انحنت ووضعت ذراعيها حول ابنتها وأغلقت عينيها فى شعرها الدهنى البارد.

لم يكن قد مضى أكثر من بضع دقائق قبل أن يعاودا الظهور بين الأشجار. بدا وجه "إسبن" جامدًا وهو يجر "توربين" المذعور من يده. لكن عند ذلك أدركت "لاين" أن شيئًا أسوأ قد حدث.

كانت هى و"أنا" يبحثان فى البداية وهى تفكر أننا سنجدها على الفور؛ فشىء مستدير وصلب ومعدنى مثل بوصلة يبدو شاذًا فى مثل هذا المكان، فسوف يظهر مثل أصبع إبهام ملتهب. حولتها "لاين" للعبة مع "أنا"، مع مكافأة لمن يجدها، ولكن سرعان ما أصبحت اللعبة أقل تشويقًا، فالأرض هنا خادعة بشكل خاص: مرتفعات من الصخور ومنخفضات تلتوى فيها الكواحل وجحور أرانب مخفية وتشابكات جذور متداخلة ميتة ومتعفنة. لم يكن بإمكانها أن تتذكر إذا كانت قد أسقطتها عندما ضربت "توربين" أم بعد ذلك،أم عندما كانت تحاول أن تجذب الحصان خلفها. لم تعطهم الأرض المعذبة أية علامة أينما كانوا.

أخبرت "إسبن" أنها لم تجدها ورأى "توربين" الخوف فى وجوههم فخرس تمامًا، عرف أنه خطأه. بدءوا هم الأربعة يبحثون وهم منحنو الظهور فى دوائر حول الحصانين اللامباليين،وهم يبعدون جانبًا الأحراش والأوراق المتعفنة،مادين أيديهم فى ثقوب مظلمة زلقة. كل اتجاه يبدو مثل الآخر بشكل ساخر، أشجار صنوبر قصيرة تنمو وتموت حيث نمت قبلاً..

تسقط وتميل فى أحضان بعضها البعض وهى تغزل حولهم فخًا خشنًا من الخشب الميت.

كانت "أنا" هى أول من لاحظ: "ماما.. الثلج يتساقط."

اعتدلت "لاين" وظهرها يؤلمها. ثلج.. صمت.. نتف جافة تهفو من حولها، رأى "إسبن" النظرة التى على وجهها.

"سوف نستمر فى البحث لنصف ساعة أخرى، ثم سنكمل الطريق، يمكننا معرفة الاتجاه جيدًا على أى حال، كان الأكثر أهمية أن نعرف الاتجاه لنصل إلى الغابة. هذا هو الجزء السهل."

ذات مرة صاح "توربين" وتقافز ولكن اتضح أنه حجر مستدير رمادى اللون، ارتاحت "لاين" فى سرها عندما أعلن "إسبن" التوقف. إنها تحبه لطريقته فى إلقاء الأوامر،وقد جمعهم من أجل حديث قصير وقام باختيار الاتجاه الذى سيسيرون فيه. أوضح أن الأحراش تتجمع على الجوانب الشمالية لجذوع الأشجار، لذلك هذا ما سيبقون أعينهم عليه: أين تتجمع الأحراش. بالنسبة لـ"لاين" بدت الأحراش موزعة بالتساوى لكنها أغلقت على هذه الفكرة وضربت الباب وأغلقته بالمفتاح، فـ"إسبن" سوف يعرف.. إنه هو حاميهم.. وهى مجرد امرأة.

أخذ "إسبن" "توربين" على حصانه وتحركوا بصمت. غطى الجليد كل شىء حتى صليل الألجمة.

***

ذهبت إلى الإسطبلات دون مبرر حقيقى،غير أننى كنت أفكر فى التحدث إلى النساء ولكن ـ لأقول الحقيقة ـ كنت خائفة منهن،فلقد بدين خشنات وغريبات ويظهرن الاحتقار وقد جعلهن الحزن حادات الطبع. من أنا لأستجوبهن. أنا التى لم تحمل قط بالإحسان والطيبة،أو حتى الفضول حول الرجال الذين معى؟ كان الكلبان على الأقل مسرورين لرؤيتى،وقد جُنا

من ملل الاحتجاز. أسرعت "لوسى" إلىّ وهى تهز ذيلها وفكاها مفتوحان واسعان فى ابتسامة الكلاب السعيدة. شعرت بموجة غريبة من الولع بها وأنا أحس برأسها الخشن تحت يدى ولسانها مثل الرمال الساخنة. ثم جاء "باركر".. تساءلت إذا كان يبحث عنى.

كانت هذه المرة الأولى التى يأتى فيها ليجدنى، المرة الأولى - بكلمات أخرى - منذ طرق على بابى فى منتصف الليل وعقدنا اتفاقيتنا. أمس كنت لأكون سعيدة بهذا، ولكن اليوم لست متأكدة. جاء صوتى أعلى وأكثر حدة مما كنت أريد.

"هل حصلت على ما أردت؟"

"ماذا تعنين؟"

"السبب الذى جئت من أجله، لم يكن له أية علاقة بـ"فرانسيس" أو "جاميه". أنت أردت رؤية "ستيوارت" مجددًا، بسبب شىء حدث منذ خمسة عشر عامًا بسبب مشاجرة غبية."

تحدث "باركر" دون أن ينظر إلىّ وبحذر. "ليس الأمر كذلك،فـ"جاميه" كان صديقى، وابنك... حسنًا،لقد أحب "جاميه". أعتقد أنهما أحبا بعضهما البعض.. أليس كذلك؟"

"أحقًا؟" أصدرت ضحكة مختنقة نوعًا ما.. "يا لها من طريقة غريبة لتفسير الأمر،أنت تجعل الأمر يبدو... "

لم يقل "باركر" شيئًا،استمرت "لوسى" فى لعق يدى ونسيت أنا أن أحركها بعيدًا.

"حقًا.. أنا... " أحسست بيد "باركر" على ذراعى، ورغم أن جزءًا منى كان يريد أن يلقيها بعيدًا إلا أننى لم أفعل. "حقًا.. أنا لا... "

لم أستطع تصديق أننى لم أكن أعرف. "ما هذا الذى تقوله؟" تكسر صوتى مثل أوراق الأشجار الجافة.

"كان "جاميه" ... حسنًا،لقد سبق له وكان متزوجًا، ولكن أحيانًا كان لديه أيضًا... أصدقاء.. رجال صغار السن.. حسنو الطلعة مثل ابنك."

قادنى بطريقة ما بعيدًا عن الباب إلى ركن مظلم تتكوم فيه بالات التبن، وجلست على واحدة منها.

"آخر مرة رأيته حيًا ـ كان هذا فى الربيع ـ أنت تعرفين، ذكر شخصًا ما يعيش قريبًا، فهو كان يعرف أننى لا أقيمه؛ ليس معنى هذا أنه كان يهتم."

كانت هناك نصف ابتسامة على وجهه،بدأ يشعل غليونه على غير عجلة. "لقد كان يهتم لأمره بعمق."

سويت شعرى فى مكانه، كانت هناك بعض الخصل المتهدلة التى أفلتت من العقصة، ويمكننى رؤية فى الضوء القادم من اتجاه الباب أن هناك بعض الشعيرات البيضاء. علىّ أن أواجه الحقائق.. إننى أتقدم فى العمر.. ورأسى ملىء بأفكار ليس بوسعى احتمالها،لا أستطيع تحمل فكرة أننى لم أدرك ما كان يحدث، لا أستطيع تحمل فكرة أن "أنجوس" كرهه من أجل هذا.. لإدراكى الآن أنه كان يعرف،لا أستطيع تحمل فكرة حزن "فرانسيس" الذى لابد أنه كان ـ وما زال ـ عظيمًا وسريًا.. وحيدًا بطريقة لا تحتمل. ولم أستطع تحمل فكرة أننى عندما رأيته.. لم أرحه بشكل كافٍ تمامًا.

"يا إلهى! كان يجب علىّ البقاء بجانبه."

"أنت امرأة شجاعة."

جعلنى هذا تقريبًا أضحك قائلة: "أنا امرأة غبية."

"أنت أتيت كل هذا الطريق من أجل ابنك وأنت تكرهين هذا، وهو يعرف ذلك."

"ولكن بلا فائدة، لم نجد الرجل الذى ترك الأثر."

لم يقفز "باركر" على الفور وينكر ذلك،سحب الدخان من غليونه لدقيقة فى صمت. "هل آراك "ستيوارت" الندبة؟"

أومأت ثم قلت: "قال إنك فعلتها فى مشاجرة أثناء ما كنتما فى رحلة."

"ليست أثناء الرحلة، بعدها. سوف أخبرك بشيئين لم يقلهما على الأرجح، ثم يمكنك إعمال عقلك بعد ذلك. كان "ستيوارت" واعداً،لكن كان يقول إنه سيتقدم لبعيد وأنه من النوع الصحيح. ذات شتاء على بحيرة "كلير" قام بتكوين مجموعة منا لنذهب فى رحلة إلى مركز آخر.. على بعد ثلاثمائة ميل، وكان عمق الجليد ثلاثة أقدام قبل جرف الثلج. كان الطقس بشعًا.. لا يتم السفر فى منتصف الشتاء إلا إذا كنتِ مضطرة وقام هو بها ليثبت أنه قادر على ذلك."

"هل كانت هذه هى الرحلة الشهيرة التى تحدث السيد "مودى" عنها؟"

"لقد كانت شهيرة ولكن ليست للأسباب التى قدمها هو،كنا خمسة فى البداية،"ستيوارت" ورجل شركة آخر يدعى "راى" وابن أخ "راى" الذى كان فى السابعة عشرة، لم يكن هذا الفتى يعمل لحساب الشركة،كان فقط يزور البلاد. ثم كان هناك أنا ومرشد آخر وهو "لوران جاميه".

"كما قلت، كان الطقس سيئًا، جليد عميق وعواصف. ثم ازداد الأمر سوءًا، كانت هناك عاصفة ثلجية عنيفة وببعض الحظ وجدنا كابينة على بعد مائة ميل من أى مكان. استمرت العاصفة الثلجية واستمرت، وظللنا ننتظر أن تنهى نفسها لكنها كانت واحدة من عواصف شهر يناير التى تستمر لأسابيع. كان الطعام يتناقص وكان الشىء الوحيد الذى لدينا بوفرة هو الشراب، قررت أنا و"جاميه" أن نذهب ونجلب مساعدة،بدت هذه هى الفرصة الوحيدة. أخبرنا الثلاثة الآخرين أننا سنعود فى أقرب وقت ممكن وتركنا كل الطعام الذى كان موجودًا وانطلقنا. حالفنا الحظ وبعد يومين وجدنا قرية هندية ثم ازداد الطقس سوءًا ولم نستطع العودة لثلاثة أيام أُخر.

"عندما عدنا أخيرًا كان شيء ما قد حدث،وجدنا "ستيوارت" و"راى" فى حالة غياب وعى من جراء الشراب، أما الفتى فقد لقى مصرعه.. راقدًا على الأرض.. مختنقًا من القيء. لم يفسرا الأمر بشكل يعقل قط، لكنى أعتقد أن ما حدث كالتالى: كان "ستيوارت" قد تكلم من قبل عما يدعوه: "الخروج فى انفجار من المجد"، كان يمزح بشأن ذلك. أعتقد أنه عندما لم نعد على الفور استسلم،وقرر أنهم يجب أن يشربوا حتى الموت،لم ينجح لا هو ولا "راى" فى ذلك، ولكن الفتى مات."

"كيف عرفت أنها كانت فكرته؟" كنت أهتز بداخلى للفكرة، فالفتى كان فى سن "فرانسيس".

"كانت هذه طريقته فى التفكير." كان صوته مسطحًا من الاشمئزاز.

"وماذا بعد؟ هل تم فصله عن العمل؟"

"كيف يمكنهم إثبات الأمر؟ لقد كانت مجرد مأساة.. سوء تقدير، وكان هذا سيئًا بشكل يكفى. ذهب "راى" إلى اسكتلندا و"ستيوارت" تخطى الأمر، والفتى دُفن تحت الأرض،و"أنا" تركت الشركة ولم أره منذ ذلك الحين."

"والندبة؟"

"لقد سمعته ينتقد الفتى قائلاً إنه كان ضعيفًا وخائفًا ولقد أراد أن يموت. وكنت أشرب عندها." هز كتفيه دون ندم.

كانت هناك وقفة صمت لأطول وقت ورغم ذلك عرفت أنه لم ينته بعد.

"والشيء الآخر؟"

"نعم. منذ خمسة أو ستة أعوام كانت الشركة فى حاجة إلى رجال، لذلك قاموا بجلب رجال من النرويج، مدانين. كان "ستيوارت" رئيسًا لمصنع "موس" وكان لديهم مجموعة من هؤلاء الرجال. فلقد كان النرويجيون

يخدمون فى العسكرية فى كندا أيضًا. الأرملة التى كانت فى "هيميلفانجر" التى كانت تعتنى بابنك ـ كان زوجها واحدًا منهم."

فكرت فى الأرملة ـ شابة وجميلة ذات طابع غير صبور وجوع، ربما هذا يفسر الأمر.

"لم أكن هناك، لذلك فهذا ما سمعت فقط. قام بعض النرويجيين بعصيان الأوامر ورحلوا، وبشكل ما نجحوا فى أن يأخذوا معهم الكثير من الفراء القيم، وانطلقوا عبر البلاد وهلت عليهم العواصف الشديدة فاختفوا. تورط "ستيوارت" فى مشكلة هذه المرة بسبب عصيان الأوامر وبسبب فقدان الكثير من البضائع القيمة، لابد أن أحدهم فى المخازن كانت له يد فى ذلك."

"ستيوارت"؟"

"لا أعرف، فالناس يبالغون بالطبع.. قائلين إنه كانت هناك ثروة فى الفراء سيحصل عليها الرجل الذى يجدهم.. عشرات من فراء الثعالب الفضية والسوداء."

"لا يبدو وكأن هذا يستحق كل هذا العناء."

"هل تعرفين كيف يبلغ ثمن فراء ثعلب فضى؟"

هززت رأسى ألا.

"فى لندن.. أكثر من وزنه ذهبًا."

كنت مصدومة،وأشعر بالأسى تجاه الحيوانات، قد لا أكون ذات نفع كثيرًا، ولكنى على الأقل أساوى أكثر وأنا على قيد الحياة عنى وأنا ميتة.

"تم إرسال "ستيوارت" إلى هنا،ليس هناك أى فراء هنا الآن.. لا شىء سوى الأرانب البرية.. لا تساوى شيئًا. لست متأكدًا لماذا يزعجون أنفسهم بالإبقاء على "هانوفر" مفتوحًا ويعمل. فبالنسبة لرجل طموح كانت هذه إهانة. فأنت لا يمكنك التقدم من مكان مثل هذا، لقد كانت عقوبة لما قد يكون قد فعل."

"ما علاقة هذا كله بـ"جاميه"؟" كنت غير صبورة لأصل لنهاية القصة.

"آه.. السنة الماضية... " توقف ليعبث بالتبغ فى غليونه ـ عن عمد أو هكذا بدا لى. "الشتاء الماضى... وجدت الفراء."

"الخاص بالثعلب الفضى والثعلب الأسود؟"

"نعم!" كانت هناك لمحة من التسلية فى صوته، أو ربما كانت لمحة دفاعية.

"هل كانوا يقدرون بثروة؟" شعرت ـ أعتذر لـ"فرانسيس" لهذا ـ بموجة من الإثارة. فالكنوز تأتى فى شتى الصور.. مهما كان الأمر بشعًا،وهى دومًا تجعل القلوب الضحلة مثل قلبى تخفق أسرع.

ارتسم على وجه "باركر" ما يشبه التكشيرة: "ليس مثل ما أشاع الناس، ولكن... كافية."

"وماذا عن... النرويجيين؟"

"لم أجدهم، ولكن أى آثار كانت لتختفى منذ وقت طويل، لقد كانوا بالخارج فى العراء."

"أتعنى الذئاب؟" لم أستطع منع نفسى من السؤال.

"ربما."

"لكنى أعتقد أنك قلت إنهم... يتركون أجزاء"

"على مدار العام.. تأتى كل أنواع المخلوقات.. طيور.. ثعالب.. ربما يكونون قد ذهبوا. كل ما أقوله إننى لم أر أى شىء. كان الفراء قد اختفى وكأنه كان ينوى أن يعود، لكن هم لم يفعلوا قط.

"ثم.. أخبرت "لوران"، كان سيرتب لمشترين فى الولايات المتحدة، لكنه لم يكن يومًا قادرًا قط على إغلاق فمه عندما يشرب. كان يتباهى، فلابد أن كلمة خرجت من فمه ووصلت إلى "ستيوارت" هنا، لهذا السبب مات."

"ما الذى يجعلك تظن أنه "ستيوارت"؟"

"كان "ستيوارت" يريد هذا الفراء أكثر من أى شخص آخر، لأنه فقدها، فلو أنه استعادها فسيصبح بطلاً. وسوف ترجعه الشركة لمنصبه."

"أو يمكنه أن يجعل نفسه ثريًا."

هز "باركر" رأسه. لا أعتقد أن النقود تهم.. فى حالته ما يهمه هو الفخر."

"يمكن أن يكون أى شخص آخر ـ أى شخص ـ قد سمع "جاميه" يتحدث وأراد المال."

أدار عينيه إلىّ وقال: "لكن الأثر قاد إلى هنا."

فكرت فى ذلك للحظة، إنه حقيقى.. حقيقى لكنه ليس كافيًا.

"لقد قادنا إلى هنا لكنه اختفى الآن،ولو أننا يمكننا العثور على الرجل... "

فجأة فكرت فى شىء ما وشعرت بالحرارة من التحمس.

"هاك.. لقد وجدت هذه عند "جاميه"... " أخرجت قطعة ورق من جيبى وأعطيتها لـ"باركر". نظر بتمعن إليها.. مائلاً ناحية الباب.. لكن المكان كان معتمًا بغض النظر.

"واحد وستون، إن هذا هو الطاقم أليس كذلك؟"

"نعم.. نعم هو، هل وجدت هذا؟"

"فى علبة الدقيق الخاصة به."

ابتسم "باركر"، فشعرت بالاحمرار من الفخر.. لثانية ثم اختفى، إن هذا لا يثبت أى شىء،إلا أن "جاميه" كان مهتمًا بالفراء بشكل ما وهذا لا يساعد فى شىء.

"لقد أعطيته هذه مع فروة ثعلب فضى،لقد جعلته يضحك لذلك احتفظ بها وباع الفروة بالطبع."

قلت: "احتفظ بها.. ربما تفكر فى استخدام ما لها." لم أسأل نفسى حتى ماذا أعنى بذلك، ولم يسأل "باركر" أيضًا، لكن الورقة اختفت، مازلت لا أعرف ماذا أفعل. بالطبع إنه "مودى" هو الذى فى حاجة إلى إقناع.

"هلا تقولين لـ"مودى" كل هذا؟ ربما عندها سوف يفهم الأمر."

"إنها ليست إثباتًا كما قلت. إن "مودى" يُحب "ستيوارت" و"ستيوارت" دومًا ماهر فى جعل الرجال يحبونه. بالإضافة إلى ذلك.. "ستيوارت" لم يذهب إلى "دوف ريفر".. هناك شخص آخر."

"لماذا قد يقتل شخص من أجل شخص آخر؟"

"لأسباب شتى.. المال.. الخوف،عندما نعرف من فعلها سنعرف لماذا أيضًا."

"يمكن أن يكون واحدًا من الرجال هنا، ربما كان "نيبابانيز" وبعدها... قام بتهديده بأن يتكلم فقتله "ستيوارت"."

"كنت أفكر وأتساءل إذا ما كانوا سيجدون الجثة قط."

"وماذا تعنى؟"

"أعنى.. أنهم ذهبوا فى الاتجاه الذى أخبرهم "ستيوارت" به، فسيكون الثلج قد غطى كل الآثار، وهم أخذوا فقط كلمته لوصف ما حدث."

كان الصمت كثيفًا جدًا حتى عويل الكلاب لم يستطع كسره.

***

وصلوا إلى المكان الذى أخبرهم "ستيوارت" عنه مع دخول المساء، كان الضوء يتسرب من السماء وكل شىء بدا رماديًا: سحب رمادية.. جليد رمادى شاحب. نعومة الجليد على ثلج النهر فضح الأمر؛ طريق واسع ينحنى خلال السهل لستة أو سبعة أقدام تحت مستوى الأرض، كان النهر قد شق طريقه أعمق فى قشرة الأرض منذ بدأ فى التدفق.

كانت هناك علامات لشخص ما كان هنا مؤخرًا، مغطاة بالجليد الجديد، مكان موطوء أكثر.. وعر حيث تنحنى الأرض لأسفل فى شكل شاطئ. من أعلى يظهر سطح الثلج على النهر مسطحًا وأبيض اللون إلا من نقطة أبعد بالأعلى حيث اللون أعمق وكأنه مظلل، وهذا يعنى أنه كان مكسورًا وتكون عليه ثلج جديد.. أقل سمكًا ومغبر قليلاً بالجليد. لابد أن هذا هو المكان.

كان "أليك" يسير بجانب أمه.. يضع أحيانًا يده على يدها.. وأحيانًا لا يضع. كان الأمر صعبًا بالنسبة له.. وكانت "إليزابيث" فى حيرة من أن تدعه يأتى أم لا، لكن كانت هناك نظرة فى عينيه ذكرتها بـ"نيبابانيز".. لقد كان حازمًا وجادًا، فقط الأمس كان لايزال فتى لديه أب ليختبر نفسه فيه،الآن عليه أن يكون رجلاً.

ترك الرجال الزلاجات على الضفة ونزلوا إلى النهر،أخذت "إليزابيث" "أليك" من يده،لن يكون مكانه أن يسحب جثة أبيه من الماء. مشى الرجال بحذر.. وهم يوخزون الثلج بقضبان طويلة.. يختبرون مدى قوته. عندما انكسر بالقرب من الظل.. كانت المياه تحته سوداء. صاح رجل منهم أن المياه كانت أكثر ضحالة مما اعتقدوا. درسوا التيار.. يناقشون كيف يسيرون معه. من موقعهم الأعلى على الشاطئ نظرت "إليزابيث" أسفل مجرى النهر.. على الطريق المغطى باللون الأبيض.. فى مكان هناك بالأسفل.. ينتظر "نيبابانيز".

"ابق هنا." أخبرت "أليك" وهى عالمة أنه سيستطيع، خطت ناحية مجرى النهر دون النظر للخلف،راقبها الرجال بتوتر.

ما رأته كان شيئًا قطع النعومة البيضاء للنهر.. مكان وعر حيث علقت أفرع الأشجار بقضيب غارق وبقت هناك مكونة سدًا. أى شىء سيحمله مجرى النهر مع التيار سيقف هنا طوال الشتاء حتى تأتى فيضانات الربيع لتحمله بعيدًا.

انزلقت "إليزابيث وتعثرت أسفل النهر وفوق السد،تساءل جزء من عقلها لماذا لم يفكر "ستيوارت" فى أن ينظر هنا،لكن الجليد كان بكرًا، كان الثلج قويًا تحت قدميها، انحنت على ركبتيها وأخذت تنبش الجليد بقفازيها.. ملقية إياه جانبًا.. كاشفة عن الثلج المتجمد الذى تحته.. ثلج لامع.. ورائق كالزجاج، وظلام النهر ينظر لأعلى إليها نظرة شريرة.. أسود حالك ومليء بالأشياء المتعفنة تحت سطحه الثلجى. قبضت على الثلج بيديها.. محطمة الحواف من مكان ما ثُقبت وتم إفسادها بأفرع الأشجار،تحطمها بقبضتها وتكسرها.. حتى...

هناك... هناك فى الأعماق.. عالق فى منخفض خطير.. يمكنها رؤية شىء.. شىء ما فاتح وغامق فى الوقت نفسه.. شىء كبير الحجم ويبدوخاطئًا ومحتجزًا فى ظلمة الماء.

كانت هناك صيحات.. وبعض الرجال تعثروا أسفل شاطئ النهر وراءها، لكنها لم تكن واعية بهم، ولا حتى بتنفسها الذى تأخذه فى شهقات قوية كالفحيح من بين أسنانها، ولا بيديها اللتين أصبحتا عاريتين الآن وهما ينزفان زرقاوان من الصقيع وهما تبحثان بجنون فى الحافة الثلجية غير المستوية، ثم جاءوا بجانبها بعصيانهم والفئوس يحطمون الثلج مهشمينه فى قطع كبيرة طافية. تحاول الأيدى جذبها بعيدًا عن الحفرة لكنها تأخذهم على غرة وتندفع للأمام وغاصت برأسها أولاً ويداها ممتدتان لتقبض على جثة زوجها وتشده لتحرره. فى صدمة مفاجئة من البرد المميت، حتى وعينيها مفتوحتين لا ترى شيئًا إلا ظلام الأعماق وضوءًا أخضر رمادى فوقها؛ حتى تحرر هذا الشىء المجهول مما يربطه وجاء إلى ذراعيها الممدودتين مثل حبيب من الكوابيس.

أومأ "جورج" تجاه "إليزابيث" محذرًا لكنها لم تكن حتى تبدو أنها تسمع، خفض "كينواس" صوته عندما تحدث.

"لقد كان هناك ثلج جديد.. حيث انكسر. الذى كان هناك من قبل لم يكن سميكًا.. فى نصف سمك الثلج الجديد."

كان هناك صمت.. غرقوا كلهم فيه بأفكارهم،ثم تحدث "كينواس" بفكرته بصوت عالٍ.

"لم أكن لأخوض فى هذا الثلج مهما كان ما كنت أتبعه."

"ما الذى تقوله؟" كان "ارنود" فظًا وعدوانيًا حتى وهو غير سكران، التفت "ارنود إليه.. كان هناك نفور قديم بينهما.

"لا أتخيل "نيبابانيز" يمشى عليه أيضًا، حتى أحمق مثلك سيفكر مرتين."

لم يضحك أحد رغم أن ما قيل كان يهدف منه مزاحًا. كانت هناك حقيقة فيما قاله، و"نيبابانيز" كان مقتفى أثر ذكى.. الأكثر خبرة بينهم جميعًا.

ما لم يقله أحد ـ رغم أن معظمهم يفكر فيه ـ أن الروح المرشدة لـ"نيبابانيز" كانت غزالاً، فهو لم يكن مُعمدًا.. لذلك فبدلاً من أى يعتنى به طفل.. فحظى بروح غزال، روح قوية وسريعة وشجاعة تعرف الغابات والسهول، كان يقول إن هذا أفضل من طفل بالنسبة له. كيف لطفل آدمى وُلد منذ زمن طويل فى بلاد حارة رملية أن يعرف كيف يبقى حيًا فى البرية الباردة؟ ما الذى يمكنه أن يعلّمه له؟ ثم كانت "إليزابيث" ـ التى عُمدت بصحبة قديس خاص وبدمها الأبيض الذى فى عروقها ـ تهز رأسها وتطقطق إذا ما كانت غاضبة، أو تغيظه وتشد شعر رأسه لو لم تكن. عندما تحولت إلى مرحلة البلوغ أحبت فكرة سانت "فرانسيس" بطيبته وطريقته فى المناجاة مع الطيور والمخلوقات الأخرى. كان تقريبًا مثل قبيلة الـ"تشيبوا" فى هذا ولهذا السبب كان محبوبًا ـ فأربعة أطفال واثنان من الكبار فى قريتهم وحدها قد اختاروه لتثبيت التعميد.

الآن يبدو سانت "فرانسيس" بعيدًا وغير مناسب للموقف، غريب ليس بإمكانه فهم هذا الموت.. هذا الحزن المغلف بالثلج، لم تستطع "إليزابيث" نفض منظر رأس الغزال عن ذهنها. فى النهر شعرت بقوة أن زوجها لم

يكن هناك على الإطلاق.. ليس فى أى مكان قريبًا، لكن ربما كانت مخطئة. ربما كان إيمان زوجها هو الإيمان الصحيح طوال الوقت، وما رأته كانت روحه.. عادت لتتهكم منها لعدم تصديقها.

شعرت أنها بعيدة.. متجمدة من أكثر من مجرد البرد، منعزلة تمامًا عن الرجال والطعام والنيران، حتى عن الجليد والصمت والسماء المفرغة التى لا قرار لها. كان الشىء الوحيد الذى يصلها بالعالم هو الضغط اللطيف لجسد ابنها؛ خيط رفيع من الدفء الإنسانى.. سهل أن ينقطع.

***

استمرت درجة الحرارة فى الانخفاض، فى هذا الصقيع تشعر بالهواء وكأنه تم تضييقه بملزمة. إنه يقطع أنفاسك ويمتص الرطوبة من بشرتك ويحرقها كالنار. كان هناك صمت عميق.. واعٍ تقريبًا فى الفناء،والذى فيه سحقت قدم ما الجليد بصوت عالٍ مقلق.

كان هذا ما أيقظ "دونالد".. ضغط وصوت الجليد الجديد تحت قدم.

كان قد بقى فى الفراش طوال اليوم ويرجع هذا لحمى خفيفة، ونام فى وقت متأخر من الظهيرة، واضعًا كرسيًا تحت مقبض الباب ليغلقه وقد نعس باستمتاع بينما الضوء يذوى. لم يكن هناك شىء غير معتاد بالنسبة لوقع الأقدام ـ فمازال هناك أشخاص بالجوار ـ إلا أنها فقط لها وقع غريب وغير متساو والذى هزه من نعاسه المريح. على غير رغبته وجد نفسه يستمع بينما الشخص يمشى ثم يتوقف ثم يمشى مجددًا قليلاً. ثم توقف مرة أخرى. انتظر ـ اللعنة! ـ حركته القادمة. بعد وقت طويل كان مرغمًا على أن يرفع نفسه على كوعيه ويختلس النظر إلى الباحة المظلمة. مربعان من الضوء تسربا من الغرف التى تقع أبعد للأمام.. ربما المكاتب، فى البداية لم ير الشخص لكن كان هذا لأنه بقى فى الظلال؛ وتقريبًا افترض أن غرفة "دونالد" فارغة لأنها مظلمة. ثم رآه.. رجلا مرتديًا فراءً ذا شعر داكن طويل، وتساءل "دونالد" إذا ما كانت فرقة البحث قد عادت،

فهو لم يتعرف على هذا الرجل وبعد عدة لحظات أدرك أنه ليس من أية فرقة بحث. كان حويطًا ينظر حوله بعناية مبالغ فيها، ويتحرك بنوع من الحركات المتقطعة الصامتة بسرية، كان ثملاً بشكل كبير. شاهد "دونالد" بتسلية متزايدة والرجل يتعثر فوق شيء ما في الظلام وهو يلعن. فيما بعد عندما لم يصدر أية استجابة للضوضاء.. تحرك مبتعدًا باتجاه المخازن وخارجًا عن مرمى البصر. شخص ما ثملاً بدرجة كبيرة ليكون ذا أى نفع فى البحث. غرق "دونالد" عائدًا إلى شرنقته، ساحبًا الأغطية حول ذقنه.

هناك رجال فى "فورت ادجار" يقضون شهورًا فى حالة سُكر، ولا يكونون ذوى نفع لأى شيء طوال الشتاء، من المحزن عندما يصلون لهذه المرحلة،ويعنى أن حياتهم العملية ستكون قصيرة. فالسُكْر مرض مستمر وكان "دونالد" فى البداية مصدومًا أن كبراء الشركة لم يأخذوا أية خطوات لمنع هذا،سامحين للرحالة بمدخل غير محدود إلى شرابهم فقير الجودة. عندما ضغط بتردد على هذا الموضوع مع "جاكوب"،أطرق "جاكوب" رأسه.. كان هو المشروب الكحولى الذى جعله يغرس السكين فى بطن "دونالد". على حد علم "دونالد" فـ"جاكوب" لم يمس قطرة شراب من حينها. فقط ذات مرة أثار "دونالد" الموضوع مع "ماكينلى"،فقط ليلتفت "ماكينلى" بعينيه الشاحبتين تجاهه بتسلية.. إذا لم يكن باحتقار كامل. "هذه هى الطريقة التى يعمل بها العالم." كانت هذه حجة "ماكينلى" باختصار. كل التجار يجتذبون الصائدين وفريق العمل بالشراب؛ لو لم تقم الشركة بتوفيره.. فسوف تخسر عُمالها لمنافسين أقل ضميرًا وأقل تقديرًا لرفاهية هؤلاء الذين يعملون لديهم. وأن تتصرف بأية طريقة أخرى ستكون ساذجة،أحس "دونالد" أن هناك شيئًا خاطئًا بشأن هذه الحجة لكنه لم يجرؤ على قول ذلك.

بعد فترة بدأ يفكر فيما أخبرته به السيدة "روس" الليلة الماضية، إن "نسبيت" رجل شاب مثله.. وصل مؤخرًا إلى حد ما من "اسكتلندا"، رجل ذو علم وأخلاقيات، موظف صغير ولكنه ذو ذكاء يجعله يتقدم فى الشركة.

أزعجت التشابهات "دونالد".. أو بالأحرى بمجرد أخذ هذه التشابهات فى الاعتبار فبدأت الاختلافات فى إزعاجه. تقلصات "نسبيت" العصبية.. ضحكته المريرة.. كرهه المتبجح للحياة. لقد قضى فى البلاد ضعف المدة التى قضاها "دونالد" ورغم ذلك من الواضح أنه مكتئب.. يبدو أنه يفترض أنه لن يغادرِ أبدًا. رعشة خفيفة سرت فى جسد "دونالد" بينما يتأمل فى احتمالية موضوع "نورا".. "نورا" بوجهها غير الموحى بالثقة وحديثها الفظ، والتى فى ذراعيها العريضتين من الظاهر أن "نسبيت" وجد الراحة. فى الماضى كان واعيًا بالعلاقات المتشابكة ـ حتى فى "فورت إدجار" كان هذا شائعًا ـ ولكن "دونالد" أبقى نفسه بعيدًا عن فكرة أن هذا قد يحدث معه قط. كان يشعر أنه مقدر له أن يتزوج (كانت التفاصيل مبهمة بشكل ما) من فتاة بيضاء لطيفة تتحدث الإنجليزية ـ فى الواقع فتاة مثل "سوزانا"، فقط هو لم يجرؤ على أن يحلم بفتاة فى جمالها. فى الثمانية عشر شهرًا الأولى له فى "فورت إدجار" بدأت مثل هذه الفكرة المحتملة تبدو بعيدة بشكل متزايد. ولكن بالنظر إلى نساء السكان الأصليين المتكدسات فى القلعة.. مازال غير راغب، حتى عندما يثيره الرجال بشأن هذه الفتاة أو تلك التى ضحكت فى حضرته. لكنه لم ير قط امرأة هندية فى جمال "نانسى إيجلز"، مازال بإمكانه الإحساس بدفء بشرتها الناعمة.. الجرأة المثيرة ليدها ـ وهذا لو سمح لنفسه بالتفكير فى الأمر.. الشىء الذى لم يسمح به. كان من الصعب تخيل أن "نورا" لديها مثل هذا التأثير الصادم على "نسبيت" بشكل ما.

كان الخطاب إلى "ماريا" على المكتب الليلة الماضية ـ بعد نوبة غضبه الخاصة. التقط الورقة التى كورها وأعاد فردها وضغط عليها على قدر ما استطاع تحت بعض الأغطية الاحتياطية ووضع عليها حذاءه ذا الرقبة كثقل.. لكن كان يخشى ألا يكون هذا كافيًا، ربما لم يكن تصرفًا حكيمًا أن يكتب لها على أى حال، ربما كانت كرمشة الخطاب فى كرة نعمة متنكرة، إنها "سوزانا" من عليه أن يفكر بها،ولقد فعل.. محاولاً استجماع صورتها صعبة المنال.. وسماع صوتها اللطيف الفضى فى رأسه.

مع آخر الأضواء المتسربة من السماء ارتدى "دونالد" ملابسه، كان جائعًا.. الشيء الذى عزاه كعلامة على استعادته لقواه. خرج يتجول فى الردهات المهجورة، ليجد "نسبيت" فى مكتبه ـ الضوء المرشد الذى رآه من حجرته عبر الباحة. لم يكن هناك أى أثر لـ"ستيوارت" ولا السيدة "روس" أو أى أحد آخر..

مال "نسبيت" للخلف عن مكتبه ووجهه متقلص،وهو يدفع التقوس فى ظهره، تثاءب بعمق كاشفًا عن ضروس مغطاة بالسواد. "الحسابات اللعينة،مأساة حياتى.. حسنًا.. واحدة منهم. اعتدت على أن يكون معى محاسب هنا ذات يوم" ارتشى موراى".. شاب صغير ظريف ـ فتى من النوع البسيط. ولكن منذ رحل اضطررت إلى أن أقوم بها بنفسى، والحسابات ليست من مهاراتى.. أنا لا أمانع فى إخبارك.. ليست من مهاراتى على الإطلاق."

قلب "دونالد" فكرة أن يعرض مساعدته فى ذهنه، لكنه قرر أنه لا يشعر أنه قوى لهذه الدرجة.

"ليست لدينا حركة مالية ضخمة لنتعامل معها، فالمصروفات أكثر من الإيرادات،لو كنت تعلم ما أعنى. كيف هى الأحوال فى مكانك؟"

"جيدة إلى حد ما على ما أفترض، لكننا محطة على الطريق أكثر منا مصدرًا. أعتقد أنه ذات يوم ـ منذ سنوات قبل أن يكون هناك الكثير من الرجال ـ كانت البلاد بأكملها مليئة بالفراء."

"لست متأكدًا أنه كان هناك الكثير من أى شيء فى الجوار هنا." بدا "نسبيت" كئيبًا. "هل تعلم ماذا يطلق السكان الأصليون على هذا الجزء من الغابات؟ بلد المجاعة. حتى الثعالب اللعينة لا تجد أى شيء تأكله ـ وكلها ثعالب حمراء بالطبع. حان الوقت لكأس من الشراب."

اندفع "نسبيت" من وضعه الجالس المتراخى مارًا بـ"دونالد" وسحب زجاجة من ويسكى الشعير من خلف بعض دفاتر الحسابات. "هيا، تعال".

تبع "دونالد" "نسبيت" إلى حجرة الجلوس ـ الحجرة الصغيرة العارية التى بجانب مكتبه، والتى تحتوى على كرسيين محشوين ومجموعة صور بارزة ذات طبيعة مشكوك فيها.

"أين السيد "ستيوارت" هذا المساء؟" سأل "دونالد" وهو يقبل كأسًا كبيرة من الشعير، لحسن الحظ كان ذا جودة أفضل من شراب الروم فى "فورت إدجار". تعجب "دونالد" لوقت قصير كيف أن الأمر ـ فى مكان معزول بعيدًا.. عندما يبدو الطعام الجيد والعناية بالمكان فوق قدرتهم ـ أن سكان "هانوفر هاوس" يشربون كالملوك.

"إنه فى الجوار.. هنا وهناك." قالت "نسبيت" بغموض. "فى الجوار.. أنت تعرف". مال للأمام فى كرسيه محدقًا فى "دونالد" بشدة مقلقة."هذا الرجل قد يكون قديسًا حقيقيًا."

"همم." قال "دونالد" بحِذر.

"إدارة هذا المكان مهمة لا يُحسد عليها،صدقنى إنه لا يشكو قط،لا تسمعه قط يتذمر... على عكس الأشخاص الذين تعمل معهم. وهو رجل كان يستطيع القيام بأى شىء؛ لديه أعلى القدرات.. على الإطلاق."

"نعم.. إنه يبدو قادرًا." قال "دونالد" وصوته متحشرج قليلاً.

نظر له "نسبيت" بنظرة مقيمة. "أجرؤ على القول أنك قد تعتقد أن أى شخص يتم إرساله لبوابة جحيم مثل هذه لابد أن يكون من الدرجة الثانية، وقد يكون هذا حقيقى فى حالتى ولكن ليس فى حالته هو."

أومأ "دونالد" ـ ثم هز ـ برأسه بأدب.. آملاً أن تعزى موافقته وعدم موافقته إلى الأشياء الصحيحة.

"الهنود يحبونه، وهم لا يفكرون فى رؤسائك بشكل جيد.. وهذا متبادل لذلك فهو عادل بشكل كافٍ، ولكن هو... إنهم يعاملونه وكأنه إله صغير. إنه فى الخارج.. يتحدث معهم للحظة.. عندما جاء عائدًا بالخبر

بشأن "نيبابانيز" اعتقدت أن الأمور قد تنقلب، لكنه خرج هناك وجعلهم فى غمضة عين يثقون فيه ويأكلون من يده."

"همم.. أمر مثير للإعجاب." همهم "دونالد" وتساءل إن كان "جاكوب" ليأكل من يد أى أحد.. بدا هذا غير محتمل. تخيل ـ بوضوح ـ صورة الأرملة التى تُركت فى الجليد بينما دخل "ستيوارت" و"نسبيت" إلى الداخل. لكن لغرابة الأمر.. رغم أن "دونالد" فخور بنفسه لكونه لديه استقلالية العقل ليتقبل مثل هذا المديح بحفنة ملح.. فإنه من السهل جدًا تصديق أن "ستيوارت"يعكس التفانى. فهو يجد نفسه منجذبًا إلى "ستيوارت" بنفس القدر تقريبًا الذى ينفر به من "نسبيت"

"أعرف أننى من الدرجة الثانية، قد لا أعرف الكثير، لكنى أعرف هذا." حدق "نسبيت" فى الأضواء الكهرمانية فى كأسه، وتساءل "دونالد" إن كان غاضبًا قليلاً؛ للحظة كان لديه تشكك مرعب أن نسبيت" على وشك البكاء، لكنه ابتسم بدلا من ذلك.. التعبير التهكمى المرير الذى أصبح مألوفًا. "وماذا عنك؟ يا "مودى" أين أنت من النظام الذى تجرى به الأمور؟"

"لست متأكدًا أنى أفهم ماذا تعنى."

"أعنى.. هل أنت من الدرجة الثانية؟ أم من الدرجة الأولى؟"

ضحك "دونالد" بعدم راحة.

"أوربما أنت لا تعرف بعد."

"أنا... أنا لست متأكدًا أننى أوافق على أنه اتجاه مساعد."

"لم أقل إنه مساعد، لكنه إثبات ذاتى.. بكلمات أخرى.. إذا كان لديك الشجاعة لترى الأمر."

"لا أعتقد ذلك، قد تدعى أنه من الشجاعة أن تقبل تقييمك لنفسك، ولكن يمكننى اقتراح أنه إن تفعل ذلك هو طريقة للتخلى عن مسئولياتك فى الحياة. مثل هذه التهكمية تعطيك رخصة للاستسلام وعدم القيام بأى جهود. فكل الفشل مبرر مقدمًا."

ابتسم "نسبيت" ابتسامة غير لطيفة،تمكن "دونالد" من الاستمتاع بهذا النوع من المناقشة نصف الجادة،والتى اختبرها من قبل ـ عادة فى نهاية شتاء طويل فى المساء ـ لكن جرحه بدأ ينبض.

"هل تعتقد أننى فاشل؟"

جاءت لـ"دونالد" صورة مزعجة فجائية لـ"نسبيت" وهو ملتصق فى حضن "نورا"، وشعر بالذنب لمعرفته بالرجل الآخر. فى نفس اللحظة تقريبًا تبلور وجه "سوزانا" فى ذهنه بوضوح حاد ورائع؛ فبعد كل هذا الوقت من محاولة القبض على الضباب يقع كل ملمح فى مكان وها هى ذا: كاملة.. بتفاصيلها.. بجمالها. وفى الوقت نفسه يدرك بصدمة من الانفصال أن مشاعره تجاهها محدودة، وتحتوى على الإعجاب والتقدير. اختبر رغبة عارمة فى أن يهرع عائدًا لحجرته وينهى خطابه لـ"ماريا".. "ماريا" الماهرة.. التى لا يمكن التنبؤ بها. ياللغرابة.. ياللغرابة وياللتحرر فى الوقت نفسه، هذا الإدراك.. يا للروعة! كبت ابتسامة للفكرة.

"قلت.. هل تعتقد؟"

اضطر "دونالد" أن يقوم بجهد شديد قصير ليتذكر السؤال.

"لا.. على الإطلاق.. لكنى بوسعى تخيل الإحباطات الموجودة فى مكان كهذا، أنا واثق أنه لكان اعترانى الشعور نفسه. فالمرء فى حاجة إلى صحبة وتنوع، أعرف كم أصبح الشتاء طويلاً، ولقد اختبرت واحدًا فقط حتى الآن، ورفيق واحد ليس بكافٍ حتى لو كان من الدرجة الأولى."

"برافو، أقول.. هل سمعت شيئًا؟" أفرغ "نسبيت" كأسه وتوقف عن إعادة ملئها، رأسه مائلاً إلى ناحية. أنصت "دونالد" السمع،مفترضًا أنه صوت خطوات أقدام فى الردهة، ولكن كالمعتاد لا أحد هناك. هز "نسبيت" رأسه وصب المزيد من الويسكى فى كأس "دونالد" رغم أنه لم يكن قد انتهى بعد.

"أنت شاب ممتاز يا "مودى"، أتمنى لو كنا نحظى بك هنا،قد يكون حتى فى وسعك حل الحسابات التى ظللت أتعثر فيها لأحولها لعقدة من التناسيات فى السنتين الماضيتين." ابتسم "نسبيت" ابتسامة واسعة.. واختفت مرارته بغموض.

"رأيت واحدًا من رجالك بالخارج فى وقت سابق." قال "دونالد".. ليس مناسبًا جدًا." من الواضح أنه لم يذهب مع فرقة البحث، لكنه بدا ثملاً للغاية حتى أجرؤ على القول إنه كان سيكون عائقًا أكثر منه مساعدًا."

اعترت "نسبيت" نظرة بعيدة: "نعم.. هذه هى المشكلة التى نواجهها فى الشتاء، كما أننى متأكد أنك على علم بهذا جيدًا."

"هل هو رحالة" أراد "دونالد" أن يسأل مباشرة عمن يكون هذا،لكنه شعر أن هذا سيكون صريحًا جدًا.

"ليس لدى أدنى فكرة عمن تشير إليه، أيها الرجل. على حد علمى فكل الرجال ـ ما عدا "أوليفر" ـ قد ذهبوا أعلى النهر. ربما كان "أوليفر" هو من رأيت."

"لا.. لا.. كان بالتأكيد رجلاً أكبر سنًا، أثقل وزنًا وذا شعر طويل."

"هذا الضوء الخافت يمكنه خداعك، ذات مرة كنت أنظر خارج النافذة ـ كان الشتاء الماضى وكنت جالسًا فى حجرة المكتب المجاورة ـ وكنت على وشك الإصابة بأزمة قلبية، كان هناك حيوان الأيك يقف بالخارج ـ طوله سبعة أقدام إذا كان حقيقيًا ـ محدقًا فى اتجاهى. أصدرت خوارًا مرتعبًا وجريت خارجًا من الباب، لكن عندما وصلت للباحة.. لم يكن هناك أثر له، ولا آثار أقدام. بالطبع لا يمكن أن يكون هناك. هل تتخيل!".

فكر "دونالد" بحنق أنه على الأرجح كان ثملاً. كان "دونالد" يعرف تمامًا أن الرجل الذى كان فى الباحة لم يكن "أوليفر"، وبمعرفة متزايدة ـ صمتًا.. كان الأمر وكأن عقله نائم فى اليومين الماضيين ـ إن رجلا غير معروف يجب أن يكون أمرًا مثيرًا بالنسبة إليهم.

سريعًا ما استأذن لينسل للخارج عندما كان بوسعه ـ فى وقت لاحق ـ ليتقصبى ويفحص الثلج خارج نافذته. والذى كان عندما وجد أنه لسبب ما مستويات النظافة قد ارتفعت فجأة وقد تم إزاحة الجليد عن الباحة تمامًا.

***

كانت "سالو سانت مارى" مختلفة تمامًا عن "كاليفلد"، كانت مكانًا لتجمعات عديدة ـ التقاء بحيرتين.. واحدة تزحف بداخل الأخرى بين أجحار عنيدة؛ إلتقاء الطرق من الشمال الغربى والشرق،وهى كذلك الحد الفاصل بين دولتين. تجمعت مسارات القوارب هنا من الشمال ومن الشرق ومن أعماق الولايات المتحدة.. من "شيكاغو" و"ميلوكى"،أماكن أجنبية وأكثر شرًا من أكثر المراكز فجورًا. ولكن السبب الواضح للمجىء إلى هنا هو دار الأوبرا الغربى الكبير، والذى زاره آل "نوكس" الليلة الماضية ليشاهدوا إنتاجًا لعرض "زواج فيجارو" (*) الذى يتحدثون عنه. كان عامل الجذب الرئيسى أن الجزء الخاص بـ"شيروبينوا" تغنيه "دالية هامر"، حيث إن فكرة امرأة من قبيلة "موهاك" تغنى مؤلفات "موتسارت" قد أثارت كاتبى الأعمدة فى جرائد معينة لأشهر عديدة. فكانت مشاهدتها شيئًا حتميًا. ولذلك اشترت السيدة "نوكس" تذاكر سفينة بخارية واقتحموا مياه الشتاء ليفعلوا ذلك.

بالنسبة لـ"ماريا" التى لم يكن لديها أذن موسيقية بدت المطربة ساحرة وحساسة إلى حد ما،خاصة وهى ترتدى ملابس فتى وشعرها معقوص تحت قبعة مرنة. كانت ذات وجه دقيق وعينين داكنتين واسعتين تم إبرازهما بمساحيق التجميل، وفم واسع ذو أسنان بيضاء. كانت أكثر جاذبية حتى من المطربات الأخريات اللاتى كن يملن للبدانة،وتساءلت "ماريا" إن كانت الآنسة "هامر" تفضل غناء واحد من الأدوار النسائية. كان الجمهور ـ عبارة عن مزيج من محبى الأوبرا الذين ارتدوا أبهى حللهم

(*) أوبرا شهيرة من تأليف موتسارت.

للمناسبة والأنواع الفردية الذين يبحثون ببساطة على مصدر إلهاء - يضج بالتقدير، والذى لم يكن من الصعب الحصول عليه فى مكان مثل هذا. برطم أبوها بعدم مناسبة المطرية للدور (وقد عنى بهذا صوتها أكثر منه عرقها) وتجادل هو وأمها حول عمل المايسترو؛ لبرهة ما.. كان مثل نفسه القديمة.

كانت السيدة "نوكس" قلقة حيال زوجها،فالأمر كان سيئًا كفاية أنه يجب أن يُفضح - أو يتقاعد عنوة؛ لا أحد متأكد تمامًا - ولكن الأسوأ أن عليه أن يجلس الساعة بعد الأخرى فى مكتبه يقوم - من الواضح - بلا شىء؛ أصبح عقله الجيد عاطلاً وكذلك - هى واثقة - صدئًا.. يضمر ويضعف. عندما تجادلا شعرت بالتوتر ينفك قليلاً. فعمومًا.. بدت الزيارة تستحق العناء.

ولكن بحلول الصباح.. عاد مرة أخرى إلى انعزاله التام،ووجد "ماريا" عقلها يسرح عائدًا للشفرة.

بعد زيارتها لـ"ستاروك" أغلقت "ماريا" غرفتها على نفسها ومعها نسختها من العلامات، ونجحت فى نسيان الحال التى كانت عليه أسرتها بينما هى متحيرة من محتويات الورقة. فى البداية حاولت تفكيك الخطوط فى مجموعات حيث بدا أنهم نظموا أنفسهم - رغم أن هذا يفترض أن "ستاروك" قد نقلهم بدقة فى المقام الأول. من مقالة فى "إيدنبرج ريفيو" ومن إحساسها هى، كانت على وعى منذ البداية أن كل علامة أو مجموعة من العلامات قد لا تعبر عن حرف من الأبجدية الرومانية، لكنها قد تمثل كلمة.. أو صوتًا. بعد أن قامت بترتيب أو إعادة ترتيب المجموعات واستبدلتها بعدد من الأصوات والحروف، والتى نتج عنها جميعًا فوضى من الأصوات التى بلا معنى (دا - يا - نو - جى - تى! با - لو - ر - يا - نو؟) وضعتها جانبًا وقد أصبح أملها أقل مما بدأت به. لم يكن هناك ثوابت على الإطلاق لتتوقع أن "ماريا نوكس" ستقدر على حل أحجيتهم؛ فتاة ريفية غير متعلمة لديها فقط عدة اشتراكات فى الجرائد ومقالة

واحدة حول فك شفرة حجر "روزيتا"، كنقطة تبدأ بها. لكن العلامات الصغيرة ذات الزوايا تدور حول رأسها.. مقتحمة أحلامها.. تعايرها بمعناها الذى ليس فى متناول يدها. لديها رغبة غير صحية أن ترى القطعة الأصلية، وتحول ذهنها إلى الشمال حيث "فرانسيس" ـ على الأرجح ـ والسيد "مودى كذلك.. معهما المفتاح.

حركت بقايا إفطارها حول الطبق، بيض متجمد وعصارات اللحم صنعت عملاً فنيًا مثيرًا للقىء على رسمة شجرة الصفصاف التى كانت على الطبق.

"إن لم يكن لديك مانع... " دفعت كرسيها وقامت " ... أود أن أذهب فى نزهة على الأقدام."

عبست السيدة "نوكس" فى وجه ابنتها الكبرى. "حسنًا.. كونى حذرة.. اتفقنا؟"

"نعم يا أمى." كانت "ماريا" فى منتصف الطريق إلى الباب بالفعل. كان من الطريف أن أمها تعتقد أن أى مكان خارج "كالفيلد" يعد مكانًا للفواحش، مكتظًا بتجار العبيد البيض. سيكون عليها أن تعتاد على الفكرة إذا شاء لـ"ماريا" أن تنتقل لـ"تورينتو"،الذى ستفعله حتمًا.. لقد قررت.. الصيف القادم.

خارج الفندق اتجهت "ماريا" لليمين باتجاه الماء. تناثرت بطول شاطئ البحيرة مبان من المرافئ والمخازن، نقاط تجميع للبضائع من كل مكان فى الشمال. إنه لأمر مثير.. ضجيج التجارة.. والأعمال؛ عالم متسخ وعالٍ وحقيقى بشكل ما وبطريقة ليست عليها "كالفيلد" ولا متجر "جون سكوت".
كان قد تم تحذيرها من هذا الجزء من البلدة بالتحديد، والذى يعد جزءًا من جاذبيتها. الرجال يمشون مارين بها.. محافظين على مواعيدهم المهمة بوصول السفن.. أسعار الأسهم.. مقابلات العمل،كان يبدو لفتاة ريفية محمية وكأنها فى قلب الأشياء.

كانت هناك فنادق ونُزل فى هذا الطرف من البلدة أيضًا؛ أقل رقيًا من "فيكتوريا" و"ألبرت"، وأبعد عن دار الأوبرا. رأت رجلاً وامرأة يخرجان من واحد منهم وشاهدتهما دون اهتمام للحظة قبل أن تدرك ـ برعشة مفاجئة من الصدمة ـ أن الرجل هو "أنجوس نوكس"،المزارع من "دوف ريفر".. والد "فرانسيس". عندما أدار رأسه أمكنها الحصول على رؤية واضحة لوجهه.. جانب وجهه الصريح، وشعره الذى فى لون الرمال. كانت الصدمة أن المرأة التى معه ليست السيدة "روس"، فالسيدة "روس" لم يرها أحد منذ أسابيع. شعرت "ماريا" بنفسها تحمر من العار الذى لا يخصها، كان هناك شىء غير صحيح تمامًا، رغم أن السيد "روس" والمرأة كانا يمشيان فحسب عبر الشارع. لم يرها وتراجعت هى عزيزيًا واستدارت لتتفحص أقرب متجر إليها.. حيث لم يكن يعرض إلا قائمة من الأشياء التى ليس لها أى معنى تحت حالة الارتباك الحالية.

انتظرت حتى أصبح الاثنان خارج نطاق الرؤية، لم تكن قد رأت فعلاً غير لائق من قبل قط، لكنها واثقة بطريقة ما أنه كان كذلك. وأين السيدة "روس" على أى حال؟ كانت لديهم كلمة زوجها فقط أنها رحلت وراء ابنها. فجأة خطر على ذهن "ماريا" ـ التى كانت قد قرأت بعض الروايات العنيفة إلى جانب بعض الروايات الأكثر جودة ـ أنه ربما السيد "روس" كان قد تخلص من زوجته، وماذا عن "فرانسيس"؟ السيد "مودى" وصديقه قد هرعا خلفه، لكن ربما لن يجدوه قط، ربما هذا سبب عدم عودتها،ربما السيد "روس" قام بقتل السيد "جاميه" كذلك.

أوقفت "ماريا" نفسها عند هذا الحد، مخبرة نفسها أنها لن تكون فريسة للتخيلات الجامحة، ولكن مازالت تشعر بالارتعاش،ربما كان عليها إنهاء إفطارها قبل كل شىء. ربما ـ نظرت حولها لترى إن كان أى أحد يراقبها ـ ربما نظرًا للظروف الاستثنائية سوف تذهب لتحظى بشراب.

مدفوعة بجرأتها اختارت "ماريا" حانة تبدو هادئة تقع وراء الشاطئ ودخلت،أخذت نفسًا عميقًا.. لم يكن هناك أحد سوى صاحب الحانة ورجل جالس إلى إحدى الطاولات يأكل، وظهره إلى الباب.

طلبت كأسًا من الخمر وقطعة فطيرة، وجلست إلى طاولة بالقرب من الخلف.. فقط في حالة أى شخص تعرفه يحدث ويمر.. مثل السيد "روس". دق قلبها أسرع للفكرة. لم يكن لديها مبرر من قبل قط لتحب أو لا تحب السيدة "روس" ـ فالمرأة كانت منعزلة إلى حد ما ـ لكن الآن تشعر بالأسى ناحيتها،خطر على بالها أنه من بين كل الناس هى والسيدة "روس" قد يكون لديهما أشياء مشتركة.

جاء طلبها وـ لكى تشغل عينيها فى شىء ـ أخرجت الأوراق التى بها محاولتها لفك الشفرة، كانت على وعى أن الزبون الآخر قد لاحظها، واعتراها القلق من أنه قد يحاول الانضمام إليها. رأت ما لم تكن قد لاحظته من قبل: أنه رجل هندى ذو مظهر مشين إلى حد ما، وواصلت عدم النظر فى اتجاهه مجددًا. سريعًا ما أخرجت قلم رصاص وبدأت تعلق على مجهوداتها، التى كونت خطًا طويلاً من الكلمات والمقاطع التى ليس لها معنى. أصبحت منهمكة جدًا لدرجة أنها لم تلحظ صاحب الحانة الذى وقف بجانبها حتى تنحنح.

"معذرة يا سيدتى، هل ترغبين فى شراب آخر؟" وأمسك بزجاجة الخمر فى يده.

"أوه.. شكرًا لك.. نعم أريد،الفطيرة كانت جيدة جدًا." لمفاجأتها الشخصية كانت فعلاً جيدة.

"شكرًا لك، هل تقومين بحل أحجية؟"

"بشكل ما." كانت عيناه لطيفتين ولديه شارب طويل بنى متدل، كان لديه طابع غير متوقع من الذكاء." أنا أحاول فهم شفرة، ولكنها بلا أمل، على ما أعتقد، حيث إننى لا أعرف بأية لغة كُتبت."

"تعنين مثل الفرنسية أو الإيطالية؟"

"نعم... رغم أننى أعتقد أنها لغة هندية، وهناك العديد منها."

"آه.. إذًا أنت فى حاجة لمساعدة."

"نعم.. من شخص طليق فى كل اللغات الهندية." هزت كتفيها وابتسمت لأن ذلك لم يكن واردًا.

"سيدتى.. إن كان بإمكانى إبداء اقتراح؟ أترين السيد الجالس هناك؟ إنه يعرف العديد من اللغات الهندية، إذا أحببت يمكننى تقديمك له."

رأى نظرتها المتشككة على الكتف المنحنى والشعر الدهنى المتجعد فوق الياقة. "إنه لطيف... تمامًا." ابتسم وكأنه لم ينجح فى اختيار الكلمة المناسبة، لكن قرر أنها ستؤدى الغرض. شعرت "ماريا" باحمرار يهددها. هذا ما جاءها من السير فى أماكن سيئة السمعة؛ إنها تذبح بسيف جرأتها الشخصية. نظرت إلى أوراقها وشعرت مثل فتاة مدرسة سخيفة.

"بالطبع.. أنت لا ترغبين بذلك، أنسى أننى قلت ذلك.. لقد كانت هذه وقاحة منى."

شدت "ماريا" نفسها لأعلى ،فإن كانت تريد أن تكون عالمة مفكرة فلا يمكنها تجنب فرع إلى المعرفة بسبب ياقة مبقعة بالزيت.

"لا.. هذا سيكون لطيفًا.. جدًا. شكرًا لك.. إن لم يكن هو يمانع الإزعاج.. هذا كل شىء."

ذهب صاحب الحانة إلى الطاولة الأخرى وتحدث للرجل، اختلست "ماريا" نظرة إلى عينين حمراوين وراودتها أفكار ثانية وثالثة حول صحة قرارها. لكنه قام وجاء إلى طاولتها حاملاً كأسه،ابتسمت قليلاً ـ بعملية ـ كما أملت.

"مرحبًا، أنا الآنسة "نوكس" وأنت السيد...؟"

جلس وقال: "جوى".

"آه نعم.. شكرًا لك على... "

"قال "فريدو" إنك تريدين شخصًا يعرف اللغات الهندية."

"نعم، لدى جزء من شفرة هنا، وهناك صديق لى يعتقد أنها قد تكون بلغة هندية، كنت أحاول فك الشفرة لكن طالما أننى لا أعرف ما هى اللغة التى تمثلها... "

ابتسم كثيرًا.. وهى تهز كتفيها قليلاً،حتى أنها أصبحت خائفة أكثر الآن وهما وجهًا لوجه. كان الرجل أكبر سنًا مما اعتقدت فى البداية.. لديه خصل رمادية فى شعره، الجلد الذى تحت عينيه متجعد.. ووجنتاه مترهلتان ، هناك شعيرات حمراء فى بياض عينيه، وتفوح منه رائحة الروم.

لكن مازال وجهًا حسنًا.. أو كان ذات مرة.

"ليس هناك لغة هندية مكتوبة، فلماذا قد يعتقد صديقك ذلك؟"

"أنا أعرف ولكن، حسنًا.. لقد قام بأبحاث فى ذلك، وتلك الأشكال الصغيرة -أنت ترى.. هذه مجرد نسخة،لكنها تشبه الرسومات الهندية التى رأيتها من قبل."

لسبب ما دفعت نسختها باتجاهه،رغم كونه كريهًا،كانت تريده على الأقل أن يأخذ ما تقوله على محمل الجد.

تفحص الورقة لفترة طويلة لكنه لم يقل شيئًا،آملت "ماريا" لو عادت إلى الفندق.

"نسخة من ماذا هذه؟"

"قطعة عظم."

التقط الأوراق الأخرى.. التى عليها أعمالها التجريبية. "ما هذه الأسماء؟"

"آوه.. إنها ليست أسماء، إنها نتاج ما حصلت عليه من تجربة حروف وأصوات معينة ـ أنت تعلم ـ بدائل للعلامات هنا... "

تفحص الأوراق ممسكًا بها فى الضوء لتركيز أفضل. طعنت أصابعه الورقة. "دجان ويدا.. أوشيواى" هل هذا ما تظنى أنها تقول؟"

أصبح سلوكه أكثر هجومًا، رفعت "ماريا" ذقنها بتعالٍ،ليس هناك خطأ فى طريقتها،لقد تعلمتها من "إيدنبرج ريفيو".

"حسنًا.. كنت أخمن،عليك أن تقوم بافتراضات بعينها حول أى الأصوات قد تكون العلامات تمثلها، وتجربها. لقد حاولت بأشياء كثيرة،وهذا ما جاء من واحدة... تجمع واحد من... ".

مال الرجل فى مقعده وابتسم لها،وتقلص وجهه بتهكم وعداء. "سيدتى.. هل هذا نوع من المزاح؟ من قال لك إننى هنا؟"

"لا.. بالطبع لا، لم يكن لدى أية فكرة... أنا لا أعرف من تكون!" نظرت حولها بتوتر.. باحثة عن "فريدو" لكنه كان يخدم زبائن جدًا.

"من هو؟ هل هو هذا الوغد السمين "ماكجى"؟ ها؟ أو "أندى جنسين"؟ هل كان "أندى"؟"

"لا أعرف ما الذى تتكلم عنه، أنا لا أعرف ما الذى تشير إليه،هذا ليس صحيحًا على الإطلاق!"

كان "فريدو" قد سمع النبرة فى صوتها الآن؛ فنظر إليها... وجاء إليهما أخيرًا.

"ما اسم صديقك، سيدتى؟" ألح "جوى".

"سيدتى.. أنا آسف للغاية،"جوى" سيكون عليك المغادرة."

"أريد معرفة اسمه فحسب."

"سيد... "جوى" يبدو أنه يعتقد أننى أقوم بلعبة أو خدعة ما معه."

"أعتذر للسيدة يا "جوى"،هيا الآن."

أغلق عينيه وأرخى رأسه.. سلوك رقيق بشكل غريب هذا الذى وضع على وجهه رقة كانت قد توارت بفعل الزمن وتأثير الكحول.

"آسف.. أود فحسب معرفة اسم صديقك الذى لديه... أى كان ما هى."

شعرت "ماريا" أنها أكثر شجاعة و"فريدو" يقف بجانبها، وشيء ما في وجه الرجل عندما أغلق عينيه.. شيء يعبر عن معاناة طويلة بلا نهاية وألم وحزن.. جعلها ترغب في الإجابة.

"حسنًا.. اسمه السيد "ستاروك"، طالما أنك سألت، وهي ليست خدعة.. أنا لا أمارس الخدع."

""ستاروك"؟" بدا على "جوى" الجد، حواسه كلها احتدت وكأن خيوطه المتصلة قد شدت معًا.. محولة إياه. ""توم ستاروك"..الباحث؟"

"نعم.. لقد كان. هل تعرفه؟"

"كنت أعرفه ذات مرة،حسنًا.. أتمنى لك الحظ يا سيدتي، وقولي له إن صديقنا "كاهون وس" يقول مرحبًا."

عبست "ماريا".. وهي تكافح لنطق كلمة "جاهون واس"؟

نهض الرجل من مكانه ـ أيًا كان اسمه ـ وخرج من البار، نظرت "ماريا" إلى "فريدو" طالبة التفسير، لكنه كان متفاجئًا بنفس درجة تفاجئها.

"أنا آسف يا سيدتي، لم أكن أعلم أنه سيكون كذلك، ففي العادي هو هادئ جدًا،يأتي فقط ويشرب لكنه لطيف. اسمحي لي بأن أجلب لك شراب آخر أو قطعة... "

"لا.. شكرًا،لابد فعلاً أن أذهب فأبي ينتظرني، كما على أن...؟"

"لا.. لا.. لن أتركك تدفعي."

بعد بضع دقائق من الإصرار من كلا الطرفين،انتصرت "ماريا" شاعرة أنه لن يكون أمرًا جيدًا أن تخضع لغريب. غادرت مسرعة وهي شاكرة، وقد أبقت نظرتها مثبتة للأمام وهي تهرع مبتعدة عن جانب المياه.

كان الصباح عبارة عن مغامرة أكثر مما حسبت له، وكان مسار المعرفة مسارًا وعرًا ومنذرًا، ولكن على الأقل سيترك شيئًا لتخبر السيد "ستاروك"

به، وربما لتثير والدها من حالة خموله كذلك. بإحساس من الراحة لكونها تركت المرافئ خلفها، أبطأت "ماريا" قليلاً لتكون قصتها وـ وبينما هى تعيد ترتيب مغامرتها فى قصة مليئة بالترقب ذات بطلة جسورة ـ نجحت تقريبًا فى إقناع نفسها أنها لم تكن خائفة على الإطلاق.

***

كان الضوء معتمًا تحت الأشجار، وقد ذهب مبكرًا، فتوقفوا لأن الطفلين كانا ينوحان بشدة، حاول "إسبن" إخفاء خوفه.. لكنه لم يكن لديه فكرة حقيقية عن كيفية بناء مأوى ثلجى ولا كيف يشعل نارًا عندما يكون الجليد عميقًا بهذا الشكل. قام بتنظيف بقعة عارية على أرض الغابة ونجح بعد بعض الوقت فى إشعال نار بخشب رطب، ولكن قبل أن يغلى الماء كانت حواف الجليد المحيطة قد ذابت وأخمدت ألسنة اللهب. راقب الطفلان ما يحدث من خلال دموع الإحباط والبرد، أخذت "لاين" تتحدث وتشجعهما.. حلقها جاف من العطش.. شفتاها تطقطقان من البرد. لم تتحدث بمثل هذا الكم فى حياتها قط؛ كانت مصرة على ألا تستسلم.. ألا تبدو خائفة.. ألا تبكى.

عندما سقط "توربين" و"أنا" فى النوم من فرط الإنهاك قالت: "فى نيتنا أن تصل للنهر غدًا،فالجليد قد عطلنا ولكننا سنصل إلى هناك."

لم يتحدث "إسبن" لبرهة، لم تكن قد رأته بهذه التعاسة قط. "لقد رأيته.. أليس كذلك؟"

"رأيت ماذا؟ ما الذى تتحدث عنه؟" مخيلتها تجعل الغابة مسكونة بالدببة والهنود ذوى فئوس وذئاب ذات أعين نارية. نظر لها "إسبن" بعدائية.

"أثرنا، هذا الصباح جئنا إلى أثرنا، لقد رأيته وانحرفت عنه، لقد كنا نسير فى دائرة."

حدقت فيه "لاين" وهى تتساءل للحظة ما الذى يعنيه هذا.

""لاين".. لقد كنا نمشى فى دوائر، لا يمكننى معرفة ما الاتجاه الذى نسير فيه، ليس لدى أية فكرة بدون البوصلة أو رؤية الشمس."

"انتظر.. نحن سرنا بشكل خاطئ." كانت فى حاجة لأن تأخذه فى يدها.. تهدئه.. تجعله يعرف أنها مازالت تتولى الأمور. "إذًا لقد سرنا بشكل خاطئ مرة واحدة، وعلى الأرجح لم تكن دائرة كبيرة، لسنا نسير حول أنفسنا فى دوائر،فشكل الغابة قد تغير.. الأشجار تتغير.. يزداد طولها، إذًا فلابد أننا نتوغل أبعد شمالاً، لقد لاحظت ذلك.. بالتحديد. نحن فى حاجة فقط إلى أن نواصل طريقنا وأنا متأكدة أننا سنجد النهر غدًا."

لم يبد وكأنه يصدقها، نظرت لأسفل.. مثل طفل متمرد لا يريد الاستسلام، لكن لم يكن لديه أى مكان آخر ليذهب إليه. أخذت وجهه بين يديها المغطاتين بالقفاز ـ كان الجو باردًا للغاية لمحاولة الدخول فى حميمية أكبر.

" "إسبن"... يا عزيزى، لا تستسلم الآن، نحن قريبون وعندما نصل إلى "كالفيلد" سنتمكن من إيجاد غرف ما، وسوف نجلس أمام النار المتأججة ونضحك على هذا، على مثل هذه المغامرة لنبدأ حياتنا معًا"

"وإذا لم نصل "كالفيلد"؟ إن حصانى مريض.. فالفرسان لم يحصلا على طعام كافٍ ـ أو حتى مياه، لكن كانا يأكلان لحاء الأشجار وأنا متأكد أنه ليس من المفروض أن يأكلاه."

"سنصل إلى هناك.. سنصل لمكان ما، فقط ثلاثة أيام لنعبر الغابة،غدًا قد تصل إلى البحيرة! وعندها ستشعر أنك أحمق."

قبلته.. فجعله هذا يضحك.

"أنتِ ساحرة، أمر لايصدق،لا عجب أنك دومًا ما تحصلين على ما تريدين."

"ها." ابتسمت "لاين" لكنها فكرت أن هذا غير عادل وخاطئ كذلك، هل أرادت لـ"جانى" أن يختفى فى البرية؟ هل أرادت أن تذهب وتعيش فى

"هيميلفانجر"؟ مازال.. على الأقل هو الآن أكثر مرحًا وهذا هو الشيء الأساسى، إذا استطاعت جعله يستمر.. جعلهم كلهم يستمرون.. فإنهم سيكونون على ما يرام.

بينما يرقدان تحت مأواهما المثير للشفقة.. ممسكين بالطفلين بينهما،سمعت "لاين" أشياء خلال إرهاقها: صوت مسدس فى عصارة متجمدة.. صوت صفير الرياح والثلج ينسل من بين الأغصان،وذات مرة ـ بعيدًا جدًا ـ اعتقدت أنها تسمع ذئابًا.. تعوى فى الليل الواسع، وتفصدت حبيبات العرق من جلدها.. رغم البرد.

فى الصباح رفض حصان "إسبن" أن يتحرك، كان قد أكل لحاء أشجار وأصيب بإسهال وتساقطت مخلفاته السائلة من على مؤخرته ولونت الجليد. ووقف فى وضع مأساة مخزية، حاول "إسبن" إطعامه بخليط من الماء الدافئ والشوفان، لكنه استدار بعيدًا. أخيرًا عندما بدءوا فى التحرك قاده "إسبن" وجلس كلا الطفلين أمام "لاين" على حصانها، كانت قيادة الفرس عملاً أكثر صعوبة ـ أو هى جر ـ من مجرد السير،وبعد ساعة نادى "إسبن" على "لاين".

"هذا جنون،سيكون من الأسرع أن نتركه خلفنا، ولكن هذا سيكون بشعًا، ماذا لو كنا تقريبًا عند النهر؟"

"هيا نتقدم قليلاً.. قد يتحسن،فلقد توقف الجليد وأصبح الجو أدفأ قليلاً."

كان هذا حقيقى، فالجليد قد قل إلى لا شىء ومن الممكن القول ـ فى أماكن معينة على الأقل ـ إنه بدا أقل عمقًا.

"إن الأمر يزداد صعوبة، إنه يريد الوقوف فقط، أعتقد أنه قد يرقد أرضًا قريبًا، وهذا يرهقنى."

"هل تريدنى أن أقوده لفترة؟ يمكنك الجلوس مع "توربين" و"أنا" حتى تستريح."

"لا تكونى سخيفة.. لايمكنك فعل ذلك،ليس... لا يمكنك فعل ذلك."

فرد الحصان " بنجى"،رغم أن "لاين" قد دربت نفسها ألا تفكر فيه باسمه ـ أذنيه باتجاههم، بدا ظهره غائرًا أكثر من أمس وعيناه منطفئتان.

"ماذا لو تركناه؟ يمكننا دومًا العودة لإيجاده فيما بعد."

"لا أعتقد ذلك."

تنهدت "لاين".. لقد تخيلت العديد من الأشياء إلا أن يلقى حصان مريض العقبات فى طريقه. على بعد عدة ياردات.. نزل الطفلان من على الحصان الآخر و ـ تحت الأوامر بأن يتحركا للبقاء دافئين ـ أخذا يلعبان لعبة ما مثبطة للروح.

" "بنجى" العجوز المسكين." ربتت "لاين" على رقبته، رمش الفرس بعينيه إليها محذرًا. اتخذت "لاين" القرار،"سوف نتركه،إن لم يكن بوسعه الاستمرار فسنضطر لتركه، سنقول للأطفال إننا سنعود لنأخذه أو أى شىء."

أومأ "إسبن" برأسه بثقل،فى مكان آخر كانت "لاين" أخرى لتبكى على الحصان الذى سيترك لمصيره،ولكن ليست "لاين" هذه.

سارا عائدين إلى الطفلين، فقط عندها.. بينما "لاين" تفتح فمها لتشرح.. دوت أصوات عالية بين الأشجار، كانت عالية حتى أن "أنا" انتفضت وسقطت تقريبًا، حدقوا كلهم فى بعضهم البعض.

"صائد!" صاح "إسبن" فى حماس.

"هل أنت متأكد أنه ليس مجرد تجمد عصارة نبات؟" سألت "لاين" لأن على أحدهم أن يفعل.

"إن الصوت عالٍ جدًا ومختلف،إنه مسدس، أحدهم يقوم بالصيد فى الجوار."

بدا من صوته أنه متأكد جدًا،صاح الطفلان فى فرح وبارتياح أن "لاين" قد اقتنعت. هناك بشر ها هنا.. الحضارة أصبحت فجأة بالقرب منهم.

"سأرى إن كنت أستطيع إيجاده... فقط لأتأكد أننا فى الطريق الصحيح." أضاف "إسبن" على عجل.

"كيف ستعود إلينا؟" سألت "لاين" بحدة.

"أشعلوا نارًا.. لن أتأخر،لابد أنه قريب جدًا." بدأ "إسبن" يصيح بالإنجليزية. "مرحبًا! من هناك؟ مرحبًا!".

دون انتظار الرد التفت إليهم. "أعتقد أنه آت من هناك.. لن أتأخر.. لو لم أجده سأعود مباشرة.. أعدكم."

ابتسم "إسبن" ابتسامة واسعة واثقة لهم ومشى بين الأشجار،وقع أقدامه اختفى فى السكون. أصدر "جوتا" ـ الحصان الآخر ـ تنهيدة طويلة جديرة بالأحصنة.

***

كان من المثير للاهتمام انحسار وتدفق العاملين فى المركز،والطريقة التى ينقسم بها الأشخاص، أو يتجمعون معًا. من مجرد ملاحظتى الشخصية كان من الواضح أن "أوليفر" ليس محبوبًا من قبل الموظفين الآخرين، فهو ملتصق بـ"ستيوارت".. يقضى له حاجاته، حتى أنه يقلد بعض تصرفاته. من ناحية الآخرين هناك شعور بالبعد بين البيض وغير البيض، ويبدو الأمر وكأن "أوليفر" منقلب؛ ذهب إلى الجانب الآخر. فى بادئ الأمر اعتقدت أنهم يحترمون "ستيوارت" لدرجة الولع، الآن لم أعد متأكدة من ذلك، فهناك احترام ولكنه من نوع حذر.. النوع الذى قد تعامل به حيوان خطير. كانت "نورا" تكرهه وبينما هى على الأرجح تهتم لأمر "نسبيت" فهى تعامل كليهما بوقاحة على حد السواء، فهى تعامل "ستيوارت" بوقاحة تجعلنى أتساءل إن كان لديها قوة ما ـ وإلا فلا يمكننى تصور كيف يسمح

لها أن تنجو بفعلتها. وقد رأيت المرأة الجميلة "ـ نانسى" ـ قليل من المرات فى الردهة هنا، وحيث يبدو أنها لا تنظف أو تقوم بالخدمة.. فكنت أتساءل ما الذى تفعله.. ربما طهى الطعام.

كنت أنتظر حدوث شىء ما، مرت ساعتان منذ أن عادت فرقة البحث،وكنت أنا أتنقل بين غرفتى والمطبخ وحجرة الطعام، أخذت أجد أشياء صغيرة فى حاجة إلى أن يتم الإشارة إليها، مثل قلة حطب النار (لأننى كنت قد ألقيتها بالخارج)، أو قهوة مسكوبة. لم أكن محبوبة من قبل "نورا" كنتيجة لذلك. ولكن بعد الساعة السادسة كوفئت بصوت صياح من مكتب "ستيوارت"،كان الصوت العالى يخص "نسبيت"؛ وكانت نبرته هستيرية.

"لأجل الله.. لقد أخذت أقول لك إننى لا أعرف! لكنها فُقدت لا شك فى ذلك."

همهمة منخفضة من "ستيوارت".

"يا إلهى! أنا لا أهتم.. أنت وعدت! عليك أن تساعدنى!".

المزيد من الهمهمة ـ شىء عن "الإهمال".

كنت فى الردهة.. أمشى على أطراف أصابعى مقتربة، وأنا أدعو الآلة المسئولة عن طقطقة ألواح الأرضية.

"لابد أنه واحد منهم، من سيكون غير ذلك؟ وهناك شىء آخر... نصف رجل ـ لابد أن تعرف كيف تفرض عليه تحكمًا أفضل من ذلك."

أصبحت الهمهمة أكثر انخفاضًا، لسبب ما.. أخافنى هذا أكثر من أى شىء آخر، لم أجرؤ على الاقتراب أكثر، ما الذى يعنيه "نسبيت" بـ"نصف رجل"؟ هل هو يهين "ستيوارت"؟ أو شخصًا آخر؟

اقتربت خطوات من الباب، فهرعت وأمنت باب حجرة الطعام قبل أن يخرج أحد. نظر "مودى" لأعلى من كرسيه بجانب المدفأة عندما دخلت.

"سيدة "روس" هناك شىء أود مناقشته معك..."

"لحظة فقط.." وضعت إبريق القهوة أرضًا، بالخارج بدا كل شىء هادئًا. "آسفة يا سيد "مودى" يبدو أننى نسيت شيئًا.. اعذرنى لحظة."

أطرق بوجهه فى المستطيل الذى يضيق وأنا أغلق الباب.

مررت فى الردهة الفارغة، باب مكتب "ستيوارت" مغلق.. طرقت عليه.

"ما الأمر؟" جاء صوت "نسبيت" حاد النبرة.

"أوه.. إنه أنا.. السيدة "روس".. هل لى أن أدخل؟"

"أنا مشغول إلى حد ما الآن."

فتحت الباب على أى حال، رفع "نسبيت" عينيه من على المكتب ـ جاءنى انطباع أنه قد زحف واصلا إليه لتوه؛ وجهه ملىء بالعرق وشاحب.. شعره غير منظم أكثر من أى وقت مضى،شعرت ناحيته بالتعاطف،فأنا أتذكر كيف يكون الأمر.

"لقد قلت...."

"أعرف.. آسفة، الأمر فقط أننى أشعر بشعور فظيع، لقد قمت بكسر وعاء اللبن.. آسفة جدًا بشأن ذلك."

نظر "نسبيت" إلىّ عاقدًا حاجبيه فى مزيج من عدم الفهم والحنق. "لأجل السماء.. إن الأمر لا يهم، أستميحك عذرًا..."

أخذت خطوة أخرى بداخل الحجرة وأغلقت الباب خلفى، انتفض "نسبيت"، كانت هناك نظرة قاتلة فى عينيه.. نظرة حيوان محاصر.

"هل ضاع منك شىء ما؟ أعرف كيف يمكن لهذا أن يكون مزعجًا، ربما يمكننى المساعدة؟"

"أنت؟ ما الذى تتحدثين عنه؟"

ولكن تقريبًا بمجرد أن أغلقت الباب، وصلته الفكرة.. وأصبحت أستحوذ على كامل اهتمامه الآن.

"لماذا تفترضين جدلا أننى قد فقدت شيئًا ما؟"

"إنه يحتفظ بها لك أليس كذلك؟ يجعلك تتوسل."

كان الأمر وكأنى قد مزقت ونزعت قناعًا،كان وجهه أبيض اللون.. حتى كاد أن يكون أزرق تقريبًا، ويداه مغلقتان فى قبضتين،أراد أن يضربنى لكن لم تواته الجرأة.

"أين هى؟ ما الذى فعلتيه بها؟ أعطنى إياها."

"سأعيدها لك إذا أخبرتنى بشىء ما."

عبس لكن أعطاه هذا أملا، وقف وخطى تجاهى،لكنه لم يقترب.

"أخبرنى من هو الذى يجب أن يبقى تحت السيطرة، من الذى لابد ألا يتم التحدث عنه؟"

"ماذا؟"

"الليلة الأولى لنا هنا.. سمعتك تقول لامرأة ألا تتحدث عنه، من الذى كنتما تتحدثان عنه؟ والآن كنت تقول لـ"ستيوارت" أن يضع المزيد من السيطرة عليه،لقد قلت إنه نصف رجل، من؟ أخبرنى مَنْ هو وسوف أعطيها لك."

انكمش.. واستدار رأسه فى هذا الاتجاه وذاك،وارتسمت على وجهه نصف ابتسامة، وبدا عليه الارتياح بعض الشىء.

"نحن لا نريد لـ"مودى" أن يعلم، فلو وصل هذا للشركة... أن واحدًا من رجالنا قد جُن. إنه "نيبابانيز".. إن "ستيوارت" يحاول حمايته.. من أجل أسرته..."

"نيبابانيز"؟ تعنى أنه لم يمت؟"

هز "نسبيت" رأسه نافيًا.

"إنه يعيش وحيدًا مثل رجل متوحش ، لقد كان على ما يرام منذ عدة أسابيع، لكنه أصبح مجنونًا فعلا، وربما خطرًا. سيكون هذا عارًا كبيرًا على عائلته. ففكر "ستيوارت" أنه من الأفضل أن يعتقدوا أنه مات." هز رأسه "هذا كل شيء. ها...! أعني.. إنه لأمر شنيع."

"وهو كان بعيدًا عن هنا... أليس كذلك... مؤخرًا؟"

"إنه يأتي ويرحل."

"منذ ثلاثة أسابيع."

"لا أعلم أين يذهب، لقد عاد منذ حوالى عشرة أيام."

لم أكن أعلم شيئًا آخر لأقوله، أو أسأل عنه، نظر خفية إلىّ: "هل يمكننى الحصول عليها الآن؟"

للحظة استعرضت تحطيم الزجاجة على الأرض لأن شيئًا ما خطأ فى الأمر وليس بوسعى وضع يدى عليه.

"أرجوك." اتخذ خطوة أخرى تجاهى.

سحبتها من جيبى وأمسكت بها، الزجاجة التى أخذتها من تحت مرتبته أمس بينما كان هو مع "مودى". قبض عليها وتفحصها ليرى إن كنت قد سرقت أى من محتوياتها - رد فعل عصبى، تصرف سريع - ثم استدار وشرب منها، بقايا من كرامته ترغب فى الاحتفاظ ببعض من الخصوصية. يأخذ الأمر وقتًا ليسرى مفعولها، ولكن ربما لم يكن لديه إلا هذه. بقى فى هذا الوضع محدقًا فى الستائر.

"وأين هو الآن؟"

"لا أعلم، أرجو أن يكون بعيدًا عن هنا."

"هل هذا حقيقى؟"

"نعم."

يمكننى رؤية الزجاجة فى يده، ما الذى لن أمنحه لآخذها منه وأشرب؟

لم ينظر إلىّ مرة أخرى،كان صوته منخفضًا وقد استعاد هدوءه. أعادنى هذا لنفسى،فتركته يقف عند المكتب،ظهره لىّ ولكن كتفيه مربعتين ومتمردتين.

سرت عائدة لحجرة الطعام. إذًا فـ"نيبابانيز" رجل مجنون،"نيبابانيز" هو قاتل "جاميه" المجنون؟ هذا ـ على ما يبدو ـ هو ما أردت معرفته. لكننى لم أشعر بأى نصر.. ولا برضا. لم أكن أعرف بماذا أفكر، لكننى لم أستطع إقصاء عقلى عن صورة "إليزابيث بيرد"، وهى جالسة فى الجليد.. تكوى لحمها عمدًا من شدة الحزن.

***

جاء "ستيوارت" لمنزلها عندما عادوا، بدا قلقًا مثل أب لديه طفل حائد، مستعدًا أن يلبى رغباته ولكن إلى حد معين.

"آسف لما حدث يا "إليزابيث"؟"

أومأت، فهذا أسهل من الكلام.

"كنت أحاول أن أفكر فيما قد يكون قد حدث، هل وجدتم المكان؟"

أومأت مجددًا.

"أنا واثق أن روحه ستكون فى سلام.. أينما كان."

الآن لم تعد تومئ، فالقتلى لا يرقدون فى سلام.

"إذا كنت قلقة ... بالطبع يمكنك البقاء هنا، لست فى حاجة للقلق بشأن المستقبل،فسوف يكون لك دومًا بيت هنا طالما أردت ذلك."

كانت واعية ـ دون النظر إليه مباشرة ـ بعينيه الزرقاوين الخبيثتين، مثل الأجسام المضيئة للذباب الذى يتغذى على الرمم. نظر إليها بإصرار..

محاولا إضعاف قوتها.. محاولا تطويعها لإرادته، حسنًا.. إنها لن تنظر إليه.. لن تسهل الأمر عليه. أمالت رأسها جانبًا.. على أمل أن يذهب.

"سأتركك.. إن أردت أى شىء.. أرجوك تعالى إلى واطلبيه."

أومأت للمرة الثالثة.

فكرت قائلة فى سرها: فى الجحيم.

بالخارج سمعت أصواتًا تتحدث بالإنجليزية: "ستيوارت" يتحدث إلى الرجل الأبيض: سأتركها إن كنت فى مكانك، فهى لاتزال مصدومة."

بدأت الأصوات تبتعد،قفزت "إليزابيث" على قدميها.. فى حالة العناد التى كانت فيها وخرجت.

"يا سيد "مودى"... من فضلك ادخل.. إذا أردت."

استدار كلا الرجلين وهما متوتران ووجه "مودى" ينطق بالتساؤل، لم تكن "إليزابيث" واثقة لماذا هرعت للخارج بهذا الشكل وأحست بالحماقة.

أصر "مودى" على الجلوس على الأرض مثلها، رغم أن تحركاته كانت متصلبة قليلا.

"هل أنت على ما يرام؟ هل الجرح أفضل حالا؟" اتجهت نظرتها إلى منتصف جسده حيث كانت قد ضمدت جرحه منذ أربع ليالٍ، منذ وقت طويل.. عندما كانت لا تزال زوجة لرجل. "كان جرحًا سيئًا، هل حاول أحدهم قتلك؟"

ضحك قائلا: "لا.. أو ـ حسنًا ـ كانت لحظة من المشاعر المتأججة.وخلفها ندم عميق.. إنها قصة طويلة. أتيت لأرى كيف حالك، وإن كان هناك أى شىء يمكننى فعله لمساعدتك..."

"شكرًا لك.. كنت طيبًا معى.. فى ذلك اليوم."

صبت "إليزابيث" الشاى فى أكواب من الاينامل، تذوقت مرة أخرى مياه النهر المُرة بعدم الوفاء، ربما كان الغزال علامة: أنا قُتلت عليك أن تجدينى.

لو بإمكانها فقط أن تصلى ليعطيها الله الرشاد والنصح، لكنها لا تستطيع الذهاب إلى الكنيسة الخشبية،إنها كنيسة "ستيوارت" وهى تكنُّ له كراهية،لم تفكر فى إيمانها قط بهذه الدرجة من قبل. افترضت أنه كان هناك تحت السطح.. مستمرًا دون جهد واع.. بنفس الطريقة التى تتنفس بها رئتاها. ربما تجاهلته كثيرًا، والآن تبين أنها تحتاجه، يبدو وكأنه ذبل وابتعد.

"هل تصلى؟"

نظر "مودى" لها وقد تفاجأ، فكر مليًا فى إجابته، ليقل ببساطة ما يعتقد أنه يجب أن يقوله، لكنه بدا أنه يفكر فى الأمر حقاً. أعجبها ذلك،مع حقيقة أنه لم يسرع بالإجابة ليملأ كل لحظة صمت.

"نعم.. أصلى، ليس كثيرًا كما يجب، ليس تقريبًا."

عندها دخلت ابنتها الصغيرة وهى تتعثر خلال الباب الأمامى.. كانت قد تعلمت المشى لتوها.

" "إيمى".. عودى إلى "مارى".. أنا أتحدث."

حدقت الطفلة فى "دونالد" قبل أن تعود للخارج مرة أخرى.

"أفترض أننا فقط.." تراجع صوته. "عنيت قول.. نحن نرجع إلى الله فقط عندما نكون فى مشكلة أو لدينا حاجة، وأنا لم أكن قط فى مشكلة كبيرة أو حاجة، ليس بعد حمدًا لله."

ابتسم وبدا مضطربًا ومرتبكًا الآن، أصبحت كلماته أبطأ وكأنه يعانى من صعوبة فى ترتيبها.. شىء ما قد حدث.

"لا أستطيع."

نظر إليها متسائلا.

"أن أصلى."

"هل ولدت مسيحية؟"

ابتسمت قائلة: "لقد تم تعميدى من قبل المبشرين عندما كنت فى الثانية عشرة."

"إذًا فقد عرفت آلهة أخرى،هل تصلى لهم؟"

"لا أعلم.. لم أصل قط قبل، أنت على حق.. لم أجد حاجة لذلك."

وضع "مودى" كوب الشاى، وعقد رسغيه حول ركبتيه،"عندما كنت فتى صغيرًا، ضللت الطريق بشكل مرعب.. فى المرتفعات بالقرب من بيتى،كنت تائهًا ليوم وليلة،وكنت خائفًا من أننى سوف أتجول فى المرتفعات حتى أموت جوعًا. حينها صليت.. داعيًا الله أن يرشدنى لطريق العودة إلى البيت."

"ثم؟"

"وجدنى والدى."

"إذًا فقد استجاب الله لصلواتك."

"نعم،أفترض أن بعض الدعوات لا يمكن أن تُجاب."

"لن أدعو أن يعود زوجى للحياة،سأصلى من أجل العدالة."

"العدالة؟" اتسعت عيناه وتركزتا عليها، وكأن هناك بقعة على وجهها، بدا مندهشًا وكأنها قالت لتوها شيئًا حيويًا وذا أهمية شديدة.

وضعت "إليزابيث" كوبها من يدها، ولم يتحدث كلاهما لفترة طويلة.. محدقين فى النار.. التى كانت تطقطق وتفح.

" "إيمى"! اسم جميل."

"إنها لا تفهم لماذا والدها ليس هنا."

تنهد "مودى" ثم ابتسم. "آسف.. لابد أنك ستعتقدين أننى وقح، لقد جاءتنى لتوى فكرة فى غاية الغرابة. من فضلك أخبرينى إن كنت مخطئًا، ولكننى لا أقدر على منع نفسى." ضحك بارتباك دون أن يحرك نظره عنها. "أعرف أن الوقت ليس مناسبًا، ولكن ليس بوسعى ألا أفكر.. اسم ابنتك، و.... لا أعرف كيف أقول ذلك.. هل كنت ذات يوم من آل "سيتون"؟"

حدقت "إليزابيث" فى ألسنة النيران،وصوت غناء عالٍ يدوى فى أذنيها على ما قاله بعد ذلك، موجة من شىء مثل الضحك هددت بخنقها.

كان فمه يتحرك... إنه يعتذر، كانت تفكر من على بعد. الأشياء التى اعتقدت أنها نسيتها منذ زمن بعيد أصبحت فجأة واضحة كالزجاج،أب.. أخت.. أم،لا ليست أختها.. فهى لم تنس أختها قط.

ببطء.. أصبح صوته مسموعًا مرة أخرى،"هل أنت "إيمى سيتون"؟" مال "موجى" للأمام، ووجهه يعلوه الاحمرار من فرط التحمس.. من الإثارة الناتجة عن كشف مهم على وشك أن يحدث. "لن أخبر أى شخص،إذا لم تريدينى أن أفعل. أعدك بشرفى أن أحتفظ بالأمر سرًا.. أنت لك حياتك هنا.. أطفالك.. أود فقط أن أعرف."

لم ترد أن تمنحه مثل هذا السرور، إنها ليست ملكه ليأخذها، فهى ليست مكافأة لكى يتم العثور عليها والمطالبة بها.

"سيد "مودى"... أنا لا أعرف ماذا تعنى،اسمى "إليزابيث بيرد" وزوجى قُتل عمدًا. ما الذى علىّ فعله الآن؟ ما الذى ستفعله أنت؟"

"عمدًا؟ ما الذى جعلك تقولين ذلك؟"

رأته يترنح بصعوبة، من مصدر إثارة إلى آخر، لم يناسبه ذلك،لم يستطع تحمله. بدت تراقبه عن بعد وهو يشهق ويقبض على معدته؟، ووجهه متقلص من شدة الألم واحمر لونه. لم يكن يحب أن يسأل مثل هذا السؤال الشخصى. بعد برهة استعاد قواه وهو ينهج مثل كلب.

"ما هذا الذى تقولين؟ إن... "ستيوارت" قد قتل زوجك؟"

"نعم."

"لماذا قد يفعل؟"

"لا أعلم لماذا؟"

حدقت فيه، لابد أنه يعرف شيئًا ما؛ يمكنها رؤيته وهو يقيم الأمور خلف عينيه، ثم فتح فمه.

"اعذرى سؤالى.. هل كان زوجك مجنونًا؟"

حدقت "إليزابيث".. وشعرت بأنها ضئيلة وضعيفة.. محطمة.. مهشمة.

"هل قال ذلك؟" جرت الدموع على وجنتيها، إما من الغضب أو من الحزن.. لم تكن تعرف، لكن فجأة كان وجهها مبتلا بالدموع. "لم يكن مجنونًا.. هذه كذبة.. اسأل أى أحد هنا، فنصف رجل هو المجنون الوحيد هنا."

"نصف رجل؟ من هو نصف رجل؟"

"الشخص الذى لا يريدنا أن نتحدث عنه!" نهضت "إليزابيث".. كان هذا كثيرًا، كله مرة واحدة. سارت فى دوائر حول النيران. "إذا كنت ماهرًا.. وإن كان بإمكانك رؤية الكثير... فلماذا لا تفتح عينيك؟"

***

"إذا سمح الطقس فسوف أغادر غدًا."

حدقت فى "باركر" وفمى مفتوح، كان هناك ضغط قوى فورى حول صدرى، وكأنى أعانى من ضيق تنفس؛ موقف سيئ يجعل المرء مستحيلاً عليه أن يتنفس، كانت أنفاسى قد تلاحقت منذ طرق على باب حجرتى وسمحت له بالدخول وأنا أتساءل عما يريد.

"لا يمكنك! الأمر لم ينته بعد."

عاد بنظره لىّ للحظة.. متحفزًا، ولكن ليس متفاجئًا، لابد أنه يعرفنى الآن أفضل من ذلك.

"أعتقد أنها الطريقة الوحيدة لإنهائه."

لم أكن أعرف ما عنيت عندما تكلمت ولكنى أعرف الآن،لقد كنا كلنا نعتمد على "باركر" فى أن يرشدنا إلى الطريق... منذ تقابلنا فى "دوف ريفر" حتى الآن،و"مودى" أيضًا.. رغم كرهه لهذه الحقيقة.

"كيف يمكنك إنهاءه؟"

توقف "باركر" عن الكلام، بدا وجهه مختلفًا الآن: أكثر نعومة وأقل جمودًا،أو ربما كان هذا تأثير الضوء الخافت.

"فى الصباح سوف أعرض على "دونالد" بطريقة ما العلامة التى أعطيتها لى، ثم سوف يعرف ـ إن لم يكن قد عرف بالفعل ـ أننى كنت مع "جاميه". وسأخبره أننى راحل وإن كنت أنا على حق... "توقف هنا.." وإن كان هو الرجل الذى أظن أنه عليه، فلن يكون قادرًا على مقاومة اتباعى فى حالة أننى قدته للفراء.

"لكن إذا كان قد قتل "جاميه" فقد يقتلك أيضًا."

"سأكون مستعدًا."

"هذا فى غاية الخطورة،لا يمكنك الذهاب وحدك،فهو لن يكون بمفرده ـ سيكون مع هذا... الـ"نصف رجل" معه."

حرك "باركر" كتفيه. "هل تعتقدين أنه من الأفضل أن أصطحب "مودى" معى؟" أبتسم لهذه الاحتمالية. "يجب أن يبقى،إنه فى حاجة لأن يرى أن "ستيوارت" يتبعنى وعندها سيعرف."

"لكن.. لكن.. أنت..."

كنت أحاول إعادة تنظيم الحقائق مجددًا. إثبات... ما الإثبات الذى يمكنه إيجاده.. أكثر من أن يعترف "ستيوارت"؟

"لا يمكنك الذهاب بمفردك، سوف آتى معك،بوسعى أن أكون زوجًا آخر من العيون. يمكننى... أنت فى حاجة لشاهد، شاهد يمكنه إثبات ما تقوله. من الأفضل ألا تذهب بمفردك!".

كانت وجنتاى تحترقان، ابتسم "باركر" مرة أخرى ولكن بلطف، امتدت يده.. لتصل تقريبًا إلى وجهى، لكنها توقفت قبل أن تلمسه. بوسعى الشعور بالدموع فى عينى.. تهدد بأن تُذهب تماسكى وكرامتى وكل شىء.

"ينبغى أن تبقى هنا،ف"مودى" يحتاجك.. إنه ضائع."

وماذا عنك؟ كنت أفكر،بدت الكلمات عالية جدًا لدرجة لم أكن معها متأكدة أننى لم أقلها، لكن "باركر" لم يظهر أية علامة على أنه سمعها. حاولت الحفاظ على صوتى ثابتًا.

"لا أعرف ما الإثبات الذى تعتقد أن "ستيوارت" سيقدمه، أكثر من أنه سيقتلك. هذا سيكون مؤكدًا على الأرجح، و... وماذا لو أنه قام بإرسال أحدهم ليقتلك بدلاً منه ـ كيف يمكننا عندها أن نربطها به؟ لو أنك ذهبت بمفردك ولم تعد، فلا أعتقد أن هذا سيرضى السيد "مودى"،ولن يثبت أى شىء."

"حسنًا." ـ نظر "باركر" أرضًا وظهرت لمحة من عدم الصبر فى صوته "ـ سنرى غدًا فى الصباح، ربما يخبرنا "ستيوارت" كل شىء. تصبحين على خير.. سيدة "روس"."

عضضت على لسانى، مجروحة وغاضبة،قد لا يكون "باركر" واعيًا بذلك.. ولكن هناك شخصين فى هذه الحجرة لا يستسلمان لشىء حتى ينتهى.

"تصبح على خير سيد "باركر"."

ذهب وقد أغلق الباب وراءه بهدوء. لعدة دقائق ظللت متسمرة فى مكانى، متسائلة - من بين كل الأشياء التى يمكن أو يجب أن أتساءل بشأنها - إن كان يعرف اسمى الأول.

هذه الليلة حلمت.

حلمت بـ"أنجوس"، بطريقة غامضة لكنها مزعجة. أدرت رأسى من جانب إلى آخر.. أريد أن ابتعد عن زوجى،لم يقرعنى باللوم.. لم يستطع.

استيقظت فى أعماق الليل، فى صمت ثقيل للغاية.. فأشعر أننى لا أستطيع النهوض من الفراش مهما حاولت.. هناك دموع جافة على وجهى.. باردة.. جاعلة بشرتى تحرقنى.

تعجبت لفترة طويلة لماذا قد أصبحت بعيدة عنه، افترضت أنه شىء قد قمت به، ثم بعد ذلك عندما أخبرنى "باركر" بشأن "جاميه"، فكرت أنه بسبب "فرانسيس"، لأنه كان يعرف وكره الأمر.

فى الحقيقة.. لقد بدأ الأمر منذ زمن بعيد قبل ذلك.

دفنت وجهى فى الوسادة التى كانت عطنة الرائحة، غطاؤها القطنى كان باردًا مثل الرخام، فقط هنا وأنا وحيدة وفى الظلام بإمكانى السماح لهذه الأفكار بالتحرر، الأفكار التى تأتى من مكان مجهول، من الأحلام، وتأخذنى كرهينة محمومة. أشتاق للنوم مجددًا .. لأنه أثناء نومى فقط أستطيع التحرر من قيود الممكن والصحيح.

ولكن كما وجدت عادة فى الحياة أن ما تشتاق إليه حقًا يهرب منك.

***

ضغط "دونالد" بيده على زجاج النافذة، فأذابت الثلج الذى قد تكوّن عليها من الداخل طوال الليل.. تاركة بصمة واضحة: فالبرد يصبح أقوى. فالشتاء يتقدم ولابد أن يغادروا سريعًا، وإلا سيتجمدون فى "هانوفرهاوس".

بالأمس انتهى من خطابه إلى "ماريا"،هذا الصباح قرأه مرة أخرى وأعتقد أنه يضرب على الوتر المناسب ـ فلا يقول شيئاً عاطفيًا أكثر من اللازم، ولكن بعد أن أخرج أفكاره على الورق ـ إنها راحة كبرى أن يكون قادرًا على قول ما يعتقده ـ قام بالتعبير عن أمنيته الدافئة؛ لأن يراها وليستأنفا حواراتهما الشيقة. طواه ووضعه فى ظرف لكنه تركه غير معنّون. فهو يخشى أن يقرأ الناس الآخرون خطاباته،وهو واثق أن السيدة "روس" قد لاحظت قبلاً واحدًا إلى "سوزانا"، فى واحدة من زياراتها الفضولية المتطلبة إلى حجرته.

بشأن "سوزانا".. حسناً.. هو لم يكن فى مثل هذا الموقف من قبل، فـ"دونالد" لم يكن واثقًا من كيفية التقدم. لديه فكرة أنها لن تكون مكسورة القلب ـ فقبل كل شىء ـ قال لنفسه ـ لم يقل شيئًا.. ليس فى الحقيقة.. لم يكن هناك أى وعود. شعر بعدم الراحة.. لأنه بواقع حقيقة الأمر فهو ليس سلوكًا محمودًا، و"دونالد" يريد أن يكون محط إعجاب، لكن يرى ـ أكثر وضوحًا الآن عن بعد أكثر مما كان يرى وهو فى "كالفيلد" ـ أن "سوزانا" مخلوق عفى. وحتى وهو يعرف ذلك كان يوبخ نفسه لتعزية نفسه بذلك. ربما لن يسمح لخطاباته أن تصل إليها،ربما من الأفضل أن يعيد كتابتها،ليمحو أية رغبات عاطفية فى غنى عنها.

عند هذا الحد، و"دونالد" مازال جالسًا إلى الطاولة محاطًا بخطابات طويلة للأختين "نوكس".. جاءت طرقة على الباب.. إنه "باركر".

كان "ستيوارت" فى مكتبه وأمامه إبريق من القهوة، النار مشتعلة لكنها تخسر معركتها أمام البرد المعدنى الذى يتقدم من النافذة والباب وحتى من خلال الحوائط.

تنحنح "دونالد" بشكل هجومى إلى حد ما.. شاعرًا أن هذا مكانه أن يكون فى الصدارة، وبعد أن قال ما يكفى لـ"باركر" والسيدة "روس".

"سيد "ستيوارت"... رجاء سامحنى لمجيئى فى مثل هذه الساعة، نحن فى حاجة للتحدث معك."

سمع "ستيوارت" النبرة غير السارة فى صوته، لكنه ظل مبتسمًا وهو يدعوهم للدخول. أمر بإحضار المزيد من الفناجين ـ هذه المرة كانت "نانسى" هى أول من استجاب للجرس وذهبت لجلبها. أبقى "دونالد" عينيه إلى الأرض بينما كانت فى الحجرة.. آملاً ألا يرى أحد الدفء واللون الذى اعتلى وجهه،لم يكن أحد ينظر إليه على أى حال.

بدأ "دونالد" يقول: "أظن أنك يجب أن تعرف السبب الحقيقى وراء وجودنا هنا." تجاهل نظرة السيدة "روس"،لم يكن بوسعه رؤية تعبير "باركر" لأنه كان يجلس بجانب "ستيوارت" أمام النافذة، وبذلك كان مغمورًا بالظل. "لقد تتبعنا أثرًا، وقادنا من "دوف ريفر" ولدينا مبرر قوى لنؤمن أنه يصل إلى هنا."

"أتمنى أنه لم يكن ابن السيدة "روس"؟"

لا.. على الأقل.. ليس لهذا الحد. وهناك رجال هنا قد تم إخفاء وجودهم عنا."

أومأ "ستيوارت".. كان وجهه جادًا ونظره لأسفل. "أعتقد أن بعض الأشياء التى كانت قد قيلت قد ضللتكم، وأنا أعتذر لهذا،دعنى أخبرك بما أعرفه؛ ربما عندها يمكنك ملء بعض من الفراغات. ما قلته أنا حقيقى ـ كان "نيبانيز" واحدًا من أفضل رجالى.. عامل جيد.. قيادى محنك ومقتفى أثر ماهر، ولكن على مدار سنة مضت شىء ما حدث له.. عادة هو الشراب، كما أننى واثق أنك لابد ورأيت..." ألقى بنظرة على "دونالد" ولكنها شملتهم جميعًا بشكل ما. "ولكن ليس بمثل حالته.. على الأقل ليس فى البداية.. لا أعلم ما الذى كان به ولكن عقله أصبح غير متزن، لم يتعرف على زوجته.. ولا حتى أطفاله. هذا الربيع سار خارج القلعة، وبدا أنه كان يعيش بوحشية، من حين إلى آخر كان يعود.. ولكن كان الحال أفضل عندما يكون بعيدًا. كان قد بقى بعيدًا لوقت طويل منذ بضعة أسابيع، راودنى إحساس أنه قد فعل شيئًا ما، وأصبح هذا الإحساس أقوى عندما جئتم. ولكن حينما..." رفع كتفيه.. وتركهما يسقطان.

"لم أرغب فى جلب المزيد من العار على زوجته وأسرته، أردت أن أوفر عليهم هذا، فاتفقنا أنا و"نسيبت" على أن... نغطى على الأمر،أن ندعى أنه قد مات، كان من الحماقة أن نفعل.. أنا أعرف." رفع عينيه وقد بدت لامعتين بالدموع. "بطريقة ما.. أتمنى لو كان ميتًا.. فهو فقير تعس الحظ تسبب فى معاناة كبيرة لهؤلاء الذين أحبوه."

"لكن كيف أمكنك أن تخبر زوجته أنه مات؟ كيف كان بإمكانك جعلها تعانى بهذا الشكل؟" قالت السيدة "روس" وهى تميل للأمام وعيناها مثبتتان فى عينى "ستيوارت".. وجهها شاحب ومشدود.. تشع منها مشاعر ما ـ الغضب على الأرجح ـ مثل قوة جاذبة.

"صدقينى سيدة "روس"، لقد فكرت فى الأمر كثيرًا، وقررت أن موته سيجلب ألمًا لها ولأطفاله أقل مما سيجلبه هو بشكل كبير وهو حى."

"لكن كيف فكرت فى أنه بوسعك أن تخفى وجوده عنها؟ لقد تم رؤيته هنا منذ يومين!".

بقى "ستيوارت" ثابتًا للحظة قبل أن يرفع عينيه ويكشف عن ارتباكه. "لقد كانت مجازفة، لقد سمحت لنفسى أن.... أحيانًا.. على مدار الأعوام القليلة الماضية وبخاصة فى الشتاء، شعرت أننى أفقد حكمى على الأشياء. ولكن لو كنتم رأيتموه مع أطفاله.. يحدق فيهم وهم يهرعون إليه.. صارخًا بكلمات قذرة مهينة.. مليئة بالكره والخوف... الله يعلم أى شياطين كان يعتقدهم،كان من البشع رؤية وجوههم."

كانت عينا "ستيوارت" مسكونتين، وكأنه مازال يراهم. شعر "دونالد" بموجة من التعاطف، فالله يعلم أنه يمكنه تخيل ضغط الشتاء الذى لا نهاية له تلو الآخر.

نظرت السيدة "روس" إلى "باركر"، ثم أعادت نظرها إلى "ستيوارت"،وكأن "دونالد" ليس هناك.

"من نصف الرجل؟"

ابتسم "ستيوارت" ابتسامة مؤلمة. "آه. .ها أنت ترين..." نظر لأعلى.. هذه المرة مباشرة إلى السيدة "روس". "نصف الرجل" هو رجل آخر تعس الحظ، سكير معتاد.. إنه زوج "نورا" لذلك نمنحه الطعام من وقت لآخر،إنه صائد لكنه ليس ذا نفع كبير."

كان هناك عُرى لوجهه جعل "دونالد" يشعر بعدم الراحة، ما الحق الذى لديهم ليجبروا هذا الرجل على الكشف عن متاعبه؟

"يجب أن أعتذر مرة أخرى من خداعكم، فالمرء يريد أن يتم التفكير فيه ـ خاصة فى صحبة مثل هذه..." ألقى بنظره على "دونالد" مرة أخرى،الشىء الذى جعل "دونالد" يخفض عينيه فى إحراج. "المرء يريد أن يتم التفكير فيه على أنه قائد جيد، وأب ـ بطريقة ما ـ لهؤلاء الذين تحت مسئوليته. وأنا لم أكن أبًا صالحًا لهؤلاء الناس.. كان الأمر صعبًا،ولكن هذاليس عذرًا."

مالت السيدة "روس" فى كرسيها وهناك نظرة متحيرة وبعيدة على وجهها، كان "باركر" غامضًا.. جالسًا فى ظله، قاطعه "دونالد".

"هذا يحدث فى كل مكان، هناك حالة السُكر وهناك الجنون، ولا ينعكس على قيادتك أن بعض الرجال يحيدون عن الطريق."

أحنى "ستيوارت" رأسه. "إنه للطف منك أن تقول ذلك، ولكن الأمر ليس كذلك،على أى حال ما يهمكم الآن هو الرجل الذى تتبعتموه.. أفترض بسبب شىء فعله،جريمة... ما؟"

أومأ "دونالد": "سنحتاج لأن نجد الرجل ونستجوبه، بغض النظر عن الحالة التى هو فيها."

"أنا لا أعرف بالضبط أين هو، ولكننا بوسعنا العثور عليه على الأرجح، ولكن إذا كنتم تبحثون عن مجرم فلن تجدوا واحدًا، فهو لا يعرف ماذا يفعل."

بينما "ستيوارت" يتحدث أخرج "باركر" الغليون والتبغ من جيبه، وهو يفعل ذلك سقطت قصاصة من الورق على الأرض بين كرسيه وكرسى "ستيوارت". لم يلحظ "باركر" وهو يتخلل أعواد التبغ ليفك تشابكها خارج العبوة ويثبتها فى الغليون. رأى "ستيوارت" القصاصة وانحنى ليلتقطها، توقف لجزء من الثانية ويده على الأرض ثم أعطاها لـ"باركر".. كل هذا دون أن ينظر فى وجهه.

"سوف أرتب لرجلين ليبحثا عنه، فلابد أنهما قادران على اتباع أثره."

أعاد "باركر" القصاصة فى جيبه دون أن يقطع تقريبًا ملء الغليون بالتبغ،أخذت هذه الحادثة ربما ثلاث ثوان. كان الرجلان قد جلسا جنبًا إلى جنب طوال المحادثة كلها دون أن يتبادلا ولو نظرة واحدة.

***

قرب نهاية الردهة التفت "باركر" إلىّ قائلاً: "سأذهب لأستعد."

"هل أنت ذاهب؟"

افترضت أن أسئلته قد تمت الإجابة عليها، كانت هذه حماقة منى، فهو بالطبع لن يصدق حرفًا واحدًا مما قاله "ستيوارت".

"لم يقل قط إنه لم يرسل "نيبابانيز" إلى "دوف ريفر"."

كان تأكده هذا يزعجنى لذلك لم أرد، كان ينظر إلىّ بشدة غير معتادة وبلا تعبير، نظرة توحى بتركيز كبير لكنها لا تعطى أى تلميح لموضوعها ولا حتى معناها العام. لكن كانت الخطوط المعتادة لوجهه هى التى تجعلك تفترض أن الغضب والعنف وراء هذا الوجه، الآن أعرف أن الأمر ليس كذلك. أو ربما كنت قد غمرت نفسى فى إحساس زائف بالأمان.

"هل مازال لديك القميص من "البوريدج"؟"

"بالطبع لدى، ملفوف فى قاع حقيبتى تحت معطفى المبطن بالفراء."

"اجلبيه."

فى منتصف الطريق عبر الأرض المفتوحة خلف المتاجر،تخللت أشعة الشمس من فجوة فى السحاب، قضيب من الضوء.. صلب مثل درجات السلم.. يضرب السهل خلف السور، ملقيًا الضوء على مجموعة من أشجار الصفصاف القصيرة الكثيفة، محاطة بالجليد وتلمع بنقاط المياه المتجمدة. كان لمعانه خارقًا.. وبياضه يؤلم العينين. كما تشرق الابتسامة فجأة.. جعلت الشمس الجمال يعطى السهل الكئيب. على بعد مساحة مائة ياردة قدرة على إخفاء كل العيوب.. وراء السور يمتد منظر رائع مثل تمثال منحوت فى الملح.. كرستالى ورائق. فى هذه الأثناء تهادينا خلال الثلج الذائب والوحل وقد تلوث بمخلفات الكلاب التى خطت عليه.

كانت الأرملة فى كوخها مع واحد من أبنائها.. صبى جاد الملامح فى حوالى الثامنة من العمر. كانت تسلق بعض اللحم على النار وتجلس القرفصاء بجانبها، بدت ـ لعينى ـ أكثر نحافة ملابسها أكثر اهتراء منذ أن رأيتها آخر مرة،وبطريقة ما أكثر شبهًا بالهنود، رغم أنها بملامحها الجميلة الأكثر وضوحًا تؤكد أنها من عرقين مختلفين عنهم جميعًا.

نظرت لأعلى دون أى تعبير بينما "باركر" يدخل دون أن يطرق ويقول شيئاً لم ألتقطه،رد عليه بلغة أخرى، كان رد فعلى شعورًا عنيفًا ومفاجئًا بالغيرة قد قطع أنفاسى.

"اجلسا." قالت بلا حماس.

فعلنا وجلسنا على الأغطية حول النار، حدق فينا الصبى بثبات ـ الرداء الداخلى الشتوى لا يجعل الجلوس على الأرض مهمة أنيقة، لكنى فعلت ما بوسعى. بدأ يتحدث "باركر" بطريقة غير مباشرة.. يسأل عن الأطفال ويقدم تعزيته والتى هممت بالموافقة عليها،وفى النهاية دخل فى الموضوع.

"هل تحدث زوجك عن فراءات النرويجيين قط؟"

نظرت "إليزابيث" له.. إلىّ، بدا أن هذا لا يثير أى تعرف لديها.

"لا.. لم يكن يقل لى كل شىء."

"وآخر رحلة قام بها ـ ما كان الغرض منها؟"

"كان "ستيوارت" يريد الصيد،وكان عادة يأخذ زوجى معه، لأنه كان أفضل مقتفى أثر." كان هناك فخر هادئ فى صوتها.

"سيدة "بيرد"،أنا آسف أن أطرح هذا السؤال، ولكن هل كان زوجك مريضًا؟"

"مريضًا؟" نظرت لأعلى بحدة. "لم يكن زوجى مريضًا قط، كان قويًا مثل الفرس، من الذى قال ذلك؟ هل هذا ما قاله "ستيوارت"؟ ألهذا سار على جليد لم يكن ليسير عليه قط؟"

"يقول إنه كان مريضًا ولم يكن يعرف أطفاله." أبقى "باركر" صوته منخفضًا.. لا يريد أن يدخل الفتى فى الحديث. التوى وجه "إليزابيث" بالفعل بالمشاعر ـ اشمئزاز أو احتقار أو غضب أو كل هذا ـ ومالت للأمام.. وجهها برتقالى غاضب من النار.

"هذه كذبة خبيثة! لقد كان دوما أفضل أب." كان هناك شىء مخيف يحيط بها.. شىء ثابت وقوى لكنه أيضًا ـ بدا لى ـ حقيقى.

"متى كانت آخر مرة رأيت زوجك فيها؟"

"منذ تسعة أيام عندما رحل مع "ستيوارت"."

"ومتى كانت آخر مرة رحل فيها قبل هذه المرة؟"

"فى الصيف، كانت آخر رحلة قاما بها إلى بحيرة "سيدار" فى نهاية الموسم."

"كان هنا فى بداية أكتوبر وبداية نوفمبر؟"

"نعم طوال الوقت، لماذا تطرح هذا السؤال؟"

نظرت إلى "باركر"،كان هناك شىء واحد قد بقى ليقوما به.

"سيدة "بيرد"، أعتذر عن طلبى هذا ولكن هل لديك واحد من قمصان زوجك؟ نود أن نلقى نظرة على واحد منها."

حدقت بـ"باركر" وكأن ما طلبه وقاحة هائلة، إلا أنها نهضت بحركة حادة وسريعة وذهبت لظهر الكوخ خلف ستارة.

عادت ومعها قميص أزرق مطوى فى يدها، أخذه "باركر" وفرده وأرقده على الأرض، أخرجت أنا لفة قذرة ملفوفة فى قماش قطنى ثقيل؛ وفردتها، كانت جافة ومتسخة وتنبعث من بقعها الداكنة رائحة كريهة قوية. راقبنا الصبى بجدية وصمت، أما "اليزابيث" فوقفت وذراعاها معقودتان ونظرت إلينا بعينين حادتين غاضبتين.

على الفور رأيت أن القميص النظيف أصغر من الآخر،وأصبح الأمر غير قابل للتكذيب أن نقول إنهما لا ينتميان لنفس الرجل.

"شكرًا لك يا سيدة "بيرد"." أعاد "باركر" لها قميص زوجها.

"لا نفع له عندى.. ليس هناك أحد ليرتديه الآن." أبقت ذراعيها معقودتين وهى تقول: "إن كنت تريده.. احتفظ به إذًا ."

كان هناك التواء غير سار فى فمها، وبدا "باركر" مرتبكًا، كانت تجربة جديدة من نوعها ومثيرة للاهتمام بالنسبة لى ـ أن أراه لا يعرف ماذا يفعل.

تحدثت للمرة الأولى. "شكرًا لك يا سيدة "بيرد"، آسفين لاضطرارنا أن نطرح مثل هذه الأسئلة ولكنك ساعدتينا بشكل كبير، لقد أثبت أن ما قاله "ستيوارت" كان كذبًا."

"وبماذا أهتم؟ أنا لا أعير أى اهتمام لمساعدتكما! هل هذا سيعيد زوجى إلىّ؟"

وقفت والتقطت القميص القذر بينما مازال "باركر" ممسكًا بالآخر.

"أنا فى غاية الأسف." فى مستوى واحد معها الآن.. فقط بعيدًا عنها بقدمين، نظرت فى عينيها اللتين كانتا رماديتين بنيتين صافيتين، فى قناع من الحنق واليأس.. شعرت بالنفور. "حقيقى آسفة.. سوف نقوم..."

انتظر "باركر" أن يقاطعنى شارحًا ما سنفعله، أى وقت الآن سيكون جيدًا، كان هو قد قام على قدميه أيضًا لكنه بدا سعيدًا بتركى أقوم بالتحدث.

"سوف نقوم بالعثور على العدالة."

"العدالة!" ضحكت ولكن ضحكها بدا خوارًا أكثر من ضحكة. "ماذا عن زوجى؟ "ستيوارت" قتل زوجى، وماذا عنه؟"

"من أجله أيضًا." تراجعت ناحية الباب.. أكثر تعجلاً للرحيل من أن أبقى وأعرف لماذا هى مقتنعة تمامًا بهذا.

تقلص وجه "إليزابيث بيرد" ـ حركة بدت مثل ابتسامة لكنها لم تكن كذلك، أكدت وجود الجمجمة تحت الجلد وأعطتها مظهرًا شبيهًا برأس الموت.. تتحرك لكنها ليست حية.. شاحبة وبلا دماء وتشع بالكراهية.

بينما نمشى عائدين للمبنى الرئيس أعطانى "باركر" القميص النظيف وكأنه لا يريد التأثير السيئ للإمساك به بعد الآن، كان يشعر بالذنب لأنه أغضبها.

قلت: "سوف نرى "مودى" هذا، وعندما سيفهم."

هز "باركر" رأسه بخفة،"هذا ليس بكاف، ممكن أن يكون هذا القميص هناك منذ عدة أشهر."

"أنت لا تعتقد بذلك! وأنت تصدقها أيضًا ـ بشأن موت زوجها. أليس كذلك؟"

ألقى "باركر" بنظرة قصيرة إلىّ. "لا أعرف."

"أنت ستذهب إذًا ."

أكد "باركر" دون أن يتكلم،شعرت بالثقل المألوف يضغط على صدرى، وأنفاسى قد انحشرت فى حلقى رغم أننا لم نكن قد سرنا سوى لعدة ياردات.

"لو كان قد قتل مرشده فسيكون من الجنون أن تذهب بمفردك، سوف أستعير مسدسًا ولو لم تأخذنى معك سوف أقوم باتباع أثرك، وهذا كل ما فى الأمر."

لم يتحدث "باركر" للحظة ثم نظر إلىّ مجددًا.. بطريقة ساخرة قليلاً على ما أعتقد.

"ألا تعتقدى أن الناس سيتحدثون إذا رأونا نرحل معًا؟"

كانت هناك فجوة كبيرة فى صدرى بينما الثقل قد زال. وبدا فجأة المكان جميلاً فى عينى، الشمس تصبغ تجمعات الجليد القذرة عند السور بلون متألق أبيض مائل للزرقة. للحظة كنت واثقة أنه مهما كان حجم الخطر ـ مسلحين بالحق ـ فليس بوسعنا سوى التواجد.

بقى معى هذا الشعور حتى وصلت إلى باب حجرتى.

***

كان "لوران" فى معظم الأحيان راحلاً فى عمل، وكان "فرانسيس" يعلم بنفس القدر مثل أى شخص آخر ـ مهما كان مدى المعرفة قليلاً أم كثيرًا ـ بشأن تغيبه الغامض. فى الصيف كانت الذئاب تختفى من الغابة والأماكن المجاورة وكان هذا عندما بدأ "لوران" عمله فى التجارة. بدا هذا الصيف مشغولاً بشكل خاص ـ أو ربما كانت هذه المرة الأولى التى يهتم "فرانسيس" بكونه مشغولاً أم لا ـ وكان يقوم برحلات إلى "تورنتو" و"سالو". عندما سأله "فرانسيس" عن الوقت الذى يقضيه بعيدًا،كان "لوران" غير جاد ومراوغ تمامًا،كان يمزح بشأن استلقائه ثملاً فى الحانات أو عن زياراته لعاهرات،أو ربما لم يكن هذا مزاحًا. المرة الأولى التى ذكر فيها بيت دعارة حدق فيه "فرانسيس" بهلع جعله غير قادر على التحدث شاعرًا بألم شديد وكريه حول قلبه. أمسك "لوران" به من كتفيه وضحك وهو يهزه بخشونة حتى فقد "فرانسيس" أعصابه وبدأ يصرخ فيه.. بأشياء جارحة لم يستطع تذكرها بعد ذلك، ضحك "لوران" عليه ثم فجأة فقد أعصابه هو

الآخر. تقاذف بالإهانات حتى توقف فجأة عن الصياح وحدقا فى بعضهما البعض.. بلا حراك وفى حالة صدمة، جُرح "فرانسيس" وكان جارحًا؛ كانت لـ"لوران" طريقة قاسية وقاطعة للسيطرة عليه، لكن عندما ـ فيما بعد ـ اعتذر كان جادًا جدًا ولطيفًا.. وراغبًا ـ فى هذه المرة نزل على ركبتيه حتى اضطر "فرانسيس" أن يضحك وسامحه بحماس،جعل هذا "فرانسيس" يشعر بأنه أكبر سنًا ـ حتى أكبر من "لوران".

ثم كان هناك الرجال الذين يأتون ليروا "لوران" فى البيت، أحيانًا عندما كان "فرانسيس" يذهب ويصفر خارج الكابينة لا يكون هناك رد. كان هذا يعنى أن أحدهم مع "لوران"،وعادة ما كانوا يقضون الليلة قبل أن يحزموا أمتعتهم وينطلقوا ويتبعهم كلابهم. اكتشف "فرانسيس" بداخله كمية هائلة من الغيرة،فى أكثر من مناسبة كان يعود مبكرًا فى الصباح ويختبئ فى الشجيرات التى خلف الكابينة.. منتظرًا حتى يغادر الرجال.. يتفحص وجوههم باحثًا عن إجابات فلا يجد شيئاً. كان معظم الرجال فرنسيين أو هنديين؛ رجال جاءوا من بعيد.. ذات طابع سيئ السمعة اعتادوا أن يناموا فى العراء أكثر مما اعتادوا أن يناموا تحت سقف. كانوا يحضرون لـ"لوران" فراءً.. وتبغًا وذخيرة، ثم يغادرون كما جاءوا، أحيانًا لم يكن يبدو أنهم أحضروا أو غادروا بأى شىء. ذات مرة بعد مشادة هستيرية بعينها أخبره "لوران" أن هؤلاء الرجال يأتون إليه لأنهم يؤسسون شيئاً.. شركة تجارية، ويجب أن يبقى هذا سرًا؛ لأنهم سيثيرون ويستدعون لجام غضب شركة "هدسون باى" لو اكتشف أحدهم الأمر، وكان هذا شىء من الأفضل تجنبه. كان "فرانسيس" فرحًا بارتياح، وعوض عن الأمر بفائض من المرح والروح العالية، التى على أثرها التقط "لوران" ربابته وعزف عليها وهو يطارده فى كل أنحاء الكابينة حتى اندفع "فرانسيس" من الباب الأمامى وهو يشهق من الضحك. كان هناك شخص ما فى الممر.. بعيد إلى حد ما.. فارتد للداخل سريعًا، لقد رأى هذا الشخص للحظة فقط لكنه اعتقد أنها أمه. بعد هذا الحادث عاش لأيام فى رعب من عدم

التأكد، لكن لم يتغير شىء فى البيت، فلو كانت قد رأت.. فليس بوسعها أن تستنتج شيئاً.

جاء الخريف وجاءت معه الدراسة ثم الشتاء، فلم يعد يمكنه رؤية "لوران" كثيرًا، ولكنه كان من وقت إلى آخر يتسلل إلى الممر بعد دخول والديه للفراش ويصفر. أحيانًا يسمع صفيرًا مماثلا كإجابة.. وأحيانًا آخرى لا يسمع، وبمرور الوقت بدا له أن المرات التى يُرد فيها على صفيره تقل تدريجيًا.

فى وقت ما فى الربيع.. بعد أن كان "لوران" قد عاد مرة أخرى من واجهة غير معروفة، بدأ يلقى بتلميحات أن شيئاً مهمًا سيحدث، أنه سيجنى ثروة. كان "فرانسيس" مرتبكًا ومنزعجًا من تلك التلميحات الغامضة التى يلقيها عادة وهو ثمل، هل ينوى "لوران" الرحيل عن "دوف ريفر"؟ ما الذى سيحدث له هو "فرانسيس"؟ لو أنه حاول جره إلى (بطريقة ماهرة كما فكر) الكشف عن خططه سيغيظه "لوران" وسيكون هذا بطريقة وقحة وقاسية،إنه يلمح بشكل متكرر إلى زوجة "فرانسيس" المستقبلية وأسرته، أو إلى الدعارة أو إلى العيش جنوب الحدود.

كانت هناك مناسبة ـ الأولى من الكثير ـ عندما كان كلاهما يشرب، كان هذا فى وقت مبكر من الصيف والأمسيات أصبحت دافئة بشكل كافٍ للجلوس بالخارج، أولى النحلات قد ظهرت من حيث كانت تقضى الأشهر الباردة وأخذت تطن حول أزهار التفاح. كان هذا منذ سبعة أشهر فقط.

"بالطبع.. عندها..." كان "لوران" يلمح إلى ثرواته المستقبلية غير المعروفة مجدداً.." ستكون متزوجًا وتعيش فى مزرعة صغيرة فى مكان ما.. ولديك عدد من الأطفال، وستكون قد نسيت كل شىء عنى."

"أتوقع هذا." كان "فرانسيس" قد تعلم أن يجارى اللعبة مع تلك السيناريوهات الكئيبة الصغيرة، لأنه لو اعترض سيثير هذا حفيظة "لوران".

"أظن عندما تترك المدرسة فأنت لا تنوى البقاء هنا.. ها؟ ليس هناك الكثير لك هنا.. أليس كذلك؟"

"لا.. أتـوقع أن أذهب إلى "تـورنـتـو"، وربمـا آتى لأزورك وأنت عـلى مقعدك المتحرك من وقت لآخر."

أصدر "لوران" خوارًا وأفرغ كأسه، خطر لـ"فرانسيس" أنه كان يشرب أكثر مما اعتاد، ثم تنهد قائلاً: "أنا جاد يا صديقى الصغير.. لا يجب أن تظل هنا.. هذا المكان لا نفع منه، يجب أن ترحل بأسرع ما يمكن، فأنا مجرد أحمق ريفى عجوز."

"أنت؟ أنت ستصبح ثريًا، أتذكر ذلك؟ يمكنك الذهاب لأى مكان تريده، بوسعك الانتقال إلى "تورنتو"...."

"اخرس! لا يجب أن تكون هنا! بالتأكيد لا يجب أن تكون معى، لا جدوى من هذا.. لا جدوى منى."

"ماذا تعنى؟"حاول "فرانسيس" أن يوقف الارتعاش الذى فى صوته،"لا تكن سخيفًا.. أنت ثمل.. هذا كل شىء."

التفت "لوران" إليه.. ناطقًا كلماته بوضوح منذر. "أنا أحمق ملعون.. وأنت أحمق ملعون، ويجب أن تغرب عن هنا وتعود لماما وبابا." كان وجهه خبيثًا وقد ضاقت عيناه من الشراب. "هيا.. ما الذى تنتظره؟ أمشِ من هنا!".

وقف "فرانسيس" بألم،لم يرد لـ"لوران" أن يراه يبكى،لكنه لم يستطع أن يرحل ببساطة أيضًا.. ليس بهذه الطريقة.

"أنت لا تعنى ما تقول." قال بهدوء على قدر ما استطاع. "أنا أعرف أنك لا تعنى هذا، ولا تعنى أيضًا ما قلت بشأن الذهاب لبيوت الدعارة وإنجاب أطفال فى كل مكان، و.. كل هذا، أنا أرى كيف تنظر إلىّ..."

"آه.. يا إلهى! من لا ينظر إليك بهذه الطريقة؟ أنت أجمل شىء رأيته، ولكنك طفل أحمق ملعون، وأنا قد سئمت منك.. وأنا متزوج."

تسمر "فرانسيس" مذهول وغير مصدق، غير قادر على الرد. "أنت تكذب." قال أخيرًا. نظر "لوران" إلى أعلى بإنهاك، وكأن إخباره بهذا قد أراح شيئاً فيه.

"لا.. هذا حقيقى يا صديقى."

شعر "فرانسيس" وكأن صدره يتمزق لنصفين، تعجب لماذا لم يسقط أو يفقد الوعى حيث إن الألم كان بشعًا، استدار ومشى مبتعدًا عن الكابينة، وأخذ يمشى فى واحدة من حقول أبيه وإلى داخل الغابة، بدأ يجرى.. ونفسه متقطع حتى أنه يخفى شهقات بكائه التى تهاجمه. بعد برهة توقف عن الجرى وجثى على ركبتيه أمام شجرة صنوبر ضخمة، وخبط برأسه فى جذع الشجرة، لم يعلم كم من الوقت كان هناك؛ ربما أدخل نفسه فى حالة من اللاوعى، ممتنًا للألم الذى أخذ مكان الآخر.. أكثر قوة.. ألم رهيب.

وجده "لوران" قبل الظلام، تقفى أثره كواحد من ذئابه المبتلاه، متتبعًا تقدمه المتعرج خلال الغابة. انحنى وضعه بين ذراعيه.. اكتشفت أصابعه الجرح الذى فى جبهته.. التمعت الدموع على خده.. هامسًا باعتذاره.

بعد وقت قصير.. اعتقد "فرانسيس" أنه فاز بعد هذه الليلة، وماذا يهم لو كان "لوران" متزوجًا وماذا لو كان له ابن؛ لقد كان كل هذا من الماضى؛ لكنه لا يهم الآن بالنسبة لهما. لكن مازال "لوران" يقاوم مساعيه لإجباره على البوح.. يعرف أشياءً. الحقيقة أنه لم يرد أن يغير "فرانسيس" أى شىء فى حياته.. لا يريد إلا أن يكون "فرانسيس" مصدر إلهام من وقت لآخر. اتهمه "فرانسيس" بصوت غير مستقر ومختنق بعدم الاهتمام به، فوافق "لوران" على كلامه بقسوة.

واستمر هذا.. واستمر.. تكررت المحادثة نفسها مع تنوعات بسيطة بلا هدف طوال العديد من ليالى الصيف، وتساءل "فرانسيس" إلى أى مدى يمكنه تحمل هذا العذاب الهائل، لكنه لم يستطع التوقف عن تسليم

نفسه لهذا العذاب. حاول أن يكون مستهترًا ومرحًا في حضور "لوران" ولكن هذا لم يحظ بالكثير من التدريب. كان يعرف في أعماق قلبه أن "لوران" سوف يدفعه بعيدًا عنه كليًا آجلاً أو عاجلاً، ولكن مثل فراشة منجذبة إلى لهب شمعة.. لم يستطع منع نفسه عن الذهاب للكابينة رغم أن "لوران" كان غير موجود بشكل متزايد. لم يكن يفهم كيف لمشاعر "لوران" أن تتغير بهذا القدر في حين أن مشاعره هو قد قويت.

ثم بشكل ما.. اكتشف والده الأمر.

لم يكن حدثًا كارثيًا، كان يبدو أكثر وكأن والده كان يضع قطعًا من أحجية بجانب بعضها البعض، يراقب بصبر ويجمع القطع الصغيرة.. حتى وضحت الصورة في النهاية. كانت هناك أوقات لا يعود "فرانسيس" حتى بعد أن يصحو والداه من النوم، فيغمغم بتعليقات غير مقنعة عن نزهات على الأقدام في الصباح الباكر. ثم كانت هناك مرة عندما جاء والده لكابينة "لوران" ليجد "فرانسيس" هناك، فادعى أنه يتعلم درسًا في نحت الخشب، ربما كان هذا عندما عرف رغم أنه لم تظهر عليه أية علامة خارجية. أو كانت هناك مرة أخرى ـ كانت غير حكيمة ـ عندما ادعى أنه قضى الليلة عند "إيدا"، رفع والده حاجبه قليلاً ولكن لم يقل شيئاً، ثم كان على "فرانسيس" أن يجد عذرًا ليهرع مذعورًا إلى منزل آل "بريتي" ويعثر على "إيدا". لم يكن متأكدًا مما سيقوله لها كذلك، لكنه لفق قصة حول كونه قد سكر في "كالفيلد" واضطراره لإخفاء هذه عن والديه، كان وجهها حجريًا وصامتًا، ورغم ذلك أومأت بالموافقة، ونظرت إليه بعينين مجروحتين فشعر هو بالخجل.

إلا أن الأمر وقع، وأصبح والده الذي لفترة ما وجد من الصعب التحدث إلى "فرانسيس" ـ وهمًا لم يكونا قريبين قط ـ أصبح غير محتمل. لم يقل أي شيء مباشرة، لكنه لم يكن ينظر في عينيه عندما يتحدث إليه، وكان يفعل هذا فقط ليأمره بالقيام ببعض المهام المنزلية أو تحسين سلوكه، كان يبدو أنه يعامل ابنه باحتقار بارد صامت؛ وكأنه لم يعد

يستطيع تحمل وجوده فى المنزل معه. أحيانًا وهو جالس إلى المائدة فى المنطقة الباردة بين أمه وأبيه.. يشعر "فرانسيس" بالغثيان يتصاعد فى حلقه ويهدد بالتغلب عليه. ذات مرة.. بينما يتحدث إلى أمه حول شىء ما.. أمسك بعين والده.. وهو غير حذر.. فلم ير فيها غير غضب بارد محقق.

شىء واحد جعله مندهشًا أنه لابد أنه أبقى الأمر سرًا عن أمه، شعرت بوضوح بالبرود بين الأب والابن، ولقد أحزنها هذا، لكنها لم تعامله بطريقة مختلفة؛ بكلمات أخرى كانت نفس المرأة غير السعيدة الجزعة التى كانتها منذ يمكنه التذكر.

كان فى نهاية شهر أكتوبر.. أن عاهد "فرانسيس" نفسه مرات عديدة ألا يعود إلى كابينة "لوران".. عهد، وجد أنه من المستحيل الحفاظ عليه. هذا المساء بالتحديد وجد نفسه هناك،وبعد برهة بدأ مجادلة طويلة مريرة.. قائلاً: إن الأشياء نفسها التى قالوها من قبل.. مرارًا وتكرارًا.. كره "فرانسيس" نفسه فى هذه اللحظات، لكن لم يكن قادرًا على التوقف. من وقت لآخر عندما يكون وحيدًا، يمكنه تخيل نفسه يمشى مبتعدًا بكرامة.. مرفوع الرأس، لكن عندما يقف فى مطبخ "جاميه".. مواجهًا الرجل بنفسه ـ مبعثر.. غير حليق.. خشن ـ فتتملكه رغبة مجنونة فى أن يلقى بنفسه عند قدميه،أن يتوسل إليه بالدموع؛ أن يقتل نفسه؛ أى شىء لينهى هذا العذاب.. أن يقتل "لوران".

"أنا لم آت إليك.. أتذكر؟" صاح "فرانسيس" بصوت متحشرج.. مثلما فعل العديد من المرات من قبل. "أنا لم أطلب منك ذلك! أنت من جعلنى أحب هذا... أنت!".

"وأنا أتمنى أنه لم تقع عيناى عليك قط، يا إلهى.. أنت تشعرنى بالسقم!" ثم قال "لوران". "على أى حال لا يهم، أنا راحل،لفترة طويلة، ولا أعرف متى سأعود."

حدق "فرانسيس" فيه غير مصدق ما يقوله للحظة.

"حسنًا.. قل مثلما يحلو لك."

"أنا راحل الأسبوع القادم."

تبخر الغضب من وجه "لوران"، راود "فرانسيس" شعور بارد سقيم أن ما قاله حقيقيًا، التفت "لوران" بعيدًا شاغلاً نفسه بشيء ما.

"ربما حينما ستتخطى الأمر.. ها؟ ابحث لنفسك عن فتاة لطيفة."

شعر "فرانسيس" بتهديد الدموع، شعر بالضعف فى جسده كله، وكأنه ينهار من الحمى. "لوران" راحل.. لقد انتهى الأمر، لم يكن يفهم كيف من الممكن أن يشعر بمثل هذا الألم ويستمر فى الحياة.

"هيا.. فالأمر ليس فى غاية السوء، أنت فتى جيد حقًا." كان "لوران" قد رأى وجهه، وحاول أن يكون طيبًا، كان هذا أسوأ من الإهانات الجارحة أو التعليقات الحادة.

"أرجوك..." لم يعرف "فرانسيس" ماذا سيقول. "أرجوك.. لا تقل هذا الآن، اذهب فحسب.. فى وقت ما.. ولكن لا تقل هذا الآن.. دعنا نستمر معًا.. حتى..."

ربما كان "لوران" متعبًا كذلك من الشجار، ولهذا حرك كتفيه وابتسم، فذهب "فرانسيس" إليه ووضع ذراعيه حوله. ربت "لوران" على ظهره بطريقة أبوية أكثر منها أى شىء آخر،فتعلق به "فرانسيس" متمنيًا أن يكون فى وسعه الابتعاد.. متمنيًا لو كان صيف السنة الماضية قد ذهب بلا رجعة.

يا حبى.. يا عليل بى حتى الموت.

بقى هذه الليلة لكنه رقد مستيقظًا خلالها، منصتًا إلى أنفاس "لوران" بجانب، تمكن من أن يقوم ويرتدى ملابسه دون إيقاظه، رغم أنه قبل أن يغادر انحنى وقبله برقة على وجنته، لم يستيقظ "لوران" أو اختار ألا يفعل.

ثم.. بعد ذلك بأسبوعين كان يقف بداخل الكابينة المظلمة، ينظر إلى الجسد الدافئ الفارغ الراقد على الفراش.

فليساعده الله لو لم تكن الفكرة الثانية التى راودته: آه.. ياحبى.. لا يمكنك الرحيل عنى الآن.

***

إحياء التفكير العميق

جلس " ستاروك " إلى طاولة فى حانة تشبه إلى حد كبير تلك التى جلس إليها منذ سنين مضت حين كان مستغرقًا فى بحثه عن كل من " آمى" و"إيف " سيتون إذ كان يشرب الويسكى مع شاب كان قد تعرف إليه لتوه ؛ كان ذلك الشاب هو " كاهون وس " وكان " ستاروك " قد سمع به قبلاً وقد اختلجه شعور بالفخر إزاء رغبة الفتى لملاقاته، بدا "كاهون وس" شابًا هنديًا طويل القامة ذا ملامح "موهاكية" صريحة بذل جهده محاولا شق طريقه فى الصحافة ؛ بدا الشاب ـ رغم فصاحته و ذكائه ـ مشتتًا ما بين عالمين لا يدرى كيف يوفق بينهما ، تبدى ذلك بوضوح من هيئة ملبسه ؛ إذ كان يرتدى أحيانًا ملابس تُجارى الموضة فى ذلك الوقت : معطفًا مفتوحًا من الأمام ؛ قبعة رسمية ؛ حذاءً ذا رقبة ، على نحو أنيق إلى حد ما، بينما كان يرتدى ـ فى أحيان أخرى ـ ملابس جلدية أو حتى ملابس تجمع ما بين الطيفين معًا ، كما كانت لكنته ـ هى الأخرى ـ مرة طليقة وأخرى لغة المثقفين ـ كما بدا ذلك فى حديثه أول مرة التقى فيها " ستاروك "- وتارة أخرى يبدو فيها التحذلق واضحًا على نحو يكشف عن هويته الهندية الأصل ، وكان هذا يعتمد كلية على من يُحادثه. سرَّ "ستاروك" التحدث مع هذا الشاب عن الصحافة وشئونها ؛ غير أنه كان يأمل بالأحرى أن يجدى هذا الشاب نفعًا فى رحلة بحثه عن تلك الفتاتين ؛ فقد كان لـ" كاهون ـ وس" شبكة كبيرة من الأصدقاء إذ كان دائم الترحال مختلطًا بقطاعات كبيرة من الناس؛ أى لكونه مثيراً للمتاعب ـ بحسب ما كان أصحاب السلطة فى " تورنتو " يطلقون عليه، مما وطد علاقة "ستاروك" به، فقد كان ستاروك مثيرًا للمتاعب أيضًا.

كان " كاهون ـ وس" قد سمع بحادثة اختفاء الفتاتين ، شأنه فى ذلك شأن كثير من الناس فى جنوب "كندا" ؛ فأفضى "ستاروك" إليه بشأن بحثه عن هاتين الفتاتين، وكان قد أضناه الوقت بحثاً عنهما حتى إن اليأس فى النجاح كاد أن يشارف مبلغه.

"آه.. الفتاتان اللتان اختطفهما الهنود الأشرار."

"أو افترستهما الذئاب، أكاد أن أصدق هذا الافتراض غير أن والدهما لا يزال مصرًا على ألا يدع من الأرض شبرًا إلا أن ننقبه بحثًا عنهما".

قال لـ"كاهون وس" إنه قد قصد إلى العصابات على جانبى الحدود بالإضافة إلى معارفه من ذوى الشأن الذين ساعدوه من قبل فى مساعيه فى حوادث سابقة ؛ إلا أنه لم يصل إلى ما يشفى غليل بحثه.

صمت "كاهون وس" لبرهة قبل أن يفضى إلى "ستاروك" أنه ربما يقصد إلى أولئك الذين التقاهم قبلاً ؛ إذ كان على "ستاروك" أن يعى جيدًا أن إجابة أسئلته الحيرى (مثلها مثل طريقة" كاهون "فى الملبس والكلام) يجب أن تعتمد على الطرف الآخر الذى تلقى إليه بالخطاب.

بعدها بعدة أشهر، ولدى تجوله فى " فورست لايك" ، سمع " ستاروك "عن الصحفى الشاب؛ إذ علم أن " كاهون ـ وس" ليس بعيدًا عن المكان الذى يتجول فيه إلا ببضعة أميال، وحين التقاه" ستاروك" هذه المرة وجده مرتديًا ملابس هندية وقد اختلفت طريقة كلامه عن تلك التى بدت منه فى لقائهما المرة السابقة، فقد كان غاضبًا لفشل مساعيه لنشر مقالاته فى صحف البيض، استقر فى رأس" ستاروك" انطباع عن "كاهون ـ وس" مفاده أن هذا الشاب متقلب الطباع قد يبدد طاقاته عبثًا ما لم يتوفر له التشجيع المناسب، فعرض عليه أن يقرأ بعض مقالاته وأن يسديه النصح فى هذا الشأن؛ غير أن " كاهون ـ وس" بدا هذه المرة غير مهتم بمساعدة "ستاروك" له.

تحدثا هذه المرة حول وجود حضارة هندية قديمة أعظم و أرقى من التى خلفتها ؛ كان حديث " كاهون ـ وس" يفيض ولعًا إزاء هذا الأمر، ورغم أن "ستاروك" لم يكن ليصدق قوله و لو للحظة، إلا أنه لم يستطع مقاومة سحر حديثه. التقى الاثنان مرة أخرى بعد ذلك بعدة أشهر خارج " كينجستون " غير أنهما لم يتحادثا لوقت طويل هذه المرة؛ إذ ارتأى "ستاروك" أن صاحبه يفرط فى الشرب ولم يكن لديه أية أخبار جديدة فى تلك المرة ؛ فقد تحدث إلى زعيم جماعة من قبيلة " تشيبوا" الذين يعيشون فى محيط شلالات "بيرك". تحدث هذا الرجل إلى "ستاروك" عما يشاع حول أن ثمة امرأة بيضاء تعيش بين الهنود، لم يكن فى جعبة الرجل سوى ذلك ليخبر به "ستاروك" ، غير أن ذلك لم يكن من السوء بدرجة تفوق فى سوئها دروبًا كثيرة جاس فيها "ستاروك" من قبل فى هذا المجال.

بعد ذلك بعدة أسابيع، قام "ستاروك" يرافقه" سيتون" إلى قرية صغيرة والتى انطلقا منها بعد كثير من المفاوضات إلى مخيم هندى كيما يلتقيا الفتاة التى أخبره عنها ذلك الهندى. كان قد مضى على اختفاء الفتاتين حينها ما يربو على ست سنوات أى ما يقرب من ثلاث سنوات على وفاة السيدة "سيتون" بداء غامض شاع القول بأنه جلطة قلبية جراء حزنها البالغ لفقدان ابنتيها. كان "ستاروك" دومًا يأسى لحال "تشارلز سيتون" ؛ فلكم بدت معاناة هذا الرجل جرحًا غائرًا يتقيح فيما تكسو سطحه أنسجة الاندمال، لم يكن ثمة شىء فى العالم أسوأ من الترقب؛ فلم ينبس السيد "سيتون" ببنت شفة منذ انطلقا من القرية باتجاه المخيم؛ كان وجهه شاحبًا كأوراق الشجر المتساقط فى الخريف وبدا الرجل عليلاً أثقله السقم، لقد بدا قبل انطلاقهما منشغلاً بمعرفة أى من ابنتيه يفترض أن تكون تلك التى سمعا بوجودها ما بين الهنود: إن كانت "إيف" فهى الآن فى السابعة عشرة؛ أما إن كانت "إيمى" فهى فى التاسعة عشرة الآن حتمًا، لم يكن لدى أحدٍ أدنى فكرة عن عمر الفتاة المعنية أو حتى اسمها الأصلى؛ فللفتاة المعنية تلك اسم هندى الآن.

حاول "ستاروك" أن يتجاذب أطراف الحديث مع "سيتون" مذكرًا إياه أن الفتاة ـ لو ثبت أنها ابنته حقًا ـ ستكون قد تغيرت كثيرًا، فأصر "سيتون" على أنه سيعرفها مهما كان الأمر.

رمى ببصره للأفق البعيد قائلاً: " كيف لى أن أنسى ملمحًا من ملامح وجه أية واحدة منهما ما بقيت حياً ؟!".

واصل "ستاروك" إصراره بلطف: " ولكن الملحوظ واقعيًا هو كم يتغير البعض منا بمرور الزمن؛ لقد رأيت من قبل آباء لم يتمكنوا من التعرف على أطفالهم على الرغم من قصر المدة التى قضاها هؤلاء الأطفال بين الهنود، فليس الأمر مقتصرًا على ملامح الوجه فحسب بل يمتد ليشمل كل دقائق الشخص وتفاصيل شخصيته : لغة الطفل؛ تحركاته .. نمط حياته كلية".

رد "سيتون": "مهما كان الأمر ، سأعرفهما".

ترجلا خارج الخيام وتركا الخيل ترعى، ذهب مرشدهما إلى الخيمة الكبرى، وإذا بشيخ يكلل رأسه المشيب يخرج عليهما؛ تحدث إليهما بلغة الـ" شيبوا " بينما انخرط المرشد فى ترجمة ما يقول:

"يقول إن الفتاة ذهبت معهم بمحض إرادتها، وهاهى الآن قد صارت واحدة منهم تمامًا، كما أنه يود أن يعرف ما إذا كنتم قد أتيتم لأخذها منهم ؟ ".

تدخل "ستاروك " فى الحديث قبل أن يقحم "سيتون" نفسه : "لن نأخذها عنوة ما دامت لا تود المجىء معنا، غير أنها لو كانت ابنة هذا الرجل فعلا، فهو يود أن يتحدث إليها؛ لقد أضناه الزمان بحثًا عنها".

أومأ الشيخ برأسه موافقًا وقادهما إلى خيمة أخرى، ولج إلى الداخل ثم استدعاهما ليدخلا؛ جلسا بالداخل وبدا من الصعب رؤية أى شىء داخل هذه الخيمة الضيقة المظلمة المفعمة بالدخان، استغرق الأمر منهما

عدة دقائق ليدركا أنهما جالسان بإزاء شخصين آخرين يجلسان بمواجهتهما؛ إنهما رجل وإمرأة من قبيلة "تشيبوا"، شهق "سيتون" بصوت بدا كما لو كان مواء قطة؛ حدق فى المرأة التى بدت فتاة أكثر من كونها امرأة.

لوجهها لون داكن ذات عينين داكنتين وشعر أسود مسترسل تتلألأ خصلاته بالزيت، ترتدى ثوبًا من الجلد يلفها رداء مخطط رغم دفء الجو،تطرق بعينيها إلى الأرض، لم يكن " ستاروك " ليعتبرها ـ للوهلة الأولى ـ سوى واحدة من فتيات الـ" شيبوا" ؛ كما خمن أن الرجل الذى يجلس بجانبها هو زوجها، رغم أن أحدًا لم يعرفهما عليهما، ساد الموقف جو من الحيرة لدقائق لم يصدر فيها "سيتون" أى رد فعل آخر؛ إذ بدا وكأن الكلام قد اختنق بحلقومه ، كان فمه فاغرًا غير أن حلقه قد أوصد دون التفوه بكلمة.

كسر "ستاروك" الصمت قائلا: " نشكر لكما الموافقة على لقائنا" ، بينما كان يجوس بخاطره أنه لم ير وجه " تشارلز سيتون" بمثل هذا الأسى من قبل؛ "هلا رفعت وجهك شيئًا قليلاً حتى يتمكن السيد "سيتون" من رؤيته بوضوح، سيدتى ؟".

ابتسم مشجعًا للزوجين الصغيرين، حدق الرجل فيه ولم تبد عليه أى رد فعل، ربت على يد الفتاة، فرفعت رأسها بينما عيناها مطرقتين أرضًا، هاجت الأنفاس فى صدر "سيتون" فى أفق الفراغ هذا، بينما جالت عينا "ستاروك" بين "سيتون" والفتاة بانتظار أن يتعرف أحدهما على الآخر ، فلربما كان الأمر مطاردة لا جدوى منها فى النهاية، مرت الدقائق ثقيلة يتأرجح الموقف على لهيب صمتها المؤلم،التقط "سيتون" أنفاسه أخيرًا:

" لست أعرف أيًا منهما، ولكنها ابنتى.. لو أن لى أن أرى عينيها..."

سرت فى فرائص "ستاروك" رعشة خفيفة، نظر إلى الفتاة التى ما تزال متجمدة كتمثال من الحجر؛ ناداها باسمها الهندى :

""وآتاناكى، ما لون عينيك؟"

رفعت عينيها أخيرًا تجاه "سيتون"، فنظر فى عينيها اللتين بدتا ـ على ما استطاع "ستاروك " التحقق منه فى هذا الضوء الشحيح ـ بنيتين.

سحب "سيتون" نفسًا أليمًا آخر، إيف"!" تحشرج صوته وانحدرت دمعة بصمت على خده، غير أنها كانت خلاصة عمر أُفنى، فها قد عثر على إحدى ابنتيه بعد ست سنوات من البحث المضنى.

حدقت فيه الفتاة للحظة، ثم خفضت عينيها مرة أخرى، ربما كانت هذه إيماءة منها.

"إيف..."

ود "سيتون" لو يميل إليها ويضمها بين ذراعيه، كان بإمكان "ستاروك" أن يشعر بهذا، ولكن الفتاة كانت ثابتة ومحرمة فلم يتحرك، كل ما استطاع فعله أن ناداها باسمها مجددًا لمرة أخرى أو مرتين، ثم أخذ يحاول جهده أن يهدأ من وقع الموقف.

"ما...لا أعرف كيف... هل أنت بخير؟"

حركت رأسها لأعلى ولأسفل، شق صوت الشيخ صمت الموقف مرة أخرى؛ بينما أخذ المترجم الذى انحشر هو الآخر داخل تلك الخيمة الضيقة يترجم ما يقول :

"هذا الرجل زوجها، وهذا الشيخ هو عمه، وهو من تكفل بها فى عائلته منذ أن عُثِر عليها".

"عُثِر عليها؟ أين؟ ومتى كان هذا؟ مع "إيمى"؟ أين "إيمى"؟ هل هى هنا؟ هل تعرف؟"

أعقب الشيخ كلام "سيتون" بتعليق أدرك "ستاروك" أنه لعن منه، ثم بدأت "إيف" نفسها تتحدث، بينما عيناها تنظران إلى نقطة ما على الأرض.

"كان هذا منذ خمس.. ست.. أو سبع سنوات، لا أذكر، يبدو هذا منذ وقت طويل، كنا قد ضللنا الطريق بينما كنا نتنزه ، مضت الفتاة الأخرى أولاً.. ذهبت بدوننا، فظللنا نسير ونسير حتى أدركنا الإرهاق فارتمينا أرضًا ورحنا فى نوم عميق؛ غير أنى ألفيت نفسى وحيدة حين أفقت من نومى، لم يكن بوسعى أن أدرك أين أنا ولا حتى أين الآخرون ، تمكن الخوف منى وجاس برأسى أننى سأموت ، ثم لاح لى فى ناظرىَّ طيف عمى هذا (أى الشيخ الكبير)، اصطحبنى معه؛ أطعمنى وآوانى".

"و"إيمى"؟ ماذا حدث لها؟"

لم تنظر "إيف" إليه" لا أعلم ماذا حدث، ظننت أنها تركتنى؛ أو أنها كانت غاضبة وذهبت للمنزل من دونى."

هز "سيتون" رأسه: "لا.. لا.. نحن لم نعرف ما حدث لأى منكما، لقد عادت "كاثى سلون"، ولكن لم يكن هناك أى أثر لكِ أو لـ"إيمى"... لقد بحثنا وبحثنا، لم أتوقف عن البحث عنكما قط منذ هذا اليوم، لابد أن تصدقى هذا."

"حدث هذا حقيقة "كسر" ستاروك "قتامة الصمت" لقد أفنى والدك كل دقيقة من عمره الذى مضى كما أنفق كل ما فى حوزته بحثًا عنكما ـ أنتِ وأختك".

ازدرد "سيتون" لعابه ـ بدا ذلك عاليًا فى تلك الخيمة الصغيرة، "علىَّ أن أخبرك، لكم يؤسفنى أن أخبرك بأنه بحلول إبريل المقبل سيكون قد مضى على وفاة والدتك ثلاثة أعوام؛ فهى لم تجد من سقمها إثر اختفائكما معافاة؛ لم تكن لها طاقة بذلك".

رفعت الفتاة ناظريها، ظن "ستاروك" أنه قد رأى أول ـ وآخر ـ أثر للمشاعر على وجهها؛ "ماما ماتت."، قلبت هذا فى ذهنها محاولة فهمه، وتبادلت نظرة مع زوجها، رغم أن "ستاروك" لم يستطع تخمين ما تعنيه هذه النظرة، رغم أنه من القسوة قول هذا.. إلا أنه من سوء الحظ ـ فوجود السيدة "سيتون" حتى عن بعد كان ليصنع فرقًا فيما حدث بعد ذلك.

مسح "سيتون" دمعة انسالت على وجهه؛ لحظة ظن "ستاروك" أن السيد "سيتون" سيبدأ بالكلام ؛ سيدع حمم الكبت الذى طالما كبح جماحه بداخله لسنين طوال، ومن ثم يجد لنفسه سبيلا جديدًا فى الحياة، كان "ستاروك" يتساءل إلى أى مدى عليه أن ينتظر قبل أن ينهى المقابلة، قبل أن يلقى الضجر بسهامه فى نفس أى من الجلوس، ويغدو من الصعب تدارك الموقف.

بدا صوت "سيتون" خشنًا وعاليًا جدًا فى مساحة الخيمة المحدودة:

"أنا لا أعترض على ما حدث، لكن لابد أن أعرف ماذا حدث لـ"إيمى"، يجب أن أعرف! أرجوك أخبرينى."

"لقد أخبرتك أننى لا أعرف، فأنا لم أرها حية بعد ذلك قط."

بدت الجملة غريبة.. حتى على أذنى "ستاروك".

"أنت تعنين... أنك رايتها ميتة؟" بدا متوترًا غير أنه كان لا يزال بوسعه التحكم بنفسه.

"لا، أنا لم أرها مجددًا على الإطلاق، هذا ما عنيته" ردت الفتاة بجد من موقع الدفاع، ود "ستاروك" لو كان "سيتون" قد ترك السؤال عن "إيمى" وشأنه؛ فحديثه المتكرر و الملح مع ابنته عن" ايمى" لم يكن ليجدى نفعًا فى شىء .

"ستعودين معى، عليك أن تعودى معى، كما يتوجب أن نستمر فى البحث عن "ايمى" "، بدت عيناه ـ أى سيتون ـ معلقتين بالمدى كعينى ميت هجرتهما الحياة، مال "ستاروك" عليه يشد من عضده ليهدئ من روعه، غير أن سيتون من شدة الأمر لم يكن ليشعر بذلك مطلقًا.

"لطفًا، أظن أنه يحسن بنا....معذرة..." كان كلامه موجهًا للجميع "إنه الضغط ؛ ليس بوسع أحد منكم أن يتصور كم كبده الأمر من مشقة طوال السنوات الماضية ، ليس يدرى ماذا يقول..."

" اللعنة يا رجل، إننى أعرف ـ بالطبع ـ ماذا أقول!" أزاح "سيتون" يد"ستاروك" بشدة عن ذراعه " يجب أن تعود معى، إنها ابنتى، ليس ثمة سبيل أخرى سوى تلك .."

مد يده فوق لهب النار إلى الفتاة ، فانتفضت و رجعت للخلف قليلا ؛ و هنا كشف تقهقرها للوراء ما كان الرداء المخطط يخفيه حتى هذه اللحظة: إنها مثقلة بالحمل، فانتصب الشاب واقفاً يحول دون الفتاة .

"عليك أن ترحل الآن." بدت لغته الإنجليزية صريحة، غير أنه استعاد الحديث بلغته الأصل متوجهًا بالكلام إلى المترجم.

داهمت "سيتون" نوبة من شهيق و بكاء، لقد راعه ما يحدث، غير أنه لا يزال مصرًا :"إيف ، لا عليك، خلِّ ما كان إلى سبيله! حسبى أن تأتى معى.. عودى معى، عزيزتى! يجب أن..."

حمل "ستاروك" والمترجم معًا "سيتون" إلى خارج الخيمة وصولا إلى خيولهم، نجحا فى وضعه على السرج، وأقنعاه على نحو ما بالرحيل ، رغم ما يكتنف هذا الموقف من ضبابية فى ذاكرة" ستاروك"، غير أن "سيتون " لم يتوقف عن مناداة ابنته يتملكه النشيج.

و بعدها بعام ، وفى عمر الثانية و الخمسين مات "سيتون" إثر جلطة ، ولم ير " إيف " مرة أخرى بعد تلك المرة ، ورغم البحث الحثيث لم يُعثر لـ" ايمى" على أثر و لو بسيط ، حتى أن " ستاروك " كان يشك أحيانًا فى وجودها من الأساس ، وكان يخجل لدوره فى هذا؛ كان يريد التوقف عن هذا البحث ؛ إذ لم يلق هوس "سيتون" بالبحث عن ابنتيه مردودًا شافيًا؛ فما شهده فى لقاء "سيتون" بابنته علمه ذلك فعلاً ، غير أنه ما استطاع حمل نفسه على ترك الأمر والكف عن السير فى هذه السبيل ؛ فقد كابد" سيتون " الكثير والكثير ، لذا استمر "ستاروك" على غير رغبة منه دونما ثمرة يستطيب بها أو راحة بظلها يستفىء، واتته فيما بعد فكرة مفادها أن يستدعى شخصًا آخر ليأخذ موضعه فى هذا الطريق ، غير أن هذه

الظهيرة ـ فى شلالات" بيرك" ـ جمعت مابين هذين الرجلين فى وثاق من الصمت، وكان أغرب ما فى الأمر رفض " سيتون " الاعتراف بأن تكون الفتاة التى التقياها هى " إيف" فعلاً، وعد ما حدث إنذارًا آخر كاذبًا؛ أى أنها كانت فتاة غير "إيف" الحقيقية، ووفق فى إقناع "ستاروك" بالإبقاء على الأمر طى الكتمان ، وأذعن له " ستاروك " على مضض، ولم يكن من أحد آخر قد اطلع على ذلك إلا " آندرو نوكس " وكان ذلك عن غير قصد.

ولم يعرض " سيتون " لفكرة معاودة الذهاب إلى محيط شلالات "بيرك " ومحاولة إقناع "إيف" بالعودة معه سوى مرة أو مرتين ، ولكن كانت جذوة تحمسه لمثل هذا الأمر قد أخذت تخبو عن المرة الأولى ، وقد ساور "ستاروك" الشك إزاء قدرته على تحمل هذه التجربة مجددًا، وقد ذهب ستاروك مرة أخرى ـ دون علم من سيتون ـ بعد أسبوع إلى الفتاة ليتحدث معها بمفرده، غير أنه لم يعثر لهؤلاء القوم على أثر، وارتاب بشأن نتاج التحدث إليها مرة أخرى من الأساس.

***

ألقى الطريق الممتد إلى الشمال على طول النهر بتأثيره عليهم جميعًا؛ فها هم المزيد من الرجال يتأهبون للرحيل حسبما يشاع؛ باحثون تلو باحثين، سوى أنها لن تنضم بينهم بطبيعة الأمر، غير أنها تشعر بذات الوقع تمامًا مثلهم، وهذا ما دفع بها إلى هنا، فقد تركت مخالب الرياح الحادة أثرها فى وجه "ماريا" بينما كانت تسير على الدرب المار بجانب النهر ، وقد تعرت الأشجار من أوراقها، ودُهكت الأوراق المتساقطة بالوحل، وقد ذهب بهاء الجليد، ترى فى المدى الكتلة الجليدية الناعمة لمنحدر "هورسهيد بلف" ، تترقرق المياه من تحتها تذيبها فى الحوض الذى نحتته هذه المياه لنفسها فى قلب الجليد، آهٍ ؛ لكم اعتادت أن تأتى للسباحة هنا برفقة أختها "سوزانا" كل صيف، غير أنها أقلعت عن كل هذا منذ سنوات ؛ الحق أنها لم تعد تسبح منذ ذاك اليوم الذى رأت فيه ذلك الشىء فى الماء.

لم تكن ماريا واحدة من أولئك الذين عثروا عليه؛ فقد كانوا مجموعة من الفتيان الذين يصغرونها سنًا كانوا قد أتوا بغرض الصيد، غير أن صيحاتهم حين رأوا ذلك الشئ بالنهر شدت انتباه "ماريا" و"دافيد بل" ـ صديق ماريا المفضل آنذاك ـ ؛ لم يكن أحد ليهتم بأمرها فى المدرسة سوى "دافيد"؛ لم يكونا حبيبين بل منبوذين اتحدا ضد بقية العالم، كانا يتسكعان فى الغابات يدخنان ويتناقشان فى السياسة والكتب وعيوب أقرانهم، لم تكن "ماريا" تحب التدخين بحد ذاته كثيرًا لكنها الرغبة فى اختراق دوائر المُحرَّم ، ولذا حملت نفسها على التدخين.

سمعا الصيحات المتسارعة فركضا تجاه ضفة النهر؛ فإذا بهما بإزاء صبية يحدقون فى الماء، كان الصبية يضحكون على النقيض مما كانت صيحاتهم تفوح به من خطر، التفت أحدهم متوجهاً إلى "دافيد": "تعال وانظر! التفت فتى منهم ووجه كلامه لـ"دافيد": "تعال وانظر! لن ترى شيئاً مثل هذا!".

تقدما ناحية الضفة ؛ وقد ماجت على وجهيهما ابتسامة مشوبة بالترقب الحذر، و ماهى إلا هنيهة حتى وقعت عيناهما على هذا الذى بالماء.

وضعت "ماريا" يدها على وجهها فى صدمة.

كان النهر يمازحهما بهذه الجثة ، تدور اليدان ببطء ؛ تخرجان شيئًا فشيئًا.

من الأعماق المظلمة، لا لون لهما منتفختان قليلا، هاهى الرأس صاعدة من العمق، تدور الرأس تجاههما تحدق فيهما، ثم تولى إلى الجهة الأخرى ، كان الوجه واضحًا فى ذاكرتها الآن كما كان حينها، إلا أنها لم تستطع وصفه لو حاولت ـ إذا ما كانت العينان مفتوحتين أم مغلقتين.. أو كيف كان وضع الفم، كان ثمة رعب قاتل فى الحركة الكسولة التى تموج بها الجثة التى أمسكت بها العوامة؛ وقد دفعت بها صدفة غريبة إلى

الأعلى دفعة واحدة ؛ بدت اليدان فوق الرأس كما لو كانت الجثة الغرقى ترقص رقصة الـ"ريل"، لم تحتمل "ماريا" كثرة النظر أكثر من ذلك على عكس ما فعل الآخرون، كانت تعرف الرجل الميت؛ إلا انها لم تتذكره على وجه الدقة حتى بعدما أُخْبِرت بأن هذا الغريق هو "دكتور ويد" لم يكن بوسعها أن تطابق الوجه الذى رأته بالنهر بما تبقى فى ذاكرتها من ملامح لذلك الرجل الإسكتلندى العجوز.

عليها حتى هذه اللحظة ـ وبعد مضى كل هذه السنوات ـ أن تدقق فى أعماق النهر القاتم لتتأكد فقط من أنه لا يحمل فى أحشائه ذاك الغريب.

همًّا بمغادرة النهر، أمسك "دافيد" بيدها، ومضيا فى الطريق إلى المنزل ، كان صامتًا على غير عادته وقبل أن يخرجا من الغابة سحبها خلف جذع شجرة وقبّلها، أطلت من عينيه نظرة قلقة سرت على إثرها فى فرائصها رعشة؛لم تدر ما فحوى هذه النظرة، تخشّب جسدها عاجزةً عن التعاطى مع الموقف؛ تملصت بطريقة ما ؛ دفعت نفسها بعيدًا ، ومضت أمامه فى الطريق إلى المنزل، لم تكن صداقتهما سهلة بعد ذلك كما كانت من قبل، حتى أتى الصيف التالى فانتقلت عائلته عائدة للشرق، كان "دافيد" هو الفتى الوحيد الذى أراد تقبيلها؛ حتى قابلت "روبرت فيشر".

ما هى إلا ساعة على وجه التقريب، حتى وصلت " ماريا " إلى كابينة "جاميه"؛ ترجلت من على ظهر دابتها، سارت على طبقة الجليد المتعفنة التى تراكمت حول الباب الأمامى، كان الجليد لا يزال متراكمًا أيضًا على سطح الكابينة؛ بدت الكابينة ضئيلة فى قاع كئيب، لربما كانت حادثة القتل أكثر قدرة على إبعاد المشترين المحتملين من حادث غرق .

كان هناك العديد من آثار الأقدام تلتف حول الكابينة، فى الأغلب تنتمى لأطفال يتحدون بعضهم البعض، ولكن أمام الباب كانت الأرض مستوية ـ لم يدخل أحد مؤخرًا. مشت "ماريا" بثبات إلى الأمام، كان هناك سلك على الباب ليبقيه مغلقًا، قامت بخلعه فجرحت جلد إبهامها. لم تكن

قد دخلت الكابينة قط.. حيث لم يكن "جاميه" يعتبر كصاحب مناسب للفتيات من العائلات الجيدة. وجدت نفسها تغمغم باعتذار لروحه ـ أو شىء من هذا القبيل ـ لاقتحامها المكان، قالت لنفسها إن ما كانت تفعله هو فقط التفحص لتتأكد أن قطعة العظم لم يتم عدم ملاحظتها فى ركن ما.. فشىء صغير مثل قطعة عظم يمكن بسهولة فقدانها، كانت أيضًا تجبر نفسها على فعل شىء هى خائفة منه، رغم أنها لم تكن متأكدة ما الذى يخيفها.

تسرب ضوء خافت فقط خلال النوافذ المصنوعة من الجلد، فكان للمكان كله شعور غريب بكونه تحت قطعة من القماش. كان هادئاً جدًا.. ليس هناك شىء بالداخل.. سوى صندوقين من الشاى وموقد.. ينتظر أيدى جديدة لتعيده للحياة، والغبار مثل طبقة رقيقة من نتف الثلج على الأرضية، طبعت قدماها آثارًا عليها.

اتضح أنه حتى المنزل الفارغ لديه الكثير ليقدمه عندما بدأت فى البحث؛ أدوات مطبخ قديمة.. قصاصات من جرائد.. مجموعة مسامير.. خصلة شعر داكنة (ارتعشت).. رباط حذاء... كل الأشياء التى لا يزعج الناس أنفسهم بالتخلص منها.. لأنها لا تساوى أى شىء.. لأن أحدًا لن يحتاج لمثل هذه الأشياء.. حتى الشخص الذى عاش هناك.

نحن نترك القليل.

ليس هناك طريقة الآن لمعرفة كيف عاش "لوران جاميه".. ليس بالنسبة لها. كان هناك بالأعلى ـ حيث خاطرت بالصعود بعد وقت طويل ـ زوج من الصناديق الخشبية الفارغة، لا شىء يبدو مثل قطعة عظم هنا كذلك، لكنها اكتشفت شيئاً آخر.. شىء محشور فى فجوة بين إطار الباب والحائط (وما الذى جعلها تنتظر هناك؟).

قطعة من الورق البنى مثل التى قد تجدها ملفوف بها أحد المشتريات من متجر "سكوت"، قد استخدمت كلوحة عرضية لفنان، وعليها رسم

أحدهم رسمًا كروكيًا بالقلم الرصاص لـ "لوران جاميه". احترقت وجنتا "ماريا": ففى الرسم "جاميه" راقد على الفراش.. نائمًا على ما يبدو وعاريًا، لابد أنه كان فى الصيف.. لأن الغطاء كان متشابكًا حول قدميه، وكأنه ركله من عليه أثناء الليل. كان الفنان غير متمكن ولكن كان هناك ذوق وحس ملموس بالحميمية، شعرت "ماريا" فقط بإحراج حارق لرؤية هذا الرسم لرجل عارٍ، وكذلك بالحرج لأنها تعثرت بالخطأ فى الأماكن الأكثر خصوصية والأكثر سرية فى ذهن شخص ما. لأن الفنانة -بغض النظر عمن تكون ـ كانت تحبه؛ كانت واثقة من هذا، ثم رأت توقيعًا رديئًا.. مكتوبًا بإهمال على السطور التى كونت الورقة، بدت مثل "فرانسوا".. ليس هناك "e" هى متأكدة.. ليس "فرانسواس".

وفى لحظتها فكرت فى "فرانسيس روس".

وقفت هناك وهى تمسك بقطعة الورق.. غير واعية بالمرة أن وقت الغسق قد حل تقريبًا، رأت برعب بقعة من دمها وقد لوثت الورقة، كانت أول فكرة معقولة جاءتها أنه لابد وأن تحرقها، تحسبًا لأن يراها أى شخص آخر ويصل لنفس الاستنتاج. ثم أدركت ـ برعشة شعور بالذنب فى القلب ـ أنها سيكون عليها أن تعطى الرسم لـ"فرانسيس"، لأنها لو كانت ملكها (لو فقط وجنتاها تتوقفان عن الاحتراق) فسترغب فى استعادتها. شعرت بشعور غريب ـ وقد انزعجت بطريقة حميمة بها ـ وقامت بطى الورقة بعناية.. الرسم للداخل.. قبل أن تضعها فى جيبها، ثم أخرجتها مرة أخرى من جيبها وهى تتصور ـ لسبب ما ـ أختها تدس يدًا فيه وتجدها، لذلك قامت بحشرها بداخل الجزء العلوى من ثوبها.. حيث لن يصل إليها أحد سواها. هناك.. إلى جانب قلبها.. تحرقها مثل فحم ساخن.. جاعلة موجة من الاحمرار الدافئ تتصاعد إلى حلقها. فى النهاية قامت بحشرها سريعًا فى جانب حذائها ذى الرقبة، ولكن حتى من هناك كانت ترسل شحنات من الحرارة تتسلل صاعدة ساقيها وهى تركب وتعود إلى "كالفيلد" فى الظلام الزاحف.

شغلت "لاين" نفسها بإشعال نار، بعد الصوت الوحيد لهذا المسدس لم يكن هناك شيء، انتظروا... في البداية كانوا يتحدثون وهم متحمسون ومرحون ثم صمتوا وقد تجمعوا واقتربوا قليلا من النار. بدأ الضوء يفقد قوته سريعًا؛ وجاء الظلام يزحف متسللا من أوكاره النهارية في فجوات الجذور وبقايا جذوع الأشجار المتعفنة. قامت "لاين" بغلى الماء وأضافت إليه السكر وجعلتهم يشربونه جميعا بينما لايزال ساخنًا، لكى يحرق أفواههم، وقامت بعمل عصيدة الشوفان والتوت ولحم الخنزير المجفف... والتى أكلوها فى صمت... منتظرين صوت وقع أقدام وجسد يندفع خلال الأغصان. جفت حصة " إسبن " من الطعام و أصبحت صلبة فى الوعاء، ومازال لم يأت.

تجنبت "لاين" أسئلة الطفلين وأرسلتهما ليجمعا المزيد من الحطب ليحاصروا النار، لكى تتوهج فيستطيع رؤيتها من مسافة بعيدة، ثم قامت ببناء مأوى ليناموا، بعد ذلك توقفا عن طرح الأسئلة.

لكن.. بعد أن تكورت "آنا" على شكل فصلة دافئة حول فخذ "لاين" الأيمن، تحدث "توربين" الذى كان على جانبها الآخر بصوت هامس، كان صامتًا خلال اليومين الماضيين منذ أن فقدوا البوصلة الشيء الذى لم يكن يشبه طبيعته المتلهفة دومًا على الإطلاق.

"ماما.. أنا آسف، "همس، وكان صوته مرتعشًا، ملّست على شعره بيد مغطاه بالقفاز.

"هشش... نم الآن."

"آسف لأننى حاولت الهرب، لو لم أفعل لما كنا فقدنا الطريق، أليس كذلك؟ ولما كان "إسبن" قد ذهب بهذا الشكل، والآن هو تائه أيضًا.. " بكى بهدوء."كل هذا خطئى."

تحدثت "لاين دون أن تنظر إليه: "لا تكن سخيفًا، هذا هو ما عليه الأمر. نم الآن."

ولكن شفتيها كانتا مضغوطتين على بعضهما فى خط غير مناسب لما تقول: فالحقيقة...إنه خطؤه هو أنهم فقدوا البوصلة.. خطؤه أنهم ضائعون فى الغابة الباردة؛ خطؤه أنها ـ مرة أخرى ـ فقدت رجلها. ربتت يديها عليه بالية، ولم تلحظ أن "توربين" قد تصلب.. لم تلحظ أنها تؤلمه، لكنه لم يجرؤ على سؤالها أن تتوقف.

لم تستطع التوقف، لذلك جلست عند فم المأوى والطفلان متكوران حول ظهرها وساقيها... محدقة فى النار، تحاول جاهدة ألا تفكر، إن الأمر سهل عندما يكون "آنا" و"توربين" مستيقظين ويكون عليها أن تطمئنهما، ولكن بمفردها مثل الآن وليس معها إلا مخاوفها لتؤنسها، يكون من الصعب أن تمنعها من التغلب عليها. رغم كونها تائهة.. متجمدة من البرد.. فى أعماق الغابة.. محاطة بأكوام الجليد والله وحده أعلم ماذا غير ذلك، إلا أن أكبر مخاوفها هو أن يكون "إسبن" قد تركها. عندما جلست فى الإسطبل فى "هيميلفانجر"... عرفت أنها تستطيع إجباره على فعل ما تريد.. على غير رغبته، الآن خطر لها أنه انتهز فرصة طلقة المسدس كحجة؛ وأنه قد هرب ولا ينوى على العودة؛ وهذه المرة لا تعرف أين تجده.

بالقرب.. وقف الحصانان خلف بعضهما.. ورأساهما لأسفل، وعند نقطة ما.. عندما كانت تشعر ببرودة شديدة، انتفض أحد الحصانين.. خائفًا من شىء ما فى الأشجار. انفردت أذناه على جانبىّ جمجمته محركًا رأسه من ناحية لأخرى وكأنه يتعقب خيطا لكنه لا يعرف أين هو بالتحديد. الحصان الآخر ـ المريض ـ لا يكاد يتحرك. حدقت "لاين" بشدة ـ بعد الصدمة الأولية التى عصرت قلبها ـ فى الظلمة على أمل أن تسمع "إسبن"، ولكنها تعرف أن "جوتا" لم يكن ليتصرف على هذا النحو لو كان هو. لم تسمع شيئًا، فى النهاية لم تستطع لا الانتظار ولا تجنب النوم، وتكورت بجانب طفليها.. وهى تلف شالها حول وجهها.

حلمت ـ فورًا تقريبًا ـ بـ"جانى". "جانى" فى ورطة ويبدو أنه يناديها، إنه داكن وبعيد وبارد بشكل ما، يقول إنه آسف على حماقته.. على تفكيره

أن بإمكانه الحصول على المال بهذه الطريقة... بالسرقة والقرصنة، الآن هو يدفع الثمن من حياته، يمكنها رؤيته من مسافة كبيرة ويبدو راقدًا على الجليد... نقطة داكنة صغيرة فى حقل من البياض، ولا يمكنه التحرك. رغبت بكل جوارحها أن تذهب إليه لكن لا تستطيع، لقد تغير كل شىء وأصبح هنا معها.. قريبًا جدًا لدرجة أنها تشعر بتنفسه الدافئ الرطب على وجهها، فى الحلم تغلق عينيها وتبتسم، كانت رائحة نفسه قوية وغير لطيفة لكنها دافئة.. وهى رائحته، لم تحلم بـ"إسبن" على الإطلاق.

استيقظت قبل سطوع الضوء بالكامل، كانت النار قد خمدت وأصبحت كومة مبللة سوداء؛ الهواء رطب ورائحته كذوبان الثلج، نظرت حولها.. فلم تر الحصانين، لابد أنهما ذهبا وراء المأوى للبحث عن الطعام، لا أثر لـ"إسبن" ـ لكن عندها... لم تكن تعتقد حقًا أنه سوف يعود. رفعت بنفسها لتستند على كوعها.. وقد اعتادت عيناها على اللون الرمادى، ثم رأت الجليد المبعثر والذى تغير لونه على بعد عشرين ياردة فقط.

فى البداية رفضت أن تسلم بأن البقع الحمراء الداكنة هى دم، ثم تجمعت التفاصيل غير المبهجة على بعضها البعض: تفرق منحنيات حمراء عبر الجليد هناك.. هنا بقعة من اللون الأحمر وآثار حوافر غير متصلة.. وقد غرست فى جرف عميق. لم يصدر عنها أى صوت على الإطلاق.. لابد ألا يرى الطفلان هذا.. أو إنهما سوف يصابان بالفزع.. ثم نظرت إلى أسفل.

هناك بين كوعيها.. فى القطعة الوحيدة غير الملموسة من الجليد التى بقت خارج المأوى، كان هناك أثر حافر.. واحد فقط. كان عرضه أربع بوصات على الأقل وثقوب المخالب أمام الأثر، وبقعة حمراء داكنة لونت اثنين من هذه الثقوب.

برعشة سقم... تذكرت ما أطلقه عليها "إسبن"... ساحرة الذئاب.

رأت أثرًا آخر وحدقت فيه، كان أثر حذاء محدد بالقرب من جذع

شجرة أرز، أخذ منها لحظة طويلة لتدرك أن هذا أثر حذاء "إسبن" من أمس، كان يتجه تقريبًا إلى الغرب.. رغم أن مسارهم كان للجنوب. لم يسقط المزيد من الجليد منذ أن رحل.. لا شئ ليغطى آثاره. كان يمكنه أن يتتبع أثره عائدًا إليهم ولكن لسبب ما لم يفعل.

قفزت "لاين" وقلبها يخفق ألما، بينما "جوتا" تتجول فى الأشجار باتجاهها، ثم تنهدت بارتياح مرتعش عندما دست الفرسة أنفها تحت إبط "لاين" فبدا الارتياح متبادلا.

"نحن على ما يرام." قالت "لاين" للفرسة بقوة... "نحن على ما يرام.. نحن على ما يرام."

تمسكت بشعر الفرسة حتى توقفت عن الارتعاش.. ثم ذهبت لتوقظ الطفلين لتخبرهما أن عليهما الاستمرار.

شاهد "دونالد" "باركر" والسيدة "روس" يغادران المركز، سارا خارجين من البوابة ومتجهين الى الشمال الغربى دون أن ينظرا خلفهما. تمنى لهما "نسبيت" و"ستيوارت" رحلة ناجحة وعادا إلى مكتبيهما. نجح "نسبيت" فى تسديد نظرة سيئة ذات معنى وهو يفعل ذلك، مشوهًا سمعة كل من السيدة "روس" و"باركر" و"دونالد" نفسه بشكل ما. تحمل "دونالد" هذا لكنه ضايقه، كان يعتقد أن "باركر" أحمق عندما كان يشرح أسبابه، والأسوأ عندما قال إن السيدة "روس" ستأتى معه، رغم أنها بدت رغبتها كذلك. أخذها على جانب وأخبرها برأيه، هل كان يهيئ له... أم أنها فعلا مفتونة به؟ كانت هى و"باركر" قد أكدا عليه أهمية مراقبة تحركات "ستيوارت" ورغم أنه يعتقد أن هذا ليس ذات أهمية كبيرة... فيفترض أنه سوف يفعل.

راقب "ستيوارت" وهو يسير إلى القرية ليتحرى عن أحوال "إليزابيث"، فرغم عدائيتها الواضحة فإن "ستيوارت" لا يكف عن الاهتمام بها. أما بالنسبة له.. لم يستطع منع الرغبة الملحة فى زيارتها مرة أخرى، كان قد نمى بداخله فضول قوى بشأنها منذ أن أدرك فكرة أنها واحدة من فتاتى

"سيتون"... رغم أن هذا الافتراض قائم ـ بشكل غير ملموس بطريقة ما ـ على اسم ابنتها. لا... ليس هذا فقط.. على ملامحها التى تنتمى للبيض بلا شك، والتى فى عقله تحمل شبهًا واهيًا لكنه ملحوظ من ملامح السيدة "نوكس". وجد نفسه يقف خارج كوخها بعد أن غادر "ستيوارت" إلى مكتبه... ينتظر السماح له بالدخول.

ألمت النار عينيه وتنفس من خلال فمه ليعود نفسه على الدخان ورائحة الأجساد غير النظيفة كانت "إليزابيث" تجلس القرفصاء أمام النار... تمسح وجه الفتاة الصغيرة التى كانت تبكى، ألقت على "دونالد" بنظرة سريعة مليئة بعدم الاهتمام ثم التقطت الطفلة الباكية وأعطتها له.

"خذها.. إنها تمنحنى وقتًا عصيبًا."

مشت "إليزابيث" إلى ما وراء الحائط الذى يفصل الحجرة عن مهاجع النوم، تاركة "دونالد" مع الفتاة الصغيرة التى أخذت تتلوى وتتململ بين ذراعيه.

قام بهزها لأعلى وأسفل بعصبية، فحدقت فيه وهى شاعرة بالإهانة.

"لا تبك يا "إيمى"... اهدئى... اهدئى."

لو لم تكن لديه خبرة مع أطفال "جاكوب" لكانت هذه أول مرة يمسك فيها بطفل، أمسك بها وكأنها حيوان صغير بأسنان حادة.. لا يمكن التنبؤ به، إلا أنها.. بشكل ما كفت عن البكاء.

عندما عادت "إليزابيث" كانت "آيمى" قد اكتشفت رابطة عنق "دونالد" و ـ مسحورة بغرابتها ـ أخذت تلعب بها، راقبتها "إليزابيث" للحظة.

سألته فجأة: "ما الذى جعلك تفكر فى آل "ستيون"؟ هل هو الاسم فقط؟"

نظر "دونالد" لأعلى وقد أخذته على حين غرة، كان على وشك أن يسألها عن "ستيوارت".

"أفترض ذلك، ولكن القصة كانت فى ذهنى، أنت تفهميننى.. لأنها قصت علىّ مؤخرًا من شخص ما كان قريبًا جدًا منها."

"أوه." لو كان لديها أكثر من مجرد اهتمام عابر فلقد أخفته جيدًا.

"لقد تعرفت مؤخرًا على عائلة "أندرو نوكس"، كانت زوجته ـ حسنًا ـ ومازالت.." كان يراقبها الآن... بينما الطفلة تجذب رابطة عنقه بشدة... مسببة له الاختناق تقريبًا. "... هى أخت السيدة"ستيون"... أم الفتاتين."

"أوه!" قالت مجددًا.

"إنها شخص لطيف وطيب القلب، ويمكن للمرء أن يقول إنه حتى بعد العديد من السنوات.. مازالت تجد ذكرى الاختفاء مزعجة بشكل عميق."

كان هناك صمت طويل فى الكوخ، تقطعه أصوات طقطقة النار.

"ما الذى قالته عنها؟"

"حسنًا.... إنها... كسرت بقلب الوالدين، إنهما لم يتخطوها قط."

حاول "دونالد" قراءة وجهها، لكنها بدت غاضبة أكثر من أى شىء آخر.

"إنهما ـ آل"ستيون" ـ كلاهما ميت الآن."

أومأت برأسها سريعًا، وجد "دونالد" أنه كان يحبس أنفاسه ثم زفر.

"أخبرنى عن خالتى "أليس"." قالت هذا بهدوء وبنوع من التنهد. شعر"دونالد" بقلبه يهوى بداخله، حاول ألا يظهر هذا... أو أن ينظر إليها بقوة شديدة، حدقت فى ابنتها... وهى تتجنب عينيه.

"حسنًا... هم يعيشون فى "كالفيلد" على خليج جورجيا. السيد "نوكس" هو الحاكم هناك.. رجل صالح حقا، ولديها ابنتان.."سوزانا" و"ماريا"." أضاف وقد تجرأ "هل تذكرينهم؟"

"بالطبع... لقد كنت فى الحادية عشرة... لم أكن طفلة."

كافح "دونالد" ليبقى الإثارة بعيدًا عن صوته، لكنها جعلته يعتصر الطفلة بشدة أكثر، دفعت بقبضتها فى نظارته للانتقام.

" "سوزانا"... لا يمكننى تذكر من منهما كانت، فآخر مرة رأيتهما... كانت واحدة منهما طفلة رضيعة، وكانت الأخرى ليست أكبر من سنتين أو ثلاث سنوات."

"كانت "ماريا" هى التى فى الثانية من عمرها." قال وقد اعتراه إحساس دافئ وهو يقول اسمها.

حدقت فى الظلال ولم تكن لديه أدنى فكرة عما تفكر فيه، أزاح أصابع الطفلة التى كانت قوية بشكل مفاجئ من فمه.

"إنهم جميعًا بخير... فهم أسرة رائعة... جميعهم.. لقد كانوا طيبين جدًا معى.. أتمنى لو كان بوسعك مقابلتهم... سيكونون سعداء جدًا برؤيتك.. بشكل لا يمكنك تخيله!".

ابتسمت بغموض قائلة: "أفترض أنك ستخبرهم بشأنى."

"فقط لو أردت ذلك."

التفتت بوجهها بعيدًا، لكن عندما تكلمت كان صوتها غير متغير. "لابد أن أفكر فى أطفالى."

"بالطبع... فكرى فى الأمر، أنا أعلم أنهم لن يجبروك على أى شىء لا تريدينه."

"يجب علىَّ أن أفكر فى أطفالى وقد أصبحوا دون أب." قالت مرة أخرى.

نجح "دونالد" بصعوبة فى استخراج منديله من تحت جسد الطفلة، ولكن عندما استدارت "إليزابيث" إليه كانت عيناها جافتين.

"هل أخبروك أن والدى وجدنى؟"

"ماذا؟ لقد قالوا إنه لم يتم العثور عليكما قط!".

بان على وجهها شيء ما ـ الألم؟ عدم التصديق؟ "هل قال هذا؟"

لم يعرف "دونالد"ماذا يقول.

"لقد رفضت العودة معه، كنت حديثة الزواج. أخذ يسألنى عن "إيمى" وبدا أنه يلومنى على عدم وجودها هناك كذلك.".

لم يستطع "دونالد" إخفاء الصدمة التى كانت على وجهه.

"ألا يمكنك فهم الأمر؟ لقد فقدا هما ابنتيهما.. ولكن أنا فقدت كل شىء! أسرتى.. بيتى.. ماضىّ.. كان علىّ تعلم الكلام مرة أخرى! لم أستطع الانفصال عن كل شىء عرفته... مرة أخرى."

"ولكن..." لم يكن يعرف ماذا يقول.

"كان هناك رعب على وجهه عندما رآنى، ولم يعد بعد هذه المرة الوحيدة قط، كان بإمكانه فعل ذلك. كانت "إيمى" هى من يأمل فى العثور عليها.. كانت المفضلة لديه دومًا.

نظر "دونالد" إلى الطفلة غير القلقة، كان هذا يمنع موجة الشفقة من أن تتغلب عليه.

"لقد كان مصدومًا... لا يمكنك لومه على السؤال، لم يفعل شيئًا سوى أن استكمل البحث حتى مات."

هزت رأسها وعيناها جامدتان: أرأيت؟

"لقد كنتما..." كافح ليكمل وهو يحاول أن يقولها بشكل أفضل "... اللغز الأكبر فى هذا الزمان! كنتما مشهورتين، الكل يعرف بشأنكما، كتب الناس من جميع أنحاء أمريكا الشمالية يدّعون أنهم أنتما -أو أنهم رأوكما، لقد أرسل أحدهم من "نيوزيلاندا."

"أوه."

"لا أفترض أنك تتذكرين ما حدث."

"هل هذا يهم.... الآن؟"

"أولم يكن من المهم دومًا... إيجاد الحقيقة؟" فكر فى "لوران جاميه"... فى بحثهم المفترض عن الحقيقة ـ كل هذه الأحداث تصطدم واحد بالآخر مثل صف من قطع الدومينو ـ كلها تقوده عبر السواحل المغطاة بالثلوج وصولا إلى هذا الكوخ الصغير. ارتعشت "إليزابيث"، وكأن هناك تيار هواء يزعجها.

"أتذكر.. لا أعرف ما الذى سمعته، ولكن كنا قد ذهبنا فى نزهة لجمع التوت.. على ما أعتقد. تجادلنا حول أين نتوقف: فالفتاة الأخرى.. ماذا كان اسمها... "كاثى"؟- لم تكن تريد الذهاب بعيدًا، حيث كانت خائفة من أن يحترق وجهها لأن الجو كان حارا جدا. إلا أن الحقيقة أنها كانت خائفة من البرية."

كانت عيناها مثبتتين على نقطة فوق كتف "دونالد" فلم يجرؤ هو على الحراك... لكى لا يقطع حبل أفكارها.

"كنت خائفة أيضًا، خائفة من الهنود." ارتسمت على وجهها ابتسامة صغيرة.

"ثم تجادلت مع "إيمى"، أرادت الذهاب أبعد مما كنا... وكنت أنا قلقة من عصياننا لوالدينا، ولكنى ذهبت معها لأننى لم أرد أن أكون وحيدة. حل الظلام، ولم نستطع إيجاد الطريق، ظلت "إيمى" تخبرنى ألا أكون سخيفة، ثم استسلمنا وغرقنا فى النعاس، على الأقل كما أعتقد... ثم..."

كان هناك صمت طويل.. يملأ الكوخ بالأشباح، بدت "اليزابيث" تنظر وراءها على واحد منهم.

وجد "دونالد" أنه يحبس أنفاسه.

"... لم تكن هناك بعد ذلك."

استعادت عيناها تركيزهما لتجد عينيه،" اعتقدت أنها وجدت الطريق للبيت وتركتنى فى الغابة لأنها كانت غاضبة منى، ولم يأت أحد للبحث عنى... حتى وجدنى عمى ـ عمى الهندى، وفكرت أنهم تركونى هناك لأموت."

"لقد كان والداك... لقد أحباك... ولم يتوقفا قط عن البحث."

حركت كتفيها وأكملت: "لم أكن أعرف، لقد انتظرت لوقت طويل، ولم يأت أحد، ثم عندما رأيت والدى مرة أخرى كان ما دار فى ذهنى حينها: الآن أتيت عندما أصبحت سعيدة: عندما أصبح الوقت متأخرًا، وكل ما فعله أنه ظل يسأل عن "إيمى" كان صوتها رفيعًا وجافًا... مشدودا لدرجة الانكسار.

"إذًا فـ"إيمى"... اختفت فى الغابة؟"

"فكرت أنها ذهبت للبيت، وتركتنى وحيدة. "نظرت "إليزابيث" ـ رغم كل شىء لم يستطع التفكير فيها كـ"أيف"ـ إليه وجرت دمعة على وجنتها. "لا أعلم ما حدث لها، كنت منهكة، وغرقت فى النعاس، اعتقدت أننى سمعت ذئابًا، ولكن ربما كنت أحلم، كنت خائفة جدا من أن أفتح عينى، كنت لأتذكر لو أننى سمعت صراخًا أو صيحات ولكن لم يكن هناك شىء. لا أعرف.. لا أعرف."

تلاشى صوتها تدريجيًا.

"شكرًا لك على إخبارى."

"لقد فقدتها أنا أيضًا."

خفضت وجهها حتى أصبح مختفيًا فى الظل، شعر "دونالد" بالخجل من نفسه، لقد كان والداها محورًا لكثير من التعاطف؛ الكل كان فى ذهول لخسارتهما ولكن الشىء المفقود نفسه يحزن أيضًا.

"ربما تكون حية فى مكان ما، ليس لمجرد أننا لا نعرف... لا يعنى أنها ماتت."

لم تتحدث "إليزابيث" أو حتى ترفع رأسها.

لدى "دونالد" أخ واحد أكبر منه والذى لم يكن يحبه قط حقا؛ لكن فكرة اختفائه للأبد فى الغابة مازالت مؤثرة. أصبح واعيًا أن ساقه اليمنى قد خدرت فحركها بألم، جعل صوته ودودًا قائلا: "وها هى"آيمى"... " فكانت الطفلة التى فى حجره تشد جواربها دون قلق. "أنا آسف..سامحينى أن جعلتك تتكلمين عن الأمر."

التقطت "إليزابيث" ابنتها وهى تهز رأسها، أخذت تذرع المكان لعدة لحظات.

"أريدك أن تخبرهم عنى." قبلت "آيمى"، وهى تضغط وجهها فى عنقها.

خارج الكوخ كانت هناك امرأتان فى مشادة حامية، واحدة منهما كانت "نورا"، التفت "دونالد" لـ"إليزابيث".

"من فضلك.. أريد معروفًا آخر، هل يمكنك إخبارى بما يقولونه؟"

منحته "إليزابيث" ابتسامة متعالية وقالت: "إن "نورا" قلقة على"نصف رجل"، فهو ذاهب مع "ستيوارت" إلى مكان ما، و"نورا" قالت له أن يرفض لكنه لم يفعل."

حدق"دونالد"باتجاه المبنى الرئيسى وقد أصبح قلبه فجأة فى حلقه، هل يحدث هذا الآن؟

"هل قالت أين أو لماذا؟ الأمر مهم."

هزت "إليزابيث" رأسها. "فى رحلة.. ربما للصيد.. رغم أنه فى العادة ثمل جدًا ليصوب جيدًا."

"لقد قال "ستيوارت" أنه ذاهب لإيجاد زوجك."

لم تزعج نفسها بالإجابة على ذلك، وقرر هو سريعًا :"أنا ذاهب لتتبعهما، يجب أن أرى إلى أين يذهبان، وإذا لم أعد ستعرفين أن ما قلتيه حقيقى."

بدت "إليزابيث" متفاجئة.. المرة الأولى التى يرى فيها هذا التعبير على وجهها. "الأمر خطير، لا يمكنك الذهاب."

حاول "دونالد" تجاهل نبرة التسلية الساخرة التى فى صوتها. "يجب على، أحتاج إلى إثبات،الشركة فى حاجة الى إثبات."

عند ذلك فقط خرج "أليك" ـ ابنها الأكبر ـ من كوخ الجيران مع صبى آخر وابتعدت المرأتان.. "نورا" عائدة إلى المبنى الرئيسى. نادت "إليزابيث" على الفتى فحول اتجاهه ناحيتها، تحدثت له سريعًا بلغتهم.

"سوف يذهب "أليك" معك وإلا فسوف تضل."

فغر "دونالد" فاه، كان رأس الفتى تكاد لا تصل لكتفه.

"لا ..لا أستطيع.. أنا واثق أننى سأكون على ما يرام، سيكون من السهل تتبع الأثر..."

"سوف يذهب معك." قالت ببساطة وهى تنهى الموضوع. "إنها رغبته هو أيضًا."

"لكنى لا أستطيع.. " لم يكن يعرف كيف يقولها ـ شعر أنه غير مؤهل للاعتناء بأى شخص فى هذا الطقس؛ ولا حتى بنفسه.. دع الاعتناء بطفل جانبًا. أخفض صوته. "لا يمكننى تحمل مسئوليته أيضًا، ماذا لو حدث له شىء ما؟ لا يمكننى السماح له بالمجىء." شعر بالحرارة من الخجل وعدم نفعه.

قالت "إليزابيث" ببساطة: "إنه رجل الآن."

نظر "دونالد" إلى الفتى الذى رفع عينيه لعينى "دونالد" وأومأ، لم ير "دونالد" أى شىء من "إليزابيث" فيه؛ بشرته داكنة ووجهه مسطح وعيناه لوزيتان تحت جفون ثقيلة، لابد أنه يشبه والده.

فيما بعد عندما كان عائدًا إلى حجرته ليحزم حقائبه، التفت "دونالد" مرة أخرى ليرى "إليزابيث" محاطة بإطار باب كوخها.. تراقبه.

"كان والدك يريد إجابة فقط، أنت تعرفين ذلك.. أليس كذلك؟ لم يكن الأمر أنه لا يحبك، كان فقط فضولاً إنسانيًا منه أن يريد إجابة."

حدقت فيه وقد ضاقت عيناها من الشمس الغاربة عن سماء مثل الصُلب المطلى.. حدقت فيه لكنها لم تقل شيئًا.

***

طرأ شيء غريب على الطقس، إنه وقت أعياد الميلاد تقريبًا، إلا أن - رغم أننا نسير فى جليد متجمد - السماء كانت مضيئة كيوم مشمس فى شهر يوليو. ورغم الكوفية الملفوفة حول وجهى كانت عيناى تحترقان من الضوء. كان الكلبان مبتهجين من كونهما على الطريق مرة أخرى وبطريقة ما بوسعى فهمهما.. فخارج السور لا يوجد خداع ولا تضليل، هناك فقط الفراغ والضوء.. أميال خلفهما وأميال أمامهما.. الأشياء تبدو بسيطة.

ولكن الأشياء ليست كذلك.. إنه فقط شعورى بالخدر هو الذى يجعلنى أعتقد ذلك.

عندما غربت الشمس.. اكتشفت ما قادنى إليه غبائى. أولا وقعت على أحد الكلبين.. وقد نجحت فى أثناء ذلك فى تمزيق تنورتى وإثارة هوجة متنافرة من النباح. بعد ذلك.. بعد أن جلست أرضًا لم أستطع العثور على الكوب المعدنى للماء المذاب. لإنهاء ارتجافة الخوف التى اعترتنى ناديت على "باركر".. الذى تفحص عينى، حتى دون أن يخبرنى هو عرفت أنهما حمراوان ودامعتان. ومضات من الأحمر والبنفسجى عبرت رؤيتى غير الواضحة. كان هناك ألم دافق خلف عينى، أعلم أنه كان يجب أن أغطيهما عند مغادرتى بالأمس، لكنى لم أفكر فى ذلك.. كنت سعيدة لأننى ذاهبة معه وكان النظر للسهل الأبيض الواسع شيئًا جميلا بعد المحيطات القذرة فى "هانوفر".

صنع "باركر" كمّادة من أوراق الشاى الملفوفة فى نسيج قطنى ومبردة فى الجليد، وجعلنى أضغط بها على عينى، كان لها تأثير سريع.. رغم أنها

ليست فى مثل جودة بضع قطرات من مسكن الألم "بيرى دافيس"، ربما كان من الجيد أنه ليس لدينا أى منه، فكرت فى "نسبيت" وهو فى المكتب.. واقفا فى الركن متوحشًا.. كيف أننى كنت مثله ذات مرة.

"كم نحن بعيدان عن هذا.. المكان؟"

كانت العادة هى التى تجعلنى أخفض الضمادة؛ حيث كان من غير اللائق ألا أنظر إلى شخص ما عندما أتحدث اليه.

"أبقيها على عينيك" قال.. وعندما وضعتها مرة أخرى أكمل.. "سوف نصل هناك بعد غد".

"وماذا هناك؟"

"بحيرة و كابينة."

"ما اسمها؟"

"ليس لها اسم أعرفه."

"ولماذا هناك؟"

تردد "باركر" لدقيقة طويلة لذلك قمت باختلاس النظر إليه من وراء الكمادة، كان يحدق بعيدًا ولا يبدو أنه لاحظ "لأنها حيث يوجد الفراء".

"الفراء؟ أتقصد الفراء الذى أخذه النرويجيون؟"

"نعم."

الآن أزلت الكمادة ونظرت إليه فى جدية. "لماذا تريد أن تقوده إليها؟ هذا بالضبط ما يريده هو!".

"هذا هو سبب ما نفعله. أبقيها على عينيك."

"ألا يمكننا... أن ندعى أنهم فى مكان آخر؟"

"أعتقد أنه يعرف بالفعل أين هى، لو أننا ذهبنا فى اتجاه آخر فلا أعتقد أنه سيتبعنا، لقد سلك هذا الطريق من قبل.. هو و"نيبابانيز"."

فكرت فيما يعنيه ذلك، أنه "نيبابانيز" الذى لم يعد.. إذًا فلابد أنه مازال هناك. تسللت المخاوف إلىّ.. زاحفة إلى النخاع بداخل عظامى.. معتبرة نفسها فى منزلها. كان من السهل إخفاء رد فعلى وراء الكمادة المبللة. فليس من السهل أن أدعى أننى شجاعة بما يكفى لذلك.

"بهذه الطريقة عندما يأتى سيكون الأمر مؤكدا."

ثم ماذا؟ فكرت.. لكنى لم أجرؤ على قول ذلك بصوت عالٍ، قال صوت آخر فى رأسى ـ الصوت المزعج ـ كان بإمكانك البقاء. لقد صنعت فراشك بنفسك.. ارقدى فيه إذن.

ثم.. بعد وقفة أخرى.. قال "باركر": " افتحى فمك."

"أستميحك عذرا؟" هل بإمكانه قراءة أفكارى؟ اعترانى خجل يكفى فحسب لتحطيم مخاوفى.

"افتحى فمك." كان صوته أخف الآن مستمتع بشىء ما. فتحته قليلا شاعرة بشعور طفولى، ليقابل شفتى شىء محدد وصلب.. مجبرًا إياهما على الاتساع أكثر وانزلق إلى فمى قطعة حادة مما كان مثل ثلج البحيرة ـ مسطحا ـ ومستكينًا. حك إبهامه أو سبابته شفتى.. كان خشنًا كالسنفرة، أو ربما كان هذا قفازه.

أغلقت فمى حول هذا الشىء بينما أخذ يدفأ ويذوب.. وانطلقت منه حلاوة غامضة لها مذاق مدخن.. مسببًا اندفاع الماء إلى فمى، كنت أبتسم.. كان هذا حلوى سكر القيقب، لم يكن لدى أية فكرة من أين حصل على مثل هذا الشىء.

"حلو المذاق؟" سألنى ومن صوته عرفت أنه يبتسم أيضًا، أملت رأسى لناحية واحدة و كأننى أفكر فى إجابتى.

"همم." قلت بخفة وأنا لا أزال آمنة خلف الكمادة، جعلنى هذا لا مبالية. " هل من المفترض أن يجعل هذا عينىّ أفضل؟"

"لا من المفترض أن يكون حلو المذاق."

أخذت نفسا عميقًا معطرًا بدخان الخريف وحلاوته.. ومذاق واهن من الشاى المر. "أنا خائفة."

"أعرف."

انتظرت خلف قناعى كلمات "باركر" المطمئنة، كان يفكر فيها بعمق.. يختارها بعناية.. أو هذا ما بدا.

لكنها لم تخرج من فمه.

***

كان هناك خمسة متطوعين فى فريق البحث: "ماكينلى" و مرشد هندى يدعى "سامى".. وشاب محلى يدعى "ماثيو فوكس" ينوى إثبات خبرته بالغابات الخلفية؛ "روس".. الرجل الذى ابنه وزوجته مفقودان؛ و"توماس ستاروك" الباحث السابق. من بينهم جميعًا.. كان "ستاروك" يعرف أنه غير مرحب به؛ فالبنسبة لبقيتهم لابد أنه يبدو كرجل عجوز، ولا أحد يعلم تحديدًا ما الذى يفعله فى "كالفيلد" على أى حال. كان فقط سحره الهائل هو الذى وفر له مكانًا فى الفريق.. هذا إلى جانب مساء طويل قضاه مع وجه الثعلب "ماكينلى" يتملقه ويذكره بنجاحاته السابقة. حتى أنه عظم فى مهاراته فى التتبع ولكن لحسن الحظ أن "سامى" لم يكن فى حاجة لمساعدة حيث إنه فى البهاء المنعش للثلج الجديد.. لم يكن لدى "ستاروك" أية فكرة عما إذا كانوا يتبعون آثارًا سابقة أم لا. لكن ها هو ذا.. كل خطوة تقربه من "فرانسيس روس" والشىء الذى هو الغرض من رحلته.

منذ أن عادت "ماريا نوكس" من الـ"سالو" ومعها سرد غير عادى لمقابلتها مع "كاهون وس"، وقد اعترته حماسة كان قد اعتقد أنه فقدها للأبد. كان قد استرجعها فى عقله مئات المرات. هل يمكن لـ"كاهون وس" أن يكون قد عرف أنه وراء هذا؟ هل يمكن للأسماء التى قالها أن تكون محض صدفة؟ مستحيل.. كان قد قرر أن قطعة العظم مكتوبة باللغة

الإروكية وهى تسجل اتحاد خمس أمم. من يعرف.. قد تكون حتما كتبت فى هذا الوقت، سواء كانت كذلك أو لم تكن.. فالتأثيرات الأكبر لن تضيع عليه.. التأثير الذى سيكون لمثل هذا الاكتشاف على السياسة الهندية؛ الإحراج الذى ستسببه للحكومات فوق وتحت الحدود؛ الثقل الذى سيعطيه لمطالبات السكان الأصليين بالحكم الذاتى. من ذا الذى لا يتوق لعمل الخير وتحقيق مكسب فى الوقت نفسه؟

كان هذا ما يدور فى ذهنه خلال أول ساعتين، ثم بدأ يفكر ـ لأنه ليس إلا شخصًا براجماتيًا ـ فى احتمالية أن "ماريا" كانت على حق وأن هذا الشىء ما هو إلا خدعة ماهرة. فى أعماق خبايا عقله عرف أن هذا لن يمثل أى فرق، فسوف يقنع "كاهون وس" أن يدعمه؛ ولن يكون هذا بالأمر الصعب. إذا ما قدم الشىء بالإقناع والمهارة الكافيين (وليس هناك مشكلة فى ذلك)، فإن الضجة المبدئية سوف تصنع له اسمًا ويمكن لأية إثارة جدل تابعة أن تكون دعاية جيدة فحسب. أما بالنسبة لمسألة عدم معرفة مكان القطعة.. فهو يرفض أن يدع هذا يقلقه، فهو واثق أن "فرانسيس روس" قد أخذها، وأنه بمجرد أن يلحقوا به سوف يتمكن من أن يستحوذ عليها بالإقناع، لقد تدرب على الجمل التى سيستخدمها لعدة مرات.

تعثر فى شىء غير مستو.. أمسك معطفه بطبقة الجليد ونزل على ركبتيه. لكونه الأخير فى الصف فتوقف.. يد على الجليد بالقفاز.. بينما يستعيد النفس الذى خرج من جسده. كانت مفاصله تشكو من الألم، ولقد مضت سنوات منذ أن سافر بهذه الطريقة؛ لقد نسى كيف يكون تأثيره لعلها تكون آخر مرة. كان الرجل المجاور له هو "روس" والذى لاحظ أنه تخلف عنهم واستدار لينتظره. حمدًا لله أنه لم يمش عائدًا إليه ويمد له يدا.. كان هذا ليكون مهينًا جدًا.

كانت "ماريا" قد حكت كيف أنها رأت "روس" فى الـ"سالو" مع امرأة أخرى، وأمعنت التفكير فى إذا ما كان اختفاء زوجته بريئًا كما يزعم.

أعجبت الفكرة "ستاروك" لأن "ماريا" هى آخر شخص يمكنه تبنى مثل هذا المفهوم الغريب ولكن كما وضحت "ماريا" إن هذا ليس أكثر غرابة من النظرية التى تم قبولها بشكل كبير أن السيدة "روس" قد هربت مع السجين الهارب (ولم يحرك زوجها ولو شعرة)! وجد "ستاروك" الرجل مثيرًا للاهتمام.. لا شىء يظهر على وجهه؛ فلو أنه قلق على مصير زوجته أو ابنه.. فهو لا يظهر قلقه هذا. لم يكن هذا يجعله محبوبًا من الرجال الآخرين فى الفريق. كان "روس" يرفض إلى الآن محاولات "ستاروك" لجذب أطراف الحديث، ولكن "ستاروك" الذى لم تثبط عزيمته أسرع الخطى ليلحق به.

"تبدو معتادًا على هذا البلد سيد "روس"". قال وهو يحاول تهدئة تنفسه الحاد. "أراهن أنك قمت بقسط وافر من هذا النوع من السفر."

"ليس بالضبط ." أصدر "روس" خوارًا، ثم وقد أخذته الشفقة ربما للصفير الذى يصدره تنفس الرجل الأكبر سنًا. "مجرد رحلات صيد وما إلى ذلك، لم أسافر مثلك."

"أوه..." سمح "ستاروك" لنفسه أن يظهر فرحه بتواضع. "لابد أنك قلق على أسرتك."

خطى "روس" للحظة فى صمت، ثم ركز عينيه على الأرض. "يبدو أن البعض يعتقدون أننى لست قلقًا بالشكل الكافى."

"ليس على المرء أن يقدم عرضًا للجميع لكى يبدو عليه القلق."

"لا." بدا صوته ساخرًا، ولكن "ستاروك" كان منشغلا بوضع حذاء الثلج خاصته على الآثار التى صنعها الشاب الذى أمامه عن أن ينظر لوجه الرجل المصاحب له.

وبعد لحظة، قال "روس": "منذ عدة أيام كنت فى الـ"سالو"، ذهبت لزيارة واحدة من صديقات زوجتى، فقط لأرى إن كانت قد سمعت أى شىء عنها، وبينما أنا هناك رأيت ابنة "نوكس" الكبرى، رأتنى وقد بانت عليها الصدمة، أفترض أنه قد انتشر فى كل المدينة أن لدى عشيقة."

ابتسم "ستاروك".. شاعرًا بالذنب لكنه شعر بالارتياح، كان مسرورًا أن السيدة "روس" لديها شخص يهتم بها، ألقى "روس" إليه بنظرة جافة قائلا: "نعم.. لقد ظننت ذلك."

فى اليوم الثانى من خروجهم من "دوف ريفر" توقف "سامى" ورفع يديه علامة على الصمت. توقف الجميع فى منتصف خطوتهم، تكلم المرشد مع "ماكينلى" فى المقدمة والذى التفت إلى الآخرين، كان على وشك التحدث عندما سمعوا صرخة من الأشجارعلى يسارهم وصوت تحطم أغصان. التفت كل الرجال فى ذعر؛ رفع "ماكينلى" و"سامى" مسدسيهما فى حالة لو كان دبًا. سمع "ستاروك" صرخة عالية حادة وأدرك أنها صرخة إنسانية ـ امرأة.

بدأ هو و"انجوس روس" السير ناحية الصوت ـ لكونهما الأقرب ـ واندفعا فى الجليد العميق وقد أعاقتهما الأحراش وعوائق خفية. كان التقدم صعبًا للغاية حتى أنه مرت بعض اللحظات قبل أن يتمكن من رؤية من كان ينادى. بنظرات خاطفة خلال الأشجار، اعتقد " ستاروك" أن هناك أكثر من شخص ـ ولكن امرأة؟ عدد من النساء.. بالخارج هنا فى منتصف الشتاء؟

ثم التقطتها عيناه فى رؤية واضحة: امرأة نحيلة سوداء الشعر تكافح لتصل إليه.. شالها يتبعها وفمها مفتوح فى صرخة إنهاك وارتياح يتنافس مع الرعب من احتمال أن كل هؤلاء الرجال من وحى خيالها. اندفعت خلال الأحراش باتجاه "ستاروك" وانهارت فى كومة على بعد عدة ياردات، بينما أمسك "روس" بطفل بين ذراعيه. تحرك شخص آخر فى الأشجار خلفهم، وصل "ستاروك" إليها ونزل على ركبة واحدة فى عرض رومانسى مرتبك.. حيث أعاقه حذاء الجليد الذى يرتديه. كان وجه المرأة حادًا من الإنهاك والخوف وعيناها مسكونتان وكأنها خائفة منه.

"اهدئى الآن.. كل شىء على ما يرام.. أنت فى أمان الآن..."

لم يكن واثقًا إن كانت تفهمه، الآن ظهر فتى صغير من ورائها ووقف ويده على كتفها وكأنه يحميها، محدقًا فى "ستاروك" بعينين داكنتين متشككتين، لم يعرف "ستاروك" قط ماذا يقول للأطفال وهذا الطفل لم يبد ودودًا.

"مرحبا.. من أين جئتم؟"

همهم الفتى ببعض الكلمات التى لم يستطع فهمها، فأجابته المرأة بنفس هذه اللغة الغريبة ـ ليست الفرنسية لأنه يعرفها ولا حتى الألمانية.

"هل تتحدثون الإنجليزية؟ هل بوسعكم فهمى؟"

كان الآخرون قد انضموا إليهم وتجمعوا حولهم.. محدقين فى ذهول. كان هناك امرأة وفتى صغير.. ربما فى السابعة أو الثامنة من العمر، وفتاة صغيرة.. أصغر سنًا من الفتى. كانوا جميعًا تظهر عليهم الأعراض المبكرة للوجود فى العراء و البرد، ولم يقل أى منهم كلمة يمكن لأحد أن يفهمها.

قرر أنهم سيقيمون معسكرًا فى هذه البقعة؛ رغم أنها لم تتعد الثانية. قام "سامى" و"ماثيو" ببناء مأوى خلف شجرة اقتلعت من جذورها وجمعا خشبًا لعمل نار كبيرة، بينما "أنجوس روس" يحضر الشاى الساخن والطعام. مشى "ماكينلى" عائدًا داخل الغابة حيث أشارت المرأة وعاود الظهور وهو يقود فرسة تعانى من سوء التغذية والتى كانت الآن ملفوفة بالأغطية وتأكل وجبة من الشوفان. تجمع المرأة والطفلان حول النار، وبعد أن تبادلا محادثة هادئة، وقفت وجاءت لـ"ستاروك"، وأشارت أنها ترغب فى التحدث معه على انفراد لذلك ذهبا بعيدًا قليلا عن المعسكر.

"أين نحن؟" سألت دون مقدمات، ولاحظ هو أن إنجليزيتها دون لكنة تقريبًا.

"نحن على بعد يوم ونصف يوم من "دوف ريفر" للجنوب، من أين جئتم؟"

حدقت فيه وطرفت عينيها باتجاه الآخرين. "من أنتم؟"

"اسمى "توماس ستاروك" من "تورنتو"، والرجال الآخرون من "دوف ريفر" ماعدا الرجل ذا الشعر البنى القصير.. هذا هو "ماكينلى"، موظف من شركة "هدسون باى" ومرشد."

"ما الذى تفعلونه هنا؟ وإلى أين أنتم ذاهبون؟" لو كانت أسئلتها تبدو جاحدة فإنها لم تظهر وعيها بذلك.

"نحن نتتبع أثرا للشمال، بعض الأشخاص قد فقدوا." ليست هناك طريقة لشرح السيناريو المعقد ببساطة، لهذا فلم يحاول.

"وأين يقود هذا الأثر؟"

ابتسم "ستاروك": "لن نعرف بهذا حتى نصل إلى نهايته."

زفرت المرأة عندها، وبدت أنها تحررت قليلا من شكوكها وخوفها المتراكم. "كنا ننوى الذهاب إلى "دوف ريفر"، فقدنا بوصلتنا والحصان الآخر، كان هناك شخص آخر معنا، وذهب إلى..." غزا وجهها الأمل. "هل قام أحدكم بإطلاق الرصاص من مسدسات فى الأيام القليلة الماضية؟"

"لا."

"انطفأ الأمل فى وجهها، "لقد تفرقنا ولا نعرف أين هو الآن".

أخيرًا تقلص وجهها:"كانت هناك ذئاب، وقتلوا واحدًا من الحصانين، كان من الممكن أن تقتلنا نحن أيضًا.. ربما..."

استسلمت للنشيج ولكن بهدوء ودون دموع، ربت "ستاروك" على كتفيها.

"اهدئى.. أنت بخير الآن، لابد أن الأمر كان فظيعًا، ولكنه انتهى الآن، ليس هناك داع للخوف بعد الآن."

رفعت المرأة عينيها فى عينيه، ولاحظ أنهما كانتا جميلتين.. ذات لون بنى فاتح وصاف فى وجه بيضوى ناعم.

"شكرًا لك، لا أعرف ما الذى كنا سنفعله... نحن مدينون لكم بحياتنا."

قام "ستاروك" بنفسه بالاعتناء بأيدى المرأة من تقيحات الصقيع، دعا "ماكينلى" لاجتماع عاجل وقرر أن هو و"سامى" سيذهبان ويبحثان عن الرجل المفقود ـ هناك آثار واضحة ليتتبعوها ـ بينما يبقى الآخرون فى المعسكر. إن لم يجدوه حتى المساء التالى، فسوف يصطحب "ماثيو" و"ستاروك" المرأة وطفليها الى "دوف ريفر"، لم يكن "ستاروك" سعيدًا كليًا بهذه الترتيبات ولكنه بإمكانه رؤية فكرة السماح للمسافرين الثلاثة بالمضى قدما بأسرع ما يمكن. إلى جانب ذلك.. فإن جزءًا منه كان منتشيًا بتفضيل المرأة له؛ فلقد تحدثت معه على انفراد.. هو فقط" وبقت قريبة منه.. حتى أنها فضلته بابتسامة عذبة من وقت لآخر. ("إذًا أنت من تورنتو...؟") قال لنفسه إن سنه هو ما يجعله أقل تهديدًا لكن يعرف أن هذا ليس السبب كله.

غادر "ماكينلى" و"سامى" ومازال هناك ضوء، وجمعا من القصة المرتبكة للمرأة أن زوجها قد يكون أصيب. كانوا قد ابتلعهم الظلام تحت الأشجار وقام "روس" بتوزيع جرعات من البراندى على الجميع، وظهر على المرأة الانتعاش بشكل ملحوظ .

"إذًا من الأشخاص الذين تتبعونهم؟ سألت، عندما غرق الطفلان فى نوم عميق.

تنهد "روس" ولم يقل شيئًا؛ نقل "ماثيو" نظره بين "روس" و"ستاروك" والذى أخذ هذه على أنها إشارة له.

"إن الأمر غامض إلى حد ما، وليس من السهل قصه. فالسيد "روس"، ربما... لا؟ حسنًا.. منذ عدة أسابيع كان هناك حادث تعس وقُتل رجل. فُقد ابن السيد "روس" من "دوف ريفر" فى الوقت نفسه.. من الممكن أنه كان يتتبع شخصًا ما، ثم قام رجلان من شركة "هدسون باى" بالذهاب

للبحث عنه كجزء من تحرياتهما. وقد رحلا ولم يعودا منذ بعض الوقت ولم يسمع أحد عنهما."

"ثم.. " مال "ماثيو" للأمام بتحمس.. وقد تشجع باهتمام المرأة وقال: "هذا ليس كل شيء! هناك رجل آخر.. قبض عليه للاشتباه فى قتل ـ رجل هجين وله شكل الشيطان ـ ثم هرب، حسنًا.. لا.. فى الواقع لقد قام أحدهم بإطلاق سراحه، وقد اختفى مع والدة "فرانسيس"... ولم تتم رؤيتهما منذ ذلك الحين!".

توقف "ماثيو" وقد أحمر وجهه بشدة.. بعد أن أدرك متأخرًا جدًا ما الذى قاله لتوه، وألقى بنظرة خائفة على "روس".

"ليس معروفًا إذا كانا معًا، أو إذا ما كان أحدهما جاء فى هذا الطريق." ذكره "ستاروك" وصوب نظرة حذرة باتجاه "روس" الذى بدا غير متأثر. "ولكن هذا ـ باختصار ـ السبب وراء وجودنا هنا؛ أن نجد من يمكننا إيجاده، لنعرف أنهم فى... أمان."

انحنت المرأة باتجاه النار، عيناها واسعتان ومضيئتان، كانت قد اختلفت عن المخلوق المرتعب فى الغابة منذ عدة ساعات قبلا، أخذت نفسًا ووضعت رأسها على ناحية واحدة.

"لقد كنتم كرماء معنا ونحن ندين لكم بحياتنا، لذلك أشعر أن من واجبى أن أقول لك يا سيد "روس" أننى رأيت ابنك وزوجتك، وأنهما بخير، والكل على ما يرام."

التفت "روس" إليها للمرة الأولى وحدق فيها، لم يكن "ستاروك" ليصدق قط ما لم يكن قد رأى كيف أن هذا الوجه الجيرانيتى يمكنه أن يذوب .

***

استيقظ "فرانسيس" على ضوء الشمس الساطعة للمرة الأولى منذ أسابيع، هناك صمت غامض فى كل مكان حوله فليس هناك الأصوات المعتادة القادمة من الردهة أو الفناء. ارتدى ملابسه وذهب إلى الباب،

الذى كان مفتوحًا، فالأمور أصبحت مرنة إلى حد ما منذ أن غادر "مودى". تساءل ما الذى سيحدث لو أنه خرج بمفرده، ربما سيصاب أحدهم بالذعر ويطلق عليه الرصاص، هذا غير محتمل؛ حيث إن المختارين هم شعب الله ولا يميلون لحمل الأسلحة، ولم يكن هناك أى مكان ليذهب إليه على أى حال دون أن يترك آثار عرجه المميزة خلفه على الجليد. تقافز حتى وصل إلى الردهة متكئًا على العكاز، لم يأت أحد يجرى وبالفعل كان هناك القليل من الأصوات الدالة على الحياة. فكر "فرانسيس" سريعًا أليس اليوم هو الأحد؟ لا...لقد كان هذا منذ أيام قليلة (من الصعب تتبع الأيام هنا). حلم بأن الجميع رحلوا، عبر الردهة الممتدة أمامه بصعوبة، لم يكن لديه أية فكرة عن إلى أين تقود أى من هذه الأبواب، حيث إنه لم يكن قد غادر غرفته منذ أن أحضروه إلى هنا ،ليس هناك أثر لسجانه "جاكوب"، وجد أخيرا بابا يقوده إلى الخارج فعبره.

كانت صدمة الهواء النقى باردة مثلما كانت عذبة، كانت الشمس تخطف البصر، ولسعت البرودة وجهه، ولكنه امتص كميات كبيرة من الهواء البارد إلى رئتيه...مستمتعًا بالألم. كيف أمكنه احتمال الرقود فى هذه الحجرة طوال هذا الوقت؟ كان مصدوما من نفسه. قام بالتدريب على أن يتحرك أسرع، قافزا للأمام و الخلف خارج الباب... وقد اعتاد على العكاز، ثم سمع صرخة، تبع الصوت حول ركن الإسطبلات و رأى على بعد مائة ياردة جماعة من الناس. رغم نزعته الأولى لأن يظل مختفيًا عن الأنظار ،إلا أنهم لم يبدوا مهتمين به لذلك مشى على قدم واحدة مقتربًا. كان "جاكوب" واحدا منهم.. وقد لاحظ "فرانسيس" و هو يأتى تجاهه .

"ماذا يحدث ؟ لماذا الجميع بالخارج هنا ؟"

نظر "جاكوب" فوق كتفه ."أنت تعرف أننى أخبرتك أن "لاين" والنجار قد رحلا ؟ حسنا.. لقد عاد الرجل .

قفز "فرانسيس" ببطء تجاه تجمهر النرويجيين، كان العديد من النساء يبكين، "بير" يتمتم ما يبدو أنها صلاة. وفى وسطهم رأى الرجل

الذى لابد أن "جاكوب" يقصده ـ مخلوقًا غير حليق وعيناه غائرتان، وجلد أنفه ووجنتيه قد تسلخ واحمر من تقيحات الصقيع، وشاربه وذقنه قد ابيضا من السقيع. إذًا هذا هو النجار الذى لم يره قط... والذى سرقته "لاين"، بدا أن أحدهم يستجوبه ولكنه بدا مصدومًا، أنب "فرانسيس" نفسه لبطئه فى الفهم ثم مشى بصعوبة تجاهه وغضبه يتصاعد.

"ما الذى فعلته لها؟" صاح وهو لا يعرف حتى إن كان الرجل يتحدث الإنجليزية ."أين "لاين"؟هل تركتها فى العراء هناك؟ وأطفالها ؟"

التفت النجار تجاهه فى ذهول، كان هذا مفهوما حيث إنه لم يره من قبل قط.

"أين هى؟" ألح "فرانسيس" وهو غاضب و خائف .

"إنها... لا أعرف." قال الرجل بضعف وتردد. "ذات ليلة... كنا قد وصلنا إلى قرية ولم أستطع تحمل الأمر، كنت أعرف أن ما أفعله خطأ، أردت العودة.. لذلك تركتها .. فى القرية."

كانت هناك امراة ذات ملامح حادة بجانبه، متعلقة به وهى تبكى، خمن "فرانسيس" أنها الزوجة المهجورة.

"أى قرية هذه ؟ وكم تبعد؟"

رمشت عينا الرجل و قال: " لا أعرف اسمها، إنها على نهر.. نهر صغير."

"على بعد كم يوم؟"

"هم.. ثلاثة أيام."

"أنت تكذب... لا توجد قرية على بعد ثلاثة أيام من هنا، ليس إذا كنت اتجهت جنوبيًا."

شحب الرجل، وكان شحوبه واضحًا حتى وراء وجهه المنهك. "لقد فقدنا البوصلة..."

"أين تركتها؟"

بدأ النجار فى البكاء، وفى النهاية شرح قائلا ـ نصف كلامه بالإنجليزية والنصف الآخر بالنرويجية.

"كان الأمر بشعًا... لقد فقدنا طريقنا، سمعت طلقة... واعتقدت أنه بإمكانى العثور عليه... كانت هناك ذئاب، وعندما رجعت وجدت دماء ولم يكونوا هناك."

بكى بحرقة وحزن، انسحبت المرأة ذات الملامح الرفيعة من جانبه وكأنها أصابها الاشمئزاز.

نظر الآخرون إلى "فرانسيس" وأفواههم مفتوحة بالفضول ـ فنصفهم لم يروه منذ أن تم إحضاره وهو نصف ميت، شعر"فرانسيس" بدموعه تهدد بالانهمار وقد شعر بغصة فى حلقه تخنقه.

أمسك"بير" بيده ليجذب انتباهه، "أعتقد أنه من الأفضل لنا جميعًا أن ندخل، فـ"إسبن" يحتاج للعناية والطعام، ثم سنعرف ماذا حدث ونرسل رجالا للبحث عنهم."

تحدث بلغته الأصلية وبالتدريج... استداروا جميعًا وساروا عائدين إلى المبانى.

سار"جاكوب" على خطى"فرانسيس"، ولم يتكلم حتى أصبحا تقريبًا بالداخل.

"اسمع.. أنا لا أعرف ولكن.. من الغريب أن تهاجم الذئاب وتقتل ثلاثة أشخاص، ربما هذا ليس ما حدث."

نظر "فرانسيس" إليه، ومسح أنفه فى كمه.

عند باب حجرته.. ناداهما "بير": " "جاكوب".. "فرانسيس" ليس هناك داع لأن تعودا للداخل، هيا إلى حجرة الطعام مع الجميع." متفاجئًا.. ومتأثرًا.. تبع "فرانسيس" "جاكوب" إلى حجرة الطعام.

أكلوا العيش والجبن وشربوا القهوة، كان هناك مائة همهمة والناس تتحدث ولكنها همهمة فوق الهمس بدرجة فحسب.. رهبة من المناسبة. فكر "فرانسيس" فى كرم "لاين" معه.. ورغبتها القوية فى الرحيل، لكنها قوية أيضًا، ربما لم يكن الأمر كذلك، لم تفكر فيه.. ليس بعد.

لم يبد أن أحدا فى هذه الحجرة ينظر إليه بشك، سوف يذهب معهم للبحث عن "لاين" لو كان بإمكانه، ولكن ركبته تنبض بالألم لكونها قامت بحركة غير معتادة عليها، وشعر أنه ضعيف كالماء، فلقد مرت أسابيع وهو راقد فى الحجرة البيضاء، وقد وهنت عضلاته وأصبح شاحبًا مثل نبات "الراوند" الموضوع تحت وعاء. أسابيع منذ...

أدرك مصدومًا أنه لم يفكر فى "لوران" لساعة على الأقل، ليس منذ أن رأى حشد الناس يتكدس على الحقل الأبيض.. ليس حتى منذ ـ إن كان صادقًا ـ فتح الباب الخارجى وتمتع بمذاق الهواء العذب البارد. لم يكن قد فكر فى "لوران" لفترة بهذا الطول وشعر وكأنه كان خائنا.

من المرتفع الذى خلف الكابينة هذه الليلة.. منذ وقت طويل، رأى "فرانسيس" ضوءًا خلال النافذة، مشى أسفل ضفة النهر بهدوء.. فى حالة لو كان لدى "لوران" زوار، يكون لديه دائمًا زوار ـ كان ـ كان "فرانسيس" يبقى خارج مجال الرؤية إذا كان هذا هو الوضع، فلم يكن يريد المزيد من الزجر من هذا اللسان السليط. سمع الباب ينفتح ورأى رجلا ذا شعر أسود يخرج إلى الباحة. كان يمسك بشىء فى يده، "فرانسيس" لم يستطع رؤية ما هذا الشىء، وحشره بحرص فى حقيبته وهو ينظر حوله.. أو بالأصح ينصت بثبات حذر جدير بمقتفى أثر. بقى"فرانسيس" لا يتحرك وهادئًا، كان الوقت منتصف الليل ومظلمًا إلى حد ما، لكنه عرف أنه لم يكن أحد من "دوف ريفير" ـ كان يعرف الطريقة التى يمشى.. يتحرك.. يتنفس بها كل شخص، وكان هذا مختلفًا. بصق الرجل على الأرض واستدار تجاه الباب المفتوح، فأخذ "فرانسيس" انطباعًا سريعًا لبشرة داكنة ولامعة.. شعر دهنى يلتف حول كتفيه، ووجه حجرى متصلب... ليس

صغير السن. تحرك داخل الكابينة مرة أخرى وقد اختفى من الصورة، ثم انطفأ الضوء داخل الكابينة. وغادر الرجل وهو يتمتم بشىء من تحت أنفاسه ومشى تجاه النهر.. ناحية الشمال وكانت خطواته صامتة. تنهد "فرانسيس" ارتياحًا ـ فلو كان هناك تاجر فى الجوار، فسيكون عليه الابتعاد عن الطريق، ولكن هذا الرجل لم يكن باقيًا.

انسل " فرانسيس" أسفل الضفة ومشى متأنيًا أمام الكابينة، لم يكن بإمكانه سماع أى شىء بالداخل، وعند الباب توقف قبل أن يفتحه.

"لوران؟" همس وهو خجلان من نفسه لكونه يهمس " لوران "؟

كانت عند "لوران" كل الفرص ليكون غاضبًا منه ـ كان قد مضى يوم ونصف يوم فقط منذ آخر مشاحنة بينهما، سرت فى قلبه قشعريرة باردة للفكرة ـ ماذا لو كان قد رحل بالفعل فى رحلته الأخيرة الغامضة، هاربًا من مطاردته، قد يكون اختار أن يذهب مبكرًا عما قال... ليتجنبه.. ليتجنب فضيحة، هذا ما قد يفعله بالفعل.

دفع "فرانسيس" الباب ليفتحه، بالداخل كان ظلامًا وصمتًا، ولكن دفئًا من الموقد كذلك، تحسس "فرانسيس" طريقه إلى حيث يوجد مصباح عادة ووجده. فتح باب الموقد وأشعل عودًا من القش.. لامسه إلى فتيل المصباح، ورمش بعينيه فى الضوء المفاجئ، لم تكن هناك أية استجابة لدخوله، "جاميه" رحل... ولكن منذ مدة؟ ربما كان بالخارج يقوم بالصيد أو قد يكون لم يرحل للأبد، بالطبع لم يكن ليترك الموقد مشتعلاً؟ قد يكون ..

كان متبقيًا فقط ثوان من حياته وقد ضيعهم "فرانسيس" دون تفكير وهو يعبث بفتيل المصباح. لو كان استدار لرأى "لوران" راقدًا على الفراش، لرأى على الفور البقعة الحمراء المثيرة للفضول فى شعره؛ ثم تحرك سريعًا إلى حيث رأى وجهه ورقبته وجرحه القاتل.

لرأى أن عينيه التى مازالتا رطبتين.

لشعر أنه مازال دافئًا.

ذرف "فرانسيس" الدموع من عينيه، كان "جاكوب" يتحدث: يقول إنه ذاهب إلى الخارج فهو لا يجب أن يجلس بهذا الشكل لمدة طويلة، وضع "جاكوب" يدًا على كتفه ـ الكل لطيف معه اليوم، وهو لا يمكنه تحمل ذلك ـ هل سيكون"فرانسيس" على ما يرام هنا؟ إنه ليس بحاجة إلى أن يهدده ألا يهرب.. ها!.

وافق"فرانسيس" بطريقة ما، وقد تأثر تعبير وجهه بالحزن على المصير الذى تخيله لـ"لاين".

بعد أن رأى جثة "جاميه".. بعد أن وقف فى صدمة الله أعلم كم من الوقت، قرر "فرانسيس" أنه يجب أن يتبع القاتل، لم يفكر فى أى شىء آخر يمكنه فعله، لم يستطع الذهاب للبيت، وهو يعرف ما قد عرف. لم يرد البقاء فى "دوف ريفر" ولو للحظة دون أن يجعل "جاميه" هذه اللحظة محتملة. وجد حقيبة "جاميه" فوضع فيها بطانية وطعامًا وسكين صيد أكبر وأكثر حدة من سكينه، نظر حوله فى الكابينة باحثًا عن علامة.. رسالة تركها له "لوران". لم يكن هناك أثر لمسدس "لوران"ـ هل كان يحمل الرجل مسدسًا؟ حاول أن يتخيل شكله، ثم أدرك فجأة ما الذى حشره الرجل بعناية فى حقيبته وشعر بالسقم.

مبعدًا عينيه عن الفراش قام "فرانسيس" برفع لوح الأرضية السائب وبحث عن الحقيبة التى يضع فيها "لوران" النقود، لم يكن هناك الكثير فيها.. فقط لفة صغيرة من النقود وقطعة غريبة من العظم المنقوش عليه كان "لوران" يعتقد أنها ذات قيمة، لذلك قام بأخذها أيضًا. فعلى كل حال.. حاول "لوران" أن يعطيها له منذ عدة أشهر عندما كان فى مزاج جيد.

ارتدى "فرانسيس" معطف "لوران" المصنوع من جلد الذئاب، المعطف المبطن بالفراء من الداخل، سوف يحتاجه فى الليل.

قام بتوديعه فى ذهنه، وسار مبتعدًا فى الاتجاه نفسه الذى اتخذه الغريب، لا يعرف ما الذى سيفعله لو أنه وجده.

***

أتذكر ذات مرة وقتًا.. عندما ذهبت فى رحلة طويلة، وأفترض أنها بقيت فى ذهنى بشكل حى جدا لأنها وضعت حدًا لنهاية فترة من حياتى وبداية أخرى. أنا واثقة أن الشىء نفسه حدث لكثير من الناس فى العالم الجديد، ولكنى لا أشير إلى الرحلة عبر المحيط الأطلنطى.. رغم كونها كانت بشعة. كانت رحلتى من بوابات المصح العقلى العام فى "إيدنبرج" إلى المنزل الكبير المتهالك فى "هايلاندس" الغربية. كان يصحبنى الرجل الذى سيكون زوجى فيما بعد، ولكن بالطبع لم تكن لدى أية فكرة عن ذلك حينها، ولم يكن لدى فكرة عن أهمية الرحلة، ولكن بمجرد أن بدأت.. بدأت حياتى تتغير كليًا وللأبد. لم أكن لأخمن هذا قط... ولكنى لم أعد قط إلى "إيدنبرج"، وحقًا بينما تغادر العربة المصح خلفها فى طريقها المتعرج الطويل... تم قطع روابط معينة: مع الماضى.. مع والدى.. مع خلفيتى المريحة إلى حد ما... مع فصلى، حتى أن هذا لم يكن ليعاد الاتصال به قط.

كنت أحب أن أفكر فى هذه الرحلة ـ فيما بعد ـ متخيلة يد القدر وهى تعمل.. تقطع الخيوط من خلفى، بينما أنا جالسة فى جهل مذهل، فى هذا الصندوق المهتز، متسائلة إن كنت مجنونة (كما يقال) لأرحل عن المصح وحياة الراحة. وتساءلت كم من المرات نكون على وعى بالقوى الحتمية وهى تعمل بينما هى تقوم بدورها؟ بالطبع لم أكن، ومن ناحية أخرى ـ أفترض ـ كم من المرات نتخيل أن شيئًا ما له أهمية كبيرة، فقط ليتبخر هذا الشىء مثل ندى الصباح.. دون أن يترك أثرًا؟

وبغض النظر عن تأملاتى فقد وصلنا فى النهاية، نهاية الرحلة التى شعرت أنها فى غاية الأهمية، ولكن ربما مجرد الخوف من العنف هو يجعلها تبدو كذلك.

كانت البلدة أقل رتابة هنا؛ كانت قد امتلأت بالمرتفعات والتعاريج مثل سجادة تحتاج إلى أن تستوى. وهناك أمامنا.. يمكننى رؤية خلال الومضات النارية.. بحيرة صغيرة، إنها ممتدة ومتعرجة وكأنها أصبع

ينادينا.. وقد التوت حول كتلة ضخمة من الصخور التى ترتفع مائة قدم أو أكثر.. فى منتصف امتدادها. كانت هناك أشجار على الشاطئ الأبعد ولكنها أكثر منها منطقة من الأشجار عن أن تكون غابة، معظم مساحة البحيرة قد كساها الجليد.. مستوية وبيضاء مثل ملعب الـ"كيرلينج". لكن عند الحافة حيث يصب نهر فيها.. منسدلا أسفل شلال صغير من الصخور.. يرتفع البخار من المياه السوداء، فالحركة العنيفة والمستمرة للشلالات تحفظها خالية من الثلج.

مشينا عبر البحيرة المتجمدة، سطعت الشمس ببرود من مكانها فى الغرب، السماء بلون مثالى للأزرق الرائق، والأشجار وكأنها لوحة رسمت بالفحم لتناقض الجليد. حاولت تخيل أننا هنا لسبب آخر.. سبب جيد، ولكن الحقيقة أنه لا يمكن أن يكون هناك سبب آخر يبرر وجودى هنا مع "باركر". فليس لدينا شىء مشترك سوى الموت الذى يربطنا معًا: هذا ورغبة فى تحقيق عدالة من نوع ما. وعندما يتم هذا- مهما كان ما سيتم فلن يتبقى شىء يربطنا معًا على الإطلاق، وهذا هو ما لا يمكننى تحمل التفكير فيه.

لهذا السبب أجبر نفسى على النظر رغم الألم الذى فى عينى. يجب أن أرى.. يجب أن أتذكر ذلك .

كان الجليد أقل سمكًا على الأرض تحت الأشجار، تأثرت الكابينة المتهالكة بالعوامل الجوية حتى أصبحت غير مرئية حتى تصل أمامها مباشرة. كان الباب مواربًا وقد تدلى من المفصلات المتآكلة، وقد شق الجليد طريقًا له بالداخل وقد كون حاجزًا جزئيًا. تخطى "باركر" هذا الحاجز وأنا وراءه.. ساحبة كوفيتى من على وجهى. كانت هناك نافذة واحدة مغلقة، وكان المكان غارقًا فى ظلام مهيب، لم يكن هناك شىء بالداخل يشير إلى أنها قد كانت مأهولة بالسكان ذات مرة، فقط كومة من الحزم التى اكتست باللون الأبيض من انجراف الثلج.

"ما هذا المكان؟"

"كانت كابينة الصائدين، من الممكن أن يكون عمرها مائة عام."

كان من الممكن حقًا للكابينة المتهالكة المتداعية التى أصبحت ألواح خشبها فضية من تأثير الطقس أن تكون بهذا القدم.

كنت مأخوذة بالفكرة، فأقدم مبنى فى "دوف ريفير" بقى على هذه الأرض منذ ثلاثة عشر عامًا بالضبط.

تعثرت فى شىء ما على الأرض، "هل هذه هى الفراء؟" أشرت إلى الحزم، فأومأ "باركر" وذهب إلى واحدة وأخذ يقطع الأربطة بسكينه، وأخرج فروة داكنة مائلة للون الرمادى.

"هل سبق ورأيت واحدة من هذه؟"

أخذتها.. فكانت بين يدى مرنة وباردة وناعمة بشكل لا يصدق. كنت قد رأيت واحدة من قبل فى "تورنتو" على ما أعتقد، ملفوفة حول رقبة مكتظة (شبيهة برقبة الديك الرومى) لامرأة ثرية عجوز، فراء الثعلب الفضى. كان الناس يعلقون عليه وكيف أنه يساوى مائة جنيه، أو مبلغ غير عادى مثل هذا، كان فضيًا وثقيلا ومنزلقًا وناعمًا مثل الحرير، كان كل هذه الأشياء ولكن هل يستحق كل هذا؟

شعرت بخيبة أمل فى"باركر"، لا أعرف ماذا كنت أتوقع، ولكن بشكل ما فى نهاية كل هذا... أكره أن أعترف أنه قد جاء كل هذا الطريق لنفس الشىء الذى يبغيه "ستيوارت".

أقمنا معسكرًا فى الكابينة دون كلام، كان "باركر" يعمل بصمت ولكنه نوع مختلف من الصمت، ليس الانغماس التام المعتاد فيما يفعل، يمكننى معرفة أنه غارق فى التفكير فى شىء آخر.

"كم من الوقت تعتقد أنه سيأخذ؟"

"ليس طويلا..."

لم يحدد أحدنا ماذا يعنى، ولكن عرفنا أنها ليست المهمة التى فى

يده، ظللت أسترق النظر إلى خارج باب الكابينة والذى كان يواجهه الجنوب، لذلك لم أتمكن من رؤية الطريق الذى اتخذناه.

كان الضوء بالخارج غامضًا... كل نظرة كانت ترسل ألمًا طاعنًا فى عمق جمجمتى، لكنى لا أقدر على البقاء فى الكابينة.. لابد أن أكون بمفردى.

أبقيت عينى على الأشجار التى اصطفت على الشاطئ الغربى.. ممتدة لأعلى إلى الجزء الأسود غير المتجمد من البحيرة.. منجذبة للشلالات من عند رأسها والتى تتحرك ولكنها صامتة بشكل غامض. عندما رأيتها التقطت أغصانًا ميتة بلا هدف... لإشعال النار. هل سيكون لدينا حتى نار، لو أننا انتظرنا "ستيوارت"؟ كان هناك مذاق لاذع ومعدنى فى فمى، والذى قد أصبحت أعرفه جيدًا، إنه مذاق خوفى.

إنها فقط مائة ياردة لرأس البحيرة، لذلك ستظن أنه سيكون مستحيلا أن تضل طريقك، ولكن هذا بالضبط ما كنت أفعله، بقيت قريبة من حافة البحيرة، ولكن حتى عندما سرت عائدة بطول الشاطئ لم يكن باستطاعتى رؤية الكابينة فى أى مكان. فى البداية لم أفزع... وقمت باتباع آثار خطواتى إلى الشلالات، حيث المياه سوداء ويتصاعد منها الدخان ومحاطة بثلج يزداد شحوبًا باطراد. شعرت بالرغبة الملحة - حيث إن الذى يمشى على المرتفع يصبح مدفوعا لأن يذهب لأقرب مكان من الحافة ـ فى أن أمشى على الثلج.. من اللون الأبيض إلى الرمادى، لترى مدى قوته. لأن أمشى لأبعد ما يمكننى.. ثم لأبعد قليلا.

استدرت عائدة وقد أبقيت الشمس الغاربة وومضتها النارية على يمينى، ومشيت داخل الأشجار مرة أخرى. كانت جذوع الأشجار تكسر ضوء الشمس إلى موجات نابضة تتحرك بسرعة وتنتشر أمام نظرى.. جاعلة إياى أشعر بالدوار. أغلقت عينى ولكن عندما فتحتهما لم يكن بوسعى رؤية شىء على الإطلاق ـ سواد حارق يمسح كل شىء ويجعلنى

أصرخ عاليًا من الألم. رغم ما أعرفه، فقد داهمنى خوف مفاجئ أن عينى لن تشفى. كان من النادر أن العمى الذى يسببه الجليد أن يصبح دائمًا، لكنه كان معروفًا، ثم فكرت.. هل سيكون هذا محزنًا جدًا؟ سيعنى هذا أن "باركر" سيكون آخر وجه أراه أبدًا.

كنت على يدىّ وركبتى، وقد تعثرت ووقعت بواسطة ما بدا مرتفعًا من الجليد تم تحريكه بعنف، ربت على الأرض بيدى، ربما عرين حيوان ماء، كانت الأرض داكنة ومفككة تحت الجليد، ومضة من إنذار جديد اشتعلت بداخلى؛ لابد أنه حيوان ضخم جدا لكونه قد حفر كل هذه الأرض، وقد تم هذا حديثا، بدت الأرض مفككة وجديدة.. تنصاع تحت يدى. بدأت أدفع بنفسى لأعلى فقابلت يدى شيئًا تحت الأرض بالضبط جعلنى أترنح مرة أخرى وأصرخ عاليا قبل أن أتمكن من إيقاف نفسى، كان شيئًا ناعمًا وباردًا.. ذا مرونة معروفة والتى تميز القماش أو...أو...

"سيدة "روس"؟"

كان بجانبى بطريقة ما قبل أن أسمعه يقترب، تفكك السواد قليلا وأمكننى رؤية الشكل الداكن، ولكن كانت عيناى تلعبان الآلاعيب معى... أشكال حمراء عنيفة تختلط مع أغصان وبقع من الجليد الأبيض.

أخذ ذراعى وقال: " هش.. ليس هناك أحد هنا."

"هناك شيء فى الأرض.. لقد لمسته"

ملأتنى موجة من الشعور بالغثيان ثم انحسرت، لم أستطع رؤية المرتفع الأرضى ولكن "باركر" بحث حوله ووجده. وقفت حيث كنت وأنا أمسح الدموع التى تجرى بلا توقف (دون سبب.. حيث إننى لم أكن أبكى) من عينى. إذا لم أمسحها على الفور فإنها تتجمد على خدى فى حبات لؤلؤ صغيرة.

"إنه واحد منهم أليس كذلك؟ واحد من النرويجيين." لم يكن بوسعى التخلص من الشعور من يدى والتى كانت عارية لدهشتى .

كان "باركر" قد جلس القرفصاء الآن.. وهو ينبش الأرض والجليد بعيد، "إنه ليس واحدًا من النرويجيين."

أطلقت تنهيدة راحة، إذًا فهو حيوان على كل حال، التقطت قبضة من الجليد لأفرك يدى لأنظفهما من الشعور الفظيع.

"إنه.. "بيبابانيز"."

أخذت عدة خطوات تجاهه وأنا أترنح، حيث لا يمكننى الاعتماد عليهما لإخبارى بالحقيقة. كان "باركر" أمامى على الأرض يلمع ويحترق مثل رجل فى الخامس من نوفمبر(*).

"ابق بعيدًا."

لم يكن بإمكانى رؤية الكثير على أى حال، وظلت قدماى تتحركان قريبًا من تلقاء نفسهما، ثم كان "باركر" على قدميه وهو يمسك بىّ من ذراعىّ، حاجبا عنى الشىء الذى على الأرض.

"ما الذى حدث له؟"

"لقد أطلق الرصاص عليه."

" دعنى أرى."

بعد لحظة انزاح جانبًا لكنه أبقى على قبضته على ذراعى بينما انحنيت بجانب القبر الضحل، بإبقائى لعينى مغلقتين تقريبًا تمكنت من أن أستوضح ما الذى كان على الأرض. كان "باركر" قد أزاح الثلج والأرض كافيين ليكشف عن جسد ورأس رجل، كانت الجثة ترقد والوجه لأسفل.. شعره المضفر متصلب، ولكن الخيوط الحمراء والصفراء التى تربط الضفائر مازالت زاهية.

لم يكن على أن أقلبه، هو لم يسقط فى الثلج ويغرق.. كان هناك جرح فى ظهره فى حجم قبضة يدى.

(*) عيد الألعاب النارية.

لم يكن قبل أن نعود إلى الكابينة أن اكتشفت آخر حماقاتى، لابد أننى نسيت قفازى فى مكان ما بين الأشجار، كانت أصابعى بيضاء وخدرة، خطيئتان كبيرتان فى يومين؛ أنا أستحق الضرب بالرصاص.

"آسفة هذا غباء منى.." اعتذرت مجددًا .. عديمة النفع.. وغبية.. ولا أمل فىّ.. وحمل ثقيل على عاتقه.

"إنهما ليسا بهذا السوء."

كانت الشمس قد استسلمت لليل، والسماء ذات لون أزرق مائل إلى الخضرة.. لون لطيف. كانت النار تحترق بداخل الكابينة و"باركر" قد كوم ثروة من الفراء ليصنع منها فراشًا.

كانت هذه المرة الثانية فقط التى سمحت لهذا أن يحدث لىّ؛ المرة الأخرى كانت فى أول الشتاء هنا، وتعلمت الدرس حينها. أبدو وكأننى نسيت الكثير فى الأسابيع القليلة الماضية، مثل كيف أحمى نفسى.. بكل المقاييس.

دلك "باركر" يدى بالجليد، كان الشعور الذى فى أصابعى يزحف بعيدًا وبدأت أشعر بألم حارق بهما.

"إذًا "ستيوارت" كان هنا، وهو يعرف بأمر الفراء."

أومأ "باركر".

"أنا قلقة من ألا أكون قادرة على استخدام المسدس."

ضحك "باركر" مصدرًا خوارًا ثم قال: "ربما لن يكون هذا ضروريًا."

"سيكون أفضل شىء أن تأخذ كلاهما على الأرجح.. يمكننى فقط أن..."

كنت سأكون زوجًا آخر من العيون.. أراقبه وأحمى ظهره، والآن لا يمكننى حتى فعل هذا.

"آسفة.. لست ذات نفع." كتمت ضحكة مريرة.. فلقد بدت غير مناسبة.

"أنا سعيد لأنك هنا."

لم أستطع رؤية التعبير المرتسم على وجهه - فلو أننى نظرت إليه مباشرة، فسوف تملأ ومضات زاهية مركز رؤيتى؛ يمكننى فقط رؤيته فى لمحات من ركن عينىّ.

إنه سعيد لكونى هنا.

"أنت وجدت "نيبابانيز"."

سحبت يدىّ بعيدًا. "شكرًا لك، أستطيع القيام بهذا الآن."

"لا انتظرى." قام "باركر" بفك أزرار قميصه الأزرق، وأخذ يدى اليسرى مرة أخرى وقادها للداخل.. إلى حيث يلتقى ذراعه اليمنى مع جسده، واحتجزها بين لحمه الدافئ. مددت يدى اليمنى إلى تحت إبطه الآخر، وهكذا أصبحتا محتجزتين هكذا، يفصلنا فقط طول ذراع.. ونحن واقفان وجهًا لوجه. وضعت رأسى على صدره لأننى لم أكن أريده أن يحدق فى وجهى بعينى الحمراوين الدامعتين ووجنتى المحتقنتين بالدماء... وابتسامتى.

كان بوسعى سماع قلب "باركر" يخفق وأذنىّ على جلده العارى الفضى، هل نبضه سريع؟ لم أعرف إن كان هذا طبيعيًا. كان قلبى سريعًا وكنت أعرف هذا، ويداى تحترقان بالحرارة.. تتسرب إليهما الحياة مرة أخرى مع دفء جلده الذى لم أشعر بمثله من قبل. دفع "باركر" بفروة فضية مربوطة تحت رأسى؛ وسادة قيمتها مائة جنيه والتى كانت ناعمة وباردة. استراح ثقل ذراعه على ظهرى. عندما تحركت قليلاً فيما بعد، وجدت أنه يمسك بشعرى الذى كان قد انفك من أربطته.. وقد التوى فى يده. ملس على شعرى دون وعى كما يربت على أحد كلابه.. ربما.. أو ربما لا. لم نتكلم.. ليس هناك ما يقال.. ليس هناك صوت سوى صوت أنفاسنا وفحيح النار، وخفق قلبه غير المستقر.

لأكون صريحة.. إن كانت هناك أمنية واحدة ستتحقق لى، لتمنيت ألا تنتهى هذه الليلة قط. إننى أنانية؛ أعرف ذلك ولا أدعى عكسه، وربما كنت خبيثة كذلك، فلا يبدو أننى أهتم للرجال الذين فقدوا حياتهم.. ليس لو كانت النتيجة فى النهاية أن أرقد هنا بهذا الشكل، وشفتاى قريبتان من مثلث من الجلد الدافئ بحيث يمكنه الشعور بأنفاسى تأتى وتذهب.

أنا لا أستحق أن تتحقق لى أمنياتى، ولكن حينها ذكرت نفسى، سواء أستحق أم لا فإن هذا لا يمثل أى فرق.

ففى مكان ما بالخارج.... "ستيوارت" قادم.

***

استيقظت على لمسة خفيفة على كتفى، "باركر" ينحنى بجانبى والمسدس فى يده. على الفور عرفت أننا لسنا بمفردنا، أعطانى سكين الصيد خاصته.

"خذى هذه، سوف آخذ كلا المسدسين، ابقِ بالداخل وأنصتى السمع."

"هل هم هنا؟"

لم يكن بحاجة للإجابة.

لم يكن هناك صوت من الخارج ولا رياح. استمر الجو الثلجى الرائق، والنجوم والقمر الخافت يلقيان بضوء ناعم خافت على الثلج. ليس هناك غناء عصافير ولا صوت حيوان أو إنسان.

لكنهم هنا.

أخذ "باركر" موقعه بجانب بديل الباب واسترق النظر خلال الشقوق. تحركت ببطء إلى الحائط وراء الباب وتشبثت بالسكين. لم يكن بوسعى تخيل ما الذى يمكننى فعله بها.

"إنه الفجر تقريبًا، وهم يعرفون أننا هنا."

كنت دومًا أكره الانتظار، ليس لدى الموهبة التى لدى كل الصائدين، وهى أن أدع الوقت يمضى دون القلق على كل لحظة. ارهفت أذنى لأسمع أخفت الأصوات وبدأت أفكر أن "باركر" قد يكون مخطئاً، عندما بدا أن هناك ضوءًا يمسح المكان بالخارج وعلى حائط الكابينة. جرى الدم فى عروقى، وقمت بحركة مفاجئة لا إرادية ـ أقسم إننى لم أستطع التحكم ـ طرق نصل السكين فى الحائط. من كان بالخارج لابد أنه سمع ذلك أيضًا، كانت هناك كثافة الصمت، ثم تراجعت وقع الأقدام التى كانت لها أخفت صوت.

لم أعد أشعر بالحاجة للاعتذار بعد الآن، لذلك لم أقل شيئًا. ثم كان هناك المزيد من صوت الأقدام، وكأن صاحب هذه الأقدام قد قرر أن الأمر لا يستحق جهد البقاء هادئاً.

"ما الذى تراه؟"

تكلمت بخفوت شديد بصوت أقل من التنفس، هز "باركر" رأسه: لا شىء. أو كان يعنى أن أغلق فمى، عمومًا كنت سأوافق على ما يقول.

بعد فترة لا نهائية من الزمن ـ دقيقة؟ عشرون؟ - جاء صوت: ""وليام" أنا أعرف أنك بالداخل."

كان صوت "ستيوارت" بالطبع، بالخارج أمام الكابينة، أخذ منى دقيقة لأدرك أنه كان يتحدث إلى "باركر".

"أعرف أنك تريد تلك الفراءات يا "وليام"، لكنها ملك للشركة وعلىّ أن أعيدها لملاكها الشرعيين، أنت تعرف هذا."

نظر "باركر" إلىّ سريعًا.

"معى رجال بالخارج هنا." بدا صوته واثقًا.. غير قلق.. ملولاً.

"ما الذى حدث مع "نيابانيز"؟ هل كشف أمر "لوران"؟"

صمت، تمنيت لو أن "باركر" لم يقل ذلك، فإذا عرف "ستيوارت" أننا وجدنا القبر، فلن يدعنا نذهب أحياء قط. ثم جاء الصوت مجددًا.

"لقد كان جشعًا، أراد الفراء لنفسه، كان سيقتلنى."

"لقد ضربته من وراء ظهره."

أقسم إننى سمعت تنهيدة، وكأن صبره على وشك النفاد. "الحوادث تحدث، أنت تعرف ذلك يا "وليام" ـ أنت من بين كل الناس. لم يكن هذا... مقصودًا، سوف أصر على أن تخرج إلى هنا."

الآن هناك فترة صمت طويلة، رأيت "باركر" يشد قبضته على المسدس، مازالت عيناى تحرقاننى ولكن باستطاعتى الرؤية، على أن أرى المسدس الآخر متدليًا بالعكس عبر ظهره. كانت السماء أفتح لونًا.. فالفجر يقترب.

"وليام باركر".. أنت حبى."

داهمنى هذا مثل حصان هارب، ملأت الدموع عينى لفكرة أنه سيمشى خارجًا من هذا الباب.

"يمكننا عقد صفقة، يمكنك أخذ بعض الفراء وتذهب."

قال "باركر": "لماذا لا تدخل هنا ونتحدث؟"

"اخرج أنت، إن الظلام بالداخل هناك."

"لا تخرج! أنت لا تعرف كم رجلا معه." كانت أسنانى تصر على الكلمات، وكنت أدعو بكل البقايا المهترئة من كل الإيمان الذى كان لدى أن ينجو.

"أرجوك...!".

"الأمر على ما يرام." قالها بلطف شديد وهو ينظر إلىّ، والآن كان هناك ضوء كافٍ لترى وجهه غارقًا فى ارتياح حاد، ويمكننى رؤية كل تفصيل فى وجهه، كل خط منحن اعتقدت يومًا أنه قاس ووحشى، كل تعريجة.. كانت عزيزة بشكل لا يوصف.

"اخرج إلى العراء هنا أولاً.. دعنى أرى أنك غير مسلح."

"لا!"

كانت أنا من قال هذا.. ولكن من تحت أنفاسى. كان هناك بعض الضوضاء بالخارج، ثم جذب "باركر" ما يدعى بالباب وخطى للخارج إلى ضوء الغسق الرمادى. أغلق الباب وراءه، وأغلقت عينى بشدة وأنا أنتظر انطلاق الطلقة.

لم تأت، اتخذت موقعى خلف الباب، لكى أتمكن من الرؤية خلال الشقوق، يمكننى رؤية شخص ما لابد أنه "ستيوارت"، ولكن ليس حيث كان "باركر"؛ ربما كان قريبًا جدًا للكابينة.

"أنا لا أريد عراكًا، أريد فقط أن آخذ الفراء إلى حيث ينتمى."

"لم يكن عليك قتل "لوران"، فهو لم يكن حتى يعرف أين كانت." جاء صوته من مكان ما على يمينى.

"كان هذا خطأ، لم أرد لهذا أن يحدث."

"خطآن؟" جاء صوت "باركر" مرة أخرى وهو يتحرك لأبعد.

لم يكن بوسعى رؤية تعبير وجه "ستيوارت" من حيث كنت، لكنى أشعر بالغضب فى صوته، مثل شىء صلب وجامد يضغط لدرجة الانفجار. "ما الذى تعنيه يا "وليام"؟"

بعد أن تكلم.. تحرك "ستيوارت" فجأة واختفى من مجال رؤيتى، دوت طلقة وومضة ضوء انفجرت من مكان ما فى الأشجار خلفه، وسقط شىء ما على حائط الكابينة فى الناحية البعيدة على يمينى. لم يكن هناك أى صوت آخر، لم أكن أعرف أين "باركر". أحرق البارود مقلتى عينى مثل إبرة شديدة السخونة تم إدخالها فى مخى. جاءت أنفاسى فى شهقات عالية متقطعة والتى لم أتمكن من كبتها، أردت أن أصرخ عاليًا لـ"باركر"، لم يكن بوسعى أخذ أنفاسى. لم أر أى أحد.. كان هناك صوت ما إلى يسارى ثم سمعت لعنات صادرة من "ستيوارت".

هل يلعن لأن "باركر" قد هرب؟

خطوات بالخارج.. قريبة جدًا. أمسكت مقبض السكين بأكبر قدر يمكن لأصابعى الخدرة تحمله؛ اتخذت موقعى خلف الباب.. على استعداد..

عندما ركل الباب بمنتهى السهولة، خبط فى جبهتى.. وأوقعنى أرضًا.. فأوقعت السكين.

للحظة لم يحدث شىء آخر؛ ربما لأن عينيه أخذتا لحظة لتتعودا على الظلام. ثم رآنى منبطحة أرضًا عند قدميه. تحسست بيدى باحثة عن السكين، وبمعجزة ما كانت قد سقطت تحتى، وأمسكتها من النصل ونجحت فى أن أدخلها فى جيبى قبل أن يقبض على ذراعى الآخر وجذبنى بعنف لأقف على قدمى، ثم دفعنى أمامه وخارج الباب.

***

عندما سمع "دونالد" الطلقة بدأ يجرى، كان يعرف أن هذا ليس أكثر الأشياء حكمة ليفعله ولكن بشكل ما ـ ربما لأنه رجل طويل ـ لم تصل الرسالة إلى قدميه فى الوقت المناسب. كان واعيًا بـ"أليك" من ورائه يقول شيئاً ما من بين أنفاسه، لكنه لم يعرف ماذا كان يقول.

كان قريبًا من نهاية البحيرة؛ وجاء الصوت من الأشجار على الشاطئ البعيد، ظل يفكر فى أنهم كانوا على حق، كانوا على حق ـ والآن يقوم "نصف رجل" بقتلهما. كان يعرف أنه مرئى بشكل واضح وأحمق.. جسم يجرى على الثلج، لكنه أيضًا يعرف أن "ستيوارت" لن يطلق النار عليه. فيمكن الوصول إلى حل بسيط ما؛ يمكنهما التحدث مثل شخصين عاقلين.. كلاهما موظف عند الشركة العظيمة، فـ"ستيوارت" رجل عاقل.

""ستيوارت"!" صاح وهو يجرى. ""ستيوارت"! انتظر!".

لم يكن يعرف ما الذى سيقوله غير ذلك، فكر فى السيدة "روس" — وهى تنزف حتى الموت.. ربما. وكيف أنه لم ينقذها.

كان قد وصل تقريبًا إلى الأشجار التى عند سفح تل صغير عندما شعر بحركة أمامه، أول علامة على الحياة يراها.

"لا تطلق النار.. أرجوك.. إنه أنا "مودى"... لا تطلق..." كان يمسك بمسدسه من الماسورة ويلوح به ليظهر نواياه السليمة.

كانت هناك ومضة ضوء من تحت الأشجار، وشىء ما ضربه بقوة هائلة فى منتصف جسده وطرحه أرضًا على ظهره، كان الغصن ـ أو أيًا كان ما اصطدم به ـ على ما يبدو قد صدمه فوق جرحه بالضبط وهذا لم يساعد.

مصابًا بالدوار.. حاول أن يقوم لكنه لم يستطع، لذلك رقد حيث كان لبضع لحظات، يحاول التقاط أنفاسه. وقعت نظارته؛ حقًا هى غير مناسبة للحياة فى "كندا"، فدوما يكسوها الجليد أو البخار فى اللحظات غير المناسبة، والآن... تحسس بيده حوله بحثًا عنها على الجليد، لكن يده لم تجد شيئًا سوى البرودة فى كل مكان، بالطبع يمكن لأحدهم أن يفكر فى شىء أكثر مناسبة.

أخيرًا وجد المسدس والتقطه، وعند هذه النقطة ـ لأن المقبض كان زلقًا ودافئًا، فأصبح واعيًا لوجود دم. عندما رفع رأسه بجهد كبير رأى الدم على معطفه.. كان متضايقًا.. فى الواقع كان فى غاية الغضب. يا له من أحمق كبير أن يقحم نفسه فى وضع مثل هذا، الآن سيكون "أليك" فى خطر أيضًا، وكل هذا خطؤه، فكر فى أن ينادى بصوت عالٍ على الفتى، ولكن شيئًا ما ـ إحساس أكبر ما من مكان ما -جعله يتوقف. ركز فى أن يضع المسدس فى وضع الاستعداد، فعلى الأقل يمكنه التصويب.. ليس أن يستدير ويموت دون صوت. لن يكون بلا نفع تمامًا؛ ما الذى سيقوله والده؟

لكن هناك صمتًا، وكأنه هو ـ مرة أخرى ـ الشخص الوحيد لأميال من حوله، سيكون عليه الانتظار حتى يرى شيئًا. حسنًا.. الشخص الذى أطلق الرصاص أيًا كان، من الواضح أنه لا يعتقد أنه فى حاجة لأن يأتى وينهى المهمة. أحمق!.

ثم.. عند نقطة ما فيما بعد، نظر لأعلى ورأى وجهًا فوقه، كان وجهًا تذكره فى الحال من "هانوفر هاوس"، وجه سكير.. قاس وفارغ.. وجامد بطريقة ما، مثل حجر يسد جحرًا. لم يكن هذا الوجه ثملا الآن، ولكن لم يكن هناك فضول أو خوف أو حتى شعور بالانتصار. أدرك أن هذا وجه قاتل "لوران جاميه"، الرجل الذى قادتهم آثار قدميه كلهم إلى هنا، إن هذا ما جاء من أجله.. ليعرفه وليجده، وقد قام بذلك الآن ولكن جاء هذا متأخرًا جدًا. فكر "دونالد" أن من طبعه أن يكون بطىء الفهم، تمامًا مثلما كان والده يقول دومًا. وبموجة من الحرارة ترتفع لعينيه فكرة أنه ياليته يسمع صوت والده يوبخه الآن.

بدأ "دونالد" يفكر أنها ستكون فكرة جيدة أن يصوب المسدس إلى الوجه، ولكن أثناء ما كان يفكر، كان الوجه قد اختفى مرة أخرى، وكان مسدسه قد اختفى هو الآخر. كان منهكًا.. منهكًا ويشعر بالبرد، ربما سيلقى برأسه للوراء على الجليد الناعم؛ ويستريح لبرهة.

خارج الكابينة، لم أر أى شخص ولا حتى "ستيوارت"، الذى كان يقبض على ذراعى اليسرى الملتوية بشدة وراء ظهرى لدرجة جعلت أنفاسى قصيرة متقطعة خوفا من أن ينخلع ذراعى من مفصله. على الأقل ليس هناك أثر لـ"باركر" راقدًا متأثرًا بجراحه ـ أو الأسوأ ـ على الجليد. وليس هناك أثر لـ"نصف رجل".. لو كان هو الذى بالخارج. لوح "ستيوارت" بمسدسه أمامى.. كنت أنا درعه الواقى. هناك حركة ما ولكن وراء الكابينة؛ صوت واه. قام بتحريكى قليلا تجاه الحائط الخلفى، حيث الشمس بدأت تسطع فى الأفق، بالطبع لم يكن هناك أى إيشارب ليحمى عينى، وكانت يداى عاريتين.

"إهمال!" قال وكأنه يقرأ أفكارى. "وعيناك أيضًا، لم يكن يجب أن يحضرك إلى هنا." بدا على صوته الإحباط قليلا.

"ليس هو الذى أحضرنى، أنت الذى أحضرنى إلى هنا عندما قتلت أنت "جاميه" أحضرتنى إلى هنا." قلت من بين أسنانى المصطكة.

"أحقًا؟ حسنًا.. حسنًا.. لم يكن لدى أدنى فكرة، لقد اعتقدت أنك و"باركر"... "

كان الكلام يؤلم ولكنه خرج من فمى دون تحكم.. فلقد كنت أفور من الغضب. "ليس لديك أية فكرة عن كم من الأشخاص الذين سببت لهم الأذى، ليس فقط الأشخاص الذين قتلتهم ولكن...."

"اصمتى." قال بهدوء، كان يرهف السمع.. هناك صوت خشخشة فى الأشجار، من بعيد على يسارنا، هناك صوت محدد –مسدس. بدا صوته مختلفًا عن ذى قبل.

"باركر!".

لم أستطع منع نفسى، بعد جزء من الثانية عضضت على لسانى بشدة، فأنا لا أريده أن يعتقد أنها صيحة استغاثة فيأتى راكضًا.

"أنا بخير!" صحت مع نفسى التالى. "لا تطلق النار أرجوك، سوف يعقد معنا صفقة وسوف نرحل.. فقط دعنا نرحل.. أرجوك.."

"اصمتى!".

وضع "ستيورات" يدًا على فمى، ضاغطًا بشدة لدرجة أحسست معها أن أصابعه ستحطم فكى. تحركنا مثل مخلوق مرتبك ذى أربع أرجل لنهاية الكابينة، ولكن مرة أخرى لم يكن هناك أى شخص على مرمى البصر.

خرقت رصاصة أخرى الصمت ـ إلى يسارنا.. وراء الكابينة الآن، وبعدها – هذه المرة – صوت.. تأوه بشرى.

شهقتُ.. التصق نفسى بحلقى مثل القار.

صاح "ستيوارت" بلغة غريبة، أمر؟ سؤال؟ لو كان "نصف رجل" يسمع هذا فهو لم يكن يجيب. صاح "ستيوارت" مجددًا.. وكانت طبقة صوته مشدودة وقلقة.. رأسه تهتز للأمام وللخلف.. غير واثق من نفسه. قلت لنفسى إنه على أن أقوم بشىء الآن؛ الآن بينما هو غير مستقر. أمسكت

بالسكين التى فى جيبى.. أدرتها حتى أحسست بالمقبض الدافئ فى راحة يدى، بدأت أسحبها للخارج.. قليلاً قليلاً.

ثم جاء صوت من مكان ما بين الأشجار، ولكنه بالتأكيد ليس صوت "نصف رجل". أجاب صوت شاب باللغة نفسها. كان "ستيوارت" قلقًا ومتوترًا، فلم يتعرف على الصوت. هذا ليس جزءًا من خطته. لوحت بالسكين عابرة جسدى وإلى جانبه.. بأقصى ما استطعت من قوة. رغم أنه فى آخر لحظة بدا أنه أدرك ما الذى يحدث وانتفض بعيدًا.. إلا أن النصل لاقى مقاومة ضعيفة، وصاح من الألم. التقطتُ لمحة من وجهه، والتقت عيناى بعينيه ـ كانتا لائمتين ـ أكثر زرقة من السماء؛ لكن بدت على وجهه نصف ابتسامة، حتى وهو يلوح بالمسدس تجاهى.

ركضت.. صوت مسدس آخر ـ وقد أصابنى بالصمم ـ قريب جدًا فى مكان ما، لكنى لم أشعر بأى شىء.

***

شاهد "أليك" "دونالد" وهو يجرى عبر البحيرة المتجمدة على الرغم من صيحاته.. ثم لعناته. صاح به أن يتوقف، لكنه لم يفعل. شعر "أليك" بخوف قبيح يتشبث بأحشائه، كان خائفًا من أن يفرغ معدته، لذلك استدار عائدًا. ثم قال لنفسه ألا يكون طفلاً؛ لابد أن يفعل مثلما كان والده ليفعل، فانطلق يجرى وراءه.

كان "أليك" متأخرًا بمائة ياردة عندما جاءت ومضة الضوء ـ سوف يقسم لاحقًا إنه لم يسمع شيئاً ـ ثم سقط "دونالد". ألقى "أليك" بنفسه أرضًا خلف بعض الحشائش التى تخترق الجليد. أمسك بمسدس "جورج" مرفوع الزناد أمامه وهو يجز على أسنانه من غضبه وخوفه. لم يكن يجب عليهم أن يطلقوا النار على "دونالد". كان "دونالد" طيب القلب مع أمه، "دونالد" أخبره عن عمتيه الجميلتين اللتين تعيشان على شاطئ بحيرة كبيرة مثل الشجر، "دونالد" لم يؤذ أحدًا.

فح نفسه خلال أسنانه.. عاليًا جدًا، تفحص الأشجار بعينيه ـ كانت توفر ميزة الغطاء ـ ثم نهض وركض.. نصف باكيًا ومنحنيًا؛ يلقى بنفسه منبطحًا على الجليد ويزحف إلى قمة تل صغير لينظر. وصل إلى أول الأشجار ومن الممكن ألا يكونوا قد رأوه، من أمامه.. كانت هناك طلقة مسدس أخرى.. ثم صمت. لم يستطع رؤية ومضة الضوء، فهو لم يكن مصوبًا تجاهه. تنقل سريعًا من جذع شجرة إلى أخرى.. يتوقف وينظر عن يمينه وعن يساره.. فى كل مكان. بدا صوت تنفسه مثل شهقات البكاء؛ عاليًا جدًا لدرجة لابد أن تفضح أمره. فكر فى الآخرين ـ السيدة البيضاء والرجل الطويل ـ ليمد نفسه بالشجاعة.

كان هذا المسدس أكثر ثقلاً من الذى اعتاد عليه، فالماسورة أطول، إنه مسدس جيد، لكنه لم يتمرن كثيرًا. كان يعرف أنه سيكون عليه الاقتراب ليحظى بفرصة. شق طريقه بالقرب من مصدر الرصاصة، كان هناك مرتفع من الصخور على يمينه والذى قطع التدفق الرائق للبحيرة، وفى الأمام وسط الأشجار لمح مبنى من نوع ما. اقترب قليلاً.. فرأى شخصين خارج ـ الرجل الذى قتل والده يختبئ خلف السيدة البيضاء.

"إنهم لا يعرفون أننى هنا." قال لنفسه لذلك فسوف يكون شجاعًا.

صوت "ستيوارت" يصيح بلغة هندية غريبة: "نصف رجل؟ ما كان هذا؟"

صمت.

"نصف رجل"؟ أجبنى –إذا كان باستطاعتك."

لا إجابة، تنقل "أليك" متقدمًا للأمام من شجرة إلى أخرى، حتى أصبح على بعد خمسين قدمًا، وجسده محمى وراء جذع شجرة صنوبر. رفع المسدس وحدد هدفه، تمنى لو كان أقرب لكنه لم يجرؤ على التحرك. صاح "ستيوارت" عاليًا وهو غير صبور، ولكن "نصف رجل" لم يجبه، لذلك أجاب "أليك" من مخبئه.. بلغة أبيه.

"لقد مات رجلك أيها القاتل."

تلفت "ستيوارت" بحدة باحثًا عنه، ثم حدث شيء: قامت السيدة بطعنه وانفصلت عنه؛ فأصدر "ستيوارت" عواء مثل الذئب، ثم أخذ مسدسه وصوبه على الهدف الوحيد الذى يراه ـ عليها. حبس "أليك" أنفاسه؛ لديه فرصة واحدة لإنقاذها وهما على هذا القرب، اعتصر الزناد؛ ثم كانت هناك ضربة قوية وسحابة من الدخان أحاطت بالماسورة.

طلقة واحدة.. طلقة واحدة فقط.

خطى للأمام.. بحذر تحسبًا لأن يكون "نصف رجل" مختبئًا فى مكان ما.. منتظرًا. بينما انقشع الدخان بدت الباحة أمام الكابينة فارغة، أعاد ملء المسدس وانتظر، ثم انتقل سريعًا إلى مأوى أقرب.

كان "ستيوارت" راقدًا فى الباحة.. وأطرافه مفرودة وقد طوح ذراعه فوق رأسه وكأنه يحاول الوصول لشىء يريده. لم يعد أحد جانبى وجهه موجودًا، نزل "أليك" على ركبتيه وأفرغ معدته، وكان هذا حيث وجده "باركر" والمرأة.

غمرنى شعور بالراحة لرؤية "باركر" خلف الكابينة حتى أننى ألقيت بذراعى حوله للحظة.. دون تفكير أو حذر. استجاب هو لذلك بأقل ضغط ممكن من جسده ـ ورغم أن وجهه لم يتغير ـ أصبح صوته أجش.

"هل أنت بخير؟"

أومأتُ أن نعم.

" "ستيوارت"...."

نظرت خلفى سريعًا، وذهب "باركر" إلى الركن واسترق النظر ثم خطى خارجًا من مخبئه.. لا خطر. تبعته.. لأرى جسدًا يرقد فى منتصف الباحة، إنه "ستيوارت" ـ تعرفت عليه من معطفه البنى اللون؛ لم يكن هناك شىء آخر لأتعرف عليه منه. وعلى بعد ياردات جثى فتى صغير على

الجليد وكأنه تمثال. كنت أعتقد أننى قد أصبت بالهلاوس، ثم أدركت أنه ابن "إليزابيث بيرد" الأكبر.

نظر لأعلى إلينا وقال كلمة واحدة: "دونالد".

وجدنا "مودى" على قيد الحياة.. لكنه يخبو، كان قد أصيب بطلقة فى المعدة وكان ينزف بشدة. قمت بتمزيق قطع من تنورتى لأوقف نزيف الجرح، وصنعت وسادة لرأسه، لكن لم يكن هناك الكثير الذى يمكننا فعله للرصاصة التى مازالت بداخله. جثوت بجانبه وأخذت أدلك يديه اللتين كانتا باردتين كالثلج.

"ستكون على ما يرام، يا سيد "مودى"، لقد نلنا منهم، نحن نعرف الحقيقة، لقد ضرب "ستيوارت" "نيبابانيز" فى ظهره ودفنه فى الغابة."

"سيدة "روس"... "

"هشش.. لا تقلق، سوف نعتنى بك."

"مسرور لأنك... على ما يرام."

ابتسم بضعف محاولا ـ حتى الآن ـ أن يكون مهذبًا.

" "دونالد".. ستكون بخير." حاولت أن أبتسم، ولكن كل ما استطعت التفكير فيه أنه أكبر سنًا من "فرانسيس" ببضع سنوات، ولم أكن قط لطيفة معه. "إن "باركر" يعد لك بعض الشاى، و... سوف نأخذك ونعود للمركز؛ سوف نعتنى بك.. سوف أعتنى بك.."

"لقد تغيرتِ." اتهمنى بذلك.. الشىء الذى افترضت أنه ليس مفاجئًا، حيث كان شعرى سائبًا وثائرًا، وعيناى تدمعان دون توقف، وقد تورمت جبهتى.

فجأة قبض على يدى بقوة مفاجئة. "أريدك أن تفعلى شيئًا من أجلى... "

"نعم؟"

"لقد اكتشفت شيئًا.. شيئًا غير عادى."

كانت أنفاسه تتلاحق بشدة، كانت تبدو عيناه دون نظارته رمادتين وسارحتين ومتحيرتين، لاحظت أن النظارة ترقد على الأرض بجانب قدمى فالتقطها.

"ها هى ذى.." حاولت وضعها على عينيه، لكنه حرك رأسه قليلاً، ودفعها بعيدًا. "أفضل.. بدونها."

"حسنًا.. لقد اكتشفت... ماذا؟"

"شىء غير عادى." ابتسم قليلاً.. بسعادة.

"ماذا؟ هل تقصد "ستيوارت" والفراء؟"

عبس وهو مندهش.. أصبح صوته أضعف وكأنه يتخلى عنه. "لا ليس هذا ما عنيت على الإطلاق، أنا.. أحب."

أخذت أنحنى بالقرب منه حتى أصبحت أذنى على بعد بوصة واحدة من فمه.

***

خبت الكلمات بعيدًا.

انحنت السيدة "روس" عليه وهى تهتز مثل قشة فى مهب الريح. لم يستطع "دونالد" تخطى كم أنها تغيرت.. فوجهها ـ رغم أن نصفه مختبئ خلف شعرها ـ ألطف وأكثر طيبة؛ وعيناها قد ضاقتا إلى لا شىء.

أوقف نفسه من أن يقول اسم "ماريا". ربما كان من الأفضل لها ألا تعرف، حتى لا تشعر بخسارتها.. بالندم.. باحتمالية تم إجهاضها .. تئن دومًا فى الجزء الخلفى من عقلها.

لكن الآن.. ينفتح نفق أمام "دونالد".. نفق طويل للغاية، وكأنك تنظر من النهاية الخاطئة لتليسكوب.. من خلالها كل شىء صغير جدًا ولكنه حاد جدًا.

نفق من السنين.

شاهد بدهشة: رأى خلال النفق الحياة التى كان يعيشها مع "ماريا": زواجهما وأطفالهما، مشاحناتهما واختلافاتهما البسيطة، جدالهما حول مستقبله المهنى، الانتقال إلى المدينة. لمسة جسدها.

الطريقة التى سيفرد بها التجعيدة الصغيرة فى جبهتها بإبهامه، كلامها الحاد له.. وابتسامتها.

ابتسم ردًا على ابتسامتها وقد تذكر كيف قامت بخلع شالها لتربط به جرحه فى مباراة "الرجبى"، أول يوم تقابلا فيه.. منذ كل هذه السنوات، دمه على شالها.. يربطهما.

مرت هذه الحياة أمامه مثل مجموعة من أوراق اللعب تفر فى يد موزع الأوراق، كل صورة تتألق وتكتمل بكل التفاصيل. يمكنه رؤية نفسه مع "ماريا" وكلاهما عجوز، ومازالا يفيضان بالطاقة.. يتجادلان.. يكتبان.. يقرءان بين السطور.. يتخذان القرارات.

لا يعرفان الندم.

لا تبدو كحياة سيئة على الإطلاق.

لن تعرف "ماريا نوكس" قط الحياة التى كان من الممكن أن تحظى بها، ولكن "دونالد" يعرف بها.. يعرف وهو سعيد بذلك.

نظرت السيدة "روس" إليه، كان وجهها وكأنه فى ضباب.. مشوش ورطب وجميل. كانت قريبة جدًا وبعيدة جدًا. بدت أنها كانت تسأله عن شىء ما، ولكن لسبب ما لم يتمكن من سماعها بعد الآن.

لكن كل شىء واضح.

وبذلك لم يقل "دونالد" اسم "ماريا"، أو أى شىء آخر على الإطلاق.

***

كان أكثر الأشياء سوءًا هو أخذ "أليك" لرؤية جثة أبيه، أصر على أن نأخذها معنا عودة إلى "هانوفر هاوس"، وكذلك جثة "دونالد" وتدفنهما

هناك، أما "ستيوارت" فقد قررنا أن ندفنه فى القبر الضحل الذى حفره لنفسه، ويدا هذا عادلاً بشكل كافٍ.

كان "نصف رجل" جُرح بشكل سيئ من جراء رصاصة "باركر"، لكن عندما عدنا إلى الكابينة كان قد رحل. كانت آثاره تقود للشمال فتتبعه "باركر" لفترة.. ثم عاد. كان قد أصيب فى العنق ولن يصمد طويلاً على الأرجح، فلم يكن هناك شمال البحيرة إلا الجليد والثلج.

"دعى الذئاب تتولى أمره." كان هذا ما قاله "باركر".

قمنا بلف "دونالد" و"تيبابانيز" بالفراء ـ وجد "أليك" جلد غزال لوالده، الشىء الذى بدا أنه ذو أهمية بالنسبة له. أما "دونالد" فلففناه فى فراء ثعلب وابن عرس؛ ناعم ودافئ. قام "باركر" بجمع حزمة من أكثر الفراء قيمة ووضعها على الزلاجة. إن "جاميه" لديه ابن؛ إذًا فهذا الفراء له، ولـ"إليزابيث" وأسرتها. أما بالنسبة للبقية، فأفترض أن "باركر" سيعود لإحضارهم فى يوم ما. لم أسأله وهو لم يقل.

قمنا بعمل كل هذا بحلول ظهيرة هذا اليوم.

والآن كنا نسير عائدين إلى "هانوفر هاوس"، الكلبان يجرّان الزلاجة والجثتان عليها، و"أليك" يمشى بجانبها. "باركر" يقود الكلبين وأنا أمشى وراءه. كنا نتتبع آثارنا الخاصة بشكل عكسى وآثار متتبعينا.. مطبوعة عميقًا فى الجليد. وجدت أننى قد تعلمت ـ دون أن أدرك ذلك ـ كيف أتعرف على الآثار. من وقت لآخر أرى أثرًا لأعرف أنه يخصنى، فأخطو عليه لأمحيه. إن هذه البلاد مليئة بمثل هذه العلامات؛ آثار رقيقة للرغبة البشرية، ولكن هذه الآثار ـ مثل هذا المسار المرير ـ هشة وقد أنهكها الشتاء، وعندما يهطل الجليد مرة أخرى، أو عندما يزول ويذوب فى الربيع، فإن كل آثار مسارنا سوف تختفى بلا رجعة.

رغم أن ثلاثة من تلك الآثار دامت أطول من الرجال الذين قاموا بتركها.

وجدت أننى ـ عندما خطر على أن أنظر ـ فقدت قطعة العظم، كانت لا تزال فى جيبى عندما غادرت "هانوفر هاوس" ولكنها قد فقدت. أخبرت "باركر" بذلك، فحرك كتفيه لا مباليًا، وقال إنها لو كانت مهمة فسوف يتم العثور عليها مرة أخرى. وبطريقة ما ـ رغم الأسف تجاه السيد "ستاروك" الذى بدا أنه يرغب بها بشدة ـ كنت سعيدة لأنه لم يعد معى شىء يريده أشخاص آخرون كثيراً، فلا نفع يأتى من مثل هـذه الأشياء.

كنت أفكر بالطبع، وأحلم عندما أنام ـ فى "باركر"، وعلى قدر ما أعلم: كان هو يفكر فى. ولكننا كنا معضلة (سؤال بلا جواب) والتى ليس لها حل. فبعد كل هذا الرعب لا يمكننا الاستمرار ـ ولأكون صريحة.. لم نكن لنستطيع قط.

ورغم ذلك، فكلما يتوقف لا أستطيع نزع عينى من على وجهه، ففكرة الافتراق عنه بمثابة فكرة فقد نور عينى، أفكر فى كل الأشياء التى قد كانها بالنسبة لى: غريب.. لاجئ.. مرشد.

الحب.. المغناطيس الذى انجذب إليه.. واجهتى الحقيقية.. أعود دومًا إليه.

سوف يأخذنى ويعود بى إلى "هيميلفانجر"، ثم يستمر هو ـ عائدًا من حيث جاء. لا تعرف إن كان متزوجًا.. أفترض أنه كذلك، فلم أسأله قط ولن أفعل الآن. لا أعرف عنه أى شىء تقريبًا، وهو ـ هو لا يعرف حتى اسمى الأول.

بعض الأشياء قد تجعلك تضحك.. إن شعرت بالرغبة فى الضحك، بعد تفكيرى هذا ببرهة استدار "باركر" إلىّ، وكان "أليك" على بُعد عدة خطوات أمامنا.

"سيدة "روس"؟"

ابتسمت له، فكما ذكرت.. لا يمكننى التحكم بذلك ـ ابتسم بطريقته المميزة.. والتى كانت مثل سكين فى قلبى لن أنزعه حتى لو طلب منى العالم كله ذلك.

"أنت لم تخبرينى باسمك الأول قط."

كان من حسن الحظ أن الرياح باردة جدًا، حيث إنها جمدت الدموع قبل أن تنهمر، هززت رأسى وابتسمت: "لقد استخدمته مرارًا وبشكل كافٍ."

نظر إلىّ حينها، بشدة حتى أننى - لهذه المرة فقط - انخفضت عيناى أولاً، كان لعينيه بريق رغم كل شىء.

أجبرت ذهنى لأن يعود إلى "فرانسيس" و"دوف ريفر" و"إنجوس"، القطع التى علىّ أن أعيد وضعها معًا.

أجبرت نفسى على الشعور بإعياء التفكير العميق.

وعند ذلك استدار "باركر" مرة أخرى للكلبين والزلاجة، واستمر فى السير وكذلك فعلت أنا.

فما الذى يستطيع كلانا فعله غير ذلك؟

صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت» للكاتبة الفرنسية «مارى نيمييه» ـ رواية ـ جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر» للكاتب الفرنسى «بيير بيجى» ـ رواية ـ جائزة «إنتر».

٣ ـ «موال البيات والنوم» للكاتب المصرى «خيرى شلبى» ـ رواية ـ جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» ـ سيرة ذاتية ـ جائزة «سلطان العويس».

٥ ـ «اللمس» للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله» ـ مسرح ـ جائزة «أبها».

٦ ـ «عاشوا فى حياتى» للكاتب المصرى «أنيس منصور» ـ سيرة ذاتية ـ «جائزة مبارك».

٧ ـ «قبلة الحياة» للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» ـ رواية ـ «جائزة التفوق».

٨ ـ «ليلة الحنة» للكاتبة المصرية «فتحية العسال» ـ مسرح ـ «جائزة التفوق».

٩ ـ العاشقات ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٠ ـ نوّة الكرم، للكاتبة المصرية نجوى شعبان، رواية، «جائزة الدولة التشجيعية».

١١- «الفسكونت المشطور» للكاتب الإيطالى - إيتالوكالڤينو.
رواية (عدد خاص) جائزة «فياريچيو».

١٢- القلعة البيضاء / للكاتب التركى أورهان باموق - رواية - «جائزة نوبل».

١٣ - أين تذهب طيور المحيط/ للكاتب المصرى إبراهيم عبدالمجيد ـ أدب رحلات - «جائزة التفوق».

١٤ - قرية ظالمة / للكاتب المصرى محمد كامل حسين - عدد خاص - «جائزة الدولة للأدب».

١٥ - الرجل البطىء / للكاتب الجنوب أفريقى ج . م . كوتسى - رواية - «جائزة نوبل».

١٦ - طحالب / للكاتبة الجنوب إفريقية مارى واطسون - متتالية قصصية / «جائزة كين» .

١٧ - شوشا / للكاتب البولندى اسحق باشيفيس سنجر/ رواية / «جائزة نوبل».

١٨ - شارع ميجل/ للكاتب من ترينداد/ ف. س. نايبول. رواية/ «جائزة نوبل».

١٩ - الحياة الجديدة - للكاتب التركى «أورهان باموق» - رواية ـ «جائزة نوبل».

٢٠ - عشر مسرحيات مختارة ـ للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» ـ مسرح ـ «جائزة نوبل».

٢١ - الآخر مثلى - للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» - رواية - «جائزة نوبل».

٢٢ - المستبعدون - للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» - رواية - «جائزة نوبل».

٢٣ ـ الأنثى كنوع ـ للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس» ـ قصص ـ «جائزة بن مالامود».

٢٤ ـ ثلاثة أيام عند أمى ـ للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» ـ رواية ـ «جائزة الجونكور».

٢٥ ـ اسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركى «أورهان باموق».. «جائزة نوبل».

٢٦ ـ الطوف الحجرى.. للكاتب البرتغالى «جوسيه سارامارجو».. رواية.. «جائزة نوبل».

٢٧ ـ نار وريبة.. للكاتبة الألمانية «بريچيتّه كروناور» مختارات جائزة «چورج بوشنر الكبرى».

٢٨ ـ الذكريات الصغيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. «جائزة نوبل».

٢٩ ـ إليزابيث كُسّتلّو.. للكاتب الجنوب إفريقى ج. م. كوتسى .. رواية.. «جائزة نوبل».

٣٠ ـ السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جيرترود.. للكاتبة الألمانية بريچيته كروناور .. قصص.. «جائزة چورج بوشنر الكبرى».

٣١ ـ حين تقطعت الأوصال .. للكاتبة المكسيكية أمبارو دابيللا.. قصص.. «جائزة بيربياروبيا».

٣٢- مارتش.. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس» رواية.. «جائزة البوليتزر».

٣٣ – اغتنم الفرصة.. للكاتب الكندى «سول بيللو».. رواية.. «جائزة نوبل للآداب».

٣٤ – البصيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو».. رواية.. «جائزة نوبل».

٣٥ - بريك لين.. للكاتبة الإنجليزية البنغالية.. «مونيكا على».. رواية.. «جائزة البوكر».

٣٦- بريد بغداد.. للكاتب التشيلى «خوسيه ميجيل باراس».. رواية.. «الجائزة الوطنية للآداب».

٣٧ - عن الجمال.. للكاتبة البريطانية «زادى سميث» رواية.. «جائزة الأورانج».

٣٨ - العار.. للكاتب الجنوب إفريقي ج. م. كوتسى.. رواية.. «جائزة نوبل».

٣٩ - قبلات سينمائية.. للكاتب الفرنسى إيريك فوتورينو.. رواية.. «جائزة الفيمينا».

٤٠ ـ هكذا كانت الوحدة.. للكاتب الإسبانى خوان خوسيه مياس.. رواية.. «جائزة نادال».

٤١ ـ الشلالات.. للكاتبة الأمريكية جويس كارول أوتس.. رواية.. «جائزة الفيمينا».

٤٢ ـ العشب يغنى.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. «جائزة نوبل».

٤٣ ـ العالم.. للكاتب الإسبانى خوان خوسيه مياس.. رواية.. «جائزة بلانيتا».

٤٤ ـ ميراث الخسارة.. للكاتبة الهندية كيران ديساى.. ر واية.. «جائزة البوكر».

٤٥ ـ الطفل الخامس.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. «جائزة نوبل».

٤٦ ـ بن يجوب العالم.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. «جائزة نوبل».

٤٧ ـ ثورة الأرض.. للكاتب البرتغالى جوزيه ساراماجو.. رواية.. «جائزة نوبل».

٤٨ ـ ملك أفغانستان لم يزوجنا.. للكاتبة الفرنسية انجريد توبوا.. رواية.. «جائزة الرواية الأولى فى فرنسا».

٤٩ ـ الكهف.. للكاتب البرتغالى جوزيه ساراماجو.. رواية.. «جائزة نوبل».

٥٠ ـ يوميات عام سئ.. للكاتب الجنوب إفريقى ج.م كوتسى.. رواية.. «جائزة نوبل».

٥١ ـ كازانوفا.. للكاتب الإنجليزى أندرو ميللر.. رواية.

٥٢ ـ إنقطاعات الموت.. للكاتب البرتغالى جوزيه ساراماجو.. رواية.. «جائزة نوبل».

٥٣ ـ العم الصغير.. للكاتب الألمانى شيركو فتّاح.. رواية.. «جائزة هيلده دومين لأدب فى المنفى».

٥٤ ـ اللعب مع النمر.. للكاتبة الانجليزية دوريس ليسنج.. مسرح.. «جائزة نوبل».

٥٥ ـ فى أرضٍ على الحدود.. للكاتب الألمانى شيركو فتّاح.. رواية.. «جائزة نظرات أدبية».

٥٦ ـ الإرهابية الطيبة.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. جائزة نوبل.

٥٧ ـ المسرحيات الكبرى جـ١.. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٨ ـ المسرحيات الكبرى جـ ٢.. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر.. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٩ ـ نصف شمس صفراء.. للكاتبة النيجيرية «تشيماماندا نجوزى آديتشى».. رواية.. جائزة الأورانج.

٦٠ ـ مذكرات جين سومرز «مذكرات جارة طيبة».. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. جائزة نوبل.

٦١ ـ مذكرات جين سومرز «إن العجوز استطاعت».. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. جائزة نوبل.

٦٢ ـ الحوت.. للكاتب الفرنسى جان مارى جوستاف لوكليزيو.. رواية..جائزة نوبل.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www. egyptianbook org.eg
E - mail : info@egyptian.org.eg